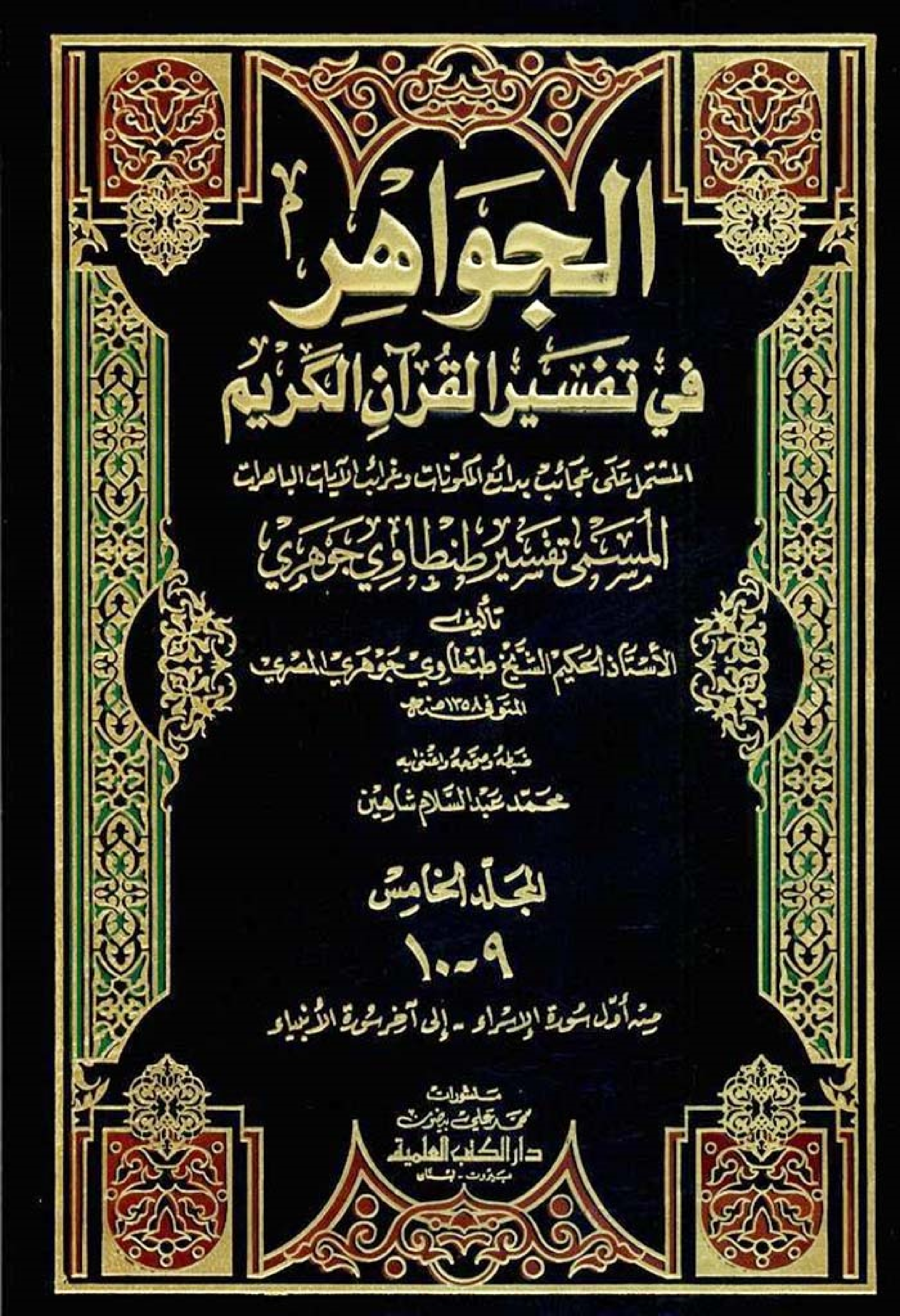


الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الخامس
٩ - ١٠
من أول سورة الإسراء - إلى آخر سورة الأنبياء
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين

الجزء العاشر

المحتوى:
من أول سورة مريم - إلى آخر سورة الأنبياء

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[ق: ٣٧]

سورة مريم، مكية، وهي ثمان وتسعون آية
وهي قسمان

القسم الأول: في قصص زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس عليهم الصلاة والسلام، وما يتبع ذلك من فضائل وجهالات بعض تابعيهم، من أول السورة إلى قوله: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾.

القسم الثاني: نتيجة إجابة دعواتهم من الجنة والنار، من قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ إلى آخر السورة.

القسم الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ

رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ
بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا
مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ
جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي
وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ
ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ
هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ
فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا
أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا
شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ
قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ
ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ
يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي
غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي
ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا
يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ
أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾
يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ
عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ
لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ
بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾
وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ
ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ

إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ تقدم الكلام على مثل هذا بإيضاح في أول « آل عمران » فارجع إليه إن شئت. هذا الذي أتلوه عليك ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ بدل من « عبده » الذي هو مفعول « رحمة » ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ دعاه دعاء سراً فإن الله يعلم السر والنجوى، وحينئذ يقال: ماذا قال؟ فأجاب الله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾ أي رقّ وضعف من الكبر وسقطت الأسنان وقد بلغ خمساً وسبعين أو ثمانين سنة ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ كأن الشيب نار اشتعل بها الشعر الذي كأنه الحطب ولشدتها وقوتها جعلت كأنها أحرقت نفس الرأس وقوله: « رأساً » تمييز محول عن الفاعل ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي: دعائي إياك. يقول زكريا: يا ربي إنك عودتني إجابة الدعاء فيما مضى والكريم إذا عوّد عادة لم يقطع رجاء من اعتادها.

كما يحكى أن أعرابياً قال لعظيم من عظماء العرب: أنا في ذمامك ولي عهد في رقبتك بحمايتي. قال له: لا أذكر ذلك. فقال: له إني يوماً طلبت الماء فأدليت دلوي في البئر فكان الحبل الذي فيه الدلو قصيراً فأطلته وأكملته من عندك. قال ذلك الرئيس: نعم حقك واجب علي ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى ﴾ أي: خفت فعل بني عمي وكانوا أشرار بني إسرائيل من بعد موتي أن لا يحسنوا خلافتي على أمتي، ويحصل الخلاف والشقاق والجهالة والكفر في بني إسرائيل ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ لا تلد ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ﴾ من عندك ﴿ وَلِيًّا ﴾ يلي أمر قومي بعدي فإن هذا الولي لا يطلب إلا من عندك فإن العادة تمنعه من شيخ مثلي امرأته عاقر فكيف يرجى إلا منك. ثم وصف الولي بصفتين فقال: ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ فتجمع يا الله له بين كونه حبراً مثلي وبين ملك آل يعقوب ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ براً تقيا. فأجابه الله قائلاً: ﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ أجاب دعاءه وتولى تسمية الولد بنفسه ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أي: لم يسمّ أحد بهذا الاسم قبله أو لم يشبهه أحد. قيل ذلك لأنه لم يعص الله ولم يهمّ بمعصية قط، وكان حصوراً لا يأتي النساء

وقد ولد بين شيخ وعجوز، فهذه الصفات لم تكن لأحد قبله. فلما أجاب الله دعاءه وعلم ذلك من الملائكة ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ ﴾ كيف ﴿ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ يريد بذلك استكشاف الطريق التي بها يلدان. أيحولان شابين، أم كيف الحال؟ ﴿ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ قحولاً في المفاصل ويبساً في العظام كالعود اليابس من أجل الكبر وأصل عتيّ: عتوّ فنقل فقلبت الضمة كسرة، والواو المشددة ياء ﴿ قَالَ ﴾ الملك المبشر له الأمر ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ يسير ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ ﴾ من قبل يحيى ﴿ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾. ولما كان هذا القول من باب الإيمان والنفس الإنسانية لا تطمئن ولا يكون عندها يقين إلا ببراهين تقنع العقل وتقوي الإيمان كما كان من إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾[البقرة: ٢٦٠]، ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴾ آية وقوع ذلك أنك لا تطيق التكلم ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سوى الخلق ما بك من خرس ولا بكم، وإنّما قلنا ثلاثة أيام للتصريح بها في سورة «آل عمران» ففي هذه الأيام الثلاثة ولياليها الخير والذكر والشكر، ولم يستطع أن يكلم الناس فكان ذلك لأمرين: الأول: أن يكون علامة له. والثاني: أن تتجه نفسه لله بالعبادة ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ ﴾ أي: من الموضع الذي كان يصلي فيه وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه حتى يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون، إذ خرج إليهم زكريا متغير اللون، وأنكروا ذلك عليه وقالوا له: ما لك؟ ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ ﴾ فأومأ ﴿ إِلَيۡهِمۡ ﴾ أو كتب لهم على الأرض ﴿ أَن سَبِّحُواْ ﴾ صلوا ﴿ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾ طرفي النهار، أي بأن سبحوا، أي بالتسبيح الخ. فلما ولد يحيى وصار ابن ثلاث سنين أعطاه الله فطنة وعقلاً به يقدر على فهم التوراة، فقال الله له: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ التوراة ﴿ بِقُوَّةٖ ﴾ بجدّ واجتهاد ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾ أي: آتيناه النبوة وهو ابن ثلاث سنين ﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي: رحمة وتعطفاً في قلبه على أبويه وغيرهما ﴿ وَزَكَوٰةٗ ﴾ وطهارة من الذنوب ﴿ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴾ بفعل الطاعات ويتجنب المعاصي ﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ وباراً بهما ﴿ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴾ متكبراً عاصياً ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ أي: له الأمان من الله يوم ولد فلا يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم، وأمان له يوم يموت من عذاب القبر ويوم يبعث حياً من عذاب جهنم والخزي، وأشد المواطن على الناس هذه الثلاثة، يخرج الطفل فيرى حالاً لم يعهدها ويموت فيرى عالماً غريباً فيبعث فيرى مشهداً غريباً.

فهذه هي الوحشة العظيمة، فالله أمن يحيى عليه السلام في هذه المواطن الثلاثة.

وهاهنا لطائف:

(١) في قوله: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾[الآية: ٣] إلى: ﴿ وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي ﴾[الآية: ٤-٥] إلى آخره.

(٢) وفي قوله: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ﴾[الآية: ١٠] الخ.

(٣) وفي قوله: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾[الآية: ٣٣] الخ.

(٤) وفي الملائكة.

اللطيفة الأولى: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ الخ

هذا الدعاء فيه ذكر أنه قد كان مجاب الدعوة، وعادة الله ألا يخيب من عوده الكرم، وفيه أنه دعاء للأمور العامة، أي أنه يدعو الله أن يرزقه بولد يكون نافعاً لبني إسرائيل، ففيه أمران: نشر العلم وحب الإنسانية، ولقد أذن الله أن يجيب دعاء من حبب إليه خدمة الإنسانية والله حقيق أن يجيبه، وفحوى هذه الآية أن العبد إذا كانت وجهته النفع العام كان الله له. فهكذا يكون من ألهمهم الله الخير من علماء هذه الأمة وتضرعوا إلى الله أن يكون هدى الأمة على يديهم وأن يجمعوا شملهم وهو يلهمهم الخير ويساعدهم وذلك مجرب، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩] فأكد أنه مع المحسنين، فحقيق بمن قرأ هذا التفسير أن يجرب ما جربت أنا بنفسي، أن من وجد في قلبه شوقاً إلى خدمة هذه الأمة ورقيها ولم شعثها وكان عنده استعداد فإن الله يساعده، وقد خلق خلقاً لذلك وهو يساعدهم، فإن وجدت في نفسك ميلاً فالمساعدة محققة، وإنّما قلت: وفيه استعداد لذلك أخذاً من قوله: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾[مريم: ٤]. فالرجل الموفق الذي استعد لإسعاف الناس يحس من نفسه بمعاونة الله في كل ضيق، وذلك هو الذي كثيراً ما يستجاب دعاؤه.

جوهرة

جاء في علم الأرواح كما هو في كتاب «الأرواح» الذي ألفته ما ملخصه: أن روحاً سئلت: أي الناس أحظى عندكم بعد الموت؟ فقالت: إن الله وملائكته يعاونون الرجل المتصف بصفتين: الأولى: حب العلم بحيث يرى في نفسه شوقاً إليه ويجد في طلبه. الثانية: أن يكون محباً للإنسانية مغرماً بمساعدة الناس جميعاً، فمتى وجد امرؤ بهذه الصفة توجه الله إليه بالعناية وكلأه بالحماية وجعله من خواصه وترادفت عليه العلوم فدخل أوديتها وشاهد محاسنها وليس لها آخر ولا تنفد. انتهى.

اللطيفة الثانية: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾

اعلم أن أصعب عضو يمكن المرء حفظه هو اللسان. ولقد اطلعت على كتاب قد ترجم من اللغة الإفرنجية إلى العربية في علم النفس يبين كيف يكون الكلام سبباً في قلة الرزق وضعف الحال، وأن إمساك الأفكار في القلب تكون أشبه بإمساك الماء في البحر والطعام في المخزن، وأن القوة الكهربائية فينا تحفظ بالسكوت وتذهب بالكلام. ومما جاء في هذا الكتاب أيضاً ما يأتي:

انظر في حياتك الماضية تجد أنك و(٩٩) من الناس ينتهزون الفرص لإخبار إخوانهم بما فعلوا لتظهر نباهتهم، وهذا تيار من المغناطيسية النفسية تضيع بلا فائدة، وبتكرارها تضعف كهربائية نفوسنا فلا نجذب من حولنا لأن نفوسنا فارغة، فالسكوت يحفظ تلك القوى فلا تحقق رغبة الإطراء، وسترى نتيجة ظاهرة في زمن قريب أمرين اثنين:

الأمر الأول: أنك بالسكوت عن الكلام إلا للضرورة ودوامك على ذلك تشعر في نفسك باحترام لنفسك وثقة بها وتعلو هيبتك ووقارك.

الثاني: أنك ترى إخوانك قد تغيروا تغيراً كلياً فازدادوا رغبة فيك لأن قوتك الباطنة جذبتهم لك وهم لا يشعرون.

ثم أخذ يكرر القول أنه إذا طرأ على قلبك طارئ أزعجك للكلام فكن أنت خيراً منه فاحبسه في نفسك، وهكذا من النصائح إلى أن قال: وثمرة هذا السكوت والصبر عن الكلام تظهر في ٥ أيام أو ٦، ولكن فوائدها الكبرى تظهر بالتدريج فتجد القلوب أحبتك وحوائجك تقضى.

وبالجملة هذه الخصلة ألف عليها وحدها هذا الكتاب كله، فاعجب كيف ظهر علم في العالم هذه الآية وحدها، مع أنهم في بلادهم «أمريكا» لا يعرفون الآية كما أن المسلمين لا يعلمون هذا العلم. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: ﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ الخ

إن المسلم يقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، فإذا كان يحيى قال السلام علي يوم أموت، السلام عليّ يوم أبعث حياً. فالمسلم يسلم على نفسه وعلى نبيه وعلى جميع الصالحين. المسلم يقول في الصلاة: إني سعيد ولا سعادة لي إلا بسعادة المجموع، فنبيي بأمان والمؤمنون في أمان وأنا في أمان. المسلم يذكر ذلك كله في كل صلاة وهذا يورث اطمئنان النفس بالتكرار، فإذا كان الناس كلهم في أمان وهو في أمان وقد ثبت في نفسه هذا واطمأنت وثبتت على ذلك، فإن الله يوم القيامة يسلم عليه، وهذا قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[يس:٥٨].

المسلم يقول: «التحيات لله والمباركات» الخ، ثم يسلم على نفسه وعلى نبيه وعلى الأمم كلها إذا كانوا صالحين، فسلام يحيى وسلام المؤمن سيان. وليس يتم هذا المعنى حق التمام إلا بمعرفة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، ولا معرفة لله إلا بمعرفة تربية العالمين تربية روحية وجسمية وهذا يستدعي جميع العلوم، ومتى درس نظام هذه الدنيا أدرك حقيقة رحمة الله، وأيقن أنه به رحيم لما يشاهد من رحمات في أقل الحشرات وما فوقها إلى الإنسان. انتهت اللطيفة الثالثة.

اللطيفة الرابعة

لعلك تقول أيها الذكي: إن العلوم اليوم ملأت الكرة الأرضية والكتب السماوية تذكر لنا ملائكة فماذا قال العلم الحديث في ذلك؟ إن الناس في الأرض طبيعيون والطبيعة لا ملائكة فيها، فأين هؤلاء الملائكة ونحن لم نرهم؟ وكيف جاؤوا لزكريا وكيف بشروه؟. أقول: اقرأ كلام الإمام الغزالي يخبرك أن الأرواح العالية وغير العالية تحيط بنا من كل جانب كما يحيط بنا الهواء، ولكن أجسامنا هذه تحجبهم عنا، فإذا متنا أصبحنا معهم ورأيناهم وحشرنا في درجاتنا التي تناسبنا، فإما مع الشياطين وإما مع الملائكة.

وإن أبيت إلا سماع علماء الطبيعة فهاك ما كتبته في كتاب «الأرواح» وهو خطبة للسير «أوليفر لودج» أكبر علماء الطبيعة ذكرت في مجلة المجلات الإنجليزية، وبمطالعتك لها تعرف أنها معجزة للقرآن إذ قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت:٤٧]، وعالم الملائكة أصبح اليوم هو وعالم الأرواح معروفاً كما عرفت الطبيعة، وهذه الخطبة سبقت في سورة «آل عمران» وملخصها أن الإنسان ليس أرفع الكائنات وله أعوان يساعدونه حوله وهو لا يراهم. وهناك أراض غير أرضنا وهناك عوالم لا نراها والأجرام الفلكية لا يعرف أكثرها، وهذا

العالم وراءه عالم، وهكذا عالم وراء عالم لا ندري منتهاها، وعمر الأرض قليل فيما مضى بالنسبة للكون، والجوهر الفرد له نظام كالنظام الشمسي، ونسبتنا إلى العوالم التي هي أعلى منا كنسبة النمل إلينا، ونحن لسنا أجساماً فقط، ورجال الدين والقديسون صادقون في أنهم ناجوا أرواحاً عالية وأنا كذلك ناجيتها. ومن الجهل أن نقول إننا نضمحل إذا اضمحل الجسد. أنا لا أشك في أن الموتى يناجوننا وإن أردت استيعابها فاقرأها في سورة «آل عمران» وهي هناك قد كتبت مجزأة جزأين في محلين مختلفين. انتهت اللطيفة الرابعة وبها انتهى القول في قصص زكريا عليه السلام.

قصص مريم وعيسى عليهما السلام

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في القرآن ﴿مَرۡيَمَ﴾ قصتها ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ اعتزلت، وهو بدل اشتمال من «مريم» ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ من قومها لتغتسل من الحيض ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ مكاناً في الدار مما يلي الشرق، ولهذا المعنى اتخذ النصارى المشرق قبلة ﴿فَٱتَّخَذَتۡ﴾ فضربت ﴿مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ ستراً، وبينما هي تغتسل وقد تجردت إذ عرض لها جبريل في صورة شاب أمرد وضيء الوجه سويّ الخلقة، وهذا قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ فلما رأته ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ وذلك لشدة عفافها ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ تتقي الله وتحتفل بالاستعاذة فإنك تتعظ بتعويذي فلا تتعرض لي ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذت به ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا﴾ أي: لأكون سبباً في هبته بالنفخ في قميصك ﴿زَكِيّٗا﴾ طاهراً من الذنوب كما أنك أنت طاهرة أو نامياً في الطهارة كلما زادت سنة ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ ولم يقربني زوج ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ فاجرة فالولد إما أن يكون من سفاح أو نكاح وأنا بعيدة عنهما ﴿قَالَ﴾ جبريل هكذا قال ربك ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ أي: خلق ولدك بلا أب ﴿وَ﴾ نفعل ذلك ﴿لِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أي: علامة لهم ودلالة على قدرتنا ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ ونعمة لمن تبعه على دينه حتى ينسخ ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ محكوماً مفروغاً منه لا يرد ولا يبدل ﴿فَحَمَلَتۡهُ﴾ فلما حملته ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ بعيداً عن أهلها، أي: أقصى الوادي وهو بيت لحم لتفرّ من أهلها وقومها ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ فألجأها المخاض وهو وجع الولادة ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، والجذع ما بين العرق والغصن وكانت نخلة لا رأس لها يابسة ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ فتمنت الموت استحياء من الناس وخوفاً من الفضيحة ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي: شيئاً حقيراً متروكاً لم يذكر، أو تمنت أنها لم تخلق ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ عيسى ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ أي: لا تحزني ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ سيداً وهو ابنك عيسى أو جدولاً يجري فيه الماء ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي وأميليه إليك ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ وهو ما بلغ الغاية وجاء أوان اجتنائه ﴿فَكُلِي﴾ من الرطب ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ بولدك عيسى، يقال: أقر الله عينك، أي: صادف فؤادك ما يرضيك فتقر عينك عن النظر إلى غيره، أي فتسكن ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ أي: فإن ترى آدمياً يسألك عن ولدك ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ صمتاً كما صمت يحيى في الأيام الثلاثة ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ بعد أن أخبرتكم بنذري ولست أكلم إلاّ الملائكة ولا أناجي إلاّ ربي

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ أي : أقبلت بعيسى بعدما طهرت من النفاس حاملة إياه ، فلما رأوه معها ﴿ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ بديعاً عجيباً مأخوذ من الفري وهو القطع ، لأنه قطع العادة أو عظيماً منكراً ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ يا شبيهة هارون ، وكان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل شبهت به في صلاحها وعفافها كما جاء في مسلم عن المغيرة بن شعبة ، قال : لما قدمت من خراسان سألوني فقالوا لي : إنكم تقرؤون ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك ، فقال : إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين فيهم ، انتهى الحديث .

ويقال : إن هارون المذكور الذي شبهوها به في زمانها لما مات شيع جنازته أربعون ألفاً من بني إسرائيل كلهم يسمى هارون سوى سائر الناس ؛ وهذا وإن كان مبالغة دال على شبه الحقيقة ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ أي : ما كان أبوك زانياً ولا أمك زانية ، فمن أين لك هذه الخصلة الفاحشة ؟ ومن أين لك هذه الفاحشة وهي ليست في أبويك حتى أتيت بهذا الولد ؟ ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي : إلى عيسى أن كلموه ليجيبكم ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ولم نعهد صبياً في المهد يكلمه الناس ، فلما سمع عيسى كلامهم أقبل عليهم وترك الرضاع واتكأ على يساره وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ والابتداء بهذه الجملة لقطع ألسنة الذين قالوا بربوبيته ، ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أي : سيؤتيني الإنجيل ويجعلني نبياً ويجعلني معلماً للخير نفاعاً للناس حيثما كنت ؛ ولما كان هذا محققاً عبر عنه بالماضي الذي هو أمر تمّ وانقضى ، وانتفاع الناس به في كل مكان حل فيه أشبه بالشمس أينما أشرقت عم نورها ، وهذا شأن العلم والعلماء يضيؤون على الناس بقدر ما أعطاهم الله من العلم ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ زكاة المال إن ملكته أو تطهير النفس من الرذائل ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾ وباراً بها ، وهذا عطف على « مباركاً » ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ عاصياً لربي متكبراً على الخلق فأنا خاضع متواضع ويقال : الشقي هو الذي يذنب ولا يتوب ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾ أي : السلامة عليّ عند ولادتي من طعن الشيطان ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ أي : عند الموت من عذاب القبر ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ من أهوال يوم القيامة . فلما كلمهم عيسى بذلك علموا براءة مريم ، ثم سكت عيسى ولم يتكلم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الأطفال . ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ أي : الذي تقدم وصفه هو عيسى ابن مريم لا ما تصفه النصارى الذين وصفوه بأوصاف لا تتفق مع الحق ، هو ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ الذي لا شك فيه ﴿ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي : يشكون فيه ويختلفون . فمن قائل : هو ابن الله ، ومن قائل : هو الله ، ومن قائل : هو ثالث ثلاثة . ثم نزه الله نفسه عن الولد الذي أفادته هذه القصة فقال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ أي : ما كان من صفاته ولا مما ينبغي له اتخاذ الولد ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ أي : إذا أراد أن يحدث أمراً ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ هذا تبكيت لهم لأمرين : الأول : أنه لو أراد الولد فعلاً لخلقه بقول : ﴿ كُن ﴾ فلا حمل ولا ولادة . وثانياً : أن الولد ليكون حافظاً لأبيه يعوله وهو حي وليكون ذكراً له بعد موته .

ومعلوم أن الله لا يحتاج لشيء من ذلك، فإن العالم خاضع له لا يحتاج إلى ولد ينفعه وهو حي لا يموت أبداً ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ هذا من كلام عيسى. ولقد مر الكلام عليها في سورة «آل عمران» فارجع إليه هناك. ولقد تبين فيها أن هذه نفسها معجزة علمية لأنها جمعت ما جاء به المرسلون، وبينا هناك ديانات مختلفة عجيبة تسر الناظرين مصداقاً لهذه الجملة فتقرأ شذرات من دين البوذيين ودين قدماء المصريين وغيرهم، فهذه الجملة رمز لجميع الديانات، ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ الذي أخبرتكم به أن الله أمرني به هو الصراط المستقيم الذي يوصل إلى النعيم المقيم ولقاء الله تعالى، ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ أي: اختلفت أحزاب النصارى فيه حين رفع إلى السماء إلى ثلاثة فرق: يعقوبية: يتبعون عالماً نصرانياً يسمى يعقوب، قال لهم: هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء. ونسطورية: اتبعوا رجلاً يسمى نسطورا عالماً منهم، قال لهم: كان ابن الله أظهره ما شاء أن يظهره ثم رفعه إليه. والحزب الثالث قال: إنه كان عبد الله مخلوقاً، وهؤلاء هم الملكانية. ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي: من شهود يوم عظيم لشدة هوله وحسابه وعقابه وهو يوم القيامة، فإن الأيدي والأرجل والألسنة تشهد على أصحابها ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ تعجب، أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم سمع ولا بصر ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: لكن هؤلاء الظالمون في هذه الدنيا في خطأ بين استدراك على أنهم يسمعون ويبصرون يوم القيامة ويقفون على الحقيقة وهي لا تنفعهم، فربما يتوهم أنهم عارفون في الدنيا فاستدرك ﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾ أي: خوف يا محمد الناس ومنهم أهل مكة ﴿ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ يوم يتحسر الناس، فالمسيء على إساءته والمحسن على أنه لماذا يزد في إحسانه، وهو يوم القيامة ﴿ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ إذ فرغ من الحساب وقوله: «إذ» هو بدل من «اليوم»، وقوله: ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ جملتان حاليتان من فاعل «أنذرهم» أي: أنذرهم حال كونهم غافلين غير مؤمنين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي: نميت سكان الأرض في الشرق والغرب جميعاً ولا يبقى إلا نحن ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ فنجزيهم بأعمالهم.

أسئلة وردت على المؤلف
وأجوبتها فيها أمور جميلة وأسرار تسر المفكرين
وأزهار وثمار تشرح صدور الناظرين

لما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد المتعلمين تعليماً عالياً وأتم علومه في أوروبا، فلما قرأ هذا قال: الأمم اليوم كلها قد ارتقت وكيف يبقى المسلمون في هذه الأحاديث التي تنافي الطبيعة ولا تستقر معها بحال، وفي ظني أن مثلك حين يكتب هذا يحصل له شك فيه، وكيف تعاد وتكرر تلك الأحوال القديمة على مدة الزمان وما فائدتها؟ والناس اليوم اخترعوا المدافع والطيارات وأظهروا أعاجيب ونحن نرجع إلى الوراء، فإن كان عندك علم فقله وإلا فالأمر مبهم ملتبس، والمتعلمون جميعاً في حيرة من أمرهم لا مرشد لهم ولا أمين. فقلت له: ماذا الذي انبهم عليك؟ لعلك شككت في ظهور جبريل لمريم وأنه كلمها، وشككت في أن عيسى ولد من غير أب، ولم تر لذكر هذه فائدة في الديانات

ورابك ذكر هذه الأمور الخارقة للعادة، وأنه لا فائدة منها للناس، بل إنها ضارة لما تعود الناس أن يصدقوا كل ما خالف العقل، وعليه تصبح العقول مملوءة لما لا حقيقة له، وتصدق كل ما يخالف المعقول. قال: حقاً كل ذلك في نفسي. فقلت: أما ظهور الملائكة فأمر أصبح سهلاً لأنه إذا ثبت ظهور الأرواح الشريرة والفاضلة لقوم ليسوا أنبياء فظهور الملائكة من باب أولى، فلأنقل لك بعض ما كتبته في كتاب «الأرواح» وهاهو ذا:

المجلس السابع في مناجاة الأرواح وانتقامها بالوسوسة وعطفها على الباكين عليها وما شابه ذلك من الحكم والعجائب

قال شير محمد: حدثني من هذا؟ قلت: قال في الكتاب المذكور صفحة ٨٣ ما يأتي: قد يحسن بنا أن نذكر هاهنا شرح الأرواح للوساطة البصرية تعريباً عن كتاب «الوسطاء» للمعلم «آلان كاردك».

س ـ أمن الممكن أن تتراءى الأرواح لأحد؟.

ج ـ نعم وخاصة وقت النوم والبعض يرونها وقت اليقظة وهذا نادر.

س ـ هل الأرواح التي تتراءى تختص بطبقة واحدة؟.

ج ـ كلا. بل يمكن للروح من أية طبقة كان أن يتراءى للعيان بشرط أن يشاء ذلك ويؤذن له فيه.

س ـ ما غاية الروح من ظهوره؟.

ج ـ تكون هذه الغاية حميدة أو رديئة وفقاً لطبيعة الروح المتجلي.

س ـ ماذا يقصد الروح الشرير بظهوره لأحد؟.

ج ـ يقصد إزعاجه أو الانتقام منه.

س ـ وماذا يقصد الروح الصالح بتجليه؟.

ج ـ يقصد تعزية من يبكي على فقده وإثبات وجوده وبذل النصيحة لمن يحبه أو طلب الإسعاف لنفسه.

س ـ لم لا تكون رؤية الأرواح عامة مستمرة؟ ألا تكون هذه أقوى وسيلة لإقناع المنكرين؟.

ج ـ إذا كانت الأرواح تحيط بالإنسان من كل جهة فرؤيتها تكون باعثاً لتشويش أفكاره وعرقلته في أعماله وعائقاً لحريته. وأما المنكرون فلديهم دلائل أخرى واضحة تقنعهم إذا أرادوا ونزعوا عنهم الكبرياء، لستم تجهلون أن كثيراً من هؤلاء رأوا بأعينهم ولم يصدقوا بل نسبوا كل ذلك إلى الوهم، فلا تقلقوا لهم سوف يذعنون للحقيقة آجلاً أو عاجلاً.

س ـ هل رؤية الأرواح في العالم العلوي أكثر وقوعاً منها هنا؟.

ج ـ كلما ارتقى الإنسان في الحياة الروحية ازداد سهولة في مناجاة الأرواح. وأما في عالمكم السفلي فكثافة الجسد هي العائق الأكبر الذي يحول دون معاينة سكان عالم الغيب.

س ـ هل من الصواب أن يرتاع الإنسان من ظهور الروح له؟.

ج ـ على العاقل أن يلاحظ أن الروح أياً كان أقلّ خطراً من الحي. وأنه إذا قصد أذية أحد لا يحتاج إلى الظهور له بل يكتفي بما يلقى إلى فكره من الإلهامات الرديئة، ليجعله يحيد عن الخير ويتبع الشر.

س ـ هل يمكن لمن تراءى له روح أن يطارحه الحديث؟.

ج ـ نعم بل هذا يجب عمله، أي أنه يسأله من هو. وماذا يريد. وكيف تمكن مساعدته. فإن كان الروح تعباً متألماً يرتاح ببوادي هذه المحبة، وإن كان صالحاً يأتي بنصائح مفيدة.

س ـ كيف يمكن للروح أن يجيب؟.

ج ـ يجيب سائله إما بالطريقة اللفظية كالحي وإما بطريقة الانتقال الفكري.

س ـ هل للأرواح التي تتراءى بالأجنحة أجنحة حقيقية أم هذه صورة رمزية؟.

ج ـ ليس للأرواح أجنحة تفتقر إليها لأنها تستطيع الانتقال أينما أرادت. فقط تظهر بالزي الذي يؤثر بالأكثر في الشخص المتجلية هي له فيظهر بعضها بزيها الاعتيادي وغيرها بالحلل البيضاء والآخرة بالأجنحة كرمز على الطبقة الروحية المنتمين هم إليها.

س ـ هل الأرواح التي تتراءى لنا في الحلم هي أرواح الأشخاص أنفسهم المتجلية هي بهيئتهم؟.

ج ـ كثيراً ما يكونون هم أنفسهم.

س ـ إن الفكر نوع من الاستحضار به تجتذب الأرواح إلينا، فكيف أن من نفكر فيهم بالأكثر ونتلهف إلى لقياهم لا يتراءون لنا في الحلم في حين أن أناساً لا نفكر فيهم يتراءون لنا كثيراً؟.

ج ـ ليس للأرواح إمكان مطلق للظهور لمن تشاء حتى ولا في الحلم، فإن موانع عديدة غير منوطة بإرادتها تحول دون ذلك. وأما الأرواح التي تتراءى في الحلم وأنتم غير مفكرين فيها فلا يبعد أن يكون لها بعض التعلق بكم فضلاً عن أنه ليس لكم أقل إلمام بعلاقات عالم الغيب ولا بكل الأحياء والمعارف الذين لا فكر لكم فيهم وقت اليقظة.

س ـ لماذا تحدث الرؤيا غالباً وقت المرض؟.

ج ـ لأن العقد المادية الرابطة النفس بالجسد تتراخى وقت المرض فتزداد حرية الروح بضعف الجسد ويسهل عليها إذ ذاك مناجاة الأرواح.

س ـ لماذا تحدث الرؤيا غالباً وقت الليل؟.

ج ـ للسبب ذاته الذي من أجله ترون وقت الليل من النجوم ما لا ترونه وقت النهار، أي أن قوة النور تمحو الظهور الخفيف، ولكن لا تتوهموا أن لليل تأثيراً في الرؤى، اسألوا الوسطاء الناظرين يخبروكم عما رأوا وقت النهار.

س ـ أيرى الوسيط الروح وهو في حالته الطبيعية أم في حال الانخطاف؟.

ج ـ كثيراً ما يراه وهو على حالته الطبيعية إلا أنه يراه غالباً وهو في حالة قريبة من الانخطاف تدعى بالنظر الروحي.

س ـ كيف يجعل الروح نفسه منظراً؟.

ج ـ بما يأتيه من التغيرات في جسمه الروحاني فيظهر على أثرها بالهيئة البشرية في الحلم أو في اليقظة في النور أو في الظلمة.

س ـ هل يصح القول بأن الروح يجعل نفسه منظوراً بتكثيفه جسمه الروحاني؟.

ج ـ ليست للتكثيف دخل هاهنا بل يقال ذلك بوجه التشبيه، فإن الروح بقوة السائل الحيوي الذي يشربه من الوسيط يجعل جسمه الروحاني على حالة تمكن الناظر من رؤيته.

س ـ هل لكل الناس قدرة على رؤية الأرواح؟.

ج ـ في الحلم نعم ولكن ليس في اليقظة.

س ـ بماذا تقوم خاصية الوساطة البصرية؟.

ج ـ تقوم بما للوسيط من السهولة لمزج سوائله بسوائل الروح، فلا يكفي للروح أن يرغب في الظهور حتى يظهر، بل يفتقر إلى أن يجد في الشخص المتجلي هو له القابلية لذلك. أما الوساطة البصرية المستمرة فهي حالة استثنائية لا يملكها إلا من ندر.

س ـ هل يمكن للروح أن تتجلى بهيئة مخالفة للهيئة البشرية؟.

ج ـ الهيئة البشرية هي الهيئة الأصلية فيستطيع أن يغير ظواهرها، ولكن القالب لا يتغير.

س ـ ألا تظهر الأرواح أحياناً بهيئة شهب؟.

ج ـ إنها تنشئ شهباً وأنواراً لإثبات وجودها، ولكن ليست الأنوار والشهب هي الأرواح بل لعلها صدور من الجسم الروحاني الذي لا يظهر بكماله إلا في الرؤى البصرية.

س ـ ما قولك في النيران الغازية المتصاعدة من المقابر والأماكن المنتنة. هل هي دليل على حضور أنفس الأموات؟.

ج ـ إعزاؤها إلى أنفس الأموات ضرب من الجهل والغباوة، وعلتها الطبيعية أصبحت اليوم أشهر من نار على علم.

س ـ هل يمكن للأرواح أن تتراءى بهيئة حيوانية؟.

ج ـ قد يمكن حدوث ذلك ولا يأتي هذا العمل إلا الأرواح السفلية فيكون ظهورها بهذه الهيئة مؤقتاً لأنه ليس من المعقول أن الروح تريد أن تحبس في جسم حيواني.

ولما أتممت هذا المقال، قال شير محمد: ما أوفق هذا لما نص عليه أكابر علماء أمتنا، فإنهم يقولون: إنها لا ترى إلا إذا تشكلت، فأما هي على حالها فلا تظهر. والحق أن هذا العلم الحديث شرح للدين الإسلامي، ثم قلت:

الحديث السابع من كتاب المذهب الروحاني

روت الجمعية العلمية الإنكليزية الملقبة بـ «شركة المباحث الروحية» في كتابها «أشباح الأحياء» الحادثة الآتية وهاهي ذه:

إن كاهناً حدث السن له من العمر تسع عشرة سنة إذ كان مقيماً بـ «أنفركاكسد» من جزائر «زيلندة» الجديدة، اتفق يوماً مع أصحاب له على الذهاب إلى جزيرة «روابوك» والمكث بها يوماً أو يومين قصداً للصيد والقنص. وأجمعوا رأيهم على أن ينهضوا الساعة الرابعة صباحاً ليغتنموا فرصة مد البحر ويقطعوا الصخرة، ووعدوا الكاهن أن يأتوا لإيقاظه في الساعة المعينة، فذهب هذا إلى الرقاد وهو مصمم النية على مرافقتهم. وبينما هو يصعد في سلم غرفته سمع صوتاً يقول له: لا تذهبن غداً مع هؤلاء. فبهت الكاهن من هذا التنبيه إذ لم يكن حوله أحد. وسأل المتكلم السري: لماذا؟ أجابه الصوت وكان كأنه صادر من داخل غرفته: لا ينبغي أن تذهب معهم. وإذ كرر عليه السؤال مرة ثانية أتاه الجواب ذاته. فقال الكاهن: كيف أتخلص من لجاجتهم وقتما يأتون لإيقاظي. أجابه الصوت

السري بصراحة : اقفل بابك بالمفتاح قفلاً محكماً . فتردد الكاهن برهة ثم أخذت تحدثه النفس بحلول خطر مبين فتزعزع عزمه ورضخ لصوت التنبيه السري ، فأقفل الباب محكماً ورقد في سريره ، وحضر رفقاؤه الساعة الثالثة من الصباح وقرعوا باب غرفته بعنف ، وإذا لم يحر الكاهن جواباً انصرفوا عنه وهم يقرعونه بلواذع اللسان ، وفي الساعة التاسعة إذ قام الكاهن ليتناول الطعام صباحاً أخبره صاحب الفندق أن المركب القاصدة جزيرة « روابوك » التطم بالصخر فانكسر وغرق كل من فيه ، وأن بعضاً من جثث الغرقى قذفها البحر على الشاطئ . قال صاحب الرواية : لو أني خالفت صوت التنبيه ورافقت أصحابي إلى جزيرة الصيد والقنص لما كنت اليوم من عداد الأحياء .

وروى العلامة « مايرس » الحادث الآتي تعريبه :

دخلت السيدة « كابدلي » غرفة الاستحمام ، وبعد أن خلعت ثيابها سمعت صوتاً يقول لها جهاراً : انزعي مزلاج الباب ، فبهتت وفتشت في كل ناحية فلم تجد مصدراً للصوت ، فظنت أن ما سمعته وهم ، وعادت إلى المغطس فما كادت تستقر فيه حتى عاودها الصوت يصيح ثلاثاً وبلهجة الحدّة : انزعي مزلاج الباب . فارتاعت السيدة ونهضت من مغطسها ولبت أمر الصوت ، ولما عادت إلى المغتسل أغمي عليها وسقطت تحت الماء . وإنّما لحسن حظها كانت قد قبضت على حبل جرس قبل الإغماء ، فسمعته الخادمة وهرعت إلى إنقاذها من تحت الماء . فلو كان الباب مزلجاً لماتت قبل أن تتمكن الخادمة من نجاتها . انتهى ما نقلته من كتاب « الأرواح » .

فلما سمع صاحبي ذلك ، قال : أما الآن فإني لا أنكر ظهور الملائكة ، ولكني أقول : ما فائدة قصص عيسى وكيف يشاع بين الناس ما خالف العلوم المعهودة وفيه ما فيه من الضرر ؟ . فقلت : اعلم أن هذه القصة العيسوية منتشرة بين أمم النصارى والمسلمين ، وهؤلاء يبلغون ٧٠٠ مليون فهم أكثر من نصف الكرة الأرضية وهم بها جميعاً مؤمنون . وإني أيها الذكي أسألك : هل تبيح للمسيحيين ما لا تبيحه لنا ؟ . وهل ترى أننا مخرّفون وأنت كنت بين قوم في أوروبا لا يقولون إنه تخريف . قال : إن الطبقة الراقية تقول ذلك ، ولكن لا يعلنون آراءهم وبعضهم أعلنها . قلت : ليكن ذلك ، ولكن هل ترى أن الله يدع أمراً ضاراً بالناس عائشاً آلاف السنين بينهم ولا يزيله ؟ فسكت . قلت : إنك لم تكتف بهذا القول . قال : لا . قلت : إذن أشرح الموضح شرحاً بقدر الإمكان فأقول :

اعلم أن النوع الإنساني يخلق مغرماً في أوّل حياته بالأمور التي توسع الخيال ، فاضطر البشر جميعاً في الشرق والغرب أن يؤلفوا كتباً خيالية مقصدها الخيال وتوسعته ، حتى إنهم جعلوا للعفاريت صوراً ومثلوها للناس وذكروا لهم الأمور المستحيلة وواجهوهم بها . وكلما وجدوا أمراً غريباً أظهروه للناس ؛ فالأمور المستحيلة والأمور الواقعة الغريبة هي التي تفتح خيال الناس وتجعلهم يسمعون ما يلقى إليهم ، فينتج لهما أمران : خرافات وحوادث غريبة .

الكهرباء والقصص

وما مثل الناس وعقولهم في أوّل حياتهم إلا كمثل أجسام الطبيعة فإنها قسمان : قسم تهيجه الكهرباثية بسرعة ، ويقال لها أجسام موصلة جيدة للكهربائية ، كالمعادن من الحديد والنحاس والرصاص ، وأجسام لا تتهيج بسرعة ولا توصل الكهربائية كالخشب ، ويقال لها أجسام موصلة رديئة

للكهربائية . فهكذا عقولنا ، فمنها سريعة لقبول العلم والحبّ له . ومنها بطيئة القبول لا تحبّ إلا الأمور المادّية فهي كالخشب ، والأولى كالذهب ؛ فما مثل هذه القصص إلا كمثل الكهرباء يؤلفها العلماء بصورة تبهر النشء وتفتح الخيال وتجعل الطفل والجاهل متأثرين بما فيها لغرابتها وعجبها ، كحوادث الزلزلة وحوادث الحروب الكبرى وأحاديث العظماء النابغين الذين يندر وجودهم ، وهكذا أحاديث الخرافات وهذا أمر لم تتركه أمة من الأمم . فالمتوحشون والمتمدينون جميعاً على هذا المنوال . وترى دور التمثيل جميعها فيها الحكايات التي تجمع الفكاهات والأخبار العجيبة التي فيها المفاجآت الغريبة .

القصص وصدقها وكذبها والأحلام

وما مثل الحكايات الغريبة في هذا العالم شرقاً وغرباً إلا كمثل الأحلام يكذب الآلاف منها ويصدق عشرات وآحاد . هكذا التآليف التي ألفها الناس في الخرافات معلوم للخاص والعام أنها خرافات ، ولكن فائدتها توسعة خيال الأطفال ، وقد دخلها أوهام وأكاذيب ستصقلها العلوم الطبيعية والبراهين المنطقية . وأما القليل الذي هو صدق فهو ما جاء في قصص مريم وعيسى وزكريا . فهذه وأمثالها كما في قصة أهل الكهف والخضر وأضرابها فهذه من القليل الذي هو صادق ، والصدق والكذب في هذا المقام في غير الكتب السماوية لا قيمة له ، لأن كل رواية أو قصة خيالية هي في الحقيقة صادقة من حيث نتائجها إذا وضعت لتقرير خلق أو إظهار معنى شريف ، وقد وضح أيما وضوح في كتاب « أميل القرن التاسع عشر » كما تقدم في مواضع أخرى من هذا التفسير ، وجهله الشرقيون مع أنه مترجم باللغة العربية ، فالشاب منكم يذهب إلى أوروبا ويرجع لا يحمل في قلبه إلا الضغينة على قومه وعلى دينه وهو جاهل بأطوار أوروبا وبعلومها ، ولو أنك قرأت هذا الكتاب وأمثاله لعرفت الحقيقة ، ولعرفت أن كتب الخرافات نفسها جعلت لفتح الأذهان فما بالك بالحكايات الغريبة التي وقعت فعلاً كمسألة « نابليون » وكالزلازل وكالحرب الكبرى وكالغازات الخانقة وأمثالها . فهذه غرائب لم تكن معروفة من قبل فتجعل الطالب مشتاقاً لسماعها كما يشتاق للخرافات .

مفاتيح العلم

إن النفوس الإنسانية كما قلنا منقسمة إلى قسمين : قسم ذكي وقسم بليد ، والقسمان معاً يحبون الحكايات الخرافية والحكايات الصادقة إذا كانت غريبة . وقلنا : إن قصص مريم وعيسى وأمثالهما من القسم الثاني ، ولذلك عم نصف المسكونة . فأمثال هذا في القرآن وفي غيره يتعجب منه الأطفال ، والعجب أول حب العلم وهذا العجب هو الامتحان . فكل طالب تحرك العجب فيه أكثر عند سماع الغرائب ، فهو إلى العلم أقبل ، وكل طالب ظهرت عليه علامات الكسل أو عدم المبالاة عند سماع المستغربات فهو عن العلم بمعزل ، ومثل الأولين كالمعادن فإنها موصلة جيدة للحرارة والكهرباء ، ومثال الآخرين كالخشب الذي هو موصل رديء كما تقدم .

وكأنّما هذه الحكايات عند الأمم مفاتيح العلوم تقرأ لتفتح أذهان الجهال والصبيان ، حتى إذا بلغوا أشدهم قرؤوا علوم الطبيعة فصقلت عقولهم وأيقظتهم وعرّفتهم الحقائق . فبالأول يقوى الخيال وبالثاني يقوى العقل . فأما تقوية العقل والخيال نائم فإنه يكون أشبه بالغازي بلا فرس . فقال صاحبي : لقد أجدت في التعبير ولكني لا أوافقك على ما تقول .

هذه قصة مريم وعيسى وزكريا والخضر مع موسى وأهل الكهف، فهؤلاء كلهم قد ذكروا متتابعين ولم نر علوماً طبيعية، وأما أنت فيظهر أنك تريد أن تصف علم الطبيعة بكل شيء حتى قصص الأنبياء. ويا ليت شعري أيّ مناسبة بين مسألة عيسى وأنه ولد من بكر بعلوم الطبيعة؟ أي أن الطالب يقرؤها بعدها، ولو كان الله أراد ذلك لقال: إذا قرأتم هذه القصص فاقرؤوا علوم الطبيعيات. نحن سلمنا لك أن القصص الغريبة التي وقعت فعلاً والقصص الخرافية المستغربة تفتح العقول، وسلمنا أن قصص القرآن والكتب السماوية في مثل هذا من الغرائب الواقعة فعلاً، ولكن لا نسلم أن القرآن يقول: اقرؤوا الطبيعة إذا كبرتم أو إذا عقلتم أو إذا تعلمتم، فمن أين نأخذ هذا المقال؟.

فقلت يا رعاك الله: اصغ لما أقول. تأمل في السور السابقة من «الحجر» إلى «مريم». ألم تر إلى سورة «الحجر» كيف ذكر فيها ما خلقه على الأرض مبتدئاً من أدنى إلى أعلى كما فعله علماء مذهب النشوء والارتقاء شرقاً وغرباً وهي سلسلة المواليد، ثم ذكرت في سورة «النحل» بعكس ما ذكرت في «الحجر»، ثم ذكرها مرة ثالثة في «النحل» أيضاً بحيث جعل الإنسان مذكوراً في وسط السلسلة. وفي المرتين الأوليين مرة في أولها ومرة في آخرها. قال: بلى قد عرفت هذا كله في هذا الكتاب. قلت: سر بعد ذلك معي واقرأ سورة «الإسراء» ففيها تجلت الروح تارة بالإسراء والارتقاء، كأنه يقول: هاأنا ذا شرحت لكم ارتقاء المواليد فادرسوها.

فهكذا العالم الروحي يرتقي درجة بعد درجة، وأضرب لكم مثلاً بارتقاء عبدي محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماوات طبقة بعد طبقة حتى وصل إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، أي أنه وقف على الحقائق، فالأرواح ترتقي في العلوم والمدارج كما ارتقت الأجسام في المواليد الثلاثة طبقاً عن طبق، أليس كذلك؟ فقال: بلى. ولما قرر ذلك جاء في نفس السورة وذكر الروح وقال: إنكم لا تقدرون على معرفة حقيقتها. قال: نعم كان ذلك. قلت: ألم تر أنه لما جاء إلى سورة «الكهف» أخذ يقص علينا قصصهم وقصص الخضر وقصص ذي القرنين، ثم في «مريم» قصصها وقصص زكريا ويحيى وعيسى، وكلها من الغرائب. ولما أخذ يقصها أعطانا قبلها درساً يفهمنا المقصود منها فقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾[الكهف: ٩] فهو يقول: إن ما على الأرض من زينتها ـ وهو ما شرحناه لك من السلسلة الحيوانية طرداً وعكساً ـ فيه عجائب وغرائب أكثر من قصص أهل الكهف التي ذكرت في القرآن إجابة للسائلين عنها، كما ذكرت قصة يوسف إجابة للسائلين عنها، وقال في قصة يوسف ما قاله في قصة أصحاب الكهف، إذ أبان هناك أنهم معرضون عما لا يتناهى من الآيات في السماوات والأرض لا عن قصة يوسف وحدها التي هي قليلة بالنسبة لآيات الله، وهكذا قصة أهل الكهف ليست شيئاً بالنسبة لعجائب الله. قال: أما هذا فأنا فهمته مما كتبته في هذا التفسير في نفس تلك السور. قلت: ولكني أعدته مجملاً لتكون صورته حاضرة في ذهنك. قال: حسن. قلت: فهل بعد هذا بيان؟ يقول الله: إن هذا القصص من جانب غرائب السماوات والأرض قليلة، ثم يقول في آخر سورة «الكهف»: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ ﴾[الآية: ١٠٩] الخ، ويقول الخضر في حديث البخاري ومسلم: إن علمي وعلمك يا موسى بالنسبة لعلم الله كما أخذه العصفور من هذا البحر.

فهل كان صلى الله عليه وسلم يقول هذا الكلام ناقلاً عن الخضر بلا فائدة؟ ولم ذكرها في مقام الخضر؟ ولماذا ذكر الله أن البحر لو كان مداداً لمعلومات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي؟ وكيف يقول في سورة « طه » بعد هذه: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]، يذكر في سورة الكهف في الحديث الصحيح وفي الآية أن العلم لا حدّ له، ثم يأمرنا الله في « طه » أن نطلب من الله أن يزيدنا علماً، أليس الأمر أصبح جلياً واضحاً؟ إن الأمر عظيم، وإن الأمور يجب أن تدرس، وإن قصص مريم وعيسى مثلاً إنّما هي المبادئ التي تدرس في أول التعليم للتشويق، ثم من عنده استعداد سيرقى معلومات الله التي قال فيها إنها لا نهاية لها. ثم لماذا يصرح القرآن بهذا القول وحديث الشيخين بين قصة الخضر وقصة زكريا ويحيى ومريم وعيسى؟. إن ذلك لم يكن مجرد مصادفات، فإن الكتب السماوية لها أسرار في الترتيب وهذا أعجب ما يفهم من القرآن وغرائب التربية ونظامها. ألا وإن هذا من أعجب ما يستخرج من ترتيب السور والآيات. ظهر الحق واستبان السبيل وانبلج إشراق الصبح لذي عينين. فبالعلم فلنفرح ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس: ٥٨] قال الشاعر:

ففز بعلم تعش حيًا به أبداً — الناس موتى وأهل العلم أحياء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه — والجاهلون لأهل العلم أعداء

فهل أقنعك ما أسمعناك؟.

قال: لقد شرحت صدري وأريتني في القرآن عجباً ما كنت أتوهم أن أسمعه أو أصدق أنه في القرآن. ثم إن هذا البيان يبعث الناس على قراءة جميع العلوم. قلت: هو مقصود القرآن ولهذا أنزل. فقال: ولكن لماذا لم نسمع هذا من العلماء السابقين؟.

قلت: أما وجود هذه المعاني بهذا الترتيب فلم أرها ولكن المتقدمون رحمهم الله أيقظوا الأمة لمثل هذا، ولكن القوم كانوا غافلين وهذا أوان الاستيقاظ وزمان الرفعة والمقام الأعلى لأمة الإسلام. سيقوم فيهم عظماء مرشدون وعلماء نابهون مجدون، وسيكونون في عصر جديد لم يحلم به أهل الأرض، وكل آت قريب، والله قد أذن بظهور هذه الأمم الإسلامية في وقت قريب. قال: ولكنني لا أزال أطلب فوائد أوسع في ذكر عيسى وولادته بلا أب.

قلت: قدمت لك قولاً عاماً لجميع القصص، فأما قصة عيسى عليه السلام فإن غرابتها لها مزية شريفة وعجيبة بديعة وهي درة يتيمة وفتح صمداني للعقول الكاملة. قال: وما هو؟ قلت: إن الناس في أول أمرهم يتعجبون من صنعة ربهم إذ يخرق لهم القانون المسنون في أندر من النادر، إذ جعل عيسى من غير أب، فيحصل الإيمان بالله بهذه الحادثة الغريبة. فإذا عجب الشاب وأخذت منه الغرابة كل مأخذ؛ يقال له: هل سرتك هذه؟ فيقول: نعم، فيأخذه بيده المربون ويقولون: تعال وانظر وتعجب مما هو أكثر غرابة وعجباً في الطبيعة، فهناك غرابة للعموم وهنا غرابة للخصوص. فيقولون له: انظر الزهر كيف يلقح بصفات شتى وأحوال متباينة والأصل لم يتغير. فهذا من المقام الذي نحن فيه، أي مقام الولادة العجيبة والتناسل المدهش:

(١) فيقولون: انظر السنط والقار والصفصاف وأصنافاً أخرى. انظر كيف ألقحتها الرياح الهابات فحملت اللقاح من الأزهار المذكرة إلى الأزهار المؤنثة فحملت وأخرجت ثمراً. فهنا لم يقصد

الذكر الأنثى وليس لأحدهما شهوة ولا حياة معروفة ولا زواج ولا عشق ولا غرام، بل هناك رياح هبّت فأخذت من هذا وأعطت ذلك والرياح لا عقل لها ولا علم.

(٢) انظر النحل والحشرات المغنيات الطائفات التي شرحناها في هذا الكتاب مراراً كيف زين لها الزهر وكيف طابت رائحته وكيف حملت طلع الذكور ووضعته على الإناث من غير علم الأب ولا علم الأم، فهذا أغرب ألف مرة من أمر عيسى، لأن عيسى له أمّ تعقل وحملت وهي تفهم وولدت وأرضعت وظهر لها عند الحمل شاب هيج الشهوة فيها. فأما هنا فلم يكن شهوة ولا عرف الذكر الأنثى، بل لا حياة ظاهرة واضحة لهما ومع ذلك نرى الحمل والولادة.

(٣) أذكرك بما مضى في سورة «الحجر» كيف تدخل الذبابة تلك الزهرة التي ضاق بابها لتستدفئ من برد الجو، ثم تريد أن تخرج فتمنعها الشعرات الواقفات على ذلك الباب الضيق، حتى إذا وقع الطلع خرجت الذبابة فلم تقف في طريقها تلك الشعرات، فتطلع في الجو فيلسعها البرد فتستدفئ في زهرة أخرى من نفس النوع فيحصل مثل ذلك، ويقع الطلع الذي عليها هناك وهكذا. أليس هذا أعجب ألف مرة من مسألة عيسى؟ فكيف جاءت الذبابة، وكيف آلمها البرد، وكيف أقفلت عليها الشعرات عند الحاجة، وكيف فتحت لهما عند تمام العمل، وكيف يؤلمها البرد ويحركها إلى الدخول في زهرة أخرى، وكيف لا تجد لها مأوى إلا هذا النوع من الزهر بعينه بحيث لا تخطئ ولا يضيع ذلك اللقاح، وكيف تدخل فيه ويحصل العمل مرة أخرى؟ فيا ليت شعري أفلا تكون هذه كلها من أغرب الغرائب وأبدع العجائب وأبهر الحكم وأعظم النعم. فارجع إليه في سورة «الحجر». أفليس ذلك أعجب وأعجب من أمر عيسى وأمه وهو من قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠٥] الخ، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ [الكهف: ٩] الخ، وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقول الخضر: «ما علمي وعلمك في جانب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر من هذا البحر».

(٤) ارجع إلى سورة «الحجر» فانظر ما ذكرناه هناك من نور الزهر واستيقاظه صباحاً تارة ومساء أخرى، وكيف كان النحل والحشرات الخاصة بذلك الزهر تأتي إليه في تلك المواعيد المقررة المحددة. انظر هناك وتفكر في قصة أهل الكهف الذين ناموا زماناً طويلاً ثم استيقظوا، وقل لي: ألست ترى الغرابة في نوم النبات واستيقاظه أشد، والعجائب فيه أكثر؟ قل لي: ألست ترى معي أن النبات ما كان أحد في الناس يعلم أنه له حالاً كهذه، فظهر له إحساساً وشعوراً، فهو يشعر بالنور فيمتد إليه إذا كان في ظلمة، ويحس بالبرد والرطوبة فيمد عروقه إليها ويتجافى عن المواضع الجافة اليابسة فلا يمد عروقه إليها، ويرى الحبل الممدود بين حائطين فلا يحيد عنه. وهكذا يرى فيه نوع من الحياة. فترى بعضه ينقبض إذا لمسته كالسنط الحساس، وقد وجدوا من أنواع النبات الذي له إحساس ظاهر أكثر من مائة نوع وهو مفترس كما تقدم في سورة «الرعد»، فهناك ترى صور ذلك النبات وشرحه، فانظر إلى تفنن واسع مع الحكمة.

فإذا رأيت قدرة الله واضحة في ولادة عيسى من غير أب تراها هنا قد أبدت أشكالاً من الإنتاج تدل على حكمة باهرة، فهي أشكال مختلفة تدل على القدرة، والأحكام فيها جميعها دلالة على

الحكمة. فلئن رأى الناس في خرق النواميس الطبيعية قدرة الله ظاهرة فهاهم أولاء شاهدوا في تناسل النبات ضروباً من الأشكال والإبداع أجلّ وأعلى من خرق النواميس المجرد، فهنا تنوعت النواميس تنوعاً مقروناً بالأحكام، فإذا قال أهل مكة: أزل يا محمد جبال مكة، فليس فيه إلا القدرة على الهدم ولكن أين الإبداع؟. أما هنا فقد نوعت النواميس تنويعاً دلالة على الإطلاق، ومع هذا الإطلاق تجد الأحكام والنظام.

كيف تقرأ سورة مريم والكهف في الزهر وكيف ذكر الله النخلة رمزاً لذلك

فانظر في الزهرات تجد عجائب الإنتاج وغرائب العلم الذي ليس بمحدود. فهاهنا تبدى عجائب أصحاب الكهف وغرائب عيسى ومريم والعلوم الغزيرة التي أشار لها الخضر أن علوم ربك لا نهاية لها وإبداعه لا حدّ له ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[الكهف: ١٠٩].

ويشير إلى ما بينته هنا من قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾[مريم: ١٢] الخ، أن النخلة امتاز ذكرها عن أنثاها، فجاء اللقاح بواسطة الهواء من الذكران للإناث، وهذه الخاصية امتاز بها النخل. فأما بقية النباتات فإنك تجد منها ما ذكره وأنثاه في زهرة واحدة كالقطن، وما هما في زهرتين في نبات واحد كالقرع، والذكر إما أن يكون في أعلى والأنثى أسفل كالذرة المعروفة في بلادنا المصرية وقد شرحناه في سورة «الفاتحة»، وإما أن يكون الأمر بالعكس فالذكر أسفل من الأنثى، ولكن الحكمة الإلهية حكمت على الأنثى أنها في زمن الإلقاح يتدلى غصنها تحت الآخر فيحصل الإلقاح وذلك في الخروع.

فانظر كيف امتاز النخل عن بقية النبات بتباعد الذكر عن أنثاه، وجاء اللقاح بالرياح، كما امتازت مريم بالولادة من غير زوج، وهذه حكمة رمزية.

وهنا ثلاث جواهر:

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ الخ

عيسى ابن مريم ليس له أب وهذه قضية العالم أجمعه. يؤمن بها المسلم والنصراني وقد كانت قبل ذلك لأمم قد خلت كلها كانت مؤمنة بعظيم ولد من عذراء كما علمت فيما تقدم في آخر سورة «المائدة».

فيا ليت شعري لم عمت هذه الفكرة. ولم أمر الناس أن يصدّقوا بما لا نظير له في هذه الدنيا؟ قد أصبح من البديهي أن لا ولد إلا بأبوين. تساوى في ذلك الطير في جوه والسمك في بحره والضبّ في جحره والأسد في عرينه. كلها تساوت في هذه القضية. فلم يفاجأ هذا الإنسان المسكين ويمتحن عقله ويقال له اعتقد شيئاً لا يقبله طبعك وينبو عنه سمعك ولا يألفه فهمك، وما فائدة هذا التكليف وفي الناس من لا يكاد يخطر لهم ما لا تقبله العادات ولا تجيزه المألوفات. لقد حار هذا الإنسان في العلم وفي الدين. فما العمل إذن في هذه العقيدة؟.

أقول: اعلم أن الله عز وجل قبل أن يخلق هذا العالم علم أن هذا الإنسان تسيطر عليه عاداته ويختم على سمعه وقلبه وتجعل المألوفات على بصره غشاوة. هذا الإنسان يحيط به الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والنبات والحيوان والبحار، فهو بهذا كله مأخوذ لا يدري ما الحياة إلاّ ما اعتاده ولا اللذة إلاّ ما ألفه، يرى كل طير وكل دابة وكل شجر لا بد فيه من ذكر وأنثى. ويرى أن لا حياة إلا لحياة الدنيا وحياة الأجسام، وهذا معناه الحبس والنوم العميق. فقال له الله: كلا، إن هناك حياة في عالم لا تراه. وإذا ظننت أن المألوفات لك واجبة محتمة فهاك هدم هذه القواعد. أنت ترى أن الحيوان لا بد فيه من ذكر وأنثى منفصلين، وأنت لو تأملت لوجدت من النبات من يكون الذكر والأنثى في زهرة واحدة، بل في الحيوان ما هو كذلك، بل نفس الإنسان. هذا عيسى ابن مريم ولد من أنثى وقد أنزلت عليها نوعاً من الذكورة وهو الذي تمثل لها بشراً سوياً. فهذه أنثى تمثل لها ذكر فحملت فولدت. فهنا أنثى وهنا ذكر لا يرى. إذن القاعدة مطردة، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الذاريات: ٣١]، فهانحن تذكرنا فوجدنا القاعدة مطردة، حتى إن مريم صاحبها ذكر من عالم المثال، ولولا هذا لم تلد ولم تحمل.

وهذه المسألة فتح باب لعلم عظيم وحكمة كبرى ذلك أن هناك نوعاً من الحيوان أكثر المملكة الحيوانية عدداً تقوم الأنثى فيه بالعملين معاً عمل الذكور وعمل الإناث ولا يدري إلا الله كيف حملت بلا ذكر. هل تمثلت ذكراً كمريم؟ أم فيها قوة الإناث وقوة الذكور؟ وعلى كل فهذه المسألة من أعجب العلم وأبدع الحكمة وإلا فكيف نرى أنثى تلد أمثالها بلا ذكر؟. أليس ذكر مسألة مريم وعيسى فتحاً لباب العلم على مصراعيه، بل باب الرحمة وباب الحكمة وباب الرقي العلمي.

حيوان بحري أرسله الله لأهل الأرض فأكل منه سكان شواطئ البحار كأهل الإسكندرية وسكان شواطئ البحار في العالم كله كلهم يأكلون هذا الحيوان ولا يعلمون أن مسألة مريم وابنها نزلت لتذكر الناس بالحكمة والعلم، وكأن الله يقول: أيها الناس ليس كل ما تألفونه هو العلم، كلا. فالعلم والرحمة لا حدّ لهما. فأنا كما أخلق من أبوين أخلق من والد واحد يقوم مقام الوالدين. ولما وجدتكم غافلين أنزلت عليكم في الكتاب أن عيسى من مريم وليس له أب. ذلك كله لتدرسوا نظامي.

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي العالم وأخذ يحاورني، فقال: ما هذا الحيوان الذي أخذت تطنب في وصفه، وتقول: إن عيسى ابن مريم وأمه يذكراننا به. فقلت: هذا الحيوان مخلوق في كل بحر وكل نهر ولقد كنت وأنا في قريتنا بمديرية الشرقية أعثر على هذا الحيوان وأنا أستحمّ في نهر أبي الأخضر ولا أعقل له معنى.

ومن عجب أن جثمان هذا الحيوان وغطاءه كان الناس يتخذونه سراجاً لمنازلهم بحيث يضعون الزيت في أحد غطاءي ذلك الحيوان ويضعون في ذلك الزيت فتيلاً ويوقدونه سراجاً. فإذا رأيت ثم رأيت مسارج ذات زيت موقدات وذلك بفضل هذا الحيوان. ومنه أيضاً يكون «الودع» الذي يتخذه الرقاصون من السودانيين على أوساطهم ليكون له صوت يعجب به بعض الناس. وهكذا من ذلك الحيوان يكون الدرّ الذي هو أغلى الجواهر وأعلاها قيمة وأنفسها وأبدعها جمالاً وأبهجها حلية، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

فقال صاحبي : إذن هذا الحيوان هو :

المحار

فقلت : نعم . فقال : صفه لي . فقلت : هذا المحار مما يشبهه نوع يسميه أهل الإسكندرية « أم الخلول » فهم يصنعونه بالتوابل والأفاويه والبهارات ويأكلونه ، وأيضاً يأكلون شيئاً يقال له « بلح البحر » يطبخونه مع الأرز ، والناس يصطادونه بشباك خاصة ، وبعض أهل أوروبا يربونه في أماكن مخصوصة من البحر كما يربي المصريون « الفراريج » المستخرجة من الدجاج .

وصف هذا الحيوان ملخصاً من كتاب أستاذنا العلامة المرحوم علي مبارك باشا في كتابه علم الدين

وصفه بأنه حيوان لحمه بارد رطب مخاطي ليس له عظام من الداخل ، وقد جعل الله له وقاية من الخارج وهي « المحارة » أو « الصدفة » ، وتكون تارة على هيئة شكل مخروط كهيئة البرج ، وتارة تكون شكلاً مستديراً كالدرقة ، وتارة كدرع الحرب ، وتارة تكون قطعة واحدة كالحلزون ، وتارة تكون قطعتين فأكثر وتسمى « الميديا » ، وقد انقسمت إلى ثلاث رتب أصلية : ذات الصدفة وذات الصدفتين وكثيرة الصدف .

والميديا المذكورة تسكن في قاع البحار ، فتكون في مواضع على صورة الجزائر والتلال ، وترى الواحدة منها فلقتين : إحداهما كبيرة وهي التي يلتصق بها الباطن وهي محدّبة ذات سمك وهي السفلى ، والثانية هي العليا وهي أصغر وأرق سمكاً وأقل تحدباً والحيوان في داخلها ، وهذا الحيوان فيه نقرة بيضاء فيها عصب أبيض اللون متصل بالحيوان وبه يكون تحريكه وفي دائر كل فلقة من الفلقتين زوائد فيها شعور يمدها الحيوان ويقبضها باختباره ، يقتنص بها المواد الجيرية فتكون قوته ، وللحيوان فم ظاهر من جهة انفتاح المحارة له أربع زوائد بها يتناول الطعام ، وله معدة أشبه بشكل الكمثرى وأمعاء وكبد وقلب له أذين وبطين مثل سائر الحيوان ، ومن البطين يخرج عرق يتفرع ثلاثة فروع : فرع يوصل الدم إلى أعلى ، وفرع يوصله إلى الكبد ، وفرع يوجه السائل إلى سائر الجسد ، ودم هذا الحيوان ليس أحمر بل هو شفاف عديم اللون . إذن هذا الحيوان له دورة دموية وله خياشيم كالسمك يستخرج بها الهواء الذائب في الماء .

ومن غريب خواص هذا الحيوان أنه يجتمع في الواحد منه أعضاء التناسل الذكورية والأنوثية فيكون الواحد لنسله أباً وأماً معاً ، ونسله في أول أطواره بيض مصفر اللون كثير العدد إلى الغاية حتى إن أهل اليمن توصلوا بكثرة البحث ودقة التحقيق إلى أن قدروا للحيوان الواحد منه نحو ألفي ألفي بيضة ، ومدة تربية هذا الحيوان في البيضة كتربية الدجاج في البيض إلى أن يتم تخلق الحيوان ويستقل بنفسه ثلاثة أشهر من بتونة إلى آخر مسرى ، وفي هذه المدة يكون البيض في طيات الغشاء المتقدم ذكره مغموراً بمادة لزجة تفرزها الأم فيتغذى منها ويكون في طيات هذا الغشاء بمنزلة البيض تحت الدجاجة ترقد عليه وتحضنه ، وحينئذ يكون كل من البيض وهذه المادة في قوام القشطة ، ولا ترى أفراده إذ ذاك بالعين لفرط صغره ودقته وكثرة تراكمه على بعضه ، ويكون في أول أطواره مصفراً كما مر ، ثم يتغير بعد ذلك فيسمر ، ثم يكون آخر الأمر بنفسجي اللون وعند ذلك يتخلق فيه الحيوان ويخرج منه وهو في

طيات الغشاء المذكور كما ذكرنا، وعند ذلك تقذفه الأم في الماء متتابعاً متعاقباً على صورة خيط أبيض يشاهد بالبصر، فيخرج من كل محارة خيط، ويتكون من المجموع طبقة عظيمة الاتساع بالنسبة لاتساع الصخور الموجود عليها المحار يتميز لونها عن لون الماء، وحينئذ يكون لها منظر عجيب ولكن لا يلتفت إليها إلا المشتغلون بأمرها المعانون لتربيتها. ومن الغريب أن هذا الحيوان الذي تنقضي مدة حياته في حالة السكون وعدم الحركة يكون عند ولادته وانفصاله عن أصله محاطاً بمادة تتكوّن منها محارته التي جعلها الله سبحانه وقاية له، ويكون إذ ذاك في غاية الصغر والدقة بحيث لا يتميز أفراده إلا بالنظارة المعظمة، ويكون له حينئذ شعور بها يسبح في الماء ويسرح حوله أصله ويفزع إليه متى دهمته أي حادثة تهوله، فإذا كبر الحيوان زالت عنه هذه الشعور التي هي له كالأرجل، فيتعلق ببعض الصخور والأحجار فيستقر بمكانه ويثبت فيه ولا يتحول عنه، وحجمه إذ ذاك لا يكون إلا قدر خمس ملليمتر واحد أي بقدر جزء واحد من خمسة آلاف جزء من المتر، وبعد ثمانية أشهر يصل طوله إلى نحو ثمانية ملليمترات أو عشرة ملليمترات، وبعد سنة يكون قدر خمسة سنتيمترات، ولا يتم صلاحه ويكمل الانتفاع به ويباع في الأسواق إلا إذا بلغ ثلاث سنين، وهذا هو المعتبر بين أرباب المعامل فإنهم لا يخرجونه منها إلا إذا بلغ هذا العمر.

وعالم المحار عالم كبير وعدده كثير حتى قيل إنه أكثر المملكة الحيوانية عدداً. ومن هذا المحار نوع يسمى «الودع». ثم إن اللؤلؤ يتكون في داخل بعض المحار، ولقد تقدم الكلام عليه في سورة «الفاتحة».

فاعجب للعلم والحكمة وتأمل كيف كانت مسألة انفصال الذكور من الإناث ليست واجبة في التناسل، وكيف كان ذكر عيسى ابن مريم وأنه لا أب له أصبحت تملأ البحار كلها، وأن التناسل الذي ليس له أب معروف أكثر وأغزر وأوفى عدداً من التناسل المتوقف على أبوين، وإذا كنا نرى المحارة تلد ألفي ألف في مدة حياتها وأكثر الوالدات تعدّ ذريتها بالآحاد أو العشرات. فإذن مسألة عيسى ابن مريم توجب البحث في عالم الحيوان، وتفتح للناس باب العلم والمعرفة، ويقولون: إن الله لا حد لعلمه ولا حصر لقدرته ولا نهاية لإبداعه، ذلك ما يفهم من أمر عيسى ابن مريم، والحمد لله رب العالمين.

الجوهرة الثانية: في عجائب العلم الحديث

عجيبة إن صحت دلت على ما نحن فيه من هذه السورة وكشفت اللثام عما تقدم في أول سورة «النساء» من أن آدم وحواء وسائر الحيوان خلقت أول أمرها في خط الاستواء إذ كانت الأحوال هناك مناسبة لها، ثم تناسلت تلك الحيوانات وانتشرت. فهذه العجيبة التي سأذكرها لك إن صحت لم تزد على ذلك التأييد وتبين لنا عجائب الخلق، ذلك أنه في يوم السبت ٣٠ أكتوبر ذكرت خبر انتشر في جرائد الشرق والغرب وهذا ملخصه:

توليد الحياة بطريقة كيميائية

ذكرت الصحف أن شاباً يدعى المستر «مازور» وفق بعد جهاد خمس سنوات إلى توليد الحياة بطريقة صناعية في معمله الكيميائي. ولا حاجة إلى القول بأن عملاً كهذا إذا صح سيحدث أكبر انقلاب في تاريخ البشر.

قضى المستر « مازور » سنوات عدة في معمله بجد ويشتغل ويقوم بإجراء التجارب العلمية حتى وفق أخيراً إلى جعل القوقعة بطريقة كيميائية غريبة، وكان قد وفق في سنة ١٩٢١ إلى حصول أول خلية من خلايا الحياة الصناعية وذلك بانتهاجه طرقاً غير الطرق العلمية التي تقدمه فيها العلماء، ولعل تنكبه عن الطرق العلمية هو الذي أفضى به إلى تلك النتيجة الباهرة. وخلاصة ما فعله أنه أخذ مجموعة من بيض القوقعة الطبيعية ومزجها ببلورات الكلسيوم حتى تكوّن منها مزيج ثخين سائل، وبعد ثلاثة أسابيع وجد في المزيج عدة قوقعات طبيعية حية، وقد حاول تفريخ البلورات عدة أسابيع، فلما كملت عملية التفريخ مزج الكل بالزلازل ثم حقن تربة أصيص من أصص الأزهار بذلك المزيج، وبعد ثلاثة أشهر امتلأ الأصيص بالقوقعات، وأعاد هذه التجربة مراراً فأسفرت كل مرة عن النجاح التام. وجاء مرة بثمانية أصص في جميعها تربة متماثلة وأزهار متماثلة، فحقن أربعة من تلك الأصص من المزيج المذكور، وأهمل الأربعة الباقية، ثم عرّض الثمانية الأصص لنور الشمس وعاملها كلها معاملة واحدة، وبعد ثلاثة أشهر ظهرت قوقعات كثيرة في الأصص المحقونة بالمزيج، أما الأصص الأخرى فلم يظهر فيها شيء على الإطلاق.

ويعتقد المستر « مازور » أن هذه التجارب قد أثبتت بوجه قاطع صحة نظرية التولد الذاتي، وهي النظرية التي تذهب إلى أن الحياة يمكن أن تنشأ من الأرض نشوءاً ذاتياً، أي: من تلقاء نفسها، وذلك باتحاد الخلايا وانضمامها معهاً في أحوال معينة من دون أن يكون ثمة ضرورة لاجتماع الأبوين. وهذه النظرية في عرف المستر « مازور » تؤيد ما جاء في الكتب المنزلة بشأن عملية الخلق وتناقض نظرية النشوء والارتقاء التي جاء بها « دارون ».

وفي اعتقاده أيضاً أن رواية الكتب المنزلة عن الخلق أكثر انطباقاً على المبادئ العلمية وأكثر تأييداً لها من نظرية النشوء والارتقاء، بشرط تفسير تلك الرواية بأنها تعني التولد الذاتي، لأن البراهين قوية جداً على أن الحياة في جميع مظاهرها الحيوانية والنباتات نشأت بطريقة ذلك التولد. ولو أمكننا أن نوجد البيئة أو الأحوال التي ظهرت فيها الأنواع منذ القدم لأمكننا اليوم أن نوجد تلك الأنواع عينها بطريقة صناعية.

هذا ما يدعيه المستر «مازور» على أنه يقول: إنه وإن يكن قد تمكن من إيجاد نوع من الأنواع فهو ليس بمبدع أو خالق، وإنّما هو آلة لإتمام الخلق، أي: إن عملية الخلق من وظائف الطبيعة، وهو لم يفعل شيئاً سوى مزج العناصر اللازمة لتولد الحياة. على أنه وإن يكن الإنسان قد تمكن من حصول الحياة فإنه عاجز كل العجز عن خلق الروح أو العقل، وهما يختلفان عن الحياة كل الاختلاف، وليس ذلك فقط بل إن الإنسان يجهل كنه الروح أو النفس ولا يعلم العلاقة بين الروح والمادة.

ومما يجدر بالذكر أن المستر « مازور » لا يعمل في الخفاء بل هو يشرح تجاربه لكل من يقصده ويقول: إنه قد وفق إلى وجود خلايا صناعية تشبه الخميرة بالطريقة الآتية:

ذلك أنه أذاب جراماً واحداً من الغراء الاعتيادي في أربعة أونسات من الماء المقطر، وغلى المزيج ثم أضاف إليه قليلاً من حمض التنيك وغلى الجميع مدة عشر دقائق، ثم رفعه عن النار لكي يبرد، فنشأت منه خلايا صناعية غير متحركة، فلكي يجعلها تتحرك أخذ نقطة من المزيج الذي فيه الخلايا

ووضعها على قطعة من الزجاج وأضاف إليها نقطة من المادة المعروفة بـ « مرارة الثور » أو « صفراء الثور » وهي مادة تستعمل في تحضير مستولدات بكتيرية ، ومزجها بالسائل الذي على الزجاجة ، فلم تمض على ذلك ثلاث دقائق حتى تغير لون الخلايا من أسمر قاتم إلى أسمر فاتح وأصبحت شفافة وكونت نواة . ولا شك أن العلماء سيهتمون بمباحث المستر « مازور » المدهشة وبما وصل إليه من طرق ابتكار الحياة . فإذا صحت التفاصيل التي أوردتها الصحف فسيخلد اسم هذا الشاب الكيميائي الذي وفق إلى أعظم عمل يخلد الذكر ألا وهو خلق الحياة . ولكن لا بد هنا من إعادة التنبيه بأن بين خلق الحياة وخلق الروح أو النفس بوناً شاسعاً في نظر العلم ، وأن التمكن من خلق الأول لا يعني التمكن من خلق الثاني . وعلى كل فإن عمل المستر « مازور » إذا صح ما قيل عنه هو أعظم عمل علمي قام به الإنسان منذ بدء العالم ، وسيحدث أكبر انقلاب عرفه التاريخ . ولا يستطيع أحد أن ينبئ بما قد يفضي إليه من النتائج المدهشة . اهـ.

هذا ملخص ما جاء في الجرائد والمجلات في العالم ونقلته جريدة « السياسة » الأسبوعية .

وأقول لك : إن هذا إن صح وثبت فرضاً فلم يصنع شيئاً إلا ما قلته لك ، وهو ما جاء في أول سورة « النساء » من أن بعض علماء أوروبا يقولون : إن الحيوان اشتق أعلاه من أسفله كالبري من البحري ، وبعضهم كذّب هذا ، وهم في حيرة ؛ فأما علماؤنا السابقون فقد قالوا : إن كل حيوان قد خلق أولاً في خط الاستواء إذ كانت الأحوال موافقة ، فانظره هناك . فهذا الإنجليزي إن صح قوله لم يأت بشيء إلا تأييد نظرية قدمائنا في أن الحيوانات خلقت في أحوال ملائمة ، وهذه الأحوال قد فات وقتها . فهذا الكيمائي قد ركب تركيباً يناسب حالاً من تلك الأحوال وليس له من الأمر شيء ، كما أنه ليس للفلاح في نمو قمحه شيء فما هو إلا أن وضع البذور وسوى الأرض ، والله تولى الإنبات .

علم الله أن أمة الإسلام سيمر عليها زمان ترى فيه نتائج هذه القصة ، وبعبارة أخرى ترى الولد بلا أب كمسألة عيسى فأنزلها في القرآن ، وهذا أعظم توبيخ للمسلمين أن يظهر سر ظهور المسيح على يد المسيحيين مع أننا ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران : ١١٠] ، فكان علينا العلم وكشفه . فماذا حصل ؟ ذلك أن الله قيض الأستاذ « لوب » أكبر عالم في علم الحياة وقد ولد في « الألزاس » سنة ١٨٥٩ وتعلم في جامعة « ستراسبرج » ونال الدبلوم في الطب سنة ١٨٤٨ وصار مدرساً لعلم البيولوجيا في كلية « برين مور » بأمريكا ثم جعل بجامعة « شيكاغو » أستاذاً للفسيولوجيا والبيولوجيا ثم في جامعة « كلفورنيا » سنة ١٩٠٣ .

هذا الأستاذ هو الذي بحث هذا المبحث العجيب . فبحث حيواناً بحرياً نسميه في مصر « ترسا » نراه في شواطئ البحر الأبيض المتوسط وقد ربته مصلحة الأسماك بالإسكندرية في البحر ، وهو كروي له شوك صلب على جميع محيطه . ولهذا الحيوان بيض ومتى وقع هذا البيض واتفق أن أصابه لقاح ممزوج بماء البحر فإنه يفقس ، وذلك على مقتضى الناموس المعروف ، ولكنه هو أقام بضع سنين يبحث حتى تمكن من جعل بيض حيوان يسمى « التوتيا » ينمو بغير تلقيح ، ولا زال يرتقي حتى جعل ذلك أيضاً في نفس الضفادع ، وهذه التجارب كانت في خيمته في ساحل « كليفورنيا » فعرف مقدار الملح في الماء ، وكم بيضة تنمو من عدد من البيض ، وما هي العوامل الطبيعية والكيماوية . فهذا الأستاذ أثبت أن

الحيوان أمكن أن يكون له أم ولا أب له بفضل أملاح وبعض أعمال طبيعية وكيمائية. هذا هو الكشف في القرن العشرين. فتبين أن قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] الخ، قد ظهر سره الآن، فآدم ظهر سره في الفصل السابق، وعيسى ظهر سره في هذا الفصل. إن هذا من عجائب القرآن.

سر الوجود، الكهرباء والأرواح

إن السر في هذا الوجود يستبين لنا شيئاً فشيئاً. أتدري ماذا أقول لك الآن. أقول: إن الكهرباء لا يخلو منها مكان، فهي في الأرض والهواء والحيوان والنبات، ولكنها لن تظهر لأحد إلا بالتفاعل المذكور في سورة «الأنعام» وغيرها، فمتى وضعنا النحاس مع التوتيا مثلاً وسائل ملحي ظهرت الكهرباء قليلة أو كثيرة على حسب التفاعل. وهذه الكهرباء تكون نوراً في منازلنا وناراً طابخة لطعامنا وحركة مديرة لآلاتنا في الصناعات المختلفة، فتنوعت الكهرباء بتنوع الآلات المعدة لمنافع مختلفة. فهي مضيئة في حجراتنا محركة في آلاتنا طابخة لطعامنا بالحرارة. فهي كهرباء وهي ضوء وهي نار وهي حركات. تعددت الأفعال وأسماؤها والعنصر واحد. أليس هذا عجيباً؟ هذه هي الكهرباء.

أما عالم الروح فبالقياس عليها نقول هي المعبر عنه في الفلسفة القديمة بالنفس الكلية فهي تحيط بالعوالم أشد من إحاطة الكهرباء، ولا تظهر إلا في أجسام تقبلها بالتفاعل مثل ما حصل في الكهرباء سواء بسواء، الروح الكلي محيط بنا وبكرتنا ولكن لا يظهر أثره إلا إذا حصل التفاعل في أجسام تستعد لقبوله كما في الكهرباء، والاستعداد بالقبول إما قليل كما في النبات وإما كثير كما في الحيوان. الكهرباء أنتجت سالباً وموجباً، النبات والحيوان أنتجا ذكراً وأنثى كالموجب والسالب ففي كلها منهما زوجان. ومتى استعد النبات والحيوان لقبول الفيض من تلك النفس الكلية أخذت أعضاء الحيوان كلها ما يناسبها منه. فكما قلنا في الكهرباء نور وحرارة وحركة باستعداد القوابل لها وهكذا نقول هنا في فيض النفس الكلية على كل حي، إن ذلك الفيض إن ألقي إلى نبات أعطاه النماء والتكاثر أو إلى حيوان أعطاه فوق ذلك الحس والحركة والإدراك، فهو في كل حال يعطي ما يناسبه، وهكذا نقول الفيض في النبات به امتد العرق في الأرض وتعرض الورق للنور وأزهر الشجر وأثمر الخ، وكل ذلك بحسب القوابل، وهو في الحيوان يعطي القلب نبضاً والكبد طبخاً للدم والمعدة هضماً والدماغ فكراً والعين نظراً والأذن سمعاً واللسان ذوقاً، وذلك بحسب القوابل، كما قلنا في الكهرباء نوراً في حجراتنا وناراً لطهي طعامنا وحركة لآلاتنا. فكما اختصت الحركات بالآلات والنور بالحجرات باستعداد خاص هكذا اختصت الأذن بالسمع والعين بالبصر والمعدة بالهضم وهكذا. فنتج من ذلك أن الكهرباء تظهر عند التفاعل المناسب لها، وقوة الحياة تظهر عند التفاعل المناسب لها. وكما تختلف الكهرباء قوة وضعفاً على حسب منبعها، هكذا تختلف الحياة قوة وضعفاً الخ، فمتى حصل القابل للشيء فليس الله بمانع عنه ما يناسبه، وبهذا وصلنا إلى المقصود.

تفاعلت النطفتان في الرحم فألقيت إليهما الروح ومتى حصل التفاعل بأي وسيلة كانت فلا بد من حصول الروح، لأن الروح سارية في العوالم سريان الكهرباء، فمتى ظهرت القوابل لم تمنع عما يناسبها، فإذا وضع بيض الضفدعة في وسط يناسب الإلقاح بحيث يقوم التركيب فيه مقام إلقاح الذكر

فلا بد من حصول الحياة، لأن الله ليس عليه حاكم يحكمه، وما إلقاح الذكور للإناث إلا طريقة من الطرق التي لسنا نعرفها، ومتى قام مقامها سبب آخر فلا بد من الحياة، كما أننا كنا نركب الدواب، وقد علمنا اليوم البخار والكهرباء فاستعملناهما وحملانا بدل الدواب. هكذا طريق التناسل ليس قاصراً على ما نعلم فقد خرق الله العادة في عيسى ليقول: أيها الناس إن نواميس أرضكم جزء من كل وإلا فعملي أوسع مما تعلمون، فادرسوا هذا الوجود حتى تخرقوا الحجب العقلية ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[الحشر: ١٩]. انتهت الجوهرة الثانية.

الجوهرة الثالثة في قوله تعالى:
﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾
إلى قوله: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ ﴾ الخ

اللهم إني أحمدك على التوفيق وعلى نعمة العلم. اللهم إن هذا النوع الإنساني كله إلا النادر منهم نوع مقلد يتبع آخرهم أولهم. اللهم إنك أنت قد أنزلت ديانات في أرضك لتهدي الأمم الإنسانية كما أنزلت في أصناف الحشرات وذوات الأربع والطيور قوى وغرائز بها انتظمت ممالكها وعاشت أزواجها وحفظت أنواعها وربت ذريتها. فهذه الغرائز الحيوانية قد قامت بأمرك ووحيك فتم بها النظام.

أما هذه الديانات التي أنزلتها في أرضك وفرقتها في شعوبها وقبائلها في أزمانها المختلفات فإنها قد اعتراها ما يعتري المواد الأرضية والمركبات العنصرية من التغير والتبدل والمسخ والنسخ والبلى. حكمت على دياناتنا حكمك على أجسامنا، ولم تحكم على غرائز الحيوان ما حكمته على دياناتنا. أبقيت غرائزها فحفظت كيانها على مقدار طاقتها. ولم تكل هذه الغرائز إلى تدبيرها. أما نحن بني آدم فإنك وإن أنزلت لنا مختلف الديانات لم تطبعها في عقولنا طبعاً كما لم نحسن نحن فيها صنعاً. ما نزل دين من السماء إلا أدخلنا عليه بدعاً وألبسناه من لدنا خلعاً وغشيناه بما لدينا من خرافات ومفاسد، فلا نزال نزيده تلبيساً ولا يزال هو يبتعد عن أصله حتى لا يصلح لنظامنا، فترسل رسولاً آخر وهكذا. أنت خلقت أمم الآشوريين والبابليين ـ سيأتي الكلام عليهم في سورة «الأنبياء» عند قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ ﴾[الأنبياء: ٢٥] الخ ـ وخلقت أمم الفرس وجعلت هناك ديانات كديانة الآشوريين وديانة البابليين وديانة المجوس وديانة «زردشت»، ولا دين من هذه الأديان إلا دخله البدع والضلالات هكذا دين «خريستا» بالهند وقبله دين «البراهمة» وقبله كتاب «الفيدا» وبعد «خريستا» دين «بوذا»، وكل هذه الأربعة يتبع بعضها بعضاً فيكون كل منها أولاً توحيداً ثم يكون التثليث.

هذه صورة مصغرة من صور الديانات في أرضنا. فالدين يأتي بالتوحيد وتابعوه على طول الزمان يثلثون ويكثرون الأصنام والآلهة إلى ألف أو آلاف، بل إلى ما لا حصر له كما في أمة اليابان الآن. لذلك أرسلت محمداً صلى الله عليه وسلم، وقلت له: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]؛ فنشر العقيدة الخالصة بالتوحيد التي جعلها قدماء المصريين وأهل الهند وغيرهم عقيدة سرية فما وسع الإسلام إلا إظهارها، وختم الله الديانات بها لعلمه أن كل دين بعد أزمان يرجع إلى الوثنية.

ولما انتشر الإسلام أثر في أمم العالم قاطبة وبه وحده كما تقدم عن « سديو » الفرنسي نقلته في سورة « التوبة » وسورة « إبراهيم »، فقد أثبت بصريح العبارة هو وغيره من أهل أوروبا الحاليين أن ظلم رجال الدين في أوروبا وتحكمهم في الشعب الذي امتد نحو أحد عشر قرناً لم يمنعه إلا تعاليم الدين الإسلامي وذمه الأحبار والرهبان، وقام بهذه الدعوة أمثال « روسو » و« فولتير » فحرروا أوروبا وارتقت وارتقى الناس معهم، وبهذا الارتقاء بحثوا في الآثار القديمة في مصر والهند وبابل وآشور، فماذا وجدوا؟. وجدوا أن التثليث ليس دين المسيح فقد وجدوه منقولاً عن أهل الهند في الخرافات التي كتبوها في « خريستا » قبل الميلاد بنحو ٤٨٠٠ سنة، وفي « بوذا » قبل الميلاد بنحو ستمائة سنة. وقد تقدم هذا موضحاً في آخر سورة « المائدة » فارجع إليه.

ولكن الذي سقت له هذا الكلام الآن هو أمر عجب. ذلك أن صديقنا اللورد « هيدلي » العالم الإنجليزي الذي أسلم بعقله، وأسس طائفة مسلمة في إنكلترا ودعا إلى الإسلام، ذكر في كتابه المعنون « إيقاظ العرب للإسلام » تأليف سيف الرحمن رحمة الله فاروق « اللورد هيدلي » رئيس الجمعية البريطانية الإسلامية منقولاً إلى العربية.

فهذه الترجمة جاء فيها في صفحة ٤٨ وما بعدها ما يأتي: إذا كان إيماني الأجوف في الولادة العذرية وصلب المسيح وقيامته ثانياً تجلب إليّ الخلاص المطلوب، فلماذا لا ينبغي لي إذن أن أؤمن بسرّ « بابيلونيا » وأؤمل خلاصي. إن رواية آلام « بابليونيا » كانت في الوجود من مدة طويلة جداً قبل ميلاد المسيح، بل كانت شرعية ومقررة في تلك الأيام كمأساة مألوفة.

هناك لوحان بابليان تابعان إلى مجموعة السجلات المكتوبة بالخط الآشوري التي كشفت بواسطة الحفارين الألمانيين في سنة ١٩٠٣ و١٩٠٤م في « كاله سرجات ».

قاعدة الآشوريين الأقدمين وهما يتبعان مكتبة هؤلاء الآشوريين التي أنشئت في القرن التاسع قبل الميلاد أو قبل ذلك وهما مع ذلك صورتان طبق الأصل من ألواح بابلية أقدم من ذلك.

من هذين اللوحين يمكننا أن نعرف أن حكاية آلام المسيح ليست أول حكاية عرفها الإنسان من هذا الصنف منذ الخليقة، وتسهيلاً للقارئ ننقل الآتي من عدد يناير سنة ١٩٢٨ من مجلة « الكوست » التي هي مجلة مسيحية بحتة.

(١) رواية الآلام البابلية	(١) حكاية الآلام المسيحية
(٢) يساق بيل أسيراً	(٢) يساق عيسى أسيراً
(٣) يحاكم بيل في المنزل على الرابية « غرفة المحاكمة »	(٣) يحاكم عيسى في منزل رئيس الكهنة
(٤) يضرب بيل	(٤) يجلد عيسى
(٥) يساق بيل إلى الرابية	(٥) يساق عيسى إلى الصلب في جلجلته
(٦) يساق مع بيل شرّيران أحدهما يقتل والآخر يطلق سراحه	(٦) يساق مع عيسى شرّيران يعدمان وآخر يدعى « باراباس » يطلق سراحه

(٧) عندما يصعد بيل على الرابية تتزلزل المدينة وتحدث فيها مواقع	(٧) عند موت عيسى يمزق حجاب الهيكل وتتزلزل الأرض وتتشقق الصخور وتفتح القبور ويخرج الأموات إلى المدينة المقدسة
(٨) تؤخذ ملابس بيل	(٨) تقتسم العساكر ملابس عيسى
(٩) تمسح امرأة الدم النابع من قلب بيل أثر خروج السلاح « حربه »	(٩) يطعن عيسى بحربة في جنبه ويخرج دم وماء وتأتي مريم المجدلية وامرأتان أخريان لغسل وتحنيط الجثة
(١٠) ينزل بيل تحت الرابية بعيداً عن الشمس والنور وتذهب عنه الحياة	(١٠) يدخل عيسى القبر داخل الصخرة ويذهب تحت إلى قسم الأموات ويزور جهنم
(١١) يلاحظ الحراس بيل وهو سجين في معقل الرابية	(١١) يوضع الحراس على قبر عيسى
(١٢) يجلس آلهة مع بيل قد أتت لتعتني به	(١٢) مريم المجدلية ومريم الأخرى تجلسان أمام القبر
(١٣) يبحثون عن بيل في أي مكان هو مقيم. خصوصاً امرأة باكية تبحث عنه في المقبرة وعندما يؤخذ تصيح مولولة (آه يا أخي. آه يا أخي)	(١٣) تأتي النساء خصوصاً مريم المجدلية إلى القبر ليبحثن عن عيسى خلف باب القبر الخالي فتقف مريم باكية أمام القبر الخالي لأنهم أخذوا سيدها بعيداً
(١٤) رجع بيل نائياً إلى الحياة كشمس الربيع ثم يخرج من الرابية	(١٤) رجوع عيسى إلى الحياة وخروجه من القبر في صباح الأحد
(١٥) والعيد الأكبر عند البابليين وهو رأس السنة يكون في مارس في زمن الاعتدال الربيعي ويحتفل به لأن فيه كان انتصاره على قوات الظلام	(١٥) عيده الذي يكون في الاعتدال الربيعي تقريباً يحيا ويعظم أيضاً كانتصار له على قوات الظلام

إلى هنا انتهى ما نقله اللورد « هيدلي » الإنجليزي الذي أسلم عن اللوحين المكتوبين بالخط الآشوري.

ثم أتبع ذلك بالتعليق عليه مثل قوله: من أين إذن أتت عظمة المسيحية التي يعلن عنها دائماً من أعلى المنابر بأنها هي الديانة الوحيدة لخلاصنا.

ومثل قوله: يتضح من ذلك أنه منذ ألف سنة أو أكثر قبل ظهور المسيح كانت هناك حكاية في العالم تشابه حكاية هذا النبي وكان لها اعتقاد عظيم في أفئدة هؤلاء الناس.

ومثل قوله: إن الاعتقاد الأجوف في هذه الحكاية وتلك الرواية لا تجلب إليكم « البسابورت » الجواز اللازم لدخول الحياة الأبدية. كل هذا ما هو إلا حكاية من حكايات ملاجئ الأطفال. إلى أن قال: وقد نصت الشريعة الإسلامية على أن السموّ الروحي متناسب مع ارتقاء العمل الإنساني في هذه الحياة، ولهذا السبب لا يمكن الإنسان أن يحصل على خلاصة إلا إلى الدرجة التي أظهرها بعمله

الشخصي في الدنيا . ثم خاطب أوروبا كلها قائلاً : لذا أطلب منكم جميعاً أن تعملوا الأعمال الروحية الطيبة فهي خير لكم من التفكير الكهنوتي الذي يقال إنه يسهل الوصول إليه بشبك عقيدتكم الخاوية فقط « بديوس » ، مع حكاية آلام بشر « عيسى نبي الناصرة » . انتهى كلامه .

وأقول أنا : قد اجتمعت بمؤلف هذا الكتاب في مصر وخطب خطبة في الجامع الأزهر وترجمها بعض الإخوان للحاضرين . وملخصها : أنه عرف سخافة النصرانية من صغره وأيقن بالإسلام بعد البحث ولكن خاف من إظهار إسلامه على شعور أبيه وأمه والكبار من أسرته . ولما ماتوا أظهر الإسلام ثم قال : إن ثلاثة أرباع الإنجليز موقنون بمثل إيقاني ولكنهم يخافون من كدر أقاربهم وأهلهم وقد كاشفوني بذلك .

ثم بعد ذلك تغديت معه على مائدة كنا دعينا إليها فخاطبني هو وصديقه « خواجة كمال الدين » والشيخ عبد المحيي ، قائلين : إن الإسلام يمكن انتشاره في أوروبا بسرعة إذا جاء من المصريين وفد ديني وعضدنا في هذه الدعوة . انتهى .

أقول : أفلا تعجب أيها الصديق الذكي لنعمة الله الواسعة وفضله العميم الذي أنعم به في هذا التفسير . ألست ترى أن هذا زمان ظهور الحقائق وأي حقائق بعد هذا البيان . اللهم إنا نحمدك على نعمة العلم وظهور الحقائق . لقد ظهر الحق واستبان أن هذا الإنسان كله قديماً اتبع المتأخر المتقدم في تعدد الآلهة . ثلث البابليون والآشوريون والمصريون وأهل الهند وأظهر الله عز وجل آثارهم على أحجارهم في زماننا وحده ، ولم يعرف هذا على هذا النمط إلا في زماننا ، وقد نشر هذا في هذا الكتاب . فأي يقين بعد هذا . أوليس هذا بعينه هو معنى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت : ٥٣] ، وقوله : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل : ٩٣] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة : ١٩] وهكذا من الآيات أصبح أمراً مشاهداً يرى بالبصر مع البصيرة ، فالحمد لله على نعمة العرفان ، انتهى .

ثم أقول بعد ذلك : أي ثقة بقيت بهذا الإنسان وبأقاصيصه . هاهي ذه العلوم الإلهية ـ ما بعد الطبيعة ـ ليس لأحد من أوروبا التي قلبت الكرة الأرضية فيها فضل . ألا ترى إلى ما ذكرته لك في سورة « النحل » عند قوله تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ [النحل : ٤٣-٤٤] ، فقد نقلت لك هناك ما خطه يراع معاصرنا الذي لم نره وهو الأستاذ « ستلانة الطلياني » إذ أبان هناك بالخط العريض أن فلاسفة أوروبا الحاليين والسابقين لم يصلوا لعشر معشار ما وصل إليه أمثال « سقراط » و« أفلاطون » فيما هو المقصود الحقيقي من الفلسفة وهي معرفة النفس والإله وما أشبه ذلك ، ولم ينبغوا إلا في العلوم الجزئية المشهورة . أما الأمور العامة العالية فقد قال : إن نسبتهم إلى فلاسفة اليونان فيها كنسبة البقة إلى الفيل . ونقل عن « اسبنسر » ما يفيد بعض ذلك .

فإذن أقول أنا : يا أمة الإسلام . هذه هي مقدرة النوع الإنساني . دياناتهم خرافات وهم أنفسهم أعلمونا بهما ، وعلومهم التي رقتهم علينا في الماديات لم تنلهم حظاً وافراً في العقائد ، وعليه يجب علينا نحن أن ندرس علومهم جميعاً لمنفعتها وشرفها ، ونستأنف المباحث الإلهية بأنفسنا لأن الشرق أقدر على ذلك من أوروبا ، فإننا أصحاب الديانات وأوروبا لم يكن فيها دين البتة . بل أهل الشرق هم

الذين حملوا هذه الخرافات التي تصيدها أهل الأرض المقدسة من خرافات الهنود ومن خرافات البابليين، وضحكوا على عقول أوروبا واعتنقوا دين نبي شرقي لم يصلب ولم يضرب ولم يجلد. ألا فليقم المسلمون بما يجب عليهم، وليكونوا للعلم حاملين وللحقائق مجدين ولأهل الشرق والغرب معلمين، والحمد لله رب العالمين.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦)﴾

اعلم أن هذه الآية بيت القصيد في هذه السور المتلاحقة. وأذكرك بما مر في سورة «آل عمران» عند ذكر عيسى ابن مريم، وأن هذه الجملة تضمنت العلم والعمل، والعلم والعمل هما ملخص الديانات كلها وأن هذه هناك عدت آية من الله لعيسى الخ. فهذا المقام مشروح هناك مفصل بجميع حذافيره مع نموذج من الديانات المشهورة في الأمم حولنا الآن، وسترى في هذا المقام بياناً أجمل وعلماً أكمل وحكمة أشمل وبهجة وبهاء ونوراً وسناء. سترى عجائب الحكمة وبدائع العلم وغرائب القرآن تجلت للناظرين وازينت للمفكرين، وأشرقت الأرض بنور ربها واستبانت حقائق لم تكن لتخطر لولا هداية الله ولا لتظهر لولا أنه أراد رقي الأمم في هذه الكرة بقدر معلوم.

اعلم أن الله قد مهد لهم هذه الآية بآخر سورة «الإسراء» وأول سورة «الكهف» وآخرها وبما مضى من سورة «مريم»، فهذه السور الثلاث المكيات المتلاحقات تعاونت أوائلها وأواخرها على أن تكون مقدمات لآيتنا التي نحن بصددها. ألم تر أنه في آخر سورة «الإسراء» يقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾[الآية: ١١١] الخ، ثم أعقبها في أول سورة «الكهف» بقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الآية: ٢] الخ. فهو يبشر المؤمن الصالح وينذر من قالوا إن لله ولداً، فهذه راجعة لاتخاذ الولد في آخر السورة قبلها، فالآيتان متصلتان وبعبارة أخرى: اتصل أول «الكهف» بآخر «الإسراء» حتى كأنهما سورة واحدة. فهناك حمد على عدم اتخاذ الولد مختوماً بذكر أن الله كبير، وهنا أي في أول سورة «الكهف» حمد الله على إنزال الكتاب، ثم ذكر البشارة للمؤمن الصالح، والإنذار لمن قال إن الله اتخذ ولداً، ثم ختم سورة «الكهف» بطلب العمل الصالح وعدم الشرك في العبادة ومن الشرك في العبادة اتخاذ الولد. فالعمل الصالح المسبوق بالإيمان هو الذي في أول السورة، والشرك في آخرها راجع لاتخاذ الولد في أولها، كل ذلك مقدمة لأول هذه السورة إذ ذكر فيها مريم وابنها وختم ذلك بما هنا وهو أن الله إذا أراد شيئاً ما لا عيسى وحده قال له كن فيكون. ولا جرم أن القول هنا هو المذكور في سورة «النساء»: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[الآية: ١٧١]، فالقول هنا ليس خاصاً بعيسى ابن مريم. يقول الله: أنا قلت فيما تقدم إن عيسى كلمتي، ولكني أقول هنا: ليس عيسى وحده كلمتي بل كل ما في هذه الدنيا كلماتي. ألم أقدم لكم أيها الناس في آخر سورة «الكهف» إن كلماتي لا يحصرها العدّ وليس لها حد، فلو كان البحر مداداً لكلماتي لنفد البحر والبحران والأبحر السبعة وأكثر من ذلك، كل هذا كلماتي.

أيها الناس إني أنزلت هذا القرآن لأمم مريداً فطنتهم . فأنا قدّمت في سورة « النساء » أن عيسى كلمتي ، وختمت سورة « الكهف » بأن كلماتي لا حد لها وذلك بعد أن أبنت في قصة الخضر وموسى على لسان رسولي أن علمي لا حد له ، ورمزت قبل ذلك إلى ما أريد من بيان جهلكم بقولي في سورة « الإسراء » : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الآية : ٨٥] . فيكون ملخص هذا أن الإنسان جهول لا طاقة له أن يعلم علومي التي لا نهاية لها ، ومعلوماتي كلها كلماتي وعيسى كلمة منها . هذه هي المقدمة التي أنزلها الله لفهم آية : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾[مريم : ٣٥] .

عظمة الله

لقد تجلت عظمة الله المشار لها بقوله تعالى : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾[الآية : ١١١] في آخر « الإسراء » وبقوله في آخر « الكهف » : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ ﴾[الآية : ١٠٩] الخ في هذا العصر .

ألا ترى إلى ما تقدم في آخر سورة « الكهف » أن شمسنا التي هي أعظم من أرضنا ألف ألف وثلاثمائة ألف مرة أقلّ من كوكب الجوزاء ٢٥٠ ألف ألف مرة . فإذا كانت شمسنا العظيمة أصبح الكشف الذي لم يظهر إلا هذه السنة يبين لنا أن نورها بالنسبة لنور الجوزاء كنور حشرة الحباحب بالنسبة لنور الشمس ، وأن مقدارها شيء صغير بالنسبة لمقدار الجوزاء كما تقدم في الخطبة الفلكية ، فذلك دالّ على أن عظمة الله وكبرياءه أخذت تظهر الآن ، وأن كون البحر وأمثال البحر لو كانت مداداً لكلمات ربي لنفد البحر ، هذا زمان انكشاف قدر يسير منه . وبهذا استبان جهل الإنسان المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء : ٨٥] ، ذلك لأنه كلما بدا لنا نجم وظهر لنا سديم علمنا علماً ليس بالظن أننا لم نعرف منه إلا بعده وقدره ونوره بطريق الحساب ، ولكن جهلنا به عظيم فلا نعرف سكانه ولا سياراته ولا حيوانها ولا نباتها ولا شيئاً من مخلوقاتها .

بيان ما ترتب على جهل الإنسان قديماً وحديثاً

لقد تقدم في الخطبة الفلكية أن عمر الإنسان على الأرض نحو (٣٠٠) ألف سنة على سبيل الحدس والتقدير ، ويقول قوم آخرون إن مدته أقل ، وأقل الأقوال أنها (٥٠) ألف سنة ، ولكن هذا الإنسان في تلك المدة ظهر جهله العظيم لماذا؟ لأنه أراد أن يعرف خالق الكون فبحث عنه في الشمس والقمر والكواكب والحيوان والنبات والإنسان . بحث في هذه العوالم أي في هذه الكلمات ، وتلك الكلمات منتظمات ، فهي في هيئتها أشبه بنظام الموسيقى ، ونظام الموسيقى مطرب مفرح سارّ مبهج للسامعين .

إن كلمات الله المذكورة في الآية التي نحن بصددها التي لم تخصّ عيسى بل شملت السماوات والأرض وغيرهما وعلت إلى الجوزاء وما هو أكبر منها ، وهكذا شملت كل حشرة صغيرة وكل حيوان كبير وما هو أقل وأصغر . كل ذلك كلمات مطربات منعشات مفرحات سارات مبهجات ، ولكن الموسيقى في كلمات الله يدركها البصر ، والموسيقى في كلمات الإنسان يدركها السمع . ولا جرم أن من يسمع صوتاً موسيقياً من مغن قد أطربه غناؤه وأسكره نغمة يودّ لو يرى ذلك المغني ويود لو يتصل به اتصالاً . وبعبارة أخرى : إن الرجل إذا سمع الصوت الجميل من امرأة جميلة وبالعكس يعشق كل من الصنفين الآخر المغني ويود لقاءه والاجتماع به .

إن الله ضرب الصوت الجميل والموسيقى في الأرض مثلاً لنا لنحبه. فالعالم كلماته وكلماته حينما نتدبرها نراها موزونة كما اتزنت الموسيقى. وبعبارة أخرى: إن العوالم العلوية والسفلية جميعها كما هو واضح في هذا التفسير منتظمة، أي مقدرة بمقادير هي عينها المقادير التي في الموسيقى. والاستلذاذ بنظام هذه العوالم من مقادير الحركات الفلكية في سير الكواكب ونظامه الموسيقي المشروح شرحاً تاماً في مواضع من هذا التفسير وفي النبات والحيوان وغيرها المعروف كذلك فيما تقدم بسبب أنه موسيقى للمفكرين، كما أن الصوت الجميل موسيقى للناس أجمعين. إذن كلمات الله كلها موسيقى، أي مستلذة يستلذها العقل بعد التعلم كما يستلذ الجاهل بأصوات الموسيقى بلا علم ولا تعليم.

وضوح جهل الإنسان في العصور السابقة

أقول: إن الإنسان في هذه الآلاف من السنين يبحث عن ربه ليعرفه فكان أشبه بالخفاش لا ينظر إلا في الظلام، ذلك لأن هذا العالم الأرضي الذي نسكنه عالم صغير متأخر وأي شيء الأرض ومن عليها، ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[المائدة: ١٧] فالأرض لا وزن لها وأهل الأرض مغرورون بنفوسهم. وإذا كانت أرضنا بالنسبة لشمسنا صغيرة وشمسنا بالنسبة للجوزاء كالمعدوم فبإذن ظهر قوله، ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ ﴾[المائدة: ١٧] الخ.

وإنّما خص المسيح بالذكر مع أمه لأن المسيح ابن مريم اتخذه الناس ابناً لله مع أنه من الكلمات الإلهية؛ فعقول هؤلاء الناس في آلاف ومئات الآلاف من السنين الماضية ليس لها قدرة على أن تدرك قائل الكلمات، أي: خالق العالم، وإنّما الناس أشبه بمن سمع مغنياً يغني بصوت جميل فتلقف كلماته ولم يفكر في قائله لأن عقله وقف عند القول ونسي القائل.

إن الأمم قبلنا كما اتضح في سورة «آل عمران» وغيرها وكما جاء فيما نقله صاحبنا «اللورد هيدلي» الإنجليزي وكما جاء في آخر سورة «المائدة» نحوا هذا المنحى، أي أنهم لم يتعدوا المخلوق إلى الخالق، فبدل أن يقولوا نعبد الله رأساً نظروا إلى كلمة من كلماته الموسيقية ففتنوا بها فيرون الرجل العظيم قد ولد بينهم بهيئة عجيبة لم يسمعوها وتظهر على يديه خوارق ويسمعون منه علماً غريباً فيقولون إن هذا ابن الله. ولم هذا؟ لأنهم أدركوا هنا جمالاً بهرهم وسحرهم كما يسحر صوت الموسيقى سامعه، فيقفون عند هذا ولا يتعدونه، ويقولون: لا علم إلاّ ما قاله ولا نور إلاّ نوره، فترى النصارى فتنوا بعيسى لأنه كلمة موسيقية من كلمات الله، وهذه الفتنة والغرام ظاهرة فيما تقدم في سورة «الإسراء» من الفتاة التي فكرت في آلام المسيح فظهرت أعراضها عليها يوماً في الأسبوع، وهذه الحادثة تكررت. فهذه وأمثالها قد حصروا أفكارهم في كلمة من كلمات الله التي كلها جميلة، واليهود فتنوا ببعض المصطفين منهم كالعزير فقالوا ابن الله.

وأهل الهند قديماً فتنوا ببوذا وخريستا فقالوا لكل منهما إنه ابن الله، وأهل بابل وآشور فتنوا بمن قالوا إنه ابن الله، وأهل المكسيك لما فتحها أهل أوروبا وجدوا عندهم عقيدة ابن الله، وأهل التبت كذلك عندهم ابن الله. وكل هذا تقدم في هذا التفسير، ولذلك يقول الله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾[التوبة: ٣٠] الخ.

ويقول أيضاً: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[البقرة: ١١٣]، وهذا التشابه لم يكشف إلا في زماننا ولم يعرف الناس أن هناك أبناء لله غير المسيح من قبلنا، فالقرآن ذكره والكشف الحديث هو الذي أظهر ذلك معجزة كبرى للقرآن، وكل هذا تقدم في مواضعه.

ومن العجب أن تشابه قلوب الأمم عام، فتجدهم جميعاً يقولون بالتثليث وبالبنوة وبأنه كلمة الله وبالصلب، فالصلب عام والتثليث عام والنبوة عامة. هذه جهالة هذا الإنسان في ٥٠ ألف سنة أو في ٣٠٠ ألف سنة.

الإسلام أخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور

إن الله قد مهد للإسلام بدين إبراهيم كما تقدم في سورة «الأنعام». إن الله علم أن هذا الإنسان يقف عند كلمة من كلماته فيغرم بها وينسى المتكلم. فأهل بابل فتنوا بالكواكب فأرسل الله إبراهيم فقال لهم: كلا. فالشمس والقمر والنجوم مخلوقات لله وأنا وجهت وجهي إليه. فأما الأصنام التي جعلتموها قائمة مقام الكواكب فهاهي ذه أنا أكسرها لكم. ولما جاء الإسلام أتم ما فعله إبراهيم من تكسير الأصنام وقال: أيها الناس توجهوا لربكم ولا تعبدوا شمساً ولا قمراً ولا صنماً الخ. وعمد إلى البنوة والكلمة فقال: أيها الناس تعالوا انظروا أي فرق بين القمر والشمس والإنسان.

كل هؤلاء كلمات الله، فكما لا تقفون عند أنوار الكواكب فتعبدوها هكذا لا تقفون عند الأنوار العلمية في عيسى وغيره فتعبدوه. فالأنوار المعنوية في عيسى مثلاً وهو كلمتي كالأنوار الحسية في الشمس وهي كلمتي فجميع كلماتي موسيقية.

هاهنا فتح الله للإنسانية بالقرآن فتحاً جديداً مريداً ازدياد العلم ونشر الأنوار في الأرض، إن نفي الولد وتعميم الكلمات معناه أن ننظر لكل حجر ولكل شجر ولكل حشرة ونقرأ الجمال الذي فيها، ولكنا نقول: إن جمال هذه الكلمات جمال خالقها ولا نقف عندها وإلا وقعنا فيما وقع فيه السابقون فمن الناس من يعبد البقر أو القرد أو الحية أو الثعبان أو الفيل أو الغنم، وهكذا توجهت عبادة هذا الإنسان كلها لكلمات الله وذلك لضعف هذا الإنسان فإنه لا يقدر أن يفتح بصيرته للمتكلم بل لبعض الكلمات، إن الإنسانية السابقة أغلبها كانت محصورة الفكر فقال الله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣] يريد الله بالقرآن أن يفتح باب العلم، وقد فتح على مصراعيه، وأخذ الناس يقرؤون علم الفلك فتعدّوا حدود ذلك الإله عند القدماء وهي الشمس، وقالوا: كلا، ثم كلا، الشمس ليست بإله بل هي صغيرة جداً، ولو أن الشمس ظلت معبودة كما كان الصابئون يقولون لم يجترئ نوع الإنسان أن يتعدى على إلهه ويقول إن هناك ما هو أعظم منه. وهكذا علم الناس أن المسيح وأمثال المسيح لم يكونوا آلهة، ولذلك أخذوا يبحثون في الآثار فظهر لهم أن الديانات كلها متشابهة، وأن هذه النبوة خدعة من خدع العقل كما يخدع البصر فيرى الضوء الصغير في ظلام الليل كبيراً.

هاهنا عرف الناس اليوم حقاً أن هذا العالم كله قول الله وكلماته كنص القرآن ولو أن عيسى هو الكلمة وحده أو بوذا أو غيرهما لوجب علينا أن لا نقرأ إلا علمهم وأن لا نتعداه وأن نحارب عن هذه العقائد من خالفها، لقد انطلقت عقول الناس اليوم وأخذ الفكر الإنساني لا يلوي على أحد.

واعلم أن هذا القول لا ينطبق إلا على المفكرين في نوع الإنسان اليوم، أما بقية الشعوب النصرانية والإسلامية وغيرهم فهم أشبه بالأمم الذين من قبلهم بعض الشبه. فالجهال من المسيحيين لا يزالون كآبائهم، وعامة المسلمين مع إيمانهم بالله ورسوله لا يزالون عاكفين وموقوفة عقولهم على بعض شيوخ الصوفية الجاهلين أو على بعض الآراء لا يبرحونها. وترى الفقيه يرى أن الفقه هو كل شيء في الإسلام، وعالم البلاغة أو عالم القراءات يرى أن هذا أهم ما في الإسلام وذلك لضعف هذا الإنسان. وليس معنى هذا القول أننا مشركون. كلا. وإنّما معناه هو نفس ما تقدم في « آل عمران » عند قوله تعالى: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[الآية: ٢٤]، فقد ذكرت لك هناك أنواع المغرورين حتى عم الغرور أكثر طوائف الإسلام، والغرور شيء والإشراك شيء آخر. فترى السني والشيعي والزيدي والإمامي لا يتعدى بصر كل منهم ما سمعه من شيوخه، فالحنفي والحنبلي والمالكي والشافعي وغيرهم كل لا يتعدى الدائرة التي حدها شيوخه، ولكن الله يقول إن كلماتي لا حد لها. فليرفع هؤلاء أبصارهم إلى نفس القرآن وليفهموه، والقرآن يرفع الأبصار إلى كلمات الله العامة وهي هذا العالم الذي كله كلمات الله المنظورة الجميلة بخلاف كلمات الإنسان فهي ليست مجسمة فلا نعرفها إلا بأسماعنا وحدها.

وكلمات الله جمالها يؤدي إلى أمرين: أولاً: أن نعيش بها، ثانياً: أن نعقلها. ومن وقف على مذهب ولم يرفع بصره إلى الدوائر النبوية ثم الدوائر الإلهية وهو هذا العالم فهو مغرور جاهل طمس الله على بصيرته، فما كانت قصة عيسى ابن مريم عليه السلام وكلمات الله وأمثالها لتنزل في القرآن لمجرد الإيمان بأن الله لا ولد له فحسب، فنحن بذلك مؤمنون فلا نحتاج إلى مزيد، بل هذا أرضعناه مع لبن الأم من الإيمان الموروث ولكن الأمر أعظم. يريد الله أن يعتق العقول حتى لا يحجر عليها ولا يقف الملوك والأمراء مكتوفين خائفين وجلين في الأحكام الشرعية مثلاً، ولا ينظرون في الزمان والمكان والأحوال ويحكمون أحكاماً ضارة بالأمة ضرراً محققاً جهلاً بأحوال الشريعة وعكوفاً على آراء الشيوخ. فليعلم المسلم أنه كما أن له أبوين يعظمهما فلم يمنعه احترامهما من أن يعلم أن له قرية وأمة يدرسها كلها ليشارك في نظامها، هكذا له مذهب وهذا المذهب لا ينبغي أن يحجبه عن القرآن ودراسة أحوال النبوة العامة. وقد تقدم شرح الأحكام الشرعية في قصة الخضر وموسى عليهما السلام في سورة « الكهف » ولا عن نظام الله في السماوات والأرض.

فلتدرس أيها الذكي ذلك كله في غدوك ورواحك فكل ما تراه دروس لك. هنالك تعلم علماً ليس بالظن أن لك إخواناً في دينك وهم المسلمون، كما أن لك إخواناً في وطنك وهم معك قاطنون، كما أن لك إخواناً في الإنسانية عامة في هذه الأرض بينك وبينهم رابطة، والله ربك وربهم وكلهم كلمات الله، وهكذا ترتقي طبقاً عن طبق كما قال تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾[الانشقاق: ١٩]، وهذا الركوب الطبقي ركوب بالعلم، فتتخطى هذه الحدود وتعلم أن الحيوان والنبات وكل ذي نفس أياً كان بينك وبينه نسبة ما، وكل هذه النفوس الأرضية لها نسبة إلى نفوس كلية عالية رمز الله لها بالملائكة الذين يدبرون الأمور، فإلهام بني آدم وإلهام الحشرات والبهائم يرجع كل ذلك إلى عالم يسمى بلسان الشرع « ملائكة » ويرتقي ذلك العالم طبقاً عن طبق ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٢٧].

فهو المبدأ الأول وإليه ترجع النفوس التي استمدت نفسك منها كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ﴾[هود: ١٢٣]، وقال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم: ٢٧].

ونظير هذا في المادة أن القمر منسوب للأرض والأرض منسوبة للشمس كذلك، ولعلها أيضاً منسوبة إلى شمس أكبر منها، وهذا واضح في سورة «الفاتحة» فاقرأه هناك. ولا تنس أنك تدرس الكواكب في هذه الدنيا لتتمرن من الآن على الشوق إلى عوالم أعلى منا تكون بيننا وبينهم رابطة كالرابطة التي بينك وبين بني الإنسان وأهل دينك، فإذا وقف عقل المسلم عند مذهبه حرم من الصعود إلى الجمال الأعلى. هذا ما فتح الله به ليلة الخميس ٢١ يونيو سنة ١٩٢٨، والحمد لله رب العالمين.

تفصيل لبعض الإجمال

لما ذكرت ما تقدم حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في المسائل الهامة فقال: هل قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾[مريم: ٣٥] الخ يحتاج معناه إلى الدخول في علم الموسيقى، وما لكلمات الله وللموسيقى، الموسيقى علم يرجع إلى نظام الأصوات، وهذا العالم ليس صوتاً بل هو مادة ومعنى. فقلت: لو أنك أيها الفاضل تذكرت ما مضى في مواضع من هذا التفسير أو قرأت كتابي «بهجة العلوم في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية» لأيقنت أن الموسيقى عند الحكماء ترجع في حقيقتها إلى نظام هذا العالم، وما الموسيقى التي مرجعها الصوت إلا فصل من فصولها لتكون سلوى للعامة كما كانت الموسيقى العامة بهجة للحكماء. قال: إذن أريد أن تضرب هنا مثلاً يعرفنا الفرق بين موسيقى الأصوات والموسيقى العامة. فقلت:

الموسيقى في الأصوات

أذكرك بما مضى في سورة «يوسف» إذ ذكرت لك هناك أن بحر الطويل مركب من «فعولن مفاعيلن» أربع مرات وجملتها ٤٨ حرفاً منها ٢٨ متحركة وعشرون ساكنة. وهناك ترى النسبة واضحة فتجد ٧ منسوبة إلى ٥ كنسبة ١٤ إلى ١٠، وهكذا، وحاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين. وهذا المقام لا تصح إعادته هنا فقد تكرر في مواضع أخرى غير سورة «يوسف» فلأعدل عنه إلى علم الموسيقى في العصر الحاضر ولأرك النسبة عند المحدثين من علماء أوروبا الذين جعلوا هذا العلم من العلوم الطبيعية وخالفوا المتقدمين الذي جعلوها من العلوم الرياضية ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[البقرة: ١٤٨]، فعلماء العصر الحاضر رجعوا إلى طبيعة الصوت وهو أمر طبيعي، والمتقدمون نظروا إلى حساب حركاته فعدوه رياضياً، ولقد ذكرت إجمال تاريخ هذا العلم في كتاب «الفلسفة العربية» المذكور فقلت ما ملخصه: «هذا العلم كان قديماً اختيارياً يأخذونه قياساً على نطق الحيوان. ولقد كان ألطفه عندهم في العصور الدائرة ما يحاكي به الطير البري عند الصياح في الرياض المشتبكة والحدائق البهجة ذوات المياه الجاريات، ولا سيما العندليب والهزار المطوقة، وكانت طائفة من الناس يستلذون النغمات التي يسمعونها من خرير المياه فيقيسون نغماتهم على نغمات الحركات المسموعة منها في المصابّ المختلفة والنواعير والدوالي. ومنهم من كانوا يحاكون الهواء عند دخوله في المنافذ يصنعونها، وكان الصين على هذه الطريقة، والهند كانوا يلحنون على طرق الأواني المجوفة، وقدماء الروم كانوا يجعلون ألحانهم في النحاس والخشب، وبذلك لحنت الأناجيل في الكنائس».

هذا بعض ما ذكرته هناك، ويقول علماء الموسيقى في العصر الحاضر: إن الآلات الموسيقية على قسمين: آلات يحدث الصوت منها بالنقر على أوتارها وتسمى ذوات الأوتار، وآلات يحدث منها الصوت بالنفخ على صفائح رقيقة فيها وتسمى آلات النفخ. فالأولى مثل: القانون والعود والطنبور. والثانية مثل: الأرغن والصور، وآلة أخرى تسمى المسحورة.

أقول: ويجمع هذين « الطبل والمزمار » في بلادنا المصرية. فالطبل من النوع الأول والمزمار من النوع الثاني، ومن ذوات الأوتار « البيانو » وهي آلة لها أصوات معينة تصوتها أوتار نحاسية خاصة وهذه الأوتار تهز بمطرقة تحركها عدة « أمخال » منحنية متصلة بمفاتيح البيانو. وحدوث الصوت في آلات النفخ كالمزمار بسبب اهتزاز عمود الهواء الذي داخلها وتموجه، فيكون الهواء هو الجسم الصائت فيها بخلاف ذوات الأوتار التي لا يكون الهواء فيها إلا موصلاً للصوت، فمتى نفخ عليه من ثقب ماجت أمواج الصوت إلى الأمام والخلف داخل آلة النفخ وهزت الهواء حولها كما يهزه الوتر المضروب في ذوات الأوتار، فتكون منزلة عمود الهواء في آلات النفخ منزلة منزلة الوتر في ذوات الأوتار ومنزلة النفخ عليه منزلة الضرب على الوتر.

فقال صاحبي: قد تركنا التفسير وغصنا في علم خارج عنه. فقلت له: كلا، لا تعجل عليّ فسترى أن هذا نفس التفسير، فما هذا إلا مقدمة لا بد منها لشرح صوت الإنسان، فلقد ذكرت كثيراً نقلاً عن علماء العصر الحاضر أن الإنسان لا يدرس نفسه إلا بدراسة ما حوله، فنحن لا نقدر أن نعلم صوت الإنسان ونغماته المطربة إلاّ بدراسة الآلات المحيطة به، وهذا الذي ذكرته سترى جماله الآن، ومتى درسنا صوت الإنسان ونظام غنائه عرفنا حساب الموسيقى في العلم الحديث ثم نوازنه بنفس خلق الإنسان، وهل نغمات الإنسان في حسابها كهيئة خلق جسمه في الرحم وحسابهما واحد. ثم نذكر مسألة داهر بن صصة الحكيم الهندي وما اقترحه على ملك الهند وهيئة الحساب الذي اختاره في أمر البر الذي جعله محسوباً بالمتوالية الهندسية على مقتضى بيوت الشطرنج من (١) إلى (٦٤).

فقال صاحبي: هذه كلها أمور غريبة فأرجو إيضاحها. فقلت: إذن أدركت وصدقت أننا لم نخرج عن التفسير وأننا نريد أن نقف على نظام التكوين الإنساني مثلاً، حتى ندرك كيف كان أمره في أعماله عجباً، فعبده الناس لما ظهر على يديه كما كان أمر خلقه عجباً، فقال: نعم. فقلت: فلا بد إذن بالكلام على:

آلات الصوت في الإنسان

اعلم أن كل ذوات الفقرات من الحيوان ومنها الإنسان لها آلات صوت تصوّت بها مودعة في قسم من جهاز التنفس، وكثير منها قادر على تغيير صوته وتكييفه، والإنسان خاصة يغير صوته بصور شتى ويحصل التكلم ببعضها. وآلات الصوت في الإنسان:

(١) تجويف الصدر. (٢) والقصبة. (٣) والحنجرة. (٤) والبلعوم. (٥) والفم. (٦) والأنف. (٧) وما يتعلق بها.

فأما تجويف الصدر فإنه يضيق ويتسع بالتنفس فيضغط الرئة تارة ويتركها تتمدد أخرى فيخرج الهواء منها متى ضغطت ويدخل إليها متى تمددت فيكون هو والرئة بمنزلة المنفاخ في « الأرغن »، وعند

خروج الهواء من الرئة يدفع إلى القصبة ومنها يضرب، وترى الصوت في الحنجرة فيصوتان فتكون القصبة بمنزلة طرف أنبوبة «الأرغن» ووتر الحنجرة بمنزلة فمها.

فأما البلعوم والفم والمنخران فإنها تغير الصوت وتكيفه تارة باتساعها وأخرى بتضييقها ونحو ذلك، فتكون بمنزلة رأس الأنبوبة الذي تتصل منه اهتزازات عمود الهواء بالهواء الخارجي.

هذا كلام علماء العصر الحاضر وهو عجيب، فقد جمع الإنسان نوعي الآلات المطربة، فله آلات نفخ وآلات وتر معاً. وقد يعيش الإنسان ويموت وهو يغني أو يسمع آلات الطرب وهو لا يعلم تركيب جسمه، فلننظر الآن إلى صوت هذا الإنسان فنقول: تقدم ما أشرنا إليه من حساب المتقدمين وأنه على مقتضى النسبة الهندسية. أما حساب المتأخرين فإنهم يعتبرون المتوالية الهندسية في صوت الإنسان فقد قالوا: أولاً إن حدوث الصوت الإنساني ناجم من اهتزازات الوترين الصحيحين في الحنجرة عندما يضرب عليهما الهواء مدفوعاً من الرئة، وهذان الوتران قابلان للشدّ والرخي كالأوتار في ذوات الأوتار، فإذا كان الإنسان صامتاً كانا مرتخيين ومنثنيين وفتحة المزمار بينهما واسعة فلا يصوّتان بوقوع الهواء عليهما. وإذا أراد أن يصوّت شدهما بقدر ما يريد أن يرفع الصوت فتضيق فتحة المزمار بينهما. ومدى الصوت الإنساني القويّ (٧٠٠) قدم في الفضاء على درجة الهواء الاعتيادية.

مجال السمع

قال العلامة «هلمهلتز»: أخفض الأصوات الموسيقية ما اهتز ١٦ اهتزازة في الثانية وأعلاها ما اهتز ٣٨٠٠٠ اهتزازة في الثانية. فإذا نقص عددها عما ذكر سمعت طقطقة كل اهتزازة ولم يحدث منها صوت موسيقي. ويقول: إن مجال السمع الإنساني يمتد إلى ١١ ديوان ولكن مجال الموسيقى الاعتيادي لا يزيد عن سبعة دواوين. فلما سمع صاحبي ذلك قال: كلام هذا العالم غير واضح. قلت له: نعم ولكن سأنقل لك ما هو واضح وهو آخر الآراء ولأجله جاء هذا المقال.

إدراك الإنسان للأصوات

ينحصر في عشرة دواوين أي أبعاد كلية موسيقية، أي في أصوات تموجاتها بين ١٦ موجة في الثانية و١٦٣٨٤ في الثانية، فهي هكذا ١٦ ـ ٣٢ ـ ٦٤ ـ ١٢٨ ـ ٢٥٦ ـ ٥١٢ ـ ١,٠٢٤ ـ ٢,٠٤٨ ـ ٤,٠٩٦ ـ ٨,١٩٢ ـ ١٦,٣٨٤. فهذه عشرة دواوين أو أبعاد.

ومعنى هذا أن القوم عندهم آلة قياس تموجات الصوت، فإن بلغت ١٦ موجة في الثانية بهيئة منتظمة كان ذلك صوتاً موسيقياً، وبالتضعيف لهذا العدد في الثانية يكون قد تم أول ديوان ٣٢ وضعفه ٦٤ في الثانية يكون ديواناً ثانياً وهكذا إلى نهاية العشرة. وبالتأمل في هذه الدواوين نجد أن القاعدة المتقدمة مطردة، أي حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين، فضرب ١٦ في ١٢٨ يساوي حاصل ضرب ٣٢ في ٦٤، وهكذا مثل ما تقدم عند القدماء وإن كان ذلك بطريق آخر. فبهذا عرفت عشرة الدواوين، ولكن النغمات المستعملة عادة في الموسيقى تنحصر في سبعة دواوين أو أبعاد كلية من (٣٢) إلى (٤٠٩٦) فهذا تحقيق المقام في صوت الإنسان.

واعلم أن الله عز وجل أحكم صوت الإنسان على هذا الوضع وجمله ليكون قوله منتظماً وجميلاً لأمرين: الأمر الأول الإفهام. الأمر الثاني إحداث الأثر في قلوب السامعين بحسن الإلقاء

وجمال الأسلوب ، فلم يخلق الله لنا ذلك المنفاخ وذينك الوترين إلا لنستعملهما في حسن الإلقاء فنفهم الناس ونؤثر في أذهانهم بحلاوة منطقنا . هذه هي الحكمة الإلهية التي أبرزها الله في خلقنا وأكملنا به وجملنا ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الروم: ٦-٧] كالعلم الموسيقي وسماع النغمات وهم عن بواطن الخلق ومحاسنه وعن أنفسهم غافلون .

هذا ما أردت ذكره في نظام موسيقى الصوت الإنساني وحسابه الجميل ، وموازنة هذا الحساب بحساب انقسام الخلايا في خلق الجنين وحساب بيوت الشطرنج . وقبل أن أنتقل إلى هذين المقامين أذكر فوائد في الموسيقى جميلة تناسب ما قدمناه . يقول علماء الموسيقى في عصرنا : إذا أدخلت أصبعك في أذنك وقبضت عضلات يدك قبضاً شديداً سمعت صوتاً عمقاً كصوت الجرس الكبير يهتز (٣٢) اهتزازة في الثانية .

ويقولون : إن البعوضة تصفق جناحها وهي طائرة ١٥٠٠٠ خمسة عشر ألف صفقة في الثانية ، وإن طول الأمواج في صوت المتكلم من ثمانية أقدام إلى اثنتي عشرة قدماً ، وطول الأمواج في صوت المتكلمة من قدمين إلى أربع في الثانية . ويقولون : إذا أسرعت دقات الساعة مثلاً حتى صار عددها خمسين أو ستين في الثانية صارت صوتاً موسيقياً ، وأحدث وقوعها على الأذن شعوراً متصلاً في النفس . وإذا جرى دولاب على (٣٥) حصاة في الثانية يتصل صوت طقطقته عند قرعه على الأذن فتسمع النفس صوتاً موسيقياً ثخيناً للدولاب ، وقد شبهوا وقوع الصوت غير الموسيقى على الأذن بوقوع الضوء المرتجف على العين ، لأن عصب السمع يتألم منه فتمجه النفس كما تتألم العين من تعاقب الضوء والظلمة على عصب البصر . ويقولون : إن الطبيعة مستعدة لإحداث الطرب ، قال العلامة « تندل » : إن الاحتكاك يغني كما يغني المغني ، فإذا أطلقت رصاصة في الهواء غردت كتغريد الطير ، وإذا هزت الريح الأغصان مالت ولها حنين . وهذا ما أردت ذكره ملحقاً بصوت الإنسان في الموسيقى .

خلق الجنين في بطن أمه جار على ناموس أبعاد الموسيقي المتقدمة

هذا المقام سيتضح بالمشاهدة للصورة الشمسية لنظام خلق الجنين قريباً في سورة « طه » ، فإنك سيتضح لك هناك أن البيضة تقسم نصفين وكل نصف ينقسم وهكذا (١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ ـ ٣٢ ـ ٦٤ ـ ١٢٨) وهكذا إلى (١٦٣٨٤) وهكذا بالغاً ما بلغ ، وفي أثناء تلك المضاعفة يحصل نظام جميل أو هيئات محكمة من خلق الأعضاء والأحشاء والعضلات والأوتار والأعصاب والحواس الظاهرة والحواس الباطنة وهكذا ، فاعجب لنظام محكم موسيقي أرانا الله صورته في نظام أصواتنا فسحرنا جماله عند سماعه من ذوي الأصوات الجميلة ، وأرانا أن أصواتنا ليست كلها موسيقية ولكن جميع أعماله موسيقية منظمة . ولقد برع بعض بني آدم في العلم والحكمة ، وتشبهوا بالله في حكمتهم ، فظن الناس أنهم أبناء الله ، أو وقفت عقولهم عندهم ورأوا العلم خاصاً بهم فرجعوا بخفي حنين ، ولكن الله يقول : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[مريم: ٣٥] فجميع مخلوقاتي كلماتي فلا يعبد الناس أحداً من خلقي ، وكلهم كلماتي وكلماتي لا تحصون عدّها .

أما مسألة الشطرنج وحساب بيوته فستأتي أيضاً مع حساب نظام الجنين في سورة « طه » إذ يحسب البر بحيث يكون للبيت الأول حبة وللبيت الثاني (٢) وللثالث (٤) وللرابع (٨) وللخامس

(١٦) وهكذا إلى (٦٤) بيتاً وهي عدد بيوت الشطرنج ، فظاهر الأمر أنه يكفي فيها قمح معلوم مثل « كيلة » أو « أردب » وسترى أن ذلك الحساب لا يكفيه القمح الذي فوق الكرة الأرضية كلها قروناً كثيرة ، وسيتضح هناك فاقرأه.

هاهنا يتبين أن نظام الغناء أنتج السرور . ونظام الجنين أنتج عجائب الإنسان . ونظام الحساب في بيوت الشطرنج أنتج مقادير عجيبة لا تخطر بالبال ، والحساب واحد في الأحوال الثلاث فهي متوالية هندسية حاصل ضرب كل طرفين فيها يساوي حاصل ضرب الوسطين . ومن نتائج هذا الجمال في الحساب ظهور أنبياء وعظماء تظهر على أيديهم العجائب والعلوم ، فيظن الناس أنهم أبناء الله أو تقف عقولهم عند آرائهم كالمسيحيين في الأول وكالجهال من أمم الإسلام في الثاني ، والله يقول : هؤلاء كلهم كلماتي فلا يحجبكم كلامي عني ولا تصدنكم كلمة عن الأخرى ، فاقرؤوا كل علم وكل فن وخذوا الحكمة أينما وجدتموها ، وهذا من أنوار قوله تعالى : ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[مريم : ٣٥] .

ذكر الكلمة في الديانات القديمة

لقد ذكرت في هذا التفسير أني نقلت من كتاب « العقائد الوثنية في الديانة النصرانية » في آخر سورة « المائدة » موازنة بين الآيات المذكور في دين « خريستا » في الهند « وبوذا » أيضاً ، وبين ما جاء في الأناجيل ، ونقلت أيضاً من ذلك الكتاب جملاً في أوائل سورة « البقرة » شارحاً مسألة التثليث . وأريد هنا أن أنقل من الكتاب ما يناسب الكلمة حتى تعلم لماذا ذكر الله الكلمة والكلمات في القرآن . وقد قلنا فيما تقدم في « المائدة » أيضاً إن هذا الكتاب منقول من نيف وأربعين كتاباً باللغات الإفرنجية .

(١) مثل « ويليام » الحكمة الهندية .

(٢) ومثل « ويليام الهندية » .

(٣) ومثل « فشنو بوراتا » ترجمه للغة الإنجليزية عن السنسكريتية « ويلسون » .

(٤) ومثل « موريس » الآثار الهندية القديمة .

(٥) و« موريس » تاريخ الهند .

(٦) و« مولر » تاريخ آداب اللغة السنسكريتية القديمة .

(٧) و« موري » الخرافات .

(٨) الديانات الشرقية

(٩) « برسكوت » تاريخ فتح المكسيك .

(١٠) « برتشير » حل الآثار المصرية التاريخية .

(١١) « سكوير » رمز الأفعى .

وهكذا بقية الكتب التي لا مقتضى لذكرها جميعها هنا ، فلنذكر شذرات في مسألة الكلمة مما نقله المؤلف منها فنقول : جاء في هذا الكتاب صفحة (١٨) نقلاً عن « برتشرد » من كتابه « خرافات المصريين الوثنيين » صفحة (٢٨٥) ما نصه : لا تخلو كافة الأبحاث الدينية المأخوذة من مصادر شرقية من ذكر أحد أنواع التثليث أو التولد الثلاثي « الأب والابن والروح القدس » .

ونقل عن « موريس » في كتابه « الآثار الهندية القديمة » في المجلد السادس صفحة ٣٥ ما نصه : كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثالوثي ، أي إن الإله ذو ثلاثة أقانيم ، ورسم تحته صورة الثالوث المقدس عند الهنود ، وهذا التمثال موجود في معرض الهند.
أقول أنا : إن صورته أمامي وأنا أكتب هذا الموضوع رأس واحدة لها وجوه ثلاثة .

ونقل عن كتاب « سكان أوروبا الأول » صفحة ١٩٧ ما نصه : كان الوثنيون القدماء يعتقدون بأن الإله واحد ولكنه ذو ثلاثة أقانيم .

ونقل عن « إلن » في كتابه « الهند » صفحة ٣٨٣ أن البرهميين يقولون في كتبهم الدينية : إن أحد الأتقياء واسمه « اتنيس » رأى أنه من الواجب أن تكون العبادة لإله واحد فتوسل ببرهمة وفشنا وسيفو أن يعرفوه أيهم الإله الحق ، فظهروا له وقالوا : لا فرق بيننا . وأما ما تراه من ثلاثة فما هو إلا بالشبه أو الشكل ، والكائن الواحد الظاهر بالأقانيم الثلاثة هو واحد بالذات .

وهنا صورة أخرى للثالوث المقدس عند الهنود أراها أمامي الآن . ونقل هنا عن العلامة موريس في كتابه « آثار الهند القديمة » المجلد الرابع صفحة ٣٧٢ ما نصه : لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديم دكته مرور القرون صنماً له ثلاثة رؤوس على جسد واحد . والمقصود التعبير عن الثالوث . ومن العجيب أنك ترى في هذا الكتاب في صفحة (٢٥) صورة تمثل « بوذا » وهو بحللة الذكورة والأنوثة معاً ، وعلى الفرج هيئة الصليب ، وهي منقولة عن العلامة « توما أنمن » في كتابه المسمى « الوثنيون القدماء » وهذه الصورة فوق مرتفع . وهنا نقل عنه أن كافة الرموز والإشارات المستعملة عند النصارى كانت للدلالة على عبادة ما هو من هذا القبيل . هذه العبارة لم يصرح فيها بلفظ « الكلمة » التي عقدنا هذا الفصل لها .

فانظر ما يقوله العلامة « دوان » في كتابه صفحة ٤٧٣ : « إن القسيسين في هيكل ممفيس بمصر كانوا يقولون للتلاميذ إن الأول خلق الثاني والثاني مع الأول خلقا الثالث وبذلك تم الثالوث المقدس .
وهنا ذكر قول الكاهن المصري للملك الأعظم أولاً هو الله ثم الكلمة ومعها روح القدس وهؤلاء لهم طبيعة واحدة وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية .

إذن كون الأقنوم الثاني هو الكلمة أصل وثني مصري دخل في غيره من الديانات كالديانة المسيحية . ثم قال « وابولو » المدفون بدلهي من بلاد الهند يدعى « الكلمة » وفي علم اللاهوت الإسكندري الذي كان يلعنه « بلاتو » قبل المسيح بسنين عديدة « الكلمة » هي الإله الثاني ويدعى أيضاً ابن الله البكر . انتهى وهذا منقول من كتاب « الآثار الهندية » .

وقال العلامة « هيجس » في كتابه « الأنكلوسكن » المجلد الثاني صفحة ١٦٢ : كان الفرس يدعون « متروسا » الكلمة والوسيط ومخلص الفرس .

انظر كتاب المسيو « دونلاب » في كتاب « أين الإنسان » صفحة ٢٠ وكتاب العلامة « بنصون » في كتابه « المسيح الملاك » صفحة ٥٧ .

وقال العلامة « بوفريك » في كتابه « اعتقاد المصريين » ما نصه : وأغرب عقيدة عمّ انتشارها في ديانة المصريين القدماء هي قولهم بلاهوت الكلمة ، وأن كل شيء صار بواسطتها ، وأنها أي الكلمة

منبعثة من الله وأنها الله، وكان « بلاتو » عارفاً بهذه العقيدة الوثنية وكذلك « أرستو » وغيرهما، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي. قال: ولم نكن نعلم أن الكلدانيين والمصريين يقولون هذا القول ويعتقدون هذا الاعتقاد إلا في هذه الأيام.

ثم نقل عنه من صفحة ٤٠٤ ما نصه: وكما أن للكلمة مقاماً سامياً عند المصريين القدماء هكذا يوجد في كتبهم الدينية هذه الجملة: « إني أعلم بسر لاهوت الكلمة وهي كلمة رب كل شيء وهو الصانع لها، فالكلمة هي الأقنوم الأول بهد الإله وهي غير مخلوقة »، وهي الحاكم المطلق على كافة المخلوقات.

وقال « دوان » في كتابه: كان الأشوريون يدعون « مردوخ » الكلمة، ويدعونه أيضاً ابن الله البكر.

وقال أيضاً في الكتاب نفسه صفحة ٣٧٤ ما نصه: كان الكلدانيون يقولون للكلمة « ممرار »، كما يقول اليونانيون بأنه الصانع للعالم والحاكم عليه وأن لا شيء أعظم منه إلا الله.

وقال العلامة « فروتنغام » في كتابه مهد المسيح ما نصه: كان « فولو » يدعى الكلمة وكانوا يعظمونه جداً ويصفونه بأنه الكائن قبل كل شيء ابن الله البكر. الخبز السماوي الأبدي. ينبوع الحكمة الدال على الله. النائب عن الله. صورة الله الكاهن خالق العوالم. الإله الثاني المترجم عن الله الخ.

قال: ولما عيّن « بروتولوميو » مطراناً سنة ١٤٤٥ أرسل القس « فرنسيس هرمنديز » إلى المكسيك ليبشر سكانه بالديانة المسيحية، وكان هذا القس عارفاً بلغة الهندوس، أرسل بعد مضي عام على ذهابه كتاباً إلى المطران المذكور يقول فيه: إن هؤلاء يؤمنون بإله كائن في السماء، وإن هذا مثلث الأقانيم وهو الإله الأب والإله الابن والإله روح القدس، وهؤلاء الثلاثة إله واحد واسم الأب « بردنا » واسم الابن « باكاب » مولود من عذراء واسم روح القدس « إبكيها » ويعبدون صنماً اسمه « تنكاتنكا » يقولون عنه إنه واحد ذو ثلاثة أقانيم وإنه ثلاثة أقانيم إله واحد، ويقولون: إنه ذو ثلاثة أشخاص بقلب واحد وإرادة واحدة. انتهى ما أردت نقله من ذلك الكتاب، ليعجب المسلمون كيف ذكرت الكلمة في الديانات القديمة في أمم مختلفة لا يعرف بعضها بعضاً كما قال تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١١٨]، فقال الله في القرآن: أيها الناس، كل شيء كلمات الله لا المختارون من عبادي الصالحين وحدهم فكل العالم كلماتي، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ﴾ [يس: ٨٢]. هذا ما فتح الله به يوم الخميس ٢١ يونيو سنة ١٩٢٨ وبه انتهى الكلام على قصة مريم وعيسى.

قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ كثير الصدق والتصديق فهو ملازم للصدق وكثير العلم بالله الذي هو صدق وهو به مصدّق، ثم أبدل من إبراهيم قوله: ﴿إِذۡ قَالَ﴾ وما بينهما اعتراض ﴿لِأَبِيهِ﴾ « آزر » وهو يعبد الأصنام ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ التاء عوض عن الياء ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ وصف الأصنام بعدم سماع الأصوات ونظر الأشياء والعجز عن جلب منفعة أو دفع مضرة. يقول الله على لسان إبراهيم كيف تعبد ما فقد الحواس التي هي من خواص الحيوان بل الإنسان. وإذا كان الإنسان العاقل السميع البصير يأنف أن يعبد نظيره بل إنّما يعبد ما فوقه إذا عقل فكيف تنزل أن تعبد ما خرج من الألوهية بفقره وضعفه

وحاجته إلى من يصنعه وعن الإنسانية بفقد العقل وعن الحيوانية بفقد الحواس فقد تنزل عن الألوهية بثلاث درجات إنسانية . حيوانية . جمادية . أما كان لك عبرة في حاجته وفقد السمع والبصر ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ مستقيماً . فانظر كيف ذكر أباه بلطف فقال : جاءني علم لم يأتك ، مع أن معنى هذا أنه جاهل ، ولكن التعبير بغاية اللطف والأدب ، ثم أخذ يستهجن ذلك فقال : ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ ومن أطاع العاصي كان مثله فنال جزاء عصيانه ، ولذلك أعقبه بقوله : ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ قريناً تقرن معه في العذاب والآراء والأخلاق والعادات . فانظر كيف تجنب مفاجأته بذكر العذاب ، فلم يقل : إن الله يعذبك ، بل ذكر أنه يخاف ، وقلل العذاب بالتنكير وجعل نتيجة العذاب أن يكون من أولياء الشيطان ، كما أن رضوان الله أعظم من العقاب ، وجعل العذاب صادراً عن الرحمة كلها من جهته المعبر عنه بالرحمن . وإذا كان مصدر الرحمات يعذبك فإن الجرم يكون عظيماً وذلك هو البعد عنه والاقتران بالشيطان ﴿قَالَ﴾ آزر توبيخاً له ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي أترغب عن عبادتها ، فناداه بيا إبراهيم ولم يقل يا بني في مقابل يا أبت ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ ترجع وتسكت عن عيب آلهتنا وذمها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بلساني شتماً أو بالأحجار حتى تبعد عني أو تموت فاحذرني ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ زماناً طويلاً ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ وهذا جواب الحليم للسفيه وتوديع ومتاركة ومقابلة للسيئة بالحسنة ، فكأنه يقول : أنا لا أؤذيك ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ سائله لك أن يوفقك للتوبة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ مكرماً ، والحفاوة الرأفة والرحمة والإكرام ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ وأعبده وحده ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أي أرجو أن لا أشقى بضياع دعاء ربي وعبادته كما تشقون أنتم بدعاء الأصنام وعبادته من غير طائل ، ففي الآية تعريض بذلك ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فلما اعتزل الكفار ومعبودهم وهاجر ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ ولداً ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ نافلة فآنس وحشته بهما ، وهذان أكرم على الله من أبيه ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي : أنعمنا عليهما بالنبوة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ مالاً وولداً وسعة في الرزق مع نعمة النبوة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي : ثناء حسناً ، فإن الناس يفتخرون بهم ويثنون عليهم إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء : ٨٤] ، والمراد باللسان ما يوجد به يقال : لسان العرب ، أي : لغتهم ، وترى أن الصلاة على إبراهيم وآل إبراهيم في الصلوات الخمس من اللسان العلي المذكور . وهنا لطيفتان :

اللطيفة الأولى : في قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

إن في هذه الآية وحدها من العلم ما لا يحتمله هذا الكتاب . ولكن نذكر بعضه ذكرى وعبرة لذوي العقول السليمة ، وندع الباقي لذوي الفطن ومن ألهمهم الله العلم والحكمة ليشرحوه للمسلمين بعدنا إذا استعدوا للإلقاء . اعلم أن جعل العذاب من الرحمن يبين لنا ما يأتي :

(١) أن الجوع الذي تحس به أجسامنا لم يرسله الله لتعذيبنا بل أرسله ليكون آلاماً تدفعنا إلى الغذاء ، وذلك لأن هذا العالم الذي نحن فيه ناقص فكمله الله بهذه الآلام ، ولولا ألم الجوع ما أكل

عاقل ولا عالم ولا نبي ، ولو لم يأكلوا لماتوا ، فالألم لم يقصد به سوى المنفعة لنا . وليس في هذا العالم سبيل لأكلنا سوى هذا الباعث المؤلم .

(٢) وأن ألم الشبق والشهوة في الأصلاب وفي النساء لم تكن إلا لبقائنا ولولاها ولولا آلامها ما تزوّجنا ولا ولدنا ولا عمرت الدنيا .

(٣) وأن الأمراض الحالة بنا لولاها لم تفتح مدارس الطب والتشريح وقراءة العقاقير ، وتفصيل هذه العوالم التي تحيط بنا .

(٤) وأن الأمم كلما ازدادت مدنيتها ازدادت أمراضها وشهواتها وتمزيق الأمراض لأجسامها وفتكها لمرضاها ولأولادها ، فيكون ذلك أدعى لارتقاء الطب والعلم عندهم فأصبح المرض نعمة .

وبيانه أن الله لم يخلق الناس في الأرض إلا لارتقاء نفوسهم . فلما كان أهل البادية جهالاً لم يعطهم من الأمراض إلا على مقدار ما يداوون بحسب مبلغ علمهم . فلما نظر إلى المدن أكثر الأمراض فيها وألهمها العلوم وفتح لها مدارسها على مقدار حاجتها . فإذا أهملت ضعفت الأجسام فكان عقاباً على التقصير ، فأصبح انتشار المرض مهمازاً تساق به الأمم إلى أعلى الدرجات ، ونهاية الأمر ارتقاء العلوم والصناعات ، ونهاية النهاية كمال الروح لتخرج من الأرض بأجنحة أقوى وهمة أعلى .

(٥) وأن الله جعل الصدق في البادية بحيث إنهم عند أداء الشهادات لا يكذبون وعند المحادثة لا يغشون وفي أوقات سمرهم يصدقون . أما المدن فإنها ملئت مكراً وخبثاً كما ملئت جبناً ولؤماً ومرضاً مزمناً . ذلك أن أهل البادية إذا تولاهم داء الكذب أفناهم وشتت شملهم وأوقعهم في هاوية الخسار والهلاك لأنهم لا قدرة لقضائهم على إحقاق الحق إلا إذا كان القول صريحاً واضحاً .

أما المدن فإن القضاة فيها كلما رأوا الفساد منتشراً والكذب منتشراً والشهود كاذبين والمدعين مزورين والمدعى عليهم منكرين زادوا في العلم بحثاً وفي الطبيعة فهماً وفي الأمور وزناً وللأعمال تدقيقاً وللأقوال تحقيقاً فازدادت العقول ارتقاء والنفوس بهاء وإشراقاً وفتحاً لعويص المشكلات بالحق وحكماً بالصدق بالقوانين الصادقة والأقوال الشارحة والعلوم الواضحة .

(٦) وأن ذوي العقول التي هي مستعدة لقبول العلم يألمون أكثر من غيرهم إذا أحسوا بجهلهم ويتطلعون بشوق عظيم إلى معرفة ما غاب عن غيرهم من عويص المشكلات ، فيألمون وينصبون أجسامهم ويتعبون أرواحهم ويهيمون في أودية الأرض لطلب العلم كما يألم الجائع والشبق للطعام وللوقاع فتكون حياتهم كلها جهاداً ليس لجهادهم نهاية ولا لنصبهم غاية ، وهؤلاء هم الذين عبرنا عنهم فيما تقدم في هذه السورة بأنهم أصحاب النفوس العصبية الذين يشبهون الأجسام الموصلة للكهرباء . فهؤلاء سريعو التأثر عصبيون ، فيقبلون العلم أسرع من غيرهم وهم درجات بعضها فوق بعض كدرجات الأجسام الموصلة للكهرباء في التوصيل ، وكدرجات الأجسام الموصلة للحرارة في إيصالها إلى ما بعدها . وهم أشبه أيضاً بالنبات السريع الإنبات السريع الإثمار كأنواع البطيخ والقثاء ينبت سريعاً وينمو سريعاً ويثمر سريعاً . فهكذا هؤلاء يتأثرون بالعلم سريعاً ويعلمونه لغيرهم متى امتلأت نفوسهم ، ويكون تأثيرهم في غيرهم على مقتضى الآثار الواصلة إليهم . فعلى مقدار ما يقبلون ويتأثرون يكون قبول تلاميذهم ومن قرأ كتبهم . وهناك صلة بين الأساتذة والتلاميذ وبين الأنبياء

والأمم والمؤلفين وقارئي كتبهم. فكلما كان الأستاذ والنبي والمؤلف أكثر عشقاً لعلمه كان قراء العلم والدين والتآليف تابعين له، لأن القلوب النقية تؤثر فيمن يقرأ تآليفها أو يسمع كلامها. تلك قاعدة مطرودة لا عوج فيها ولا أمتاً.

فهاهنا عذاب من الرحمن وصل إلى الأنبياء بالآلام التي يتحملونها من أممهم وفي العمل بالوحي الذي يوحي إليهم فيه وفي شوقهم الحثيث إلى الرقي والعلوم. كل تلك آلام ولكنها هي عين الرحمة لهم ولغيرهم، فافهم هذا وافهم ما قبله وتأمل كيف كانت القصص القرآنية قد جعلت مفتاحاً لعقول هذه الطائفة في مبدأ أمرها، حتى إذا فتحت تلك المغاليق، وأزيلت تلك السدود، وألهمت تلك النفوس أخذت تطلع على ما يجهله الناس حولهم.

فالعلماء في جميع الأمم يرون في النحلة وفي النملة وفي الزهرة وفي الشجرة وفي النهر وفي البحر وفي الرياح وفي الأمواج وفي هبوب النسمات وفي حفيف الأشجار وفي طنين الحشرات وأصوات الطيور في الغابات وفي كل حركة وسكون ما يطربون لها طرباً ولا يريدون عنها حولاً، ويرون العالم حولهم موسيقى وهم السامعون، والناس من حولهم نائمون تائهون لا يفقهون.

وهؤلاء هم الذين عرفوا وفهموا قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[الإسراء: ٤٤]. فهؤلاء هم الذين يفقهون التسبيح وغيرهم لا يفقهون ولا هم يذكرون. فهذه الطائفة كان ألمها رحمة وأذاها نعمة وذلها عزاً وأمرها عجباً.

أفلا تتعجب معي كيف كان قوله تعالى: ﴿ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾[مريم: ٤٥] شاملاً لهذه المعاني ولغيرها مما وكله إلى فطنتك لتقرأه في لوح الطبيعة المنشور الذي كتبه الله بيده إلى بريته وتركه لنا، وقال: خذوه وافهموه، وسلط علينا ما سلط ليوقظنا وليرشدنا. أوَليس عذاب المسلمين الآن بالمفاسد والمخازي والجهل الفاشي فيهم وإحاطة الأمم بهم من كل جانب عذاباً من الرحمن، لأنه برحمته عذبنا لأن هذه الرحمة التي ظهرت لنا بصفة عذاب فتحت لنا الباب على مصراعيه، فأرتنا أهل سويسرا مثلاً قد علمهم أساتذتهم في المدارس تعليماً دينياً وأدبياً واجتماعياً حتى وصلوا إلى درجة أنهم لا يفهمون معنى السرقة ولا يعقلون كيف يكذبون.

حكاية

سافر أحد عظماء المصريين من أبناء بلادنا إلى سويسرا فنزل في قطار السكة الحديد، فلم ير القوم يأخذون تذكرة في أيديهم بل كل واحد منهم يحاسب نفسه بنفسه، فيضع النقود بيده في الصندوق وليس عليه رقيب، بخلاف عاداتنا نحن المصريين. ولما دخل المدينة سأل عن القاضي أين هو ليحادثه لأنه هو أيضاً من رجال القانون، فقالوا له: إن القاضي في الدكان يصنع الأحذية، فتوجه إليه وعجب كيف يكون القاضي صانع أحذية، فقال له القاضي: إن بلادنا تقلّ القضايا فيها، والأمة تعرف واجبها، وأنا لا أعمل إلا ثلاثة أيام أول الشهر، فيأتي المتقاضون يسألونني فيما أشكل عليهم من الأمور فأفتيهم فيقنعون، وليس لي الحق أن آخذ مرتباً في أيام لا عمل لي فيها. فهاأنا ذا آخذ مرتب ثلاثة أيام وفي بقية الشهر أصنع وآكل من كسب يدي.

ثم توجه إلى فتاة قروية قد نامت في وسط الأعشاب في البرية وحولها عشرات من البقر يتبعنها أينما سارت ويقمن حولها إذا نامت ويسرن وراءها إذا رجعت إلى منزلها، قال فسألتها: ألا تخافين من اللصوص؟ قال فقالت: لا أفهم معنى لصوص، فقال: سارقون، فقالت: هذه أول مرة سمعت أن الإنسان يأخذ ما لا يحق له وليس لنا علم بهذا. فتعجب مما سمعه ومما رآه. والذي قال هذا هو المرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني المصري.

هذه الحكاية وأمثالها كثير تدهشنا نحن المسلمين وتدعو لأسفنا الشديد. إننا خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ثم تكون عاقبتنا أننا قوم لا نعرف إلا القضاء والمحاماة. فأما تربية الوجدان وتهذيب النفوس فنحن عنها بمعزل ساكتون صامتون نائمون كما نام أهل الكهف سنين عدداً، ولم نجد ما يوقظنا.

أليس ما أذكره الآن آلاماً. أوَليس الله هو الذي خلق هذه الآلام. أوَليس الله هو الذي أودع هذا في القلوب لتشعر، ومتى شعرت تحركت للعلم ومتى علمت عملت. أوَليست هذه أمراضاً اجتماعية بل هي أمراض اجتماعية ودواؤها أن يقلع المسلمون عن طرق التعليم الحالية، وإلا فعذاب الإذلال الواقع من الأمم الغربية لا مردّ له وما لهم من دونه من واق، وهذا الإذلال من دول أوروبا للمسلمين عذاب لا يزول إلا بزوال سببه، وهو الجهل بالعلم وبطرق دراسته.

طرق التعليم لرقي الإسلام في مستقبل الزمان حتّى نستحق أن نكون ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]

هي أن يبتدئ المسلمون بتعليم الصغار في المدارس والمساجد والزوايا والتكايا أمرين:

الأمر الأول: أمثال هذه القصص القرآنية مع شرح عجائبها، وذكر موسى عليه السلام وأنه كان مخلصاً، وأن الله ناداه من جانب الطور الأيمن وقربه نجياً ووهب له أخاه هارون نبياً، لعلم الله أنه يستحق لإخلاصه وقبوله، وهكذا كل مخلص فإن الله يحفظه ويعينه. وذكر إسماعيل وكيف كان صادق الوعد وصدقه للوعد ذكر قبل ذكر النبوة، لأنه لا يستعد للرقي إلا الكاملون، ويشرح صدق الوعد شرحاً وافياً بحكايات وضرب أمثال شارحة للصدور بحيث يقتنع التلميذ، ولا يكتفي بأنه يعذب في النار بل يفهم عقله أيضاً.

الأمر الثاني: ويذكر له إدريس عليه السلام وأنه كان صدّيقاً أي كثير الصدق في قوله والتصديق فهو عالم بكل علم مؤمن، لذلك رفعه الله، وحينئذ يشرح للتلميذ فوائد الصدق ويحبب في وطنه وفي المحافظة على أموال الحكومة ونظامها وسعادتها، وأنه يجب أن يصدق الإنسان في خدمتها ويكون صدقه بالاقتناع أنه مفيد له ولغيره.

ويفهم التلميذ أيضاً عجائب الحيوان من النحل والنمل والعنكبوت والأنعام وعجائب النجوم وهذا العلم المسمى بعلم الأنبياء بحيث يكون جميلاً بهجاً حسناً مطبوعاً في كتب مشوقة سارة للناظرين فتكون العجائب الطبيعية مشوقة كما تشوق الحكايات المنقولة عن الأنبياء، وهذا الفن للمبتدئين مقدمة لعلم الطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات للكبار في المدارس العالية، فإذا وصلها التلميذ فبها وإلا فقد نال من كل فنّ كلمات تقنعه وأصبح رجلاً نافعاً لأمته.

علم التوحيد

واعلم أن علم التوحيد هو نفس ما ذكرت، فعلم الأشياء ونظام الموجودات وبهجة القمر والنجوم والكواكب لصغار الأطفال، مع ذكر قصص الأنبياء، ومع ذكر الآيات المهذبة للأخلاق وشرحها شرحاً لا ينغصه الإعراب ولا الصرف ولا كثرة الكلام في علم المعاني ولا البيان ولا البديع، لأن هذه العلوم كثيراً ما عاقت الأطفال عن معرفة الله تعالى، بل هذه لها قوم مختصون بها يحافظون عليها كبقية الصناعات والعلوم.

أما نحن الآن فإنّما نتكلم في العلم الذي هو فرض عين على كل مكلف. ثم ليكن المدرس لهم مقتنعاً بما يقول متأثراً به، فيلقي إليهم عجائب الطبيعة ويصف لهم بدائعها، ثم يعرج على خالقها فيصفه بأوصاف الجلال أي الصفات السلبية وأوصاف الجمال وهي أوصاف المعاني، فيقول إنه عالم وقادر ومتكلم وسميع وبصير مثل ما جاء في القرآن، ويترك تلك الفلسفة الباردة التي حدثت في الأمة الإسلامية فشوّشت الأذهان وأبعدت الناس عن الأخلاق وعن معرفة ربهم، فتأخرت الأمم الإسلامية عن سائر الأمم بهذه الطريقة العقيمة. أقول: وإن هذا الذي أكتبه الآن سيقرؤه علماء وفضلاء وأمراء في أمة الإسلام وسيعملون به، وسترتقي أمم إسلامية على أيديهم تكون أرقى من الأمم الإسلامية المتأخرة بعد أعصر النبوة الثلاثة التي كانت أنوار النبوّة مشرقة عليهم، وسيكون للمسلمين نهضة لم يعرفها الشرق من قبل.

سيقرأ الناس هذا الكتاب وسينظمون التعليم كما ذكرت، وسيقوم فيهم المصلحون يزيدون بعقولهم وآرائهم على ما بينت، ويعطون الدواء على مقدار الداء. وسيكون قوم أرقى شأناً ممن حولهم من الأمم، ولا ينبغي أن يبتدئ المسلمون بحفظ القرآن. كلا، بل يبتدئون بهذه العبارات الجميلة ويأتون بالآيات تطبيقاً عليها ثم يحفظها التلميذ حفظاً مشوباً بالمعنى، وهو مسرور بحفظه قانع بمطابقته للعوالم الخارجية والأخلاق النفسية.

فأما الحفظ العام للقرآن فذلك له قوم يختصون به، فهو أيضاً فرض كفاية لا فرض عام على سائر الأمم، فأما العموم فالأحسن عندي أن يكون حفظهم للآيات على مقدار ما يحتاجون إليه في الأخلاق أولاً، وجمال الطبيعة ثانياً مع معرفة الله تعالى، وما يجب عليهم من العبادات ثالثاً كآيات الصلاة والزكاة وما أشبه ذلك. وهذه الطريقة الجميلة أقرب إلى عصر الصحابة، إذ كان الأمر سهلاً والعلم محفوظاً بطريق مألوف.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [الآية: ٤٧]

فيه طلب المغفرة له، وقد مرّ تقرير هذا المقام في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] الخ. وإلى هنا انتهى الكلام على قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

قصة سيدنا موسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ بكسر اللام، موحداً، أخلص عبادته من الشرك والرياء، وبفتح اللام، أي: مختاراً اختاره الله واستخلصه واصطفاه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾

أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه، والرسول هو الذي معه كتاب، والنبي هو الذي ينبئ عن الله وليس معه كتاب. فمثال الأول موسى، ومثال الثاني يوشع، فيوشع نبي ولا يسمى رسولاً وإنّما هو ينبئ قومه وموسى ينبئ قومه بكتاب معه أرسل به من الله. فأحدهما معه رسالة أوصلها إلى الناس. والثاني ليس معه رسالة يقدّمها لهم وهو الكتاب ولكنه ينبئهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر: ١٤] وكقوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾[النمل: ٨٢]الخ، فهذا القول فيه الإنباء ولا رسالة هناك، وهذا المعنى الذي شرحته لك الآن يخالف المعنى المشهور للنبي والرسول من جهة ويوافقه من جهة، ولكن هذا المعنى هو المناسب في هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ من ناحية اليمين وهي التي تلي يمين موسى، إشارة إلى أنه ميمون الغدوات والروحات ولا شؤم يلحقه والله معه، فلذلك تمثل له الكلام من تلك الجهة فعرفه ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ تقريب تشريف وعلم وإخلاص، فذلك أشبه بمن قربه ملك لمناجاته، أي: وقربناه حال كونه مناجياً أو مرتفعاً، والنجو في اللغة: الارتفاع، ولا جرم أن الارتفاع في المقام يلزمه المناجاة والقرب فهما متلازمان وأحدهما يفيد الآخر باللازم. ولقد روي أنه رفع فوق السماوات حتى سمع صرير الأقلام. ومعنى هذا تجاوز العالم المادّي وانغمس في المعنوي والروحي فقرب من الله وعرف الأمور العالية عن أذواق البشر، فليس المقام مقام أمكنة وإنّما هي نفوس ترتقي حتى تبلغ أقصى مناها وتستعد للاطلاع على عالم أرقى، ثم قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ أي: من بعض رحمتنا ﴿أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾ أي: معاضدة أخيه وموازرته إجابة لدعوته، وذلك أن موسى عليه السلام دعا ربه فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى﴾[طه: ٢٩-٣٠]، فأجاب الله دعاءه، وهذا هو سبب جعله هبة، وقوله: ﴿هَـٰرُونَ﴾ عطف بيان لـ «أخاه»، و«نبياً» حال منه.

قصة سيدنا إسماعيل عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ فكان لا يعد ربه وعداً يفعله إلا وفى به، فصار الصدق صفة لازمة له، حتى وعد بالصبر على الذبح، فوفى وصبر وامتثل حتى جاءه الفداء، ولم يكن لينتظره، وهذه الصفة لم تسمع من غيره بهذه الحال ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أي: كان رسولاً إلى جرهم الذين حلوا بمكة معه ومع أمه، ومعنى رسول هنا غير ما تقدم، فإن الرسالة هنا بمعنى النبوة إذ لا كتاب معه إلا كتاب إبراهيم وشريعته، فيكون معنى النبوة إذن الإنذار والإخبار، أي: كان مرسلاً من الله بتبليغ شريعة إبراهيم فنبأ بها قومه وأنذرهم وخوفهم ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ أي: إنه بعد أن كمل في نفسه بصدق الوعد أخذ يكمل عشيرته الأقربين وكذا بقية الأمة، لأنهم كلهم أهله، فيأمرهم بالصلاة والزكاة ليقيهم النار. ولما كان الكمال في النفس وتكميل الغير تخلقاً بأخلاق الله تعالى، والله يرضى عمن تخلق بأخلاقه قال: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾.

لطيفة

إن صدق الوعد هو الصفة التي فقدت من تجار المسلمين اليوم ومن أكثر المتعلمين فيهم، وهذا لقلة اكتراث الناس بهذه الصفة.

فعلى قادة المسلمين وعلى العلماء أن تكون مواعدهم حقة وكلامهم صريحاً فيقدرهم الشعب.
إن الإسلام اليوم لم يكمل تابعوه لأنه بعيد عن تعاليمهم، وعجبت لأمة هذا شأنها كيف عاشت إلى الآن، حرام أن يترك هذا العلم. يجب أن يجعل له الأهمية التي للصلاة والزكاة. لماذا أيها المسلمون؟ وهل ذكر إسماعيل في القرآن إلا لهذا الغرض، ويقول: هذا نبيّ صادق الوعد. هذا هو الذي اتخذ الصدق له شعاراً حتى جعل نفسه ذبيحة لأبيه، وختم الكلام عليه بأنه رضي عنه. أما الأمم التي لا صدق عندها فلا يرضى عنها الله، بل يصبح رجالها يحقر بعضهم بعضاً كبعض أمم الشرق الآن، إذ ترى بعض التجار المصريين والسوريين والعراقيين وغيرهم يتخذون الحلف ذريعة والمساومة مغنماً والكذب متجراً، وتكون نتيجة ذلك عدم رضا الله تعالى، وثمرة ذلك كراهة للناس ونفورهم منهم وترك تجارتهم، فينحاز الناس إلى تجار الإفرنج لأن لهم صدقاً بحسب الظاهر. هذا من أسباب عدم الرضا الذي أشارت له الآية بطريق المفهوم لا المنطوق.

قصة سيدنا إدريس عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ وهو المسمى أخنوخ، وهو أيضاً أزريس أو أسوريس وكان إدريس تعريباً له، وهذا الاسم في الآثار المصرية وهو الذي ألف له المصريون القدماء رواية خلدت في بطون تواريخهم، وقد حصل بينه وبين أخيه ما يحصل بين المتحاسدين، فقطعه أخوه قطعاً كثيرة جمعتها امرأته بعد ذلك إلا قطعة وحنطتها وحفظتها وصار إلهاً بعد أن كان مصلحاً عظيماً، وهذه الحكاية الخرافية جعلت المصريين يعتنون بتحنيط الميت، وهذا العمل قد أفاد الصناعة ورقاها وصارت مثلاً وعبرة للآخرين. ولقد كان الملك والدين في عهد هذه الدولة أمراً واحداً، والملك يجمع بين أمر الدين والدنيا، فمن عصى أمر الملك فقد عصى الله، وأزوريس هذا صعد إلى السماء وصار في الحياة العالية وله عرش عظيم في السماء يتمتع بأجمل الخيرات، وكل من حنط جسمه ووزنت أعماله بعد الموت وحكم القضاة وهم ٤٢ بأن حسناته غلبت سيئاته فإنه يلحق بأزوريس في تلك السماء العالية.

إن هذا النبي الذي جعلوه إلهاً بعد ذلك هو الذي علم المصريين العلوم والمعارف، ويقول علماؤنا: إنه أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من اتخذ السلاح، وأول من نظر في علم الحساب.

هذا كلام علمائنا في التفسير، وهذا كلام يتصل بأقوال قدماء المصريين، فالأمة المصرية تنسب علومها إليه. وبالجملة فالأمة المصرية التي برعت في جميع الفنون تنسب إليه مبدأ تلك البراعة، وجميع الأمم دهشت من علوم قدمائنا المصريين، ومن اطلع على مؤلفات المرحوم العلامة الأثري الكبير أحمد بك كمال أمين متحف القاهرة كمحاضراته بالجامعة المصرية، رأى عجباً عجاباً؛ رأى أنهم صوروا السماء من قديم الزمان وبينوا البروج والليل والنهار وساعاتهما والكواكب.

وفي الأعصر المتأخرة رسموها بهيئة امرأة رافعة يديها ويسترها ثوب طويل وفي رجليها نعلان وعلى رأسها عصابة، وهناك إشارة بلغتهم تشير إلى الشمس ذات الأشعة، وعلى جانبي المرأة البروج، ستة منها جهة اليمين وستة منها جهة الشمال. وهاهي مرسومة أمامي وأنا أكتب الآن بشكل رائق بديع بالهيئة التي وجدت في صندوق «حتر» بطيبة. وهناك إشارات ورسوم تدل على أكثر ما يراد من علم

الهيئة قد أوضحها العلامة المذكور حول الشكل ، وهذا من أعجب ما يراه الإنسان . وترى في الصفحة الثالثة عشرة في المحاضرات المذكورة صورة المنطقة التي وجدت في هيكل دندرة وهي عجيبة فيها أربع صور من صور النساء واقفات للدلالة على الجهات الأربع والسماء فوقهن محمولة ويساعدهن في ذلك ثمان صور من صور « حوريس » جاثيات ، رؤوسها كرأس الباشق وجسمها كجسم الإنسان ، وهذه المنطقة المحمولة على المعبودات الاثني عشر تنقسم إلى (٣٦) قسماً وكل قسم عشرة أقسام فهي (٣٦٠) وكل قسم يوم . وهناك علوم أخرى في الصورتين لا يسعها المقام تقدمت في سورة « يونس » فارجع إليها إن شئت . وأن ما ذكرته لك الآن كاف لتعلم مقدار علوم القوم وأنهم تفننوا في كل شيء . وأذكرك بما مضى في سور متفرقة في هذا التفسير عن علوم القوم وبما مرّ في قبر « توت عنخ أمون » الذي ذكرناه في سورة « البقرة » وكشف حديثاً وأدهش العالم كله وأعجبه إعجاباً شديداً .

لعلك عرفت من هذا ما جاء في القرآن هنا ، فإن وصف إدريس بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ فجعل وصفه بالصدق هو أهم أوصافه ، والصديق كثير الصدق والتصديق ، وذلك هو العلوم كلها لأن التصديق يرجع إلى القضايا الكلية العلمية فهو صادق أولاً وعالم بها ثانياً .

ثم قال : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قد تقدمت الإشارة إلى تاريخه وإلى الخرافة الخاصة به ، ولما كان القرآن لا يذكر من الكلام إلا ما يجرّ مغنماً ويدع ما ليس له فائدة من تلك الخرافات التي لا تفيد معنى ولا لها موجب ، ذكر أنه رفع مكاناً علياً في السماء كما قاله قدماء المصريين ، فكأن القرآن قد جعل هذا حقاً . وفائدتنا من قصة إدريس ما يأتي :

إن أمته المصرية ارتقت ونفعت الأمم وهذبت الأجيال وقامت بما عليها للنوع البشري . ولا شك أن رفعة الأنبياء تابعة لآثارهم في الأرض ، فلا يرفع الله نبياً ولا يخفض جاهلاً إلا على مقدار الأعمال ، ورفع إدريس إلى السماء يرجع إلى ارتقاء أمته بتعاليمه ، فالنبي بأمته والعالم بالانتفاع بعلمه . وإذا أردت المفاضلة بين عالم وملك من الملوك فانظر لآثارهما في الأمة ، فمن كان أهدى سبيلاً وأقدر على الإصلاح باعتبار آثاره ، حكمنا له بأنه أقوم قيلاً وأهدى سبيلاً وأرفع شأناً ، وهكذا الأنبياء بعضهم مع بعض . لذلك رفع الله إدريس مكاناً علياً ، ولذلك تجد آثار أمته بادية للعيان بعد أن كانت خافية عن الأذهان .

انظر إلى شرائعهم التي قصوها وأقوالهم التي قالوها مع تخليطهم في الألوهية من تسبيع إلى تثليث ثم إلى توحيد آخراً ، فإنهم لم يخلطوا في الشرائع كما خلطوا في الألوهية أجيالاً واهتدوا أجيالاً وكانوا إذا مات الملك عددوا مناقبه ومثالبه ، فإن كان ضاراً بالأمة حرموا دفنه في قبره وهذا عجيب جداً . كانوا يأمرون الملك بأن يعمل في كل ساعة عملاً خاصاً . كانوا يأمرون باجتناب الظلم ويعلمون الصبيان والرجال الصيغة التي يقولونها بعد الموت أمام القضاة : « يا رب لم أظلم أجيراً ولم أحرم العجل من لبن أمه طمعاً فيه ولم أقتل ولم أسرق ولم أزن ولم أكذب » الخ . وكانوا يمنعون أخذ أموال الناس بالباطل . هذا هو الذي يعرفنا معنى كونه صدّيقاً ومعنى كونه رفع مكاناً علياً . ولذلك بقيت هذه الأمة آلافاً وآلافاً ، ولما تحجرت العقول وضلت الأفكار نسي الأبناء المقصود من الدين فهلكوا وضلوا وخرفوا فذهبت ريحهم . أما أمة الإسلام فلم يمض لها غير زمن قليل ، فأمامها أجيال وأجيال وآلاف

من السنين فيها تظهر مواهبها ، فهي إلى الآن لم تقم بكل ما عليها للإنسانية ، والله أنزلها ليظهر دينها على الدين كله فتعمل أكثر من كل دين سماوي . وإذا كان إدريس عليه السلام رفع إلى السماء الرابعة ومدحه الله بذلك ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم رفع إلى ما فوق السماوات كلها وارتقى فوق ذلك إلى سدرة المنتهى وإلى مستوى سمع فيه صرير الأقلام . فهذا يراد به أن أمته ترتقي إلى أعلى الدرجات وتنفع الناس أكثر من كل دين . وأنت علمت أن ديانة قدماء المصريين ارتقت جداً ولكنها لم تعم . أما دين الإسلام فإنه قد انتشر انتشاراً عجيباً ولم يبق إلا تقويته في العلوم والمعارف على الطريقة التي في هذا التفسير ، وإذ ذاك تكون الأمة الإسلامية قد عملت ما عليها انتشاراً واتحاداً ، أي أنها تجمع أمماً كثيرة وتؤلف بينهم وتجعلهم إخواناً وشعارهم الأخوّة العامة ، لأن الإسلام معناه الأخوة العامة والإخلاص التام في قوم اتصفوا بهذا الوصف .

ولما ذكر الله المرسلين أخذ ينعتهم فقال : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم ﴾ أي : أولئك الأنبياء في هذه السورة من زكريا إلى إدريس الذين أنعم الله عليهم بنعم دنيوية وأخروية ﴿ مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ بيان للذين ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ أي : إدريس ونوحاً « من » للتبعيض لأنهم بعض ذريته ﴿ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ ﴾ أي : ومن ذرية من حملنا مع نوح خصوصاً ، وهم الأنبياء ما عدا إدريس فإنه كان قبله وإبراهيم من ذرية سام بن نوح ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي : ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا ﴾ ومن جملة من هديناه إلى سبيل الحق ﴿ وَٱجۡتَبَيۡنَآ ﴾ للنبوة والكرامة ﴿ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ﴾ جملة مستأنفة لبيان خشيتهم من الله بعد أن أبان دعاءهم في الدين وفي النسب والقرب من الله ، والبكيّ جميع باك ، كالسجود جمع ساجد .

ذكر الضالّين المضلّين بعد الصّالحين المصلحين

قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ أي : من بعد النبيين المذكورين ﴿ خَلۡفٌ ﴾ قوم سوء وهم اليهود وكل من كان على شاكلتهم في الضلالة من هذه الأمة ﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ تركوا الصلاة المفروضة عليهم أو أخروها عن وقتها ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ فآثروا شهواتهم على طاعة الله وشربوا الخمور ، ومنهم قوم يظهرون في آخر الزمان تكثر الفاحشة العلنية بينهم حتى في الأسواق ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ أي شراً أو جزاء غيّ ، ويقال : إنه واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها يلقى فيه العاق وشارب الخمر الخ ، وقوله : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ من التقصير في الصلوات مثلاً ﴿ وَءَامَنَ ﴾ بترك الكفر إذا كان كافراً ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ بطاعة الله ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ ولا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم ، وقوله : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ﴾ منصوب على المدح ﴿ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ أي : التي وعدها إياهم وهي غائبة عنهم أو هم غائبون عنها ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ ﴾ الذي هو الجنة ﴿ مَأۡتِيّٗا ﴾ يأتيها أهلها الموعود لهم ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا ﴾ فضول كلام ﴿ إِلَّا سَلَٰمٗا ﴾ إلا تسليم الملائكة عليهم وأن يسلم بعضهم على بعض فهو استثناء مقطع .

واعلم أن مبدأ السعادة السلام والأمان والطمأنينة ، وهذه الدنيا لا طمأنينة فيها ، فلا سعادة لأن الناس جميعاً لا يأمنون عاقبة قط ، فهم دائماً لا سعادة عندهم ، فيكون مبدأ النعيم في الآخرة أن تكون

الإشارات والعبارات والإلهامات هي الطمأنينة في القلوب وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [البينة: ٨] وهي هي التي نقولها نحن المسلمين في صلواتنا صباحاً ومساء: « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين »، فتكرار هذه الجملة على اللسان يحدث أثراً في النفس يتراكم على مدى الزمان، فيشعر الإنسان إذا أدرك المعنى فيما بعد أن الله لم يخلق العالم إلا لغاية، وغاية الأرواح الطمأنينة، وستكون تلك الطمأنينة حين نأمن الفقر والمرض والموت والشيخوخة، وهذه الحالة هي التي يقولها الناس وهم لا يشعرون، فيقولون: السلام عليكم، أي أن الأمان سيكون لكم في الدنيا بأن يكون بعضاً آمناً من بعض وفي الآخرة بالخروج من جميع المآزق، وهي هي التي يقولها الرجل لآخر في الإسلام عند التعزية: « لا أراك الله سوءاً » مع أن الذي لا يرى سوءاً إنّما هو الذي مات، أما الحي فإن السوء يحيط به كل حين، ولكن هذا الدعاء أمنية من أماني النفوس وهذه الأمنية ستحصل يوم لا يكون عذاب ولا عقاب، وهو يوم الحساب، فيرتفع السوء كالمرض والموت والفقر والذل وما أشبه ذلك. ولما كان السلام مبدأ للنعمة فهو كالتخلية والنعمة بعده كالتحلية أردفه بقوله: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ لا بكرة في الجنة ولا عشيّ بل لا ليل ولا نهار وإنّما يؤتون بأرزاقهم في مقدار طرفي النهار كما كانوا في الدنيا، وبعبارة أخرى: يؤتون برزقهم رغداً لا مقطوعاً ولا ممنوعاً. انتهى تفسير القسم الأول من سورة « مريم ».

القسم الثاني

﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ

مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ أي: نجعلها ملكاً لهم كملك الميراث الذي هو أقوى تمليك. ويقال كما ورد في غير الصحيحين ونقله المفسرون: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما احتبس حين سأله اليهود كما تقدم عن أمر الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين وقال: أخبركم غداً، ولم يقل: إن شاء الله، ودام ذلك الاحتباس ١٥ يوماً، ونزل جبريل، قال صلى الله عليه وسلم: أبطأت عليّ حتى ساء ظني واشتقت إليك، فقال له جبريل: وإني كنت أشوق إليك ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست احتبست فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ وهذا حكاية قول جبريل، والتنزل النزول على مهل لأنه مطاوع نزل، أي: وما نتنزل وقتاً بعد وقت إلا بأمر ربنا ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ١-٢] الخ. ورواية البخاري: «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا جبريل ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟»، فنزلت. ثم أكد اختصاص الله بالأمر بقوله: ﴿ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ من الأماكن ﴿ وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ فالأمكنة بأقسامها الثلاثة الحاضرة ملكه فكيف ننتقل من مكان إلى مكان إلا بإذن مالكه وكذلك الزمان فلا نتقدم ولا نتأخر فيه لأنه له إلا بإذنه ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أي: ما نسيك ربك وما تركك، كقوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣] ويصح أن يجعل الكلام متصلاً بأهل الجنة وهو الأقرب للنظم يقول أهل الجنة ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ ﴾ أي: وما تنزل الجنة إلا بأمره إلى قوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أي: ناسياً أعمالنا فإنها تذكر ويعطى الثواب عليها. ثم أشار سبحانه إلى أهم ما يوصل إلى الجنة فذكر العلم بربوبيته للسماوات والأرض وما بينهما وأعقبه بالعبادة. فهنا صرح القرآن بالحقيقة، فالعلم بهذا العالم والعبادة المصفية للقلب بهما تتجلى طلعة الأنوار المشرقات والبهجات الساطعة المضيئة في هذه

العوالم، ويمتلئ المؤمن إشراقاً وإذ ذاك يجتهد لينال العلم بهذا الوجود على ما هو عليه، فالعلم المذكور هو باب الجنة بل هو الجنة عند العارفين بل هو أعلى الجنة والعبادة، صقال يصقل القلوب فكان الترتيب عجباً، فهو جنة ثم سببها وهو العلم فسبب السبب وهي العبادة، ولكن العبادة ليس لها نصيب إلا في العقل والقلب، ولكن العلم بالتعليم. ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ وإياك أن يصدك عنها ما يشوش عليك من إبطاء الوحي أو من شدائد الأيام ومكر الناس ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ شبيهاً ومثلاً أو هل تعلم أحداً يسمى الله غير الله ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ أي بعضه ﴿ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ من الأرض، وهذا القول على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالبعث، قال تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ أي: أولا يتذكر منكر البعث ﴿ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ فإن من قدر على خلقه من عناصر متفرقة بنظام تام وحكمة بالغة أقدر على الإعادة، لا سيما أنه قد تبين أنه قادر على نظم في الخلق لا عداد لها ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم بالرب مضافاً للرسول صلى الله عليه وسلم تشريفاً له ليجمعنّ المنكرين في المعاد ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ معهم بحيث يكون كل كافر مع شيطانه في سلسلة، كما هو ظاهر في العالم المشاهد أن ذرات الهواء لا تستقر إلا في الجو، وذرات الماء لا تستقر في الهواء، وعناصر الأرض لن تعلو غالباً في الماء ولا في الهواء وقطعان الغنم والوحش والبهائم تميل إلى الاجتماع والائتناس، والمجرمون والسراق يميل بعضهم إلى بعض. فما الآخرة إلا جزء من النظام العام، فيحشر الظالمون بعضهم مع بعض ويكون ذلك زيادة أذى لهم، كما نرى المرء في الدنيا لا يقدر أن يفارق أهله أو أقاربه أو أبناءه وهو عالم بأنهم مصيبة عظمى عليه. فالعالم واحد في نظامه لأن ربه واحد، ولذلك سرت الوحدة في الوجود، فالشيطان مع الكافر، والأنبياء مع الشهداء والصالحين ومن أحبهم معهم، وهذا عين ما قالته الأرواح: إن المدار على الجاذبية. وفي الحديث: « كل أم يتبعها ولدها » فما أجلّ العلم وما أبدع الحكمة وما أقرب الناس إلى فهم القرآن الآن عن كل آن. هذا ومتى حشر الشياطين أحضروا حول جهنم جثياً، أي: جاثين على ركبهم لأنهم لما دهمهم من شدة الأمور لا يطيقون القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثواً وهذا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ من كل طائفة شاعت، أي: تبعت غاوياً من الغواة ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ أي: الذين يقال فيهم أيهم هو أشد على الرحمن عتياً أي تمرداً وجراة وفجوراً، أي يقدم إلى النار من هو أعتى فأعتى ممن هو أكبر جرماً وأشد كفراً فنطرحهم فيها ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ جمع بينهم في استحقاق دخول النار بعد ما أثبت انتزاع الأعتى فالأعتى وذلك أنه لا يقال أولى إلا مع الاشتراك، و« أولى صلياً » أي: أحق بالنار دخولاً، و« بها » متعلق بـ« أولى » ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ أي: وما منكم أحد إلا داخل النار والمؤمن يدخلها وهي خامدة إذا لم يكن عليه ذنب ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ الشرك الفضل فالأفضل ﴿ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ جاثين على الركب. وهذا آخر الكلام على جهنم.

لطيفة

اعلم أن بني آدم كلهم معذبون في هذه الحياة الدنيا بالمال والولد والغنى والفقر، فكل الحياة آلام ولذات، وقد جاء الدين والعلم ليعرفهم قيمة الدنيا وأحوالها حتى إذا ماتوا ارتقوا عن درجات الطبقة

المنحطة ، فمن الناس من تصقل نفسه في الدنيا فيعرف الحقائق فيخف وقع العذاب الدنيوي عليه حتى كأنه لم يعذب ، ومنهم من يعذب في قبره إلى أجل محدود من أصحاب العقائد الحقة . ومنهم من تبقى نفوسهم مغلولة معذبة لتصلب الآراء الجاهلية فيهم وثقل أعمالهم عليهم ، فهؤلاء لا يخرجون من العذاب . ولقد اضطربت أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية والخروج من النار ونحو ذلك . ولقد شرحنا هذا المقام في سورة « هود » وفي سور أخرى ، ولكنا في هذا المقام نرى أحوالاً يجب البحث فيها فنقول :

(١) فإذا سمعت قول مجاهد : « ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده في الدنيا » مستدلاً بقوله عليه الصلاة والسلام : « الحمى حظ كل مؤمن من النار » .

(٢) وإذا سمعت قول بعض الصحابة لآخر : « أيقنت بالورود؟ قال : نعم . قال : وأيقنت بالصدر؟ قال : لا . قال : ففيم الضحك وفيم التثاقل » .

(٣) وإذا سمعت قول خالد بن معدان : « يقول أهل الجنة : ألم يعدنا ربنا أن نرد النار؟ فيقال : بلى ولكنكم مررتم بها وهي خامدة » .

(٤) وإذا سمعت ما ورد في حديث : « تقول النار للمؤمن : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي » .

(٥) وإذا سمعت قوله صلى الله عليه وسلم كما في البخاري ومسلم : « الحمى من فيح جهنم الخ » ، ومعنى فيحها وهجها وشدة حرها .

فاعلم أن النار في هذا المقام والعذاب قد شمل عذاب الدنيا والآخرة ، والقرآن مصرح بهذا في مواضع كثيرة ، ويرجع الأمر إلى الحقائق النفسية ، فمن مات ولا ذنب عليه البتة وهؤلاء قليل فللنار الحق أن تقول له : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي . وربما أصاب هذا بعض الأمراض والمصائب في الدنيا كالحمى وفقد الولد والأهل والفقر وما أشبه ذلك فخففت جشع النفس وخرجت من الدنيا لطيفة نيرة غير متعلقة بالدنيا . فبالصلاح والتقوى انجذبت إلى عالم أعلى ، وبالمصائب تخلصت من حب الدنيا ، فهاهي ذه قد مرت على العذاب وجهنم خامدة لأن النفس بالصبر وبالتسليم وبالحساب والدقة في تجنب الأخطار والتباعد عن الزلات وما أشبه ذلك مع حفظ المروءة وقيام المرء بالأسباب حتى القيام كأنها أخمدت نارها ، فقل التأذي بالصبر والثبات ورجاء الثواب والفرح بقرب لقاء الأحباب والخلاص من هذه الدار . فهذا يجمع الأحوال المتقدمة إلا البند الخامس .

ومن مات وهو مسلم مؤمن عنده تقصير ولم تقم بتهذيبه مصائب الحياة ولا الدين . فهذا هو الذي قيل فيه : أيقنت بالورود ولم توقن بالخروج . وهي الحال الثانية المروية .

نصيحة

إياك أيها المسلم أن يصدك بعض الأحاديث الواردة عن الحقيقة في ذاتها ، فإن الأحاديث ترد سواء أكانت ضعيفة أم صحيحة أو حسنة مرفوعة أو مقطوعة ، ولكل واحد منها محمل مخصوص .

فإياك أيها المسلم أن تتكل على بعض الروايات فتضيع دينك ويكون ذلك أشبه بكفر بالكتاب ، وإلا فحديث واحد مهما كانت درجته كاف في هدم القرآن كله ، فالقرآن مملوء إنذاراً فتهدمه بحديث إن صح فهو محمول على حال خاصة . وليس من المعقول في دين من أديان أهل الأرض أن أمة تصبح وقد رفع عنها العذاب كلها صالحها وطالحها ، وإلا لم يكن لقراءة القرآن معنى ولا لدراسة الدين .

وأمة هذا شأنها تصبح أقل الأمم أدباً وإخلاصاً وأخلاقاً وأكثرهم نفاقاً، فوالله لم يرسل الله الأنبياء ليغروا الناس على الشرور بل ليزيدوهم علماً وأخلاقاً وآداباً.

طرق التهذيب

وطرق التهذيب اثنتان: طريق الإرهاب كما رأيت، وطريق الترغيب، وذلك يحب الله تعالى ومن أحب أحداً أحب لقاءه ومن أحب لقاء الله تحاشى كل ما يضر باللقاء من الذنوب.

بعض إيضاح لهذا المقام

ولقد فصلنا هذا المقام في هذا التفسير في غير ما موضع، وحديث البخاري ومسلم شارح له إذ جاء فيه: « إننا نرى ربنا يوم القيامة كما نرى البدر والشمس ليس دونهما سحاب، ثم يتبع الناس ما يعبدون كمن يعبد الشمس ومن يعبد القمر وهكذا، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفونها فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفونها فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيدعوهم فيتبعونه فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأول من يجوز نبينا بأمته صلى الله عليه وسلم، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم مقدار عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يجندل ثم ينجو، ثم ذكر أن الله يأمر الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله، فيخرجونهم وقد امتحشوا أي أحرقوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ويكون آخر أهل النار دخولاً الجنة مقبل بوجهه قبل النار فيتمنى انصراف وجهه عنها فقط، ويعطي عهوداً مواثيق أن لا يسأل غير هذا، فإذا أقبل بوجهه على الجنة يطلب أن يقدم إلى باب الجنة ويعتذر عن نقض العهد ويعطي مواثيق كالأولى أن لا يسأل، فيقرب منها، ثم بعد أمد يطلب دخول الجنة ويفعل مثل ما فعل في المرتين السابقتين، ثم يدخل الجنة بعد أن يضحك الله منه فيدخلها فيقول: تمنّ فيتمنى حتى تنقطع الأماني فحينئذ يعطيه الله ذلك ومثله أو عشرة أمثاله » على اختلاف الرواة. فهذا الحديث هو الموافق للدين وللعلم وهو رواية الشيخين، فالناس على حسب أعمالهم، ويؤخر في جهنم منهم من كان أكثر ذنوباً. اهـ.

آثار هذا الحديث في الدنيا وسر من أسراره

اعلم أن هذا الحديث الشريف ضرب مثلاً لحال الناس يوم القيامة توضيحاً وبياناً. وهاك آثاره في الدنيا. إذ كل ما يحصل في الآخرة لا يخرج عن كونه نتيجة لما يحصل في هذه الحياة، فيستحيل أن يكون هناك غير ما هو نتائج ما هنا، والناس في الدنيا قطعاً يمشون على صراط الأخلاق الممتد على نيران الشهوات تتخطفهم كلاليبها، فيقع من يقع منهم في نارها ويصبح في النار ولا يعلم أنه في نار الذل تتخطفه الكلاليب من كل ناحية من أهل وولد وحكام وأعداء وأزواج وعشاق وهموم وأحزان وفراق إخوان وهجر وصدّ وغير ذلك، فإن عرف الحكمة وكان عابداً واستغرق في جمال الله كانت هذه النيران برداً وسلاماً ولم تمسه فلم يحزن لما فاته ولم يفرح بما آتاه ولم ينهمك في طلب المال فصارت النار برداً وسلاماً عليه كما كانت على إبراهيم، وإن انغمس فيها انغماساً ولم يستطع خلاصاً مات غير مأسوف عليه لا دنيا أصابها ولا آخرة نالها وهو هناك أعمى كما كان في الدنيا أعمى.

إن الصراط المستقيم في الدنيا هو ذلك الجسر في الآخرة ، والصراط المستقيم هو التوسط في الأخلاق بين الإسراف والتقتير وبين الجبن والتهوّر وبين الجهل والطغيان بالعلم ، فيكون المرء كريماً شجاعاً حكيماً عدلاً . فمتى تمت هذه الأخلاق فهو على صراط مستقيم وإلا وقع في عذاب الإفراط والتفريط هنا ووقع في جهنم هناك ، ومتى وقع في هذا احتراق بلدغ الآلام في الدنيا كما يألم هناك بجهنم التي هي أثر من آثار ما هنا .

بعض أسرار ما جاء في الحديث

أن المسلم يقول لست ربنا وغيره يتبع وثناً أو قمراً أو شمساً

سبب ذلك أن جميع من على الأرض ينظرون في هذه الدنيا ، فمن اطلع على شيء أعجبه عظمه ، ومتى عظمه وتوالت القرون صار معبوداً . فلذلك ترى الفيل والبقر معبودين في الهند ، وبعض الحيات في إفريقيا ، والنار عند المجوس ، والشمس والقمر عند بعض الهنود ، والقرود عند قوم ، وهكذا ما من شيء ذي شأن إلا وكان له شبيه حظ من الإعظام والإجلال . ومن ذلك التماثيل والآلهة التسعة عند قدماء المصريين ثم صاروا ثلاثة ثم جعلوهم واحداً ، فهؤلاء جميعاً عبدوا ما توهموا أن النور الإلهي قد انحصر فيه . أما المسلم فإنه غير ذلك يتوقف في ذلك كله ويقول أعبد الأحد الصمد فيتعالى على جميع ما في العالم ويعبد إلهاً غير منظور .

العباد والصوفية

وهناك طوائف عبدت الله وصفت النفوس فتشرق نفوسهم ، وهؤلاء أيضاً يحصل لهم في أنفسهم ما يحصل لأهل المادة . فكلما سنحت لبعضهم سانحة من جانب القدس ربما انخدع وظن أنه قد وصل وذلك خطأ كخطأ عباد الصنم ، بل ما من كمال إلا وراءه كمال ، فإذا وقف العابد عند درجة من درجات الكمال وظن أنه قد انتهى فذلك هو الوبال ، حتى يصل إلى الحقيقة العالية . هذا هو المأخوذ من قوله : حتى يأتيهم الله بالصفة التي هو عليها ، فالمسلمون سواء أكانوا من أرباب المحسوسات أو من أرباب الخيال لا يقفون لا عند مادة ولا عند خيال بل هم يرمون إلى العلي الأعلى .

حياة الخارجين من النار

وأما أنهم ينبتون في بحر الحياة كما تنبت الحبة في حميل السيل ؛ فذلك أنه كما أن البذور الدقيقة يحملها الزبد الذي يكون على السيل تنبت بعد أن لم تكن ؛ كذلك هؤلاء المذنبون في الدنيا إذا وقعوا في الذنوب فانتابهم الذل ثم تابوا واستغفروا وأشرقت قلوبهم ظهر الصلاح على وجوههم وخرجوا من ذنوبهم بالتوبة وصارت لهم حياة علمية . هذا في الدنيا ، فإن لم يفعلوا ذلك فعل بهم في الآخرة ما ذكره الحديث في نار جهنم في حال أخرى عبر عنها بهذا التعبير .

تفسير حال آخر أهل النار دخول الجنة

إن هذه الحال المذكورة في الحديث هي أخلاق الإنسان وأحواله في الآخرة ونعم الله عليه فيها وهي تشير إلى حاله في الدنيا .

اعلم أن أحوال الإنسان في الحالين لها نظام متصل . ذلك أن الفقير والمريض والجاهل كل هؤلاء قد يطلبون الصحة والمال والعلم إلى حد محدود ، ظناً أن ما حددوه يروي ظمأهم ومتى نالوه زادوا

طمعاً في العلم والمال والقوة، وفي كل مرة يقول الإنسان: لا أطلب غير هذا، ثم قد ينتهي الأمر بأن ينال العالم علوماً لم تكن له في الحسبان، وهكذا الغني ينال ما لا لم يكن ليخطر بباله. ومثلهما في ذلك من صح بعد المرض. فهكذا من خرج من النار وقد أقبل عليها يتمنى أن يرى الجنة ولا يزال حتى يدخلها، ثم تغدق عليه النعم، وهذه الحال لا تفارق الإنسان في الدنيا ولا في الآخرة. وفي الآية: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾[الانشقاق: ١٩] أي: في الآخرة كما ترونه في الدنيا.

فصل في أحوال أهل النار وأهل الجنة وأخلاقهما

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحات الإعجاز ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي: لأجلهم أو معهم ﴿ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ منا ومنكم ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا ﴾ منزلاً ومسكناً وهو موضع الإقامة ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ مجلساً ومجتمعاً فروا من اتباع الدين بعد ما ظهر من المعجزات إلى الفخر بالمجالس والزينة ونحوهما، وهذا قول كفار قريش لفقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكان في عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة، وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون أفخر ثيابهم، فأجابهم الله بالتهديد فقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا ﴾ متاعاً وأموالاً وثياباً ولباساً ﴿ وَرِءْيًا ﴾ منظراً من الرؤية أو رياً بقلب الهمزة وإدغامها ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ الأمر هنا بمعنى الخبر، أي: يمده ويمهله بطول العمر والتمتع به ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ هذا القول متصل بقوله: ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ أي: لا يزالون يقولون هذا القول إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين ﴿ إِمَّا ٱلْعَذَابَ ﴾ في الدنيا كما حصل يوم بدر ﴿ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ أي: يوم القيامة، وأما قوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ ﴾ الخ، فهي جملة معترضة، وقوله: ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ منزلاً، فهو جواب «إذا» ﴿ وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ أي: فئة وأنصاراً وهو مقابل لقوله: «أحسن نديًّا»، ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ إيماناً وإيقاناً على ما عندهم من اليقين وهو عطف لقوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لأنه بمعنى الخبر ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الطاعات التي تبقى عائدتها أبد الآباد مثل: «سبحان الله والحمد لله» الخ، ومثل الصلوات ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ عاقبة ومرجعاً.

روى البخاري ومسلم: «أن خباب بن الأرتّ قال: كنت رجلاً قيناً في الجاهلية ـ أي حدّاداً ـ وكان لي على العاص بن وائل السهمي دين فأتيته أتقاضاه، وفي رواية: عملت للعاص بن وائل السهمي سيفاً فجئته أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: بلى، قال: دعني حتى أموت وأبعث فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك، فنزلت ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فرد الله عليه بقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: النظر في اللوح المحفوظ أو علم الله حتى يعلم أنه في الآخرة يؤتى مالاً وولداً ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ مثل أن يقول: لا إله إلا الله الخ، ويعمل عملاً صالحاً ﴿ كَلَّا ﴾ لا يكون له ما يقول ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ سنظهر له أنا كتبنا قوله ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ مدّه يمدّه: زاده ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ من المال والولد بموته ﴿ وَيَأْتِينَا ﴾ يوم القيامة ﴿ فَرْدًا ﴾ لا مال معه ولا ولد ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾ ليعزّزوا بهم لأنهم شفعاؤهم عند الله ﴿ كَلَّا ﴾ ردع وإنكار

لتعززهم بها ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ سيجحد الآلهة عبادتهم ﴿ وَيَكُونُونَ ﴾ أي المعبودين ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على المشركين ﴿ ضِدًّا ﴾ خصماً والضد للواحد والجمع ، وهؤلاء المعبودين ينكرون عبادتهم ويطلبون عذابهم حين ينطقهم الله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : سلطانهم عليهم ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ أي : تزعجهم إزعاجاً فيفرون من الطاعة إلى المعصية فهي تحثهم وتحرضهم ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ لا تعجل بطلب عقوبتهم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ نعد أنفاسهم وأيامهم وجميع أزمانهم . اذكر لهم ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ أي : ركباناً على نوق رحالها من الذهب ونجائب سروجها يواقيت إن هموا بها سارت ، وإن هموا بها طارت ، وهذا كلام سيدنا علي كرم الله وجهه تمثيل لحالهم في عزة وعظمة وإكرام ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ أي : مشاة عطاشاً قد تقطعت أعناقهم من العطش فهم كالدواب التي ترد الماء ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ أي : لا يملك العباد الشفاعة ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ بأن تحلى بما يستعد ويستأهل لها في الدنيا بأن يكون هادياً للناس مصلحاً لهم ، ولا جرم ينال الشفاعة في الآخرة على مقدار هدايته كما تقدم تقريره في سورة « البقرة » . فالشفاعة هناك للأنبياء والعلماء والشهداء على مقدار أتباعهم ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] ، ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ أي : قال اليهود والنصارى وبعض العرب اتخذ الرحمن ولداً ، واتخاذ الولد يقدح في الربوبية ، بل من اتخذ الولد تكون عنده رقة القلب والجبن والضعف والجهل ، لأن الولد مجبنة مبخلة مجهلة كما في الحديث الشريف . ومتى اتصف بهذه الصفات لا يكون إلهاً لنقصه . ومتى انتفت الألوهية تنفطر السماوات وتنشق الأرض وتهدّ الجبال ويشير لهذا قوله : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ منكراً ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى ﴿ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ ﴾ أي : تخسف بهم ﴿ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ أي : تسقط وتنطبق عليهم ﴿ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ أي : من أجل ﴿ أَن دَعَوْا۟ ﴾ الخ .

ثم نزه نفسه فقال : ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ وما يليق به اتخاذ الولد ، لأن ذلك شأن المخلوق . واعلم أن هذا القول في هذا المقام يناسبه ما ذكر من العذاب لأنه راجع لأصل الربوبية ، وفي ذلك فساد العالم فليسقط عليهم غضباً كما قالوا قولاً لو صح لأورث خللاً في النظام وزللاً وعدماً ، بخلاف ما في سورة « النحل » كما تقدم إذ قال هناك : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الآية : ٦١] ، فقد بينا هناك أن المقام كان في الذكورة والأنوثة . فأما هنا فالقوم في وصف الله بالولادة بقطع النظر عن الذكورة والأنوثة ، وهذا الوصف فيه خراب العالم ، وذلك الوصف ضياع لكل حيوان ، لو أن العالم كان نظامه حسب أهوائهم ، وكيف يتخذ الله ولداً فذلك لا يليق له ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ أي : إلا آتية يوم القيامة عبداً ذليلاً خاضعاً ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ عدّ أنفاسهم وآثارهم وأعمالهم ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ وحيداً لا شيء معه مما في الدنيا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ أي : محبة فيحبهم الله ويجعل الناس يحبونهم .

روى البخاري ومسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أحب الله سبحانه عبداً دعا جبريل عليه السلام إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء

إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض». وفي حديث مسلم تكملته في البغض على هذا النمط «فيبغض الله إنساناً فيبغضه جبريل ثم أهل السماء ثم أهل الأرض» ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: سهلنا القرآن بلسانك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المؤمنين ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي: أعداء أشداء الخصومة.

ثم ختم السورة بالإنذار بالهلاك لهم قياساً على ما يذكر من هلاك المكذبين من الأمم السابقة فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تخويف للكفرة وتجسير للرسول على إنذارهم ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي هل تجد من القرون من أحد ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ صوتاً خفياً، قال الحسن رضي الله عنه: بادوا جميعاً فلم يبق منهم عين ولا أثر. انتهى التفسير اللفظي.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

اعلم أن هذا القول إذا سمعه من قرؤوا بعض العلوم ولكنهم يجهلون بقيتها أسرعوا بالتكذيب بل الكفر، ولكن ألم يأتهم نبأ علم الأرواح وقد تجلى فيه هذا المقام كما أوضحناه في هذا التفسير. ولما كان نقل مثل هذا القول وأمثاله عن جمعيات أوروبا يحدث في قلوب الطبقة الراقية سروراً ويدهشون إذ يرون ما أنكره المتعلمون في الشرق أثبته الحكماء والعلماء في جميع بلاد الغرب أي العلماء الذين جدوا في علم الأرواح، فسترى في هذا الحديث الذي سأنقله لك من كتاب الأرواح الذي نقلت عنه في هذا التفسير كثيراً.

أقول: سترى فيه عجباً عجاباً. وترى أن النبوة المحمدية قد ظهر سرها عياناً في أوروبا، فقد جاء في هذا الكتاب صفحة ١٢٤ ما يأتي وهاهو ذا:

الحديث الثالث عشر من كتاب المذهب الروحاني

إليك أيها الذكي خلاصة تعليم الأرواح في هذا الموضوع نقلاً عن كتاب «الوسطاء» للمعلم «آلان كردك».

س ـ كيف تميز الروح الصالح من الشرير؟.

ج ـ من حديثه، فإن الأرواح العلوية تحبّ الخير ولا تأمر إلا به. أما الناقصة فلا يزال الجهل متسلطاً عليها وحديثها يشفّ عن نقصها في العلم والفضيلة.

س ـ هل العلم في الروح دليل ارتفاعه؟.

ج ـ كلا. قد يمكن مع علمه أن يكون بعد تحت سلطة الرذيلة والأوهام. إن في عالمكم الأرضي من هم في منتهى الكبرياء والحسد والتعصب فهل يتجرّدون من هذه النقائص حال مبارحتهم الحياة. كلا، إن الرذائل على اختلاف أنواعها تحيط بالروح بعد موته ملتصقة به كالهواء، وهؤلاء أشدّ خطراً من الأرواح الشريرة، إذ فيهم اجتمعت الكبرياء مع النباهة والمكر مع الذكاء فيطغون بعلمهم الأنام السذج ويشربونهم مبادئهم السخيفة الكاذبة، وهذا ما يعرقل قليلاً وثبة الروحانية. فعلى الروحانيين الخبيرين أن لا يألوا جهداً في كشف خداعهم وتمييز الحق من الباطل.

س ـ عندما نحضر روحاً علوياً عرف على الأرض هل يحضر بنفسه أو يرسل من ينوب عنه؟

ج ـ يحضر بنفسه إن أمكن وإلا فيرسل من ينوب عنه .

س ـ هل يكون للنائب كفاءة ليسدّ مسدّ الروح العلوي؟ .

ج ـ إن الروح عارف بمن يسلم إليه أمر نيابته . ثم اعلم أن الأرواح العلوية كلما ازدادت ارتقاء انضمت إلى بعضها في وحدة الفكر حتى لا يعود لمسألة الشخصية حيز عندهم ولا من يلتفت إليها وهذا ما يجب أن تسعوا في البلوغ إليه في عالمكم الأرضي ، ثم هل تظنون أنه ليس من الأرواح العلوية القادرة على تعليمكم إلا من عرفتهم منها على الأرض . ما بالكم تعدون دائماً أنفسكم مثال الخليقة وأن لا شيء في الدنيا خارج عن عالمكم الحقير ، إنكم في هذا تشابهون المتوحشين الذين لم يخرجوا قط من جزرهم فظنوا المسكونة لا تمتد خارجاً عنها .

س ـ هذا صحيح ولكن كيف تسمح الأرواح العلوية لبعض الأرواح الكذبة بأن تنتحل أسماءها لنشر الضلال والفساد؟ .

ج ـ ليس بإرادة الأرواح العلوية تفعل ذلك وسوف يتوبها العقاب على عملها ، ثم لو تكونون أنتم ناقصين لما وافاكم إلا أرواح صالحة ، فإذا مكر أحد بكم فلا تلوموا إلا ذواتكم . إن الله يسمح بذلك حتى تتروضوا على الصبر والثبات ، وتتعلموا أن تميزوا الحق من الباطل ، فإن لم تفعلوا ذلك يكون هذا دليلاً على نقصكم واحتياجكم بعد إلى أمثولات الخبرة .

س ـ هل الأرواح التي تنشر الضلال تفعل ذلك دائماً عن عمد؟ .

ج ـ كلا . قد يمكن لبعض الأرواح الصالحة أن تكون بعد جاهلة ناقصة العلم ، فهذه تقر بعجزها وتتكلم على مقتضى درجة علمها .

س ـ هل تستطيع الأرواح الشريرة بواسطة الرسائل الروحانية أن تلقي الشقاق وتزرع الفتن بين الأصحاب؟ .

ج ـ نعم ، فلهذا يقتضي التحرز التام من مقالات موبقة كهذه يكون أكثرها إفكاً وخداعاً . فإياكم والانقياد لرسائل كهذه لا يسطرها إلا روح كل كاذب شرير .

س ـ إذا كان للأرواح الشريرة سهولة كهذه للتداخل في المخابرات الروحانية فاستطلاع الحقيقة أصبح من أعسر الأمور .

ج ـ كلا . ليس هذا يعسر ما دام فيكم قوة التمييز . إذا قرأتم كتاباً تستدلون على صفات كاتبه إن كان عالماً أو جاهلاً أديباً أو جلفاً . فعلى هذه الصورة استوضحوا صدق الروح من رسائله .

س ـ هل تستطيع الأرواح العلوية أن تنهى شريرة عن الخداع؟ .

ج ـ لا ريب في ذلك ، ومن الوسطاء من تميل إليهم الأرواح العلوية بنوع خاص فتقيهم شر الخداع ولا تدع الأرواح السفلية تسطو عليهم .

س ـ ما الداعي لهذا الاختصاص؟ .

ج ـ لا يدعى هذا اختصاصاً بل عدلاً ، لأن الأرواح العلوية لا تميل إلا إلى من ينقاد لنصحها ويبذل جهده في إصلاح نفسه وترقية الروح . فوسيط صالح كهذا يكون محبباً إليها فتتخذه تحت كلاءتها وتسعفه في كل ظرف وحاجة .

س ـ لم يسمح الله بنفاق الأرواح الشريرة عند انتحالها أسماء مبجلة؟.

ج ـ سؤالكم أشبه بقول من يسأل: لم يسمح الله بأن يكذب الإنسان؟ فللأرواح كما للبشر الاختيار المعتوق في عمل الخير أو الشرّ، ولكن لا يفوت أحداً منهم عدل الله بكل امرئ يلقى جزاء أعماله.

س ـ ألا تستطيع الأرواح الماكرة أن تقلد الفكر؟.

ج ـ تقلد الفكر كما أن زخارف المرسح تقلد الطبيعة.

س ـ من الناس من هم قاصرو الفهم تغويهم زخارف الحديث ولا يفقهون قوة المعاني فكيف يتمكن هؤلاء من الحكم بمقالات الأرواح؟.

ج ـ إن كانوا متواضعين يقرّوا بعجزهم ويركنوا إلى من هم أوفر ذكاء وفطنة منهم. وإن أعمتهم الكبرياء وظنوا بأنفسهم أنهم أشدّ كفاءة مما هم فليتحملوا تبعة كبريائهم.

س ـ كثير من الوسطاء يميزون الأرواح الصالحة من الشريرة بالتأثير اللطيف أو المزعج الذي يصيبهم من مخالطتها. فهل هذا صحيح؟.

ج ـ إن الوسيط يشعر بتأثيرات الروح المتجلي له على أية حالة كان، فالروح السعيد يكون هادئاً رزيناً والتعس يكون مضطرباً ومتقلقلاً، وتأثيرات هذه الحالة تصيب جهاز الوسيط العصبي.

س ـ هل يمكن للإنسان أن يحضر الأرواح من دون أن يكون وسيطاً؟.

ج ـ نعم، وهذا يدعى الإحضار الفكري، ففيه يناجي الروح باطناً محضره، ولئن لم يكن هذا وسيطاً مادياً.

س ـ هل يلبي الروح دائماً دعوة محضره؟.

ج ـ هذا منوط بالظروف التي يكون الروح عليها.

س ـ أية موانع تصد الروح عن تلبية دعوتنا؟.

ج ـ أولها إرادته الحرة، ثم أحوال أخرى بعد الموت، أو الأعمال التي يكون موكلاً بها، أو أخيراً عدم إيذانه في تلبية محضره، إذ كان من الأرواح من لا تستطيع مناجاتكم بتاتاً، وهي التي في عوالم أقلّ من عالمكم الأرضي، لأن الروح لا يستطيع أن يخابر سكان عالم ما لم يكن درجة تقدمه موازياً للعالم المدعو إليه، وإلا فيكون غريباً عن أفكاره ومبادئه، وإن كان هو روحاً متقدماً أرسل إلى العالم السفلي تكفيراً عن ذنوبه أو لرسالة يقدم بها فلا يعجز حينئذ عن الحضور لمناجاتكم إن أذن له في ذلك.

س ـ لماذا ينكر عليه أحياناً الإذن؟.

ج ـ قصاصاً له أو لمن يحضره.

س ـ كيف يمكن للأرواح المتشعبة في الفلا والعوالم القاصية أن تسمع صراخ مستدعيها وتلبي دعوته؟.

ج ـ شرح ذلك عسر طالما أنكم تجهلون كيفية تجاذب الأفكار بين الأرواح، ولكن أقول إن الروح المحضر على أيّ بعد كان تصيبه صدمة الفكر كحركة كهربائية تجتذب انتباهه إلى نقطة مصدرها بنوع أنه يسمع الفكر على نوع القول كما تسمعون الصوت على وجه الأرض.

س ـ هل السيال العام يحمل الفكر كما أن الهواء ينقل الصوت؟ .

ج ـ نعم، إنّما الفرق أن الصوت لا يسمع إلا بدائرة محدودة، في حين أن الفكر ينتقل إلى بعد غير محدود.

س ـ أيلبي الروح الدعوة باختياره أم قسراً عنه؟ .

ج ـ له الحرية المطلقة في تلبية الدعوة أو إبائها، إلا أن الروح العلوي يستطيع في بعض الظروف أن يجبر روحاً سفلياً على الحضور إن كان حضوره مفيداً.

س ـ هل من ضرر في إحضار الأرواح السفلية وهل يخشى على الوسيط شرّها؟ .

ج ـ لا تجسر الأرواح الشريرة على إلحاق الأذى ممن يكون تحت حماية علوية، لا بل تهاب الوسيط الفاضل لما له عليها من السلطة الأدبية، إنّما خير للوسيط أن يتجنب استحضارها في العزلة.

س ـ ما هي أخصّ الشروط لإحضار الأرواح الصالحة؟ .

ج ـ التهيب واختلاء الباطن وصفاء النية والصلاة الحارة.

س ـ هل اجتماع الأشخاص في وحدة الفكر والنية تزيد الإحضار قوّة؟ .

ج ـ نعم ولا شيء يضر بالاستحضار مثل تباين الأفكار وتضاد النوايا.

س ـ هل تحسن إقامة الجلسات الروحانية في أيام وساعات معينة؟ .

ج ـ نعم لأن للأرواح أشغالاً لا تمكنها من الحضور إليكم متى وكيفما شئتم.

س ـ هل للأيقونات والطلاسم تأثير في جذب الأرواح أو طردها؟ .

ج ـ ألا تعلمون أن المادة لا تأثير لها على الروح، وأن الطلاسم لا وجود لقوّة بها إلاّ في مخيلة الأنام السذج.

س ـ أتسرّ الأرواح بالاستحضار أم لا؟ .

ج ـ هذا منوط بطباعها وبدواعي استحضارها، فإن كانت الغاية حميدة والحضور من أحبائها تتقاطر إليهم بسرور، وإلا أبت الحضور أو تحضر كرهاً عنها وتدل أجوبتها على كدرها وغيظها.

س ـ هل يمكن استحضار الأرواح جمة معاً؟ .

ج ـ نعم بشرط أن يكون لديكم جملة وسطاء، وإلا فروح واحد يجيب عن الجميع على يد الوسيط الحاضر.

س ـ هل يستطيع الروح أن يحضر عدة مجالس يستدعى إليها في آن واحد؟ .

ج ـ نعم بشرط أن يكون روحاً علوياً.

س ـ كيف يتم ذلك. وهل يتجزأ الروح؟ .

ج ـ إن الشمس واحدة وتنير مع هذا أماكن عديدة معاً. فكلما تعالى الروح وتنقى ازدادت أشعة فكره قوة وامتداداً. أما الروح السفلي فلا يستطيع لتغلب المادة عليه أن يحضر إلا مكاناً واحداً ولا أن يكاتب إلا وسيطاً واحداً.

س ـ هل يمكن استحضار الأرواح النقية أي التي بلغت الغاية القصوى؟ .

ج ـ قد يمكن ذلك وهذا نادر جداً، فإن أرواحاً كهذه لا تناجي إلا قلوباً نقية مخلصة لا تشوبها الكبرياء وحب الذات.

س ـ ما مقدار الزمن الذي يكفي لاستحضار الروح بعد موته؟.

ج ـ قد يمكن استحضاره حتى وقت الموت، ولكن أجوبته تكون ناقصة لاستيلاء الاضطراب بعد عليه.

س ـ هل استحضار الروح المتجسد ممتنع على الإطلاق؟.

ج ـ كلا. فقد يمكن استحضاره بشرط أن حاله الجسدية تسمح له بذلك. وكلما كان العالم أرقى قلت المادّة من الجسد وازداد الروح سهولة في مزايلته.

س ـ هل يمكن استحضار روح الحي؟.

ج ـ نعم بشرط أن يكون نائماً أو تكون روحه وقتئذ منطلقة قليلاً من قيود جسدها ومرتبطة به برابط سيال به يميز الوسيط الناظر روح الحي من روح الميت.

س ـ هل روح الحي المستحضر وقت الرقاد يجيب سائله بسهولة كروح الميت؟.

ج ـ كلا. لأن المادّة المقيد بها تفعل دائماً فيه وتعيق حريته.

س ـ هل يتذكر الإنسان عند اليقظة استحضاره وقت الرقاد؟.

ج ـ كلا. فإن حالته أشبه بالنائم المغناطيسي الذي ينسى عند اليقظة كل ما قاله وعمله وقت التنويم.

س ـ هل يمكن تغير أفكار الحي عند اليقظة باستحضار روحه وإقناعه عند الرقاد؟.

ج ـ قلما يصح ذلك لأن الإنسان ينسى وقت اليقظة التأثيرات الأدبية التي أصابت روحه والمقاصد الصالحة التي اتخذها وقت الرقاد.

س ـ هل لروح الحي حرية في قول وإخفاء ما يشاء؟.

ج ـ لا ريب في ذلك. لا بل يكون أشد تحفظاً منه وقت اليقظة، وإذا ألحوا عليه في السؤال ينصرف.

س ـ ألا يمكن لروح آخر أن يضطر روح الحي إلى الحضور والتكلم بما لا يريد؟.

ج ـ ليس من سلطة بين الأرواح أحياء كانوا أم أمواتاً إلا السلطة الأدبية، فمن له سلطة كهذه فليس ينبغي أن يستخدمها في سبيل أغراض ساقطة تنزه عنها.

س ـ هل يمكن استحضار روح الجنين وهو بعد في أحشاء أمه؟.

ج ـ كلا. لأنه يكون وقتئذ في حالة اضطراب تام.

س ـ هل يتأتى ضرر من استحضار روح الحي؟.

ج ـ لا يخلو ذلك من بعض الضرر خصوصاً إذا كان الحي مريضاً، فإن إحضاره يزيد في أوجاعه. وعليه لا ينبغي إحضار روح الولد الصغير ولا الشيخ الضعيف ولا الإنسان العليل فإن الاستحضار مضرّ بهم.

س ـ إن كان استحضار روح الحي لا يخلو من بعض الضرر فمن أين نعلم أن الروح الذي نظنه ميتاً ونستحضره لا يكون قد صار بعد الموت في حال حياة يضره فيها الاستحضار؟.

ج ـ إن روحاً كهذا لا يلبي الاستحضار فلهذا قلت لكم إنه لا يستحضر الوسيط روحاً ما لم يسأل قبلاً الروح مرشده أكان استحضاره ممكناً أم لا .

س ـ أليس محتملاً في الوساطة الخطية أو الاستيلائية أن تكون المقالات صادرة من روح الوسيط ذاته؟ .

ج ـ قد يمكن لروح الوسيط إن كانت منطلقة بعض الانطلاق أن تستخدم كالروح الأجنبي جسدها ذاته للكتابة ، وليس هذا بعجب طالما روح الحي يستطيع رغماً من تجسده أن يستخدم جسد وسيط للكتابة أو التكلم .

س ـ ألا يثبت مبدأ كهذا رأي القائلين بأن المقالات الروحانية إنها من شخصية الوسيط التي لم تتنبه وليس للأرواح دخل فيها؟ .

ج ـ قد يصح هذا الرأي في بعض الظروف ، ولكنه لا يشمل المقالات الروحانية كلها . إذا كان في استطاعة الوسيط أن يستخدم جسده للكتابة أو التكلم لا يدل هذا على امتناع استخدام الروح الأجنبي له في سبيل ذلك .

س ـ فمن أين نعلم أكان المتكلم أو الكاتب روح الوسيط أم روحاً آخر أجنبياً؟ .

ج ـ تستطيعون تمييز ذلك من فحوى المقالة ولهجة الحديث وظروف أخرى لا تخفى على الناقد البصير ، فإن من الأجوبة ما يتعذر إعزاؤها إلى روح الوسيط فعلى الخبير أن يتبصر ويدرس .

ولما أتممت هذا المقال من كتاب « المذهب الروحاني » قلت : يا شير محمد اعلم أن في هذا الحديث من المعاني العجيبة الدينية ما فيه عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن ادكر . ألم تر إلى قول الروح : إن الرذائل على اختلاف أنواعها تحيط بالروح بعد موته فتلتصق به . ثم قالت : هؤلاء العلماء الفاسقون أشد خطراً من الأرواح الشريرة لأن الكبرياء والنباهة اجتمعت فيهم . أما إحاطة الأخلاق بالأرواح أو التصاقها بها فقد تقدم الكلام عليها . وأما اجتماع الكبرياء مع النباهة في العلماء الفسقة وأنهم شرّ من الأرواح الشريرة فذلك ورد في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف : ١٧٦] ، ذلك أن عالماً من بني إسرائيل كان مجاب الدعوة يسمى « بلعام بن باعوراء » تقدم إليه قومه واستعانوا بزوجته الجميلة ، وأخذوا لها حلياً ومالاً ، وسألوه أن يدعو الله على سيدنا موسى ، فاندلع لسانه وانقلب الدعاء على قومه وطرد من رحمة الله ، فأخذ يحتال بحيل دنيوية ويوقع الفتن في جيش النبي موسى صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم .

فلهذا قال تعالى : واتل يا محمد على قومك نبأ هذا الرجل الذي آتيناه آياتنا الخ ، ثم قال : فاقصص القصص يا محمد على قومك لعلهم يتفكرون فيما صار إليه ذلك الرجل الذي أضله الله على علم . وقومك ضلوا بعد إذ أرسلتك إليهم . فكذا هاهنا في عالم الأرواح يكون العالم منها داعياً لسبيله مضلاً لمن أطاعه موسوساً بما عنده من العلم ، فصار من الشياطين بما أوتي من العلم الذي صرفه في سبيل الشر ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

وفي مقال العلماء :

وعالـم بعلمـه لـن يعملا معذّب من قبل عباد الوثن

أما قول الروح : ثم هل تظنون أنه ليس من الأرواح العلوية القادرة على تعليمكم إلا من عرفتم منها على الأرض الخ ، فهذا هو المنطبق تمام الانطباق على ديننا القويم فإن كل ما ورد في القرآن من الملائكة والشياطين يشير إلى عالم ليس في الأرض ، فإن جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح الأمين وروح القدس والملائكة الكروبيين وملك اليمين وملك الشمال والكرام الكاتبين وأمثالها ممن جاءت به السنة ونطق به القرآن لم يقل أحد إنهم كانوا أرواحاً أرضية بل قالوا إنهم خلق من خلق الله تعالى خلقهم بلا أجسام .

فهكذا يقول الروح هنا : إنكم إذا لم تؤمنوا بعوالم روحية غير الأرواح التي خرجت من الأرض فأنتم كالمتوحشين الذين لم يخرجوا قط من جزرهم فظنوا المسكونة لا تمتد خارجاً عنها . قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾[المدثر : ٣١] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء : ٨٥] .

وأما قول الروح : إن الأرواح السفلية تكذب وتغش وتنشر الضلال وستعاقب على ذلك جزاء كذبها على الأرواح العلوية وتكلمها بلسانها وقد جعلها الله محنة لكم لتميزوا الخبيث من الطيب ، فهذا القول جميل وبديع مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[آل عمران : ١٨٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء : ٣٥] وقال تعالى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾[الملك : ١-٢] .

قد تبين لنا بالاختبار أن الحياة على هذه الأرض وغيرها إن هي إلا فتنة ونظر واختبار ، وكأنها مسألة حسابية وعلوم رياضية . نعيش وننظر في العلوم ونعاشر الناس ونرى أيّ الأمور أليق مثلاً المال والصحة والعلم والحكم بين الناس . فكل من جعل المال للذاته وشهواته جحد الناس فضله وذمّ الله سعيه . ومن حرم نفسه وقتر عليها ثم تجاوز عن ماله وفرّقه على الناس لامه العلماء وذمه الفضلاء إذا أصبح فقيراً معدماً يسأل الناس ، فعليه أن ينظر بعقله فيما يجب له وللناس . وهكذا أمر الصحة والعلم والعقل وسائر المواهب إن عطلها عاقبه الله وغضب عليه الناس ، وإن أسرف حتى أضر بها كان كذلك ، وإن حفظها ونفع بها الناس كان مشكوراً من الله والناس .

وهكذا ما يبتلى به الإنسان من البلايا وما يصاب به من المحن والرزايا وما يحيط به من الأهوال ونوائب الحدثان فحكمها حكم ما ذكر من النعم ، فإن عرف ما يراد به وعقل نتائج تلك المصائب ازداد بصيرة وعلماً وإلا كان جهولاً . ألا وإن المصائب لأهل الأرض تبصرة وذكرى ، بل كل ما احتجنا إليه وكلفنا أعمالاً فإنه لا محالة مرقّ لعقولنا . ألا ترى إلى الصنائع وبناء السفن وتربية الرجال المدرّبين على الحرب والضرب ثم هم يرمون جميعاً في البحر أيام الحروب . وترى مثلاً قدماء المصريين قد أفرغوا وطابهم ونثروا آخر سهم من كنانتهم فبنوا مصانع ظاهرة ، وهكذا سائر الناس جدوا في التزويق

والتزيين والبناء، منها ما قدمنا مما يصنع ويرمى في البحر فيغرق. ومنها ما يدفن تحت الأرض، ولا بد لهذا كله من مقصد ونتيجة. وما النتيجة والفائدة إلا ارتقاء عزائم هذا النوع الإنساني ورقيه وإكمال القوى والعزائم والبصائر لتلك الأنفس الراحلة لترجع إلى العالم الذي ترسل إليه قوية ذات بصيرة. وقس على ذلك سائر مصائبها ونوائبها، فإنها جاءت تبصرة وذكرى حتى تقوى قلوبها وتشتد عزائمها وتزداد تجاريبها. انتهى.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:٣٧]

قد أخرت لطول الكلام عليها

اعلم أن مسألة أحزاب النصارى ومسألة التثليث وما أشبه ذلك قد تقدمت بإيضاح في كل مقام بحسبه في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [الآية: ٢٢]، وفي سورة «آل عمران» في أوائلها، وفي سورة «النساء» في أواخرها، وفي سورة «المائدة» في آخرها أيضاً، وفي سورة «التوبة» عند قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ [الآية: ٣١] الخ، وفي هذه السورة. فإذا قرأت ذلك كله وجدته محيطاً بالموضوع، ولكن لا بد لنا هنا من ذكر نبذة صالحة ربما تقدم بعضها مفرّقاً فنقول:

جاء في كتاب «المذهب الروحاني»: أن المستشرقين كشفوا قسماً كبيراً من تاريخ مصر القديمة بواسطة الرسوم «الهيروغليفية» المنقوشة على الأحجار وأوراق البردي التي وجدت في داخل اللحود واطلعوا على التعليم الذي فيه أن هناك ثلاثة، وهم: «آمون» أي الأب، و«كوتس» أي الابن أو الكلمة، ثم «موت» أي الأم. قال: وذلك رمز إلى الروح والقوة والمادة. وهذا التثليث منقول عن أهل الهند أي البراهمة، وكانوا يمثلون المادة بهيئة شيخ هرم، والقوة أو الحياة بشاب ماسك صليباً، والروح بهيئة «عنخ» أي صقر. ثم قال: ومن ذا بعد هذا يقول إن إخواننا النصارى لم يأخذوا ثالوثهم وصورة ثالوثهم عن الأقدمين.

ثم إني أحيلك هنا على ما تقدم في سورة «إبراهيم» تحت عنوان «جوهرة في أديان القدماء» وعنوان «التنبيه الثالث: كيف يدخل الضلال على أرباب الديانات»، فلا نعيده هنا فإنك تجد تثليثاً جهراً وتوحيداً سراً وإيضاحاً تاماً لذلك، وذلك عند المصريين وأمم الهند القدماء. فلنوضح في هذا المقام شرح اختلاف الأحزاب من بينهم.

لقد كانت كنائس النصارى في القرن الرابع مقسمة إلى حزبين: أحدهما يقول: المسيح إله والآخر ينكر ذلك. وفي سنة ٣٢١م قال «اريوس»: إن للأب وللابن جوهرين متميزين، والثاني خليفة الأول، ومعنى هذا أنه ليس بإله. ويقول علماء عصره إنه أي «اريوس» ذو علم واسع وفضيلة وكمال خلق وفصاحة جذابة فاتبعه كثير من علماء النصارى. هنالك اتقدت نار الحقد في قلب إسكندر أسقف الإسكندرية فجمع حوله بعض العلماء وألف منهم مجمعاً كفروا فيه «اريوس» بسبب تعاليمه، فقام عالم اسمه «أوسابيوس» أسقف «نيقوميديا» وألف مجمعاً انتصر فيه إلى «اريوس» وكفروا غيره.

هنالك انصرم حبل الأمن واختلّ نظام الأمة وأصبحت في قلق واضطراب شديد وذلك على مسألة ليست من دينهم وإنّما هي مقتبسة من المصريين ومن الهنود فلم يسع الملك قسطنطين إلا أن يكتب إلى إسكندر وإلى « اريوس » بما يأتي :

إنّما تتخاصمون في أمور لا تدركونها ، ولا يمكن أن تدركوها ، وتجعلون الحرب بين الإخوة لكلمات ملغاة لا عمل لها ، فإن كنتم لا تتفق آراؤكم في المسألة الباطلة الجنونية المسببة للخصام بينكم فعلى الأقل احفظوا هذه الأمور الضئيلة لكم ولا تقلقوا بها الشعب . وأرسلها لهما على يد «أوزيوس» وهو أسقف ، وقد أضاف ما يأتي : ما كادت النصرانية تمتع بالسلام حتى أخذتم تقلقونها بنزاع دائم ، ليس منكم من يستطيع أن يتحقق أكان المسيح مخلوقاً أم مولوداً ، فلو كان لهذه المسألة أهمية ما أغفل المسيح التكلم عنها . انتهى .

فلم يفد ذلك كله وبقي القوم في صراعهم وجدالهم ، واتهم قوم الملك بأنه ينصر الأريوسيين فأمر الملك بمجمع فيه أساقفة العالم وذلك في « نيقية » سنة ٣٢٥م .

وقال الأسقف « ساينوس » الذي كتب أعمال المجمع النيقادي : إن أكثر آباء هذا المجمع كانوا على غاية من السذاجة والخشونة والجهل .

وقال المؤرخان « سقراط » و« موزومينوس » : إن كثيراً من الآباء تناسوا غاية انتدابهم للمجمع وأخذوا يتشاجرون ويتشاتمون لمسائل شخصية بحدة ووقاحة ، وكل يذكر للملك مساوئ أخيه ، فقال الأريوسيون : إن يسوع أبدع من العدم ومضى له زمان لم يوجد فيه ، والآخرون يقولون : كلا إنه هو الابن الوحيد في طبيعته وهو عقل الأب وقدرته وحكمته وضياء مجده . فسلم الأريسيون بهذا التحديد ، فلما سمعوا ذلك قالوا للأريسيين : إنه مساو للأب بالجوهر ، فلم يرضوا به فنفاهم قسطنطين ولكن بعد ذلك بقليل عاد « اريوس » وأساقفته من المنفى ودخلوا الإسكندرية ، فحينئذ انتصر الفريق المنكر لمساواة المسيح لأبيه ، بل تعدّى الأمر هؤلاء إلى الذين يقولون بألوهية المسيح ومساواته للأب في المجمع النيقاوي ، والذين وافقوا في ألوهية المسيح في المجمع النيقاوي كرهاً رجعوا ونادوا ببطلان المساواة في الجوهر ، فأقام لهم قسطنطين مجمعاً في أنطاكيا ، وهذا المجمع نصر مذهب « اريوس » وأبطل رأي خصومه الذين يسمون « مستقيمي الرأي . أرثوذكس » . فهؤلاء الأرثوذكس لعنوا المجمع الأنطاكي كما لعن الأريسيون المجمع النيقاوي واشتعلت نار العداوات والبغضاء بين الفريقين ، ومات « اريوس » فجأة ففرح الأرثوذكس لزعمهم أن ذلك بسبب دعاء « مكاريوس » وهو منهم ، ثم توفي قسطنطين سنة ٣٣٧م بعد أن قسم الملك بينه وبين بنيه ، وكان « ماراتاسيوس » عدو الأريسيين المؤمن بألوهية المسيح مقيماً في المنفى ، فطلب من الملكين « قسطنس » و« قسطنت » أن يؤلفا مجمعاً آخر يحكم بين المجمعين النيقاوي والأنطاكي ، فالأساقفة الشرقيون حذفوا لفظ مساو للجوهر ، والغربيون أثبتوا قانون المجمع النيقاوي وحرموا الأريسيون .

ولما لم يتم شيء رأى البابا « ليباريوس » بإذن الملك أن يجمع مجمعاً رابعاً في مدينة « ميلان » فأظهر العناد الأساقفة الغربيون ومن جملتهم البابا ، فنفاهم الملك ثم عقد مجمع خامس وحصل جدال حاد أربعة أشهر ، فأمر الملك « قسطنس » العسكر أن لا يدعوا أسقفاً يبارح المدينة حتى يعلن

إلغاء المساواة بالجوهر، هنالك صارت النصرانية كلها على مذهب « اريوس » طوعاً أو كرهاً لا على مذهب الأرثوذكس.

ولما مات هذا الملك نشطت ألوهية المسيح ثانياً ومساواته لله بالجوهر، فأمر الملك «تيودوسيوس» حسماً للنزاع أن يتبع النصارى عموماً مذهب البابا « داماسيوس » وهو يقول بألوهية المسيح لأنه يريد محاربة البرابرة، ومقتضى هذا حرمان الأريوسيين، ولكن لكثرتهم تركهم أحراراً في مناصبهم فاحتال القديس « امفيلوك » إذ دخل يوماً على الملك وعنده ولي العهد «أركاديوس بن تيودوسيوس» الملك، فلم يؤد واجب الاحترام لولي العهد كالملك، فنبهه لذلك فلاطفه ولكن لم يحترمه كالملك، وقال للملك: كفى هذه الملاطفة وأما الاحترام الكلي فهو للملك، فغضب عليه وطرده، فقال وهو منطلق: مولاي أنت لا تطيق إهانة لاحقة بابنك وتغضب على من لا يؤدي له الاحترام فكيف لا يمقت إله السماوات والأرض من يكذب على ابنه الوحيد ولا يؤدي له السجود ذاته الواجب للعزة الإلهية. فاتعظ الملك وشتت شمل الأريوسيين ونزع الحقوق المدنية من كل من يسلم بالقانون النيقاوي. فهذه حيلة « امفيلوك » أثبتت ما عجزت عنه تلك المجامع، فبفضله تأسست عقيدة ألوهية المسيح وأيدتها السلطات كرهاً.

هذه هي عقيدة التثليث عند النصارى عن قدماء المصريين وعن الهنود. فتثليث الهنود « براهما وفيشنو، وسيفا »، وتثليث الفرس « ارمزد، واهريمان، وميطرا »، وتثليث المصريين « ازيريس، وايزيس وهوروس »، ومثل هؤلاء الكلدانيون والصينيون والفيثاغوريون. فهؤلاء كلهم عندهم تثليث ولكن تثليثهم يرمي لغرض علمي. أما تثليث النصارى فهو تقليد أعمى بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير.

يقول النصارى: إن الابن موجود من الأب، والروح القدس منبثق من كليهما، والأب عندهم بصورة شيخ هرم حاف لفعه الشيب عابس الوجه غضوب، والابن كشاب وديع يقدم نفسه ضحية لأبيه، والروح القدس حمامة بيضاء مستقرة على كل منهما، والروم الأرثوذكس يخالفون في قضية الانبثاق ويقولون: لا بد من التسليم الأعمى، فهو ابن لكنه غير منبثق، بل هو كالأب تماماً.

فهاهنا عزلوا العقل، وقد يشبهون الثالوث بالشمس ونورها وحرارتها، ومن العجب أن النار والحرارة طبعهما غير طبع الشمس. ويشبهونه أيضاً بالمثلث وأضلاعه مع أن الأضلاع كل منها مستقل بنفسه. وقد يقولون هذه كالنفس البشرية وقوة فكرها وقوة حبها، فالنفس تلد الفكر وتحبه. هكذا يلد الأب الابن ويحبه، فالنفس صورة الأب والفكر صورة الابن والحب المتبادل بينهما صورة روح القدس، وينقض هذا أن الحب أو الفكر ليس أقنوماً متميزاً في النفس، بل يقال النفس وقواها متعددة وهي كثيرة: فكر وحب وخيال وتصور وإرادة وإحساس، أي: أوصاف كثيرة. هذا كله من كتاب « المذهب الروحاني » الذي ختم المقام بقوله: لا جرم أنه لو تصور المسيحي قليلاً بخلو الغرض في سر التثليث لخجل من تسليمه بضلال مبين كهذا.

كيف ضل هذا الإنسان وغوى وهل للتثليث أصل؟

هل لك أيها الذكي أن تقف على سر التثليث الآن لئلا تخرج في هذا المقام بلا علم؟ . فهل كان هذا الإنسان كله غبياً جاهلاً؟ وهل كانت هذه الأمم التي قامت بالعلم والحكمة أغبياء؟ اللهم لا ثم لا.

إن الله هو الذي خلقهم ، وإن الله هو الذي علم الطيور والأنعام والحشرات . فهل يفعل هذا كله ثم يحكم على الإنسان وحده بالضلال التام؟ فلتعلم أن الحقائق حاصلة عند كل أمة ، غاية الأمر أنها تخلط بأوهام كما أن الأغذية التي يأكلها الحيوان مشوبة بأشياء غير مغذية ، فليس كل الحشيش غذاء . فليس الحشيش والكلأ فيهما من المادة الغذائية ما في الفول والقمح . كلا . فكلما اختلطت مواد بالأغذية اختلطت أوهام بالحقائق ، لأن ذلك طبيعة أرضنا . أصل هذه المسألة أن الأمم القديمة نظروا في هذا الوجود كله نظرة فقالوا : هناك كائن أسمى يدبر هذا العالم فهو كأرواحنا ، وهذا المدبر الأسمى هو الذي اتصف بالقدرة والعلم ، فخلق ما هو أقرب إليه وهي القوة التي تسمى بلسان الشرع ملائكة فالقوة في الإنسان تشمل الحس والحركة . هكذا القوة في العالم هي العقول والنفوس وبهما يكون نظام هذا العالم وتدبيره بإحكام ، ولما وجدت هذه القوة بقسميها القوة العاقلة والقوة العاملة نتج منها أمر ثالث وهي المادة . فهنا إله وقوة مادية . وهاهنا يصح الخلق . فجميع المخلوقات لا تتم إلا بإله وقوّة ومادة ، والقوة المدبرة لهذا العالم قوة الله والعالم حاصل منه تعالى .

فانظر في مثال المصريين . جعل الأب صقراً وهو « عنخ » ولا جرم أن الروح كالطائر ، فهي حرة وجعل الابن شاباً قوياً . ولا جرم أن حركة هذا العالم لا تكون إلا بقوة ، وجعل المادة شيخاً هرماً وهذا حق . ولا جرم أن الإنسان أيضاً من روح وجسم مادي وقوة في الجسم ، فتارة نقول هذا إنسان أي لهذه الثلاثة ، وتارة ننظر للحقيقة فنقول : الإنسان هو الروح والبقية تبعها . فالأمم السابقة جميعاً يقولون بانبثاق الثاني من الأول وانبثاق الثالث منهما . إذن الإله الأول لا غير ، وكون كل من الثلاثة إلهاً هذا أمر مجازي جرى على ألسنتهم باعتبار أن الخلق لا يتم في هذا العالم المحسوس إلا باجتماع الثلاثة التي ترجع لواحد في الحقيقة .

هذا هو كلام هذه الأمم كلها . ولقد رأيت في الفتوحات المكية لابن عربي في مواضع كثيرة ما يفيد أن الإله له إطلاقان : إطلاق يشمل ما هو أعم ، وإطلاق للواحد الأحد ، فهذا مجمل كلامه ، ولعله رحمه الله أراد أن الإطلاق العام إطلاق الأمم القديمة وبهذا اتضح المقام . فهذا التثليث هو المراد عند تلك الأمم ، فهو تثليث يراد به معرفة أصل العالم وأصل الخلق مع الإقرار لله بالوحدانية ولكن الأمم غيروا ونقلوه من المعنى الفلسفي إلى ما يعرفه العامة ، فيعبدون « بوذا » و« عيسى » وأمثالهما فأين الثريا وأين الثرى .

فانظر لمسألة علمية اعتراها التبديل والتغيير وانتقلت من الفلسفة إلى آراء العامة الذين لا يعرفون إلا من يعظمون من الناس ، فجاء الإسلام وقضى على هذه العقيدة ونظر إلى نفس موجد الخلق فأزال هذه الخرافات .

ثم إن القوة المذكورة في اصطلاح علماء زماننا تسمى الأثير ، فالأثير عالم لا نعرفه إلا بآثاره ، أو يقال هي قائمة بالأثير . فترى الأثير فيه النور والكهرباء والحرارة والمغناطيس والمادة . كل هذه منبعها عالم الأثير ، والمادة ما هي إلا حركات في الأثير ظهرت لحواسنا بهيئة خاصة فسميناها مادة ، وقد قال علماء الفلسفة القديمة قولاً يشبه هذا ، فقالوا : إن وجودها ضعيف أي دليله ضعيف . انتهى تحقيق المقام ليلة الثلاثاء الثالث من شهر يوليو سنة ١٩٢٨م ، وبه تم تفسير سورة « مريم » .

سورة طه مكية

وهي مائة وأربع وثلاثون آية

وسيأتي في الفصل الثالث من المقصد الثاني مناسبتها لما قبلها من السور.

وهي ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول والثاني: في مقدمة السورة، وقصة موسى عليه السلام، من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ ﴾.

المقصد الثالث: من قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ ﴿٩٩﴾ ﴾، إلى آخر السورة. وفيه الحض على الدين الإسلامي وذكر خراب العالم وغير ذلك.

المقصد الأول: من أول السورة إلى قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

المقصد الثاني: من قوله تعالى: ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾ **وهو فصول**:

الفصل الأول: في كلام الله لموسى لما رأى النار وما تبع ذلك من ظهور المعجزات، إلى قوله تعالى: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾.

الفصل الثاني: في تعداد الله لنعمه على موسى عليه السلام، وفيه ملخص ما كان من تاريخه قبل ذلك وأمره هو وهارون أن يدعوا فرعون، إلى قوله: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾.

الفصل الثالث: في دعوة فرعون، إلى قوله: ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾، وفي هذا الفصل محاورة موسى لفرعون بالقول أولاً ثم العمل ثانياً بإحضار السحرة له وسحرهم كما سيأتي.

الفصل الرابع: في ارتحال بني إسرائيل من مصر وغرق فرعون وإضلال السامري لقوم موسى بالعجل الذهبي، إلى آخر هذا القسم.

المقصد الأول

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

التفسير اللفظي

روي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أعطيت السورة التي فيها البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلة» ومعنى النافلة زيادة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه﴾ تقدم الكلام على هذه الحروف في سورة «آل عمران» مطولاً جامعاً لعجائب وأسرار من العلوم، ويقال إن ﴿طه﴾ معناه يا إنسان، بلغة عك وهي قبيلة من قبائل العرب، يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه الوحي بمكة كان يجتهد في العبادة ويتهجد طول الليل فأنزل الله هذه الآية ليخفف عن نفسه، فقال: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ بتأسفك على عدم إيمان قريش وكثرة اجتهادك في قيام الليل. كلا. فلم ننزّله لذلك بل قم ونم وصم وأفطر وليس عليك هداهم وإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب، فلماذا هذا التأسف والشقاء بمعنى التعب، وفي المثل العربي: «أشقى من رائض النهر» ويقال: «سيد القوم أشقاهم» أي أتعبهم وأنصبهم، ثم قال: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي: لكن أنزلنا عظة لمن في قلبه رقة فينفعه الإنذار. نزل ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ جمع عليا تأنيث الأعلى ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ تقدم الكلام على العرش في سورة «يونس» وفي سورة «هود» مفصلاً فإن الله يدبر الأمر في السماوات والأرض، وهذا التدبير مبني على الحقائق الثابتة التي لا مناص منها لحفظ هذا الوجود ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي: الطبقة الترابية، وهذا دال على عظيم قدرته، ثم أتبعه بإحاطة العلم الذي لا تنفصل الإرادة عنه والإرادة تتبعها القدرة المذكورة فيما تقدم، فقال: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي: وإن تجهر بدعاء الله وذكره فاعلم أنه غنيّ عن جهرك لأنه يعلم ما تسره في نفسك وأخفى منه وهو ما تستره فيها. إن الدعاء والذكر باللسان إنّما شرعناهما ليتصور الداعي والذاكر المعنى في نفسه لا ليسمعنا صوته ولا فضل للنطق أو الجهر به إلا لمنع الشواغل الشاغلة لكم في دعائكم عن حضور المعاني في عقولكم فـ﴿أَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِ﴾ المعاني ﴿ذَاتِ﴾ أي صاحبة ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الحسنى تأنيث الأحسن، حسنت أسماء الله لدلالتها على معان هي أشرف المعاني وأفضلها. انتهى التفسير اللفظي لمقدمة السورة أو أسها وأصلها وهو القسم الأول من الأقسام الثلاثة فيها.

انظر أيها الذكي في هذا القول وتأمل وتعجب في الترتيب الجميل البديع:

(١) ابتدأ الله السورة بحرفين من الحروف التي تذكر في أول السور وعددها (١٤) من ثمانية وعشرين حرفاً. ولقد أبنا لك في سورة «آل عمران» أن هذه الحروف من أسرار القرآن العجيبة وبدائعه الغريبة، وأن عدد (٢٨) المقسم إلى قسمين هو عدد منازل القمر، وفقرات الظهر للإنسان وبعض الحيوان، ومفاصل الكفين إلى غير ذلك. وهل أخبرك الآن بما جاء في الأخبار الواردة من جمعية الأمم وأن هناك اقتراحاً يقضي أن تجعل الشهور ١٣ بعد ١٢ لأجل صحة الحساب وما صحة الحساب،

فأجاب المهندس المخترع لذلك أن صحة الحساب أن يجعل كل شهر ٢٨ يوماً، لماذا؟ ليسهل الأمر على الناس فيكون أول الشهر يوم السبت وينتهي بالجمعة وبتكرار ذلك ٤ مرات تصير ٢٨ وهذه صورته:

سبت	أحد	اثنين	ثلاثاء	أربعاء	خميس	جمعة
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨

ويكون هذا الجدول ثابتاً كل شهر إلى الأبد لا تتغير أيامه ولا أعداده، فأوله سبت وآخره جمعة لا تغيير إلى الأبد، وبضربنا ١٣ في ٢٨ يكون العدد ٣٦٤ وذلك ينقص يوماً عن السنة فيجعل في كل سنة يوم واحد لا يسمى باسم من هذه الأسماء المعروفة، وفي رأس كل أربع سنين يترك يوم آخر لأجل السنة الكبيسة لأن السنة (٣٦٥) يوماً وربع يوم.

هذا هو الحل الذي قدمه المهندس لعصبة الأمم، وقد أطنبت الأمم في استحسانه لسهولة حسابه ولم يصل لمصر هذا الاقتراح إلا عند كتابة تفسير هذه السورة.

يا عجباً كيف اتفق أن منازل القمر وفقرات الإنسان ومفاصل الأصابع في اليدين وأموراً أخرى توافق في أعدادها الحروف العربية والحروف العربية تجعل قسمين في أول السور (١٤) ظاهرة و(١٤) خافية، ثم كيف يقترح مقترح ـ سواء أعمل به أم لم يعمل ـ قائلاً على رؤوس الأشهاد في أمم الشرق والغرب: أيها الناس، إن عدد (٢٨) هو الذي يسهل في حساب السنين.

ثم انظر كيف كان الأسبوع أربع مرات هو عين عدد الحروف العربية؛ وإذا كان مرتين فهو حروف أول السور، وعدد الأسبوع عدد أولي لا يقبل القسمة، وعدد (٢٨) يقال له العدد التام، وقد أوضحنا هذا تمام الإيضاح في سورة «آل عمران»، والعدد التام نادر جداً في الأعداد، وليس في أعداد العشرات عدد تام إلا هو، وما مثل العدد التام في علم الأعداد إلا كمثل الأنبياء والحكماء في الناس، فانظر كيف ترى عدد ٢٨ نال التمام في نفسه وحسن النظام في نتائجه. ثم انظر كيف كان هذا الاقتراح قد جعل السنة ١٣ شهراً، وهذا العدد عينه هو الذي حدده القمر، لأن القمر في السنة كلها يدور (١٣) دورة، لأنه في كل شهر يقطع الفلك دورة وجزء من دورة، وفي تمام الأشهر يكون تمّ ١٣ دورة. ثم انظر كيف كان هذا الاقتراح قد جعل في كل أربع سنين يوماً لأجل السنة الكبيسة، وعدد ٤ المذكور هو عينه الذي يضرب في ٧ كما تقدم، وهو واضح في أوائل السور إذ هي من ٢٨ حرفاً مجزأة ١٤ و١٤ من قسمة ٢٨ على اثنين. فهذه القسمة تذكرنا بعدد ٤ المضروب في ٧ وعدد ٤ في السنة الكبيسة.

وإنّما ذكرت لك هذا في هذا المقام لترجع إلى ما ذكر في أول «آل عمران» وتدرسه. ومن عجب أن تكون أدوار القمر موافقاً عددها لعدد الأشهر المذكورة ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود:٥٦].

نقول: ابتدأ الله السورة بهذين الحرفين تذكرة بتلك العلوم الجميلة الجليلة الفلكية والطبيعية والإنسانية يقول الله: ﴿طه﴾ أي: أذكركم بهذين الحرفين جميع حروف أول السور التي جعلناها رمزاً لعلوم هذه العوالم كلها من تشريح وفلك وحساب الشهور والسنين وغير ذلك، أذكركم بذلك لتكونوا

﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وليس يمكن أن تكونوا ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ إلا أن تكونوا أعلم منهم لأنكم ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران: ١١٠] أي: إنكم تجمعون إلى قوة الأدب والأخلاق الفاضلة قوة العلم، والعلم هو ما أبرزته في هذه العوالم العلوية والسفلية وقد رمزت لها بهذه الحروف، وإن أردتم إلا التصريح فاسمعوا ما أتلوه عليكم بعد ذلك.

(٢) ذكر خلق السماوات والأرض وهما عبارة عن أصول العوالم التي نحن فيها ومبادئها.

(٣) وأتبعه بذكر أنه استوى على عرش ملكه بالتدبير والنظام الحسن في أربعة أشياء التي هي: (أ) ما في السماوات. (ب) وما في الأرض كالدواب والنبات والحشرات والأنهار. (ج) وما بينهما كالهواء والطير والسحاب. (د) وما تحت الثرى وهي الطبقات الأرضية المذكورة في سورة «الأنعام» وفي غيرها.

(٤) ثم قال: إياكم إن تظنوا أن هذه جاءت مصادفة؛ كلا فإني لا أعمل إلا إذا أردت ولا أريد إلا على مقتضى العلم، فالعلم تتبعه الإرادة، والإرادة يتبعها العمل بالقدرة.

إن علمي محيط بالعوالم العلوية والسفلية كما هو محيط بسركم وجهركم. فأنا أعلم السماوات والأرض، أعلم الأمور الأربعة التي فيهما وأعلم جهركم وسركم وما هو أخفى من سركم، وإذا كان الأمر كذلك فأنا لا أدع صغيرة لا وكبيرة إلا حسبتها ودققت فيها فلم أذر من صغيرة ولا كبيرة، وهاكم ما ذكرته في أول سورة «طه» فإنها تدعو لتفكركم في الحروف وسرّها، وهذه تدعوكم للنظر في علم الحساب والفلك وفي التشريح وغيرها، فهأنا ذا لم أذر شيئاً إلا نظمته. وإذا كانت الحروف التي تجري على ألسنتكم قد اتصل حسابها بحساب الأفلاك والطبيعة والتشريح؛ وبعبارة أخرى: إن العالم كله كنفس واحدة ونظام واحد، فإني أدل بالأعلى على الأسفل وبالأسفل على الأعلى.

أيها الذكي. انظر كيف يذكر الجهر بالقول والإسرار به في مقام تعداد ما في السماوات وما في الأرض، يذكره مشيراً إلى القول فيه مناسبة للعوالم كلها، فنظام حروفه كنظام العوالم ومعاني الكلام تنطبق على العوالم. إن هذا الإنسان أمره عجيب، مخلوق صغير ولكن عقله كبير، يختصر العوالم كلها فيضعها في عقله كأنه عالم كبير، والحروف التي ينطق بها تكاد تظهر سر السنين والحساب ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾[يوسف: ١٠٠].

لقد علمت أيها الفطن أن العوالم التي بين السماوات والأرض المذكورة وأهمها هذه السلسلة الإنسانية والحيوانية والنباتية والمعدنية وهي مذكورة في سور كثيرة في القرآن، وقد ذكرت في سورة «الحجر» وكذا في سورة «النحل» مرتين كما أوضحناه هناك. وهاهي ذه تذكر الآن بطريق مختصرة فذكرها هنا إجمالاً بقوله: ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾، وسيأتي قريباً في هذه السورة في قول فرعون: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴾[طه: ٥١] موسى ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾[طه: ٥٢]. ثم أخذ يشرح الأرض وأنها مهدت وأن فيها سبلاً، وذكر إنزال الماء من السماء وخروج النبات من الأرض وذكر الأنعام، ثم أتبعها بذكر أولي العقول وأنهم يحيون ويميتون ثم يخرجون، وهذه القصة هي قصة العالم والتاريخ الطبيعي الذي يدرسه أهل الشرق والغرب الآن في المدارس كلها، اللهم إلا في كثير من بلاد الشرق، فإن الفرنجة يخافون من رقي المسلمين بهذه العلوم

فحذفوها من نظام المدارس إلا قليلاً في بلادنا المصرية، بحيث ترى أن هذه العلوم قد حذفت ولم يبق منها إلا النزر اليسير بعد دخول الإنجليز بلادنا، وسيكون إن شاء الله للأمة الإسلامية مستقبل زاهر بهذه العلوم، وسنزيد هذا المقام بياناً قريباً فانتظره فسينشرح صدرك بما تقرأ من نظم به تقرأ نظام هذه الدنيا مختصراً.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾

إلى قوله: ﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ ﴾

وفيها بهجتان:

البهجة الأولى: في رمز هذين الحرفين «طاء. هاء».

البهجة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ﴾

البهجة الأولى في ﴿ طه ۝١ ﴾

تقدم الكلام على هذه الحروف إجمالاً في أول سورة «آل عمران»، فأما الكلام على «الطاء» و«الهاء» هنا فهاك ما فتح الله به عليّ يوم الخميس ٨ ديسمبر سنة ١٩٢٧ ضحى وأنا أقرأ في سورة «طه». ذلك أن هذه السورة جاء أكثرها في قصص موسى عليه السلام، وصدرت بمقدمة محصلها يرجع إلى أن هذا القرآن نزل تذكرة لمن يخشى، وأن الذي أنزله هو الذي خلق الأرض والسماوات العلى وله جميع السماوات وما بينهما وبين الأرض والأرض وما تحت الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى من السر. هذه هي المقدمة، فالمقدمة ترمي إلى قراءة دروس هذه العوالم، وأن القرآن إنّما أنزل لذلك فهو منزل لدراسة العوالم التي نراها والتي نعرفها بعقولنا حتى نعرف بعض السر المذكور. إذا علمت هذا فهمت بيت القصيد من قصة موسى المذكورة بعد ذلك. إن القصص إنّما يذكر لإيضاح المقدمات قبله وللاستشهاد عليها؛ فانظر الآن إلى تلك القصة فإنك تجدها قد حوت مسألة السحرة وأنهم آمنوا بموسى لما عرفوا أنه أتى بما لم يأت به السحرة، فعرفوا أنه من عالم فوق عالم السحرة لذلك آمنوا، أما بنو إسرائيل فهم قوم جهلاء فكيف يعقلون أمثال هذا فكان إيمانهم ظاهرياً وقتياً كما سيأتي إيضاحه. ثم إن الحديث مع فرعون يرجع إلى معرفة الله بما يشبه ما ذكر في المقدمة المذكورة من كونه جعل الأرض مهداً، وأنزل الماء من السماء وأخرج به النبات يأكل منه الإنسان والحيوان. وهذه هي العلوم العامة في السماوات والأرض أي العلوم الرياضية ومنها علم الفلك والعلوم الطبيعية، وبهذه العلوم ونحوها عرف السحرة مقام موسى عليه السلام، إن المقصود هو هذه العلوم فبها عرف السحرة فآمنوا وأيقنوا، وهي التي لأجلها أنزل القرآن. ويقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

انظر بعد ما قدمته لك فإنك تجد هذا كله يرجع إلى أمرين اثنين لا ثالث لهما: الأول: أن الله خصص لكل مخلوق أوصافاً خاصة وأحوالاً ومنافع. والثاني: أنه هدى الحيوان منه إلى ما خلق له وما فيه نفعه، وهذا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٣٨]، وكقوله

تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ٢-٣]، وهذه فيها «الطاء» أولاً و«الهاء» ثانياً في «أعطى» و«هدى»، فكأنه يقال إن القرآن يراد منه دراسة سائر العلوم، وسائر العلوم هي التي جاءت في محاورة فرعون وموسى كما جاءت في مقدمة السورة، ويجمعها كلها «أعطى» و«هدى»، وهذان يجمعهما ﴿ طه ﴾. فإذن «الطاء» و«الهاء» يرمز بهما إلى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية، وهكذا كل علم في الدنيا لأنها كلها ترجع إلى هذه الجملة.

لماذا نزل هذان الحرفان أي: ﴿ طه ﴾ في أول هذه السورة

اعلم أن الله علم أن المسلمين سينامون نوماً مخزياً عميقاً فيكتفون من الدين بقشوره ويظنون أن الصلاة والزكاة وما بعدهما كافيات، فتأخذهم الأمم وتذلهم وتسومهم سوء العذاب، فأنزل الله هذين الحرفين ليجدّ المسلمون في البحث عن السر فيجدون أنهما رمز لأن يقرؤوا جميع العلوم. وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقال له: إن القرآن لم يقتصر على أنك تكثر الصلاة وتشقى بالتعب والنصب في العبادة، بل هو جاء أيضاً ليخرج أمماً من جهلها ويعلمها فتصلي تبعاً لك وتقرأ العلوم. كل هذه المعاني تؤخذ من ﴿ طه ﴾، وهناك أيضاً «ها» في قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾[طه: ٥٥] الخ مكررّة ثلاث مرات، وفي قوله: ﴿ كُلَّهَا ﴾[طه: ٥٦]، كل ذلك جاء بعد قوله: ﴿ أَعْطَىٰ ﴾[طه: ٥٠].

ومن عجب أن يجيء في أسباب النزول أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعب ويشقى بكثرة الرياضة والتهجد والقيام على ساقه، فقيل له ما ذكر، كأنه يقال: ليست العبادة وحدها هي المقصودة بل هناك التذكرة وقد فهمتها فيما قدمناه أن المسلمين اليوم اكتفوا بالعبادة اللفظية فعليهم أن يتذكروا بدراسة العلوم كلها. انتهى.

تذكرة

نور على نور في نظام القرآن

سيقول قائل كيف يجعل بيت القصيد هنا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠]، أقول: إن الذي ظهر لي من القرآن أنه يفعل في العقول فعلاً خفياً أشبه بما يقصده كتاب الأدب من جعل النصائح مندمجة في قصصهم اندماجاً حتى يسحر السامع سحراً، لأن المعنى دخل في غضون القصص والحكايات كأنه غير مقصود ليثبت في العقول ثبوتاً لا تزعزعه السنون، واضرب لك مثلاً سورة ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[التكوير: ١] فيها ١٤ فاصلة جاء في وسطها هاتان الفاصلتان: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾[التكوير: ٨-٩]، فلما نزل القرآن وسمعه العرب سمعوا جملاً متناسقة يذكر فيها تكوير الشمس وانطفاء نور النجوم وتفتت الجبال، وهكذا، ولكنه فاجأهم فيها بحكمة وهي مسألة الموؤودة، فارتاع العرب لذلك وحرم وأد البنات إلى الآن.

فانظر لهذا السحر الحلال لأجل جملة أدخلت بحكمة في وصف انقضاء العالم حفظ نصف الإنسان من الوأد، وذلك لا يكفي فيه دول وأمم وجنود. فبمثل هذا تساس الأمم، وبمثل هذا يكون التأثير. أسأل الله أن يرزقنا السير على هذا المنوال في الإرشاد.

يا أمة الإسلام هذا ما حصل من إصلاح الأخلاق ونظام المجتمع بحسن الإلقاء وسحره ونظام الترتيب، ونحن الآن لا نئد البنات ولكننا أحيينا البنات ووأدنا عقولهنّ وعقول الرجال، ففعل الله لنا

ما فعله لآبائنا سواء بسواء، إذ جاء بسورة « طه » وذكر قصة موسى ومحاورته لفرعون. وفي أثناء ذلك كله بينما المسلم سائر مع القصة إذا به يفاجأ بجملة تحث على العلوم كلها وجعلها من موسى لفرعون لا من محمد صلى الله عليه وسلم لأمته. فلم يقل الله لنا تعلموا العلوم التي تدل على هذه المعاني، كلا بل ألقاها بهيئة بعيدة عن الأمر وعن قصد مخاطبة الأمم الحاضرة، فهل أيها المسلمون تفعل في عقولنا أمثال هذه ما فعلته آية الموؤودة. أنا أظن ذلك وأنا به من المؤمنين، انتهت البهجة الأولى.

البهجة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ﴾

هاهنا ذكر الأرض مرتين: مرة أولاً قبل السماء، ومرة آخراً بعد السماء. واعلم أن الكتب السماوية لا تقدم كلمة ولا تؤخر كلمة إلا لحكمة، والمدار على الفهم، والفهم في كل زمان بحسبه وهذا زمان انكشاف بعض الحقائق.

فقوله: ﴿ تَنزِيلًا ﴾ يفيد أن هذه العلوم والمعارف قد كانت في منزلة شريفة وأراد الله أن ينزلها لمنفعة أناس في منزلة أسفل فلذلك ذكر الأرض. فالتنزيل يناسبه المحل الأسفل وهذه الأرض أول سلم لنا نخرج منها إلى عالم السماوات، ولذلك قال: ﴿ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ جمع عليا والعليا مؤنث الأعلى، كما يقال دنيا ودنا وقربى وقرب، فالعلى جمع لمؤنث أفعل التفضيل. ففي العلى معنى التفضيل أي الأعلى من غيرها. فالله نزّل العلم من عالم الجمال والكمال على نبيه لهذه الأرض التي وصف الله لأهلها السماوات بأنها ذات علو عظيم ليشوقهم إلى الصعود إليها فما أنزل الله إليها العلوم إلا ليرفعهم من محل سقوطهم إلى أعلى العلا يوماً ما، فقوله: ﴿ ٱلْعُلَى ﴾ كالمقابل لوصف ملحوظ في الأرض يضاده وهو الانحطاط، ولم يبق بعد هذا إلا أن يعبر عن تلك العظمة فأبان أنه ذو رحمة واسعة، فهو إن جمع بين الضدين علو وسفل وسماء وأرض فليس معنى هذا أنه حرم أهل الأرض من الرقي، كلا فلذلك قال: إنه رحمن، أي: كثير الرحمة، وإذا استوى كثير الرحمة على عرش الملك كانت أعماله كلها موجهة لسعادة أهل مملكته. وكيف يدوم الملك إلا لمن رحمته واسعة. وكل ملك في الأرض ليس قائماً على الرحمة سريع الزوال، ولذلك وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] أي: ليدوم ملكهم، فالرحمة موجهة من بعضهم لبعض ورحمة الله موجهة للملك كله. ولذلك لما طغى المسلمون وعكفوا على الشهوات والمال وجعلوا فتح البلدان لشهوات أنفسهم أخذ الله منهم ملكهم وشرد أكثر ممالكهم ولم يبق منها إلا الممالك التي اتصف أهلها بعطف بعضهم على بعض. والدليل على ذلك ما حصل في أيام حرب المسلمين بالأندلس في فرنسا، فإن القوم لما شغلوا باقتسام الغنائم في إحدى الوقائع تألب عليهم القوم فأجلوهم عن البلاد، ولهذا نظائر كثيرة تقدمت في هذا التفسير وسيأتي إيضاح كثير من ذلك في مواضع إن شاء الله تعالى، فالتعبير بلفظ الرحمة في أمر الاستواء على العرش يفيد معنى بقاء الملك، ولذلك نجد ممالك الحيوان والنبات والإنسان لا تزال باقية بسبب الرحمة التي بثها الله في الذكور والإناث فيتحاب الصنفان، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[الروم: ٢١]، فالمودة والرحمة هنا جزئية متنزلة من الرحمة العامة المذكورة في قوله تعالى هنا: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾،

فإنه لولا الرحمة المنبعثة في قلوب الذكران والإناث من الحيوان تلك الرحمة التي تبعث الفريقين على الاقتراب ثم الحمل وهكذا الرحمة التي تجعل في قلوب الأمهات لذريتها من بيض يحضنه الطير وفرخ يقدم له ما يناسبه وفلو أو عجل أو جرو أو طفل يرضع كل من أمه بما بينهما من المودة والرحمة كما في الحديث: «إن ٩٩ من الرحمة باقية للآخرة وفي الأرض رحمة واحدة عمت الناس والبهائم بحيث ترفع الفرس حافرها عن ولدها خيفة أن تصيبه»، والحديث تقدم بلفظه في موضع آخر.

أقول لولا هذه الرحمة لم يبق على الأرض حيوان، فبقاء هذه الممالك ببقاء الرحمة، ومن مقتضيات الرحمة بين الزوجين دوام المعاشرة، وعلى مقدار قصر المودة بينهما يكون النقص في أمر النظام المنزلي، كما ينقص ملك الدولة أو يذهب من الوجود بذهاب المودة العامة في الشعب. هذا ما يشير له قوله تعالى هنا: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾، ومن هذه القاعدة أنه صلى الله عليه وسلم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة: ١٢٣].

ولذلك ما دام ملك المسلمين حين داموا على شريعته، فلما انحرفوا ضاع مجدهم لزوال الرحمة من قلوب الأمراء وحلول الشهوات محلها، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم: ٥٩].

ولما ذكر العرش والاستواء عليه أخذ يشرح العوالم التي استولى عليها، فبدأ بأهمها وهي السماوات، بخلاف إنزال القرآن فإنه من عالم أعلى إلى عالم أدنى كما تقدم، ثم ثنى بالأرض لأنها أدنى منزلة مقام تعداد الممالك غير بيان المكان الذي أنزل القرآن لأهله، وقوله: ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ دخل في ذلك عوالم السحاب والكهرباء وجميع العلم المسمى الآثار العلوية، وهو من علوم الطبيعة قديماً وحديثاً، وقوله: ﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ يشير لعلمين لم يعرفا إلا في زماننا وهما: علم طبقات الأرض المتقدم مراراً في هذا التفسير، وعلم الآثار المتقدم بعضه في سورة «يونس» والآتي بعضه في سورة «سبأ»، وأن قوله هناك: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[سبأ: ٢] يشير إلى ما ظهر في بلاد اليمن التي تشتمل على سبأ، فلقد ظهرت هناك نقوش ومدائن لم تكن معروفة من قبل، وظهر سد العرم وسيأتي رسمه. كل ذلك والمسلمون لا علم لهم بذلك مع أنهم في بلادهم وعلى مقربة منهم. فالله هنا يقول: ﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ ليحرض المسلمين على دراسة علوم المصريين التي تظهر الآن تحت الثرى المذكورين في هذه السورة، وأن سحرتهم شهدوا بصدق النبوة الموسومة لأنهم وجدوا علماً فوق علمهم وهو علم النبوة. فجدير بعلوم هؤلاء أن تدرس وتعلم لهذا كله قال: ﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾.

واعلم أن الأمم الأوروبية اليوم يقرؤون علماً يسمى علم الآثار المصرية فهو فن خاص وقد انتشرت الآثار هناك في زماننا ويسمى بعلم الاجيتلوجي.

لمحة نورية علوية في ليلة الجمعة ٢٩ يونيو سنة ١٩٢٨

استيقظت قبل الفجر فنظرت النجوم في الظلماء تتلألأ وحضر في خيالي ما مرّ بك في هذا التفسير من الجمال الرائع والمجد الشامخ والعلم الواسع والشموس التي لا حد لوصفها ولا غاية لعدّها وليس نظر الإنسان يحيط إلا بثلاثة آلاف منها. ومن هذه النجوم شمسنا وهي بالنسبة للجوزاء

كجزء من ٢٥ ألف ألف جزء كما تقدم في آخر سورة « الكهف » ، ثم وازنت بين المجد العالي وبين هذه الأرض التي تعد بالنسبة لتلك العوالم كالعدم المحض ، فهالني الأمر وخطر لي أن نقصان بني آدم وعداواتهم وأنواع المصائب والشقاء المحيطة بعم تبلغ في كثرتها مبلغ عظمة النجوم وسعتها ، وبعبارة أخرى أن الكوكب كلما كان أصغر كان عن الكمال أبعد ، وكلما كان أكبر كان أهله إلى الكمال أقرب وعلى ذلك يقاس نصفنا نحن بعظمة هذه العوالم . نحن الآن لسنا أهلاً لاستيعاب إدراكها فيكون نقصنا على مقدار كمالها . وبعبارة أخرى يكون الشقاء في الأرض والحرب والضرب بينهم على مقدار قصور قرائحهم المناسب لحقارة كوكبهم عن فهم هذه العوالم ، ثم فكرت في هذه المعاني فوجدتها خيالاً في خيال لا مستند لها ولا دليل عليها ، ثم تذكرت أن ذلك قد تقدم في سورة « آل عمران » في كلام روح الفيلسوف « غاليلي » حين استحضروها فإنها أفادت أن العوالم العلوية فيها سكان عندهم نظام وحياة لا يعملها أهل الأرض ، وأن النفوس الإنسانية ستنسى هذه الأرض حين تخترق السماوات العلى وتركب طبقاً عن طبق . وأبان أن تلك العوالم فيها من النظام ما يبهر العقول . وأشار إلى حقارة الأرض وأنها ليست شيئاً مذكوراً . كل ذلك في سورة « آل عمران » وهي طويلة فارجع إليها إن شئت .

فمن هنا تبين لنا أن ذلك الخيال صادق من حيث سعادة أهل تلك الكواكب ، ولكن هذا البيان لم يكن إلا من علم الأرواح ، وهو وإن احتاج إلى ما يقويه كاف في مثل هذا المقام ، ويشير لهذه السعادة لسكان السماء قوله هنا : ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ ، وسيأتي في هذه السورة : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾[طه : ٧٥] فذكر العلى في السماوات والدرجات العلى في الجنات ، إشارة إلى ما ذكرناه من أن الجنة في السماء وأنها محل السعادة وقد تقدم تحقيق هذا المقام في سورة « آل عمران » وبيان أنه هل هذه هي الجنة الحسية أو ما يشبه الجنة الحسية وأن الجنة الروحية أرقى من هذه .

ومما يناسب هذا المقام ما تقدم عن اللورد « أوليفر لودج » في خطبته المذكورة في سورة « آل عمران » إذ يقول فيها : إنه موقن أن حولنا عوالم من الأرواح نسبتهم إلينا كنسبتنا إلى النمل ، وهم يهتمون بأمرنا ، فهذه الأقوال كلها تفيد معنى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء : ٨٥] ، وأن شقاء أهل الأرض محقق بسبب جهلهم وغرورهم .

لذلك كله ترى الله أبان الطريق لنا هنا بأمرين : أولاً أن ندرس العوالم الأرضية من نبات وحيوان الخ ، ثم العوالم العلوية من فلك ونفس وعقل ، ثم ندرس علم معرفة الله ، ثم نعلم الناس ما تعلمناه ، فأشار للأول بقوله : ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ ﴾ ، وإلى الثاني بذكر السماوات ، وإلى الثالث بالاستواء على العرش ، وإلى الرابع بذكر الأرض وما بعدها ، وهذا الترتيب هو كترتيب « الأسفار » للشيرازي فانظره .

تبين بهذا كله حقارة الأرض ومعظم أهلها وعظمة السماوات وسكانها وسعادتهم . لذلك قال الله في آخر السورة : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه : ١١٤] ، يأمرنا أن نزيد في العلم بالسماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

وإذا ذكرت سعادة أهل السماوات والجنات وشقاء أهل الأرض وكان هذا القول إجمالاً حسن أن أفصله بعض التفصيل بأمثلة حتى يستبين ما فكرت فيه، وهو أن كثرة الشقاوة لأهل الأرض على مقدار اتساع نطاق الجمال والسعادة والعظمة للسماء وسكانها فأقول:

أهل الأرض قسمان: متمدينون ومتوحشون، ولكل شقاوة تخصه. أما المتمدينون فأمرهم معلوم لأن قارئ هذا التفسير مطلع عليهم، فلنذكر إذن بعض المتوحشين منهم لنعرف سكان الكرة التي نحن عليها هل هم مستعدون كلهم أن يكونوا أمة واحدة سعيدة أم هناك عقبات طبيعية تمنع ذلك. جاء في كتاب «علم الدين» لأستاذنا المرحوم علي باشا مبارك في الجزء الثاني منه ما ملخصه:

إن أهل السودان بإفريقيا يقولون: إن الشياطين والملائكة يظهرون بين الناس في صورة الآدميين والبهائم وغير ذلك، ولهذا تراهم على جهلهم يعظمون بعض البرق والأنهار والجبال والصخور والغابات والأشجار وبيوت النمل وبعض الأحجار المنفردة عن غيرها وما أشبه ذلك، ويحترمونها احتراماً عظيماً كاحترام غيرهم من الأمم لمقامات الأولياء والصالحين. ثم إن مشايخهم يعملون لهم تمائم وتعويذات على أشكال هذه الصور بقصد الحفظ من الأمراض والعاهات ويأخذون منهم في مقابلتها جعلاً عظيماً. وفي تلك النواحي بلاد لا يظهر أهلها للشمس مطلقاً ولا يمشون إلا بالليل. ومنهم من يعيش طوال عمره في البلدة التي ولد بها ولا يفارقها. وأهل تلك الأرض لا يفرقون بين دين وآخر وكل الأديان عندهم على حد سواء، وللشيوخ عندهم احترام عظيم، ومحلات معتقديهم معظمة فيما بينهم لا يدخلها غيرهم، ولهم طرق لا يسلكها إلا أولياؤهم يميزونها بأوتاد يدقونها، وبعض آنية يضعونها على جانبي الطريق، فإذا أرادوا ذلك تحاموا المرور منه وسلكوا طريقاً بعيداً عنه.

ومن الغريب أنهم إذا ماتت المرأة وهي حامل لا تدفن، بل يرمى بها للطير والوحوش بخلاف التي تموت حين الولادة أو بعدها فإنها تدفن.

ومن عاداتهم أنهم إذا مات الزوج دفنوا معه زوجته كما أخبر بذلك أحد السائحين قال في أثناء عبارة له: إن تعدد الزوجات بهذه الجهة غير ممتنع، بل المدار عندهم على اتفاقهم على المهر إن كانت المخطوبة حرة أو القيمة إن كانت أمة، فمتى اتفقوا على ذلك أخذ الزوج زوجته وذهب بها إلى نسائه فتختلط بهن وتشرب الخمر معهن ويقمن جميعاً بتهيئة الوليمة، وبعد الدخول بها أول ليلة تكون مع سائر نسائه في خدمة المنزل.

ومن عاداتهم أن من تلد من الزوجات أولاً تكون هي المحترمة والمقدمة عليهم والمتكلمة في المنزل، إلا أن هذا التقدم لا يثمر لها إلا التندم، لأنها هي التي تدفن مع زوجها لو مات في حياتها. قال بعض السائحين الذي شاهد موت أحد هؤلاء المتوحشين: لما ارتفع الصوت بالنحيب والبكاء من جميع النساء بين فقيههم موضع التربة فاحتفروها واسعة على قدر اثنين، ثم أتى بعنز فذبحها وسلخها وقطعها بيده ثم أعطاهم أمعاءها وأطرافها فطبخوها، وأكل منها مع بعض من حضروا، وأعطى الحظية شيئاً منها، وأما ما بقي من اللحم فقطعه قطعاً صغيرة وفرق منه بيده على جميع الحاضرين وأبقى منه بقية، والصياح في كل ذلك مرتفع والبكاء لا ينقطع، فلما أكلوا قام ذلك الفقيه إلى تلك الحظية وقبض على يدها وسلمها إلى اثنين من العبيد فأوثقوا يديها وجعلوهما خلفها وطرحوها على

الأرض على ظهرها، ووضعوا على قلبها خشبة وقعدوا فوقها وصار كل منهم يتكئ على الآخر حتى تهشمت عظامها، ثم رموا بها في القبر ووضعوا زوجها فوقها، ثم أتوا له بما بقي من اللحم فوضعوه بجانبهما ثم أهالوا التراب عليهما، وعند ذلك انقطع البكاء والنحيب وتوجه كل منهم إلى منزله على العادة كأن لم يحصل شيء.

وإذا مات ميت يقومون ويأخذون من عبيده بقدر ما يناسب مقامه، فيطعمونهم من أحسن ما عندهم ويوصونهم بالقيام بخدمة سيدهم، ثم يذبحونهم ويدفنونهم معه في قبر واحد، ويدفنون معهم ما كان لهم في الدنيا من الفرش والأواني والثياب وجميع ما كانوا يستعملونه في حياتهم، ثم يضعون عليهم حصير ويردون التراب عليها، وبعد ذلك يصنعون على القبر عشة يدفنون في إحدى زواياها قطعة من الحديد يعلقون بها بعض سلاح الميت إن كان ذكراً، فإن كان أنثى وضعوا معها ثيابها وما كانت تحبه في حياتها، وبعد دفن الميت يأتون بطعام وشراب فيضعونه على قبره، ظناً منهم أن ذلك تتغذى به روح الميت، ويكررون ذلك حيناً بعد حين إلى تمام ستة أشهر من دفنه.

وجاء في هذا الكتاب أيضاً أن مملكة أشانتي الواقعة في سواحل بلاد الذهب لها أراض واسعة وهي قبيلة مقيمة في أرض واسعة بعيدة الحدود، يحدها طولاً من المغرب إلى المشرق أربع درجات وهو من «عامان» إلى «ولتا»، وعرضها نحو ذلك وهو من حصن رأس «كورس» إلى ولاية «غرفان» وملك «أشانتي» هو الحاكم على جميع هذه الأرض ومن فيها من غير معارض لأمره ولا منازع له في حكمه. وعندهم طوائف ملحقة بالمقدسين، فلا يدخلون في أمور الدنيا ولا يختلطون بالناس، بل يعتزلوهم ويقيمون في محال بعيدة عن البلد والعمران، ويقولون إنهم يخاطبون المقدسين ويسألونهم عن كل شيء أرادوا علمه، فإذا أراد أحد أن يعلم حال من مات من أقاربه ذهب إلى أحدهم فيحضر له روح قريبه فيتكلم معها ويسألها عما يريده. وطوائف أخرى أقل منهم يعيشون معهم ويسألونهم عن كل ما سنح لهم، كالذين يفتحون الكتاب أو يضربون الودع أو يقيسون الأثر، ولهم براعة في التقاط أخبار الناس وتتبع أحوالهم ويعرفون حيلاً كثيرة يعلمون بها كيف أخذت السرقة ومن سرقها وفي أي موضع هي، ويعلمون لبعض النساء تمائم لحب أزواجهن وعدم اطلاعهم على أحوالهنّ وأفعالهن ونحو ذلك، ووظائف الطائفة الأولى وراثية يدخلون فيها بطريق الإرث عن أسلافهم، كما كان عليه كهنة المصريين في الأزمان القديمة.

ولهم عيد يسمى «ابنام» تكون فيه أمور غريبة منها أن الملك يأمر بالخمور فتملأ بها حياض متفرقة في البلد ويباح الشرب منها لكل أحد، فلا يبقى في البلد أحد من كبير أو صغير ذكر أو أنثى حر أو عبد غني أو فقير إلا شرب منها حتى يسكر، وقد تحصل عليها مزاحمات عظيمة ومشاجرات كثيرة ترتفع فيها الأصوات فتختلط بدويّ الطبول والبنادق، فيكون مجموع ذلك أمراً هائلاً وخطباً مزعجاً لا تكاد تبلغه العبارة، ولا ترى في أزقة البلدة وشوارعها في هذا اليوم غير سكران على الأرض مطروح ومزمل بقاذورات يتمرغ فيها كالحيوان المذبوح، ومن عفّ عليه الذباب، ومن تتشممه أو تلحسه الكلاب، ومن يمشي فيقع على الأرض أو على غيره من أمثاله، وهو معجب بأمره راض بحاله ويستمرون على ذلك إلى آخر النهار.

وفي هذا اليوم يذبح كل من الأمراء والأعيان بعض عبيده على أول خط من خطوط حرث زراعة النبات الموسوم باسمه هذا الموسم، وهو الذي يقال له بلغتهم « اينام » كما تقدم، ومن كان فقيراً يأخذ رأساً من رؤوس المذبوحين ويضعها في أول خط من حرث أرضه.

ولهم أربعة أعياد في السنة، وعاداتهم في كل عيد من تلك الأعياد الأربعة أن يعلموا به قبله بيوم، فيأخذون المزامير ويعلقون جماجم القتلى وعظامها على طبل عندهم كبير، ثم يأتون بذلك إلى باب سراية الملوك ويضربون بها أعلاماً بذلك اليوم، فكل من سمعه سواء كان من عائلة الملك أو غيرها صاح بأعلى صوته، فتقوم البلدة على ساقها وتهرع السوقة من أسواقها فيضربون الدفوف والبارود، ولا يزالون كذلك إلى الصباح يوم العيد، فيركب الملك ويذهب إلى المعبد.

وقد وصف « هوتشيزون » السائح في رحلته كيفية تقريب القرابين من الآدميين في موسم أداي المذكور عند أهل الجهة المذكورة، فقال: كنت بتلك الجهة فحضرت عيداً هناك يسمى « أداى » وكان في شهر يناير الإفرنجي، فتوجهت إلى الملك فرأيت بعض الضباط الملازمين له يدخلون عليه ويخرجون من عنده وبأيديهم سكاكين وأسلحة، فأرسل أحدهم إلى أحد الأمراء ليخبره أن يحضر عند قبر أمه ثم ركب الملك وتوجه إلى القبر، بعد أن أمرني بالخروج من باب غير الذي دخلت منه، ولم أعلم سر ذلك، فلما وصل إلى القبر أمر بإخراج عظم أمه وإخوته من قبورهم، فأخرجوها وغسلوها بالماء ثم نشفوها بمناشف من حرير وغمسوها في « الروم » وهو نوع من المسكر، ثم نشفوها ثانياً، كل ذلك بغاية الاحترام والتوقير، ثم قلبوها فوق تراب من ذهب وأحاطوا بها سبائك منه وقلائد من الحجارة والمعادن الثمينة ووضعوها على حافة القبر. وبعد ذلك أتوا بجميع المذنبين والمتهمين بعدم الرضا عن الملك، فكان كل من أتى منهم ذبحوه على تلك العظام حتى سالت الدماء إلى القبر، وفي هذه الليلة دارت سيافة الملك حول المدينة فكل من وقع بصرهم عليه أحضروه إلى الملك فيذبح، وكان السبب في هذا القتل والقربان على زعمهم هو أن الملك وقتئذ كان مستعداً لقتال بعض القبائل المحاربة له، وكان الملك على حسب عادتهم في ذلك يرى من الواجب قبل الخروج إلى القتال أن يخرج عظام أمه وبعض أقاربه من قبورهم ويفعل بها ما ذكر، لاعتقاده أنه إذا فعل ذلك بهم كانوا راضين عنه وكانت أرواح مقدسيهم مساعدة له على أعدائه، لكن لشهرة هذا اليوم وهذا الأمر قد يتخلص منه أناس كثيرون ممن يرغب الملك في قتله، وكان من عادتهم في ذلك العيد كباقي الأعياد أن يحضر فيه إلى تلك المدينة خلق كثير، ولكنهم لعلمهم بهذه الحادثة لم يحضر أحد، فكانت المدينة يومئذ خالية ليس بها إلا الملك وعائلته وأصحاب سره.

فلما مضى جزء من الليل أمر الملك فوضع عظام والدته وأهله في مقابرهم ورجع في موكبه ومعه رؤساؤه وأمراؤه وأتباعهم، وعليهم ملابس الحرب وآلاته، وأمام كل واحد منهم شعلة من نار، فكانت البنادق وجميع آلات الزينة والرسوم الموكبية منشورة الأعلام، وقد تقدمهم جماعة قد غلت أيديهم، وعليهم الحرس وحولهم رجال تغني بأنغام حماسية، وفي عصر ثاني يوم أعادوا ذلك الموكب بعينه، فوقف الملك في الميدان الكبير وحوله الطبول وأرباب الموسيقى فأمر بقتل أولئك المغلولين، فصاروا يقتلونهم واحداً بعد واحد والآلات تضرب بأنغام عجيبة كأنها تقول القتل

القتل، وكان أمامه إناء من خشب مملوءاً نبيذاً، وكلما قطع رأس رقص له، ثم في آخر هذا اليوم دخل الملك سرايته. اهـ.

إن أهل هذه المملكة يعيشون وحولهم الإنجليز والفرنسيون وسائر الإفرنج وهم لا يتعرضون لاعتقاداتهم، ولا يمانعونهم في إجراء رسومهم وعاداتهم، فإن ذلك يجرّ عليهم من عداوة الأهلين وغيظهم ما لا يكون لهم معه راحة، فلذلك ترى المقيمين في تلك الجهات من الأمم الأوروبية لا يعنيهم تغيير شيء من ذلك، إذ المقصود لهم من الإقامة في تلك الجهات إنّما هو التكسب بالتجارة فيما يستخرج من أرضها من المعادن وسائر مواد التجارة، وإرسال ذلك إلى الممالك الأوروبية واستبداله بما يرد منها إلى البلاد، فلا يشتغلون إلا بتوسيع دائرة هذه التجارة لا بتغيير العادات والمعتقدات، إذ هذا مما لا يتيسر لهم هناك، فإن هذه البلاد بسبب اتساعها وبعدها وصعوبة المرور والعبور بها لما فيها من الموانع كالغابات والخلجان، ثم كثرة حرها وتغير هوائها وكثرة ما يعرض للأغراب من الإفرنج فيها بسبب ذلك من العلل الخطرة والأمراض المهلكة لا يتأتى للدول الأوروبية أن تبعث لهذه البلاد بكثير من الناس والأجناد، لمنع ذلك بالقوة القهرية والسطوة العسكرية لما اعتراهم فيها من الأمراض الكثيرة فكان في كل سنة يموت قدر النصف ممن يرسل إليها من العسكر وغيرهم، واتخذ الإنكليز بها طرقاً كثيرة وتدابير متنوعة لانتشار الزراعة بها وتحسين أحوالها، فلم ينجح إلا القليل منها في بعض الجهات دون بعض، وكذلك جددوا بها مدارس ومكاتب للذكور والإناث جمعوا فيها كثيراً من أهل البلاد فلم يترتب على ذلك للبلاد كبير فائدة، لأن من تربى منهم ولم يمت في عهد قريب آثر الإقامة بين من تربى عندهم على الإقامة بين أهله في بلده، لكراهتهم له وتبرئهم منه، ولعلمه أنه إذا أتى إليهم مقتوه واحتقروه، وإن تكلم بما يخالف عقيدتهم قتلوه.

وكما فعلت دولة الإنجليز معهم كذلك فعل الفرنسيس والفلمنك وغيرهم، وقد غيرت كل من هذه الأمم مواضعها، وانتقلوا من موضع رأوا فيه كثرة الأمراض إلى موضع ظنوا فيه جودة الهواء فخاب أمل الجميع وتحققوا عدم النجاح. اهـ.

هذا ما لخصته من كتاب «علم الدين» من عادات هؤلاء السودانيين، وهذه أخلاق طائفة من بني آدم الذين هم أشراف سكان أرضنا التي ذكرت مع السماوات العلى وأن الله نزل القرآن لأهلها.

يقول الله: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾[العصر: ١-٣] الخ، ويقول: ﴿ ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾[البقرة: ٣٨]، ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[الأعراف: ٢٤]، ويقول: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾[البلد: ٤]، ويقول: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٦٣].

فانظر جهالة هذا الإنسان، وسخافة أهل هذه الأرض، كيف عظموا الأحجار والأنهار والقديسين في نظرهم، ثم تقربوا إلى الله بذبح الإنسان، حتى إن أم الملك إذا دفنت يترقب أحد عبيده شريفاً يدخل معهم فيقتله ليكون دمه مطهراً لها. وكيف يجعل الملك يوماً من أيام العيد خاصاً بإهلاك كل من ظهر حتى من الأمراء والوزراء.

إن الله أودع هذه الغباوة في صدورهم ليفني بعضهم بعضاً بطريق ديني أو غير ديني، ليساعدوا الطاعون على تقليل عددهم، لأنهم قوم إذا كثروا لا يقدرون على استثمار أرضهم لقلة الصناعات

والعلوم، فألهمهم الله أن يتقربوا أو يفتخروا بالإهلاك، كما سلط الله البرد على الحشرات كل سنة فتبيد لئلا تهلك الحرث والنسل.

ولما كانت الأمم قديماً لا علم عندها كان الله يرسل لها الطاعون فيبيد جموعاً كثيرة، ولو بقيت لم يكفها القوت الذي عندها، ولكن لما تعلمت الأمم كأهل بلادنا المصرية وأمكنهم الانتفاع بموارد الأرض أكثر لهم من الأطباء ليقللوا من انتشار الأمراض، فكثر النسل فوجدوا قوتاً حصل لهم بالعلوم والصناعات، وهذا من انتشار العلم الذي نقلوه عن أوروبا التي عرفت ذلك قبلنا فكثر نسلها مع زيادة خصبها ونشاط أطبائها.

وهنا سؤال، وهو هل هؤلاء القوم وأمثالهم في أرضنا يقبلون الرقي حتى يكون الناس في الأرض أمة واحدة في المستقبل كما شرحته في كتابي «أين الإنسان». أقول: لما عثرت على هذا استبعدت ذلك لأن المانع الطبيعي منع الأمم المتعلمة من تعليم هؤلاء لأنهم يموتون في بلادهم كما تقدم. ويظهر أنه لا سبيل إلى رقي أمثال هؤلاء إلا بارتقاء جيرانهم بطريق دين الإسلام مثلاً وجيرانهم يعلمونهم بالتدريج.

هذه صفحة من أخلاق أهل هذه الأرض ذكرتها لما نظرت السماوات وجمالها، ووازنت بين جمالها وسعادتها وأنوارها الظاهرة لأعيننا وبين تعاسة أهل الأرض وشقاوتهم، تبياناً لوصف السماوات بالعلى ووصف القرآن بأنه منزل. كل ذلك للدلالة على شقوة أهل الأرض ولا مخلص لهم إلا بالعلم، ويظهر لي أن الله أعدّ في كل عالم من العوالم المنحطة شقاء لأهله على مقدار نقص كوكبهم، فيكون ذلك الشقاء والمذلة باعثاً على أنهم يودون أن يتخلصوا من ذلك الكوكب ويتشوّقون إلى عوالم أرقى كما نشوّق نحن الآن، والله هو الولي الحميد.

المقصد الثاني من السورة

والكلام على الفصل الأول والثاني من فصوله الأربعة

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ

﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾
يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾
وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا
﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ
أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ
لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ
هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا
فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ
﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ
أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ
إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ
عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن
رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ
ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن
نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ
وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾
قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن
يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ
لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ
وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا
وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ
ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا
حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ

قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

التفسير اللفظي

اعلم أن هذه السورة من أوائل السور التي نزلت، ولذلك أنزل عليه قصة موسى ليأتم به في تحمل أعباء الرسالة ومشاقها، فقال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ﴾ ظرف لـ«حديث» ﴿رَأَىٰ نَارًا﴾ ذلك أنه استأذن شعيباً عليهما الصلاة والسلام في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله من مدين إلى مصر فأذن له، فخرج بأهله وماله وكانت أيام الشتاء فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل في شهرها لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً، فسار في البرية غير عارف لطرقها، فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن وذلك في ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد، فأخذت امرأته في الطلق فأخذ زنده فجعل يقدحه فلا يوري فأبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أقيموا ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرت ناراً ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: شعلة من النار أو جمرة ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ هادياً يدلني على الطريق أو يدلني على الله تعالى. وتوجيه المعنى الثاني أن الأبرار مفطورون على التوجه لمعرفة الله تعالى فهم ينشدونها في كل زمان ومكان لأدنى مناسبة وقلوبهم أقرب لذكر الله إذا رأوا نوراً مشرقاً، فهم يذكرونه عند الغروب والشروق، فكان طلب موسى لمن يهديه لربه حين نظر النور أمراً أوجبته فطرته، فقال: ﴿أَوْ أَجِدُ﴾ فوق المكان القريب من النار هادياً فالمستعلي هو الهادي المترقب والمستعلى عليه المكان القريب من النار ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار، وجد ناراً بيضاء تتقد كأضوء ما يكون فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار وكانت شجرة عليق.

قيل إن موسى عليه الصلاة والسلام كان كلما دنا نأت عنه الشجرة، وإذا نأى دنت منه، فوقف متحيراً وسمع تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة، فهنالك ﴿نُودِيَ يَا مُوسَىٰ﴾ قال: من المتكلم؟ قال: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ فوسوس إليه الشيطان لعلك تسمع كلام الشيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع الجهات وبجميع الأعضاء. وهذا معناه أن المعاني ألقيت على روحه ثم أشرب بها قلبه إشراباً حتى فاضت على الحس المشترك، والحس المشترك هو القوة المودعة في الدماغ التي هي قابلة لما يرد من الحواس من العلوم فتوصله للعقل، وهنا عكس الأمر، فجاء العلم من داخل النفس وانتقش فيها، فلهذا رمز بأنه من جميع الجهات، أي أنه ليس من جهة خاصة بل من النفس، والنفس لا جهة لها، بل هي أمر فوق الجهات كلها، كما أن الله ليس في مكان، بل كل مكان تحت أمره. ثم أمره أن يخلع نعليه احتراماً للبقعة المقدسة فقال: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المطهر ﴿طُوًى﴾ عطف بيان للوادي، وفيه تنبيه أن قابلية العلم لا تكون إلا مع أمرين: طهارة النفس من الخبائث كما خلع موسى نعليه اللذين هما من جلد حمار ميت غير مدبوغ كما روي مرفوعاً، وخلع النفس من التعلق بمتاع الدنيا الذي هو العائق عن تحصيل العلم ولذلك

أردفه بقوله: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ اصطفيتك للنبوة ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ للذي يوحى إليك ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ ولا تعبد غيري ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ أي: لتشغل قلبك ولسانك بذكري بعد ما فرغتهما من علائق الدنيا، وأنت في مكان طاهر كما يشير إليه خلع النعلين في الوادي المقدس ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ كائنة لا محالة ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أقرب أن أخفيها فلا أقول إنها آتية وإنّما أخبرت بها لأقطع الأعذار. وفي قراءة أخرى بفتح الهمزة، أي: أظهرها، ومآل المعنى واحد لأنه إذا قرب من إخفائها أو قرب من إظهارها كان المعنى أنها لم تظهر ولم تخف، أي: هي مبهمة على الناس حتى يكونوا على حذر. يقال: خفاه أظهره وأخفاه ضده. ثم قال: ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ متعلق بـ« آتية » ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ ﴾ فلا يصرفنك عن التصديق بمجيئها ﴿ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ ميل نفسه إلى لذاته المحسوسة فقصر نظره عليه ولم يطلع على دخيلة النفوس والعقول والأمور العجيبة ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ فتهلك ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ « تلك » خبر « ما »، أي: أيّ شيء هذه حال كونها كائنة بيمينك يا موسى، وذلك للإيناس ورفع الهيبة للمكالمة وللتنبيه أن المعجزة تقع بعد التثبيت ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ أعتمد عليها إذا عييت أو وقفت على رأس القطيع ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ وأخبط الورق بها على رؤوس غنمي، وقرئ « وأهسّ » من الهس، وهو زجر الغنم، أي: أنحي عليها زاجراً لها ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ حاجات أخر، فإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته، وإذا قصر الرشاء وصله بها، وكان يقتل بها الحيات ويحارب بها السباع ويستظل بها، وقد ذكر المفسرون عن قصص بني إسرائيل أن شعبتيها بالليل كانتا تستعملان كشمعة وتصيران عند الاستقاء كالدلو، وإذا ركزها نبع الماء بركزها ونضب بنزعها، وهي تورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة. وكل تلك الروايات لا تفيد في الآية ولا العلم، ولكنها تمثل سواء أصحت أم لم تصح عجائب الطبيعة، لأنها هكذا خلقت فهي تكون غصناً ثم شحماً يصير شمعاً ثم دلواً إذا كانت جلد حيوان. فهذه العجائب حاصلة في الدنيا سواء أجاءت على يد موسى أم لا.

إن الناس يعجبون لعصا تنقلب حية تارة وشجرة أخرى وشمعاً آونة وهكذا، وهم في الحقيقة يشاهدون هذا وهم لا يفقهون، وينظرون ولكن لا يعقلون. إن المادة تكون تراباً وماء ثم تصير شجراً وزهراً كما قيل في عصا موسى ثم تصير حيواناً ذا شحم ولحم وجلد، فيصير الدلو من جلده والشمع من شحمه.

هذه أمور معروفة ولكن الناس لا يعجبهم إلا ما ليس له قانون ولا نظام، ولكن الله أبدع الطبيعة إبداعاً أجمل وأبهى من إبداع عصا موسى، لأنه يخلق الحيات من المواد القذرة والشجر من الأرض وهكذا. ولكن ليس من الحكمة أن يكون العالم سبهللاً بلا نظام ولا ترتيب، ولو أن الحق اتبع أهواء الناس فأصبح الشجر ينقلب حيات والحيات تنقلب عصياً والعصي تنقلب شجراً لارتاع العالم الذي نسكنه، ولضلّ الناس سواء السبيل، ولجفل الحيوان وخاف، ولضاعت الثقة بنظام هذا العالم. فهذه هي المعجزة. ولعمري إن معجزة الله هي هذا العالم، ومعجزة الأنبياء أقل من معجزته بما لا يحصى، فلما أجاب موسى بذلك ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ انبذها واطرحها ﴿ فَأَلْقَىٰهَا ﴾ فطرحها ﴿ فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ ﴾ صفراء من أعظم ما يكون من الحيات ﴿ تَسْعَىٰ ﴾ تمشي بسرعة على بطنها، وفي آية

أخرى: ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾[النمل: ١٠] أي: حية صغيرة الجسم خفيفة الحركة، وفي آية أخرى أيضاً أنها ﴿ ثُعْبَانٌ ﴾[الأعراف: ١٠٧] وهو أكبر ما يكون من الحيات، فإذن هي في الضخامة كالثعبان وفي الحركة والخفة كالجان.

فلما رآها حية كبيرة وشعبتاها شدقاها ومحجنها عنقها وعيناها تتقدان كالنار تمرّ بالصخرة العظيمة فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة كما قيل. فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً وهو شديد الخوف ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي: إلى هيئتها فردها عصا كما كانت، فاطمأنت نفسه فأدخل يده في فمها فوجد أنها في شعبتها في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ، وإنّما أظهر الله له ذلك لئلا يفزع إذا ألقاها عند فرعون ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ إلى جنبك تحت العضد. يقال لكل ناحيتين: جناحان، كجناحي العسكر، وذلك استعارة من جناحي الطائر ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ ﴾ مشرقة نيرة ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ من غير قبح، كنى به عن البرص كما يكنى بالسوءة عن العورة ﴿ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي: معجزة ثانية، حال من فاعل «تخرج» وإنّما فعلنا ذلك ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ وكانت يد موسى أكبر آية كما قاله ابن عباس، ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ جاوز الحد في العصيان والتمرد ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ أي: وسع صدري ليتحمل الوحي والمشاق ورديء الأخلاق من فرعون وجنده ويسر الأمر برفع الموانع وإحداث الأسباب ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ وكان في لسانه رتة من جمرة أدخلها فاه. وذلك أن فرعون حمله يوماً فأمسك لحيته ونتفها فغضب وأمر بقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا يفرق بين الجمرة والياقوت فأحضرا بني يديه فأخذ الجمرة ووضعها في فيه، ثم لما دعاه قال: إلى أي ربّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنه، ثم قال: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴾ يعينني على ما كلفتني به من المشاق، وهو من الموازرة أي: المعاونة، أي: واجعل معيناً كائناً لي، و«هارون» عطف بيان، و«أخي» بدل أو عطف بيان آخر، و«من أهلي» متعلق بـ«وزيراً» ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾ أي قوّ به ظهري، وقيل الأزر القوة ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ اجعله شريكي في النبوة والرسالة ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ لأن التعاون يهيج الرغبات ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ عالماً بأحوالنا، وأن التعاون يصلحنا وهارون نعم المعين ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي: مسؤولك، وهو كأكل بمعنى مأكول، ويقال إن عقدة لسانه لم تحل وإن موسى لم يسأل حلها، لأن هذا لا يهم، إنّما الذي يهم هو منع عقدة الإفهام والإعلام فيكون لكلامه صيغة الفهم. فأما تلك الرتة فهي غير هامة، ولذلك قال في آية أخرى: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[الزخرف: ٥٢]، ثم قال تعالى مذكراً له بنعمه: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾أي: أنعمنا عليك في وقت آخر ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ ﴾ بالإلهام أو بالمنام ﴿ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ ما يلهم ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أي: بأن اقذفيه الخ، واليمّ: البحر ﴿ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ﴾ بالجانب، والمعنى على الإخبار بأن اليمّ سيلقيه بالساحل ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ أي: فرعون، والضمائر كلها راجعة لموسى، يقال: إنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً فوضعته فيه ثم ألقته في اليمّ، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر، فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج ففتح فإذا بصبي أصبح

الناس وجهاً، فأحبه فرعون حباً شديداً فلذلك قال: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ و« مني » متعلق بـ« ألقيت »، ومن أحبه الله أحبته القلوب فما رآه أحد إلا أحبه. فهذه المحبة ألقيتها ليتعطف عليك ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ أي: ولتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يرعى الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ونظر إليه. وقرئ « ولتَصنع » بفتح التاء، أي: وليكون عملك على مرأى مني لئلا تخالف به أمري ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ ﴾ « إذ » ظرف لـ« ألقيت » ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾.

روي أن أخته مريم جاءت متعرفة خبره، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدي امرأة، فقالت: هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه فيربيه، وأرادت بذلك أمه، فقالوا: نعم، فجاءت بالأم فقبل ثديها، وذلك قوله: ﴿ فَرَجَعْنَـٰكَ ﴾ فرددناك ﴿ إِلَىٰٓ أُمِّكَ ﴾ كما وعدنا بقولنا: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾[القصص: ٧]، ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بلقائك ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ هي بفراقك أو أنت بفراقها وفقد إشفاقها ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ نفس القبطي الذي استغاثك عليه الإسرائيلي ﴿ فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ غم قتله خوفاً من عقاب الله واقتصاص فرعون بأن غفرنا لك وأمناك بالهجرة إلى مدين ﴿ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ﴾ اختبرناك اختباراً أي: ابتليناك ابتلاء، والفتون مصدر كالقعود أو جمع فتنة، أي: فتناك ضروباً من الفتن، والفتنة: المحنة وكل ما يبتلي الله به عباده فتن. يقول الله: خلصناك مرة بعد أخرى. يذكر بإجمال ما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الآلاف والمشي راجلاً على حذر وفقد الزاد، وأنه جعل نفسه أجيراً وغير ذلك مما سبق ومما يأتي من قوله: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ لبثت فيهم عشر سنين قضاء لأوفى الأجلين. ومدين على ثمان مراحل من مصر وهي شرقي البحر الأحمر ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ قدرته لأن أكلمك فيه واستنبئك أو مقدار للرسالة وهو أربعون سنة ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أي: اخترتك لأمري وجعلتك القائم بحجتي والمخاطب بيني وبين خلقي كأني أقمت الحجة عليهم وخاطبتهم ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِي ﴾ بدلائلي ﴿ وَلَا تَنِيَا ﴾ تفترا، من الونى وهو الفتور والتقصير ﴿ فِي ذِكْرِي ﴾ أي: لا تنسياني حيثما تقلبتما واتخذا ذكرى جناحاً تطيران به. ومن ذكره تعالى تبليغ الرسالة، فالذكر يشمل سائر العبادات وهو أعظمها مقاماً ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أمر موسى أولاً ثم أمره هو وأخاه هنا، وطغيان فرعون ادعاؤه الربوبية ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ ألطفا له في القول لما له من حق تربية موسى، مثل أن تقولا له: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[النازعات: ١٨-١٩]، ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ راجع لقوله: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ ﴾[طه: ٤٤] أي باشرا الأمر وأنتما طامعان أن عملكما سيثمر وأنكما ستهديانه، لأن من ارتجى شيئاً طلبه ومن أيس انقطع عمله. والقصد من ذلك إلزامه الحجة وقطع المعذرة وإن لم يفد هدايته ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ ﴾ أي: أن يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى أن تتم دعوتنا. يقال: فرط، إذا تقدم، ومنه: الفارط، وفرس فرط: يسبق الخيل ﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ أي: يزداد طغياناً فيقول فيك ما لا ينبغي ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ ﴾ بالحفظ والنصر ﴿ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فأحدث في كل حال ما يصرف شره عنكما ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أطلقهم ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ بالتكاليف والأعمال الشاقة ﴿ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ بحجة على صدق ما ادعيناه، وهذه

الجملة كالبيان لجملة ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾[طه: ٤٧] قال فرعون: ما هي؟فأخرج يده لها شعاع كالشمس ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وسلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين، أو الأمان في الدارين لهم من العذاب. انتهى.

وهاهنا ثلاث لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا﴾[طه: ٩-١٠].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[طه: ٢٠].

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[طه: ٤٧].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا﴾

اعلم أن بعض العقلاء المستبصرين يقولون: ما لنا ولقصص موسى؟ وأي فائدة لنا في النار المشتعلة في العوسج أو في العليق أو في غيرهما؟ وهل هي إلا معجزة جاءت لموسى؟ وموسى أرسل لليهود، واليهود الآن أمة تفرقت في أقطار الأرض وتوراتها معها وهم جند السلم وجند الحرب وجند المال، بل هم الذين أقاموا أوروبا، وبسبب فلاسفتهم قامت الحرب الكبرى التي استعرت بين الشرق والغرب، بل هم أصحاب البلشفية، فهم اليوم أصحاب الحول والطول في اصطدام الأمم كلها بمالهم تارة وبفلسفتهم أخرى. وهم الذين حركوا ألمانيا للحرب بقوة فلسفتهم، ومنهم «شوبنهور» الذي أثار ثائرة القوة الحربية، وقال: لا حياة للضعيف والضعيف يجب أن يموت، وليس يبقى في الأرض إلا الأقوياء الذين لهم الحق في البقاء، ومن عداهم يجب أن يذبحوا إكراماً للأقوياء، والأقوياء هم الباقون والضعفاء هم الميتون. هؤلاء هم اليهود الذين أرسل لهم موسى، وهذه القصة حديثة، فهل تعاليمهم هي التي ذكرها القرآن هنا أم هذه تعاليمنا؟. وإذا كانت تعاليمنا وأنا ورثناها عن موسى عليه السلام لأن الله أمر نبينا أن يقتدي به وبالأنبياء وجب أن نعرف المقصود منها وماذا ينفعنا؟. أقول: اعلم أن هذه القصص نزلت في القرآن لتعليمنا نحن. فأما اليهود فإنهم أخذوا ما يهمهم من التوراة واستعملوا عقولهم حرة في أحوال المدنية والعمران. فهاأنا ذا أقول ماذا يراد بهذا هنا.

اعلم أن النار التي رآها موسى تتقد في الشجرة وهكذا العصا التي قلبت حية ما هي إلا بذور ألقاها الله في الأرض لتثمر في العقول، والناس في استعمال الحبّ والبذر على قسمين: قسم فقير يأخذها للغذاء، وقسم آخر يأخذها لغرض الزرع. فأما الذي يأخذ الحبّ لأكله فهو من لا زرع له، وأما من يأخذها للزرع فإنه يريد نموّ ماله سنة فسنة إلى ما شاء الله، فأيّ الرجلين أغزر ثروة؟ لا شك أنه هو الثاني. هكذا في هذه القصص فالعامة يتخذونها غرضاً لعلومهم ومقصداً وهي تكفيهم. ويرى العامي أن اتقاد النار في الشجر الأخضر وانقلاب العصا حية على يد موسى فيهما كل الحكمة وكل القدرة والعلم والحكم الإلهية. وأما الخاصة فإنهم يقولون: إن ناراً تتقد في شجرة لم يرها إلا هو وأخبرنا بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لم تزدنا إيماناً، لأن إيماننا أصله نبينا صلى الله عليه وسلم فإيماننا بها تبع لإيماننا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فلا نزيد إيماناً بهذا المعنى، وإنّما يزيد إيماننا

بالمباحث العلمية، وكلما كانت الحجة مشاهدة ومعلومة أكثر كانت أمكن وأمتن، وهذه الحجة لم نشاهدها ولم نرها. لهذا وجب أن نعرف الحكمة فيها. وجواب هؤلاء أن يقال إن المقصود من أمثال هذه أمور وراءها، وهذه أشبه بضرب أمثال لأحوال النفوس البشرية. إنها من باب الكناية وهي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي. فهنا المعنى الأصلي لا غبار عليه ولكن المهمّ ما يرمز إليه فلنذكر المرموز إليه فنقول:

أنوار القلوب

إن موسى عليه السلام لما أشرقت النار في الشجرة كان ذلك مقياساً لما سيراه في قلبه، إذ عمل بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾[طه: ٤٢]، وبقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾[طه: ١٤]. فهاتان آيتان هما سر هذه النار. سر هذه النار في الصلاة، وفي الذكر، الله طلب من موسى وهارون أن يذكرا ربهما ويصليا لتتقد نار المحبة في قلوبهما، أي: لتزيد المحبة، فالله أحبّ موسى وموسى أحب الله، والحب يوجب اتقاد النار في القلوب، والصلاة والذكر يوجبان ازدياد الحب، والحب تصحبه نار الأشواق لاكتناه صفات المحبوب. فنار الشجرة المشرقة مثال لتلك النار القلبية العشقية الغرامية الشوقية التي تتقد في قلب موسى عليه السلام.

هذا موسى عليه السلام فما شأننا نحن؟.

أقول: إذا قلت هذا أجيبك أنك إذا أردت أن تقتدي بموسى فاعلم أن الباب مفتوح على مصراعيه. أقول لك ذلك عن علم وفهم وإيقان بما أقول، ولكن لا أود أن أشرح لك ما أعرفه ولا ما جربته، ولكني أقول لك: اجلس كل يوم ساعة واذكر ربك حاضر القلب غير مفكر إلا في المذكور، ثم لتكن في صلواتك الخمس حاضر القلب فعلاً بمعنى أنك تخاطب ربك في الصلاة كأنه حاضر لديك وكأنه أمامك.

هذان هما الشرطان اللذان أطلبهما منك، وأنا أقول لك: إن أنوار شجرة موسى تنتقل فعلاً في قلبك وتلحظ فيها نوراً فعلياً يسرك استحضاره وإشراقه في قلبك، وهذا النور والإشراق بديع وجميل، وليس هذا إلا مبدأ للفتوح، وتلك الأنوار تتموج بألوان وصور بديعة جميلة غريبة. وأما ما وراء ذلك فالناس درجات ويفتح على كل بما يناسبه.

واعلم أن الأمم الإسلامية لما أشرقت الأنوار على بعض الذاكرين والصالحين منهم لم يرفعوا رؤوسهم إلى أعلى إلا قليلاً منهم فأخذتهم الفرنجة.

فأنا أقول لك: إنه لا فتوح حقيقياً في الأمة الإسلامية إلا لمن توجهوا بهممهم إلى رقي الأمة الإسلامية متى كان فيهم استعداداً، فأحب أمة الإسلام كلها وجدّ في ارتقائها أو في ارتقاء من حولك من إخوانك، فإن هذه الهمة متى علمها الله منك بالإخلاص ساعدك لأنه يحب من يساعد عباده ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩] هذا هو المقصود من نور الشجرة الموسوية. وكما نادى الله موسى لما رأى نار الشجرة كذلك هنا تشرق أنوار العلم عليك بعد إشراق بصيرتك بتلك الأنوار التي هي أبهج من النار والأنوار الظاهرية. هذا هو تفسير نور الشجرة.

النار والنور

اعلم أن ابن عباس قال: « إن هذه النار لم تكن ناراً بل كانت نوراً » ذكر بلفظ النار لأن موسى عليه السلام حسبه ناراً، وقيل هي النار بعينها وهي إحدى حجب الرب تبارك وتعالى، يدل عليه ما روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: « النار لو كشفها لأهلكت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » أخرجه مسلم. ولما كان هذا الحديث وارداً في صحيح مسلم وجب أن نبحث في أمره ونقول:

هذا الحديث معجزة في هذا الزمان أظهرها العلم الحديث

اعلم أن الكواكب أجمعها كرة نارية وأرضنا نار، وأصل الشموس وسياراتها وتوابعها كلها نيران طائرة دائرة، فعالمنا الذي نعيش فيه ما هو إلا نيران. وإنّما الجزء الذي نعيش فيه من الأرض هو الذي برد وباقيها متقد والعالم كله نيران مشتعلة، وعالم الأثير هو الذي تعوم فيه عوالم الضوء والحرارة والكهرباء، وفيه تتولد المادة التي تكون في أول أمرها ناراً طائرة في الجوّ كما هو معلوم. هذا هو عالم الخلق الذي هو إما نار أو مادة مشتقة من نار أو عالم اشتقت منه النار، وهو عالم الأثير لأن النور والنار والكهرباء متكونة فيه، فهو إذن أصل النار وعلى ذلك أصبح عالم الخلق كله نارياً حقيقة أو حكماً. ألا ترى إلى أقرب شيء إلينا وهي حرارة الشمس فإنه لولاها لم يكن حيوان في الأرض ولا نبات، فالحرارة هي أصل كل حياة على الأرض. وإذا كان هذا شأن النار فهي حجاب يحجب الله عنا لأنه إذا ظهر المخلوق بطن الخالق عند أكثر النفوس، وإذا اختفى المخلوق تجلى الخالق.

فهذه المخلوقات إذن حجاب الله تعالى، وثبت أن النار حجابه، وأنه إذا زال هذا الحجاب تجلى الله لأنه لا يبقى إلا عالم الأرواح، وهناك يتجلى لهم لا يحجبون عنه إلا بما فيهم من الكثافة المادية، فمتى زالت المادة ورجعت العقول لصفائها فهناك يتجلى الله تجلياً تاماً لتلك النفوس العالية.

إن هذا الحديث معجزة لأن العلم أثبن هذا اليوم. ويقول في الحديث: « لو كشف النار » أي: لو كشفت هذه المادة ولم يبق لها وجود « لأهلكت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » يقول: لو أزيلت المادة وتوابعها وأصولها لم يبق إلا عالم الأرواح، فأما عالم الأشباح فإنه يختفي وينعدم، إذ لا وجود له إلا بالمادة فإذا عدمت المادة فأين عالم الخلق وإنّما الذي يبقى إنّما هو عالم الأمر. انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾

اعلم أن هذه الآية متممة للمتقدمة، فهناك يقول: صفوا قلوبكم ونقوها بالإخلاص والأخلاق والصفاء والذكر والصلاة، وهنا يقول سبحانه: تأملوا في عصا موسى وأنها قلبت حية تارة وشجرة مثمرة أخرى وشمعة مشرقة آونة وهكذا.

وقد علمتم أيها الأذكياء أن هذا ليس مطمح نظر العقلاء ولا مرمى غرض الكبراء، وكيف يكون ذلك مرمى الأنظار ومقصد الأخيار؟ ولو أن هذا كان من سيرتنا فيكم لفنيتم أجمعين لأنكم لا تثقون بنبات أو حيوان أمامكم، فربما انقلب النبات حيات أو الحيات حيتاناً، وهكذا من التقلبات التي

لا تعطيكم أماناً في حياتكم. غاية الأمر أن هذه التقلبات السريعة يفرح بها العامة الذين يدهشهم مثل هذا. ولماذا هذا؟ لأنهم لا يعجبهم من الله إلا القدرة والعجائب، وأما الحكمة فهم عنها غافلون. أما عقلاؤكم فإنهم يعلمون أن انقلاب العصا حية وشجرة وشمعة وغير ذلك حاصلة فعلاً، وهم فرحون بذلك مغتبطون مسرورون لهجون بالثناء على الله إذ أراهم تلك العجائب واسعة فائضة. ففي المادة من أنواع التقلب ما بهرهم مما لا يحصره العدد، لكن مع الحكمة والنظام والترتيب. فالتراب العفن يصير غذاء للحشرات وهي غذاء للحيات وهكذا مما لا محل لذكره هنا وإنّما تقدم في سورة «آل عمران». فإذا ذكرت النار فيما تقدم فهي للحث على صفاء القلوب وطهارتها، وإذا ذكرت العصا هنا فللحث على مقصودها وهو الرجوع للحقائق العلمية ليعرف الناس العلوم الطبيعية والفلكية، وهذا بيت القصيد.

إن الانقلاب الحاصل في الكرة الآن مرجعه هذه الأعاجيب والدلائل. نوّه الله بقلب العصا حية على ما لا نهاية له من العلوم ولا حدّ له من الحكمة، فقد برع أهل الغرب في تقليب المادة وإظهار ما خبأه الله فيها من آثار صنعته وبديع حكمته فقلبوا الأفئدة والأبصار بنفائس العلوم وغرائب الحكم وأبدعوا ما شاؤوا أن يبدعوا، وأحدثوا من الكهرباء ومن الفحم ومن البترول ومن الحديد منافع لا يمكن عدها الآن، واستخرجوا من المواد أبخرة هوائية طيارة يقذفونها على الأعداء فتعميهم وتصمهم تارة وتحرقهم تارة أخرى.

يرشدنا الله بهذه القصة إلى عجائب المادة ويتلهى العامة بعصا موسى، وعصا موسى رمز لما ذكرناه، فإذا صفت قلوب الصالحين بالذكر والعبادة فليوجهوا الأفئدة النقية إلى هذه المادة فليقرؤوا جميع العلوم وليبرعوا فيها كما برع الفرنجة إن كنا حقاً نحب الله.

نداء الأذكياء

فيا أيها الذكي الذي اطلع على هذا التفسير أنت مسؤول بين يدي الله عما أكتبه وعما وصلك من العلم، انشر هذا بين المسلمين على قدر ما تصل إليه استطاعتك، وأرهم أن في الشجر وفي الحجر وفي النجم وفي البحر عجائب الله وأنواره، وأرهم أن القرآن يعلمنا أن نخلع رداء الكسل ونتجلبب بجلابيب العمل وأن نكد في طلب المعالي وقراءة الطبيعة وعلومها. فمن أولع بالعصا وحيتها ووقف عند حدها فذلك من الجهلاء ولكن المسؤول هو المفكر. فليدرس المسلمون علوم المعادن والنبات والحيوان والإنسان وعلم الفلك.

هذه هي العلوم التي تشير لها عصا موسى. كيف لا والغصن لا يزهر إلا بإشراق الشمس عليه، فتقلب المادة وتنوعها يلزمه حرارة الكواكب، فإذن لا بد من دراسة هذه المادة. فويل للمسلمين إذا قصروا وويل ثم ويل لهم إذا هم ناموا عن العمل وصموا آذانهم عن سماع هذا القول أو قال قارئ هذا الكلام وأمثاله: ما لي وللمسلمين؟. إن إعلان هذا العلم واجب على كل من قرأ هذا التفسير وأمثاله، وإنّما خصصت هذا التفسير لأني أوضحت بعض هذه الحقائق فيه إيضاحاً يوجب إماطة اللثام، والمسلمون قد ناموا نوماً عميقاً وتركوا القرآن وفهمه تركاً حقيقياً، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠] هجروه وظنوا أن علم الفقه خلاصته والباقي لا

عمل له إلا التبرك به فتركت قصصه ومواعظه وآدابه وأخلاقه، ونام المسلمون نوماً حقيقياً وسيستيقظون من رقدتهم ويقومون من نومتهم ويعلمون ويعملون. أقول هذا وأنا واثق من الله، ولولا وثوقي ما كتبت هذا التفسير. فليعلم قارئ هذا التفسير ما عرفه لمن حوله من الناس بالقول وبالكتابة وبالتأليف وبالنشر، بل لتكن أنت الداعي لهذا العمل في أمتك أو قريتك فرق من المسلمين من تشاء. واعلم أن هذا التفسير سيتلوه قوم كثيرون وسيكون كل منهم كأنه علم يهتدى به ويقوم هو بالدعوة منفرداً وسيتضافر الدعاة في كل مكان.

واعلم أن الله لم ينزل ولم يخلق ديناً في الأرض قد اتفق له ما اتفق لدين الإسلام وأنه موافق للعلوم الحديثة، وهذه الدعوة التي أدعوك إليها إذا توجهت بها إلى أصحابك قبلت ونصرت ووجدت لك أنصاراً يحبونك، لأني أقول لك إن هذا الدين فيه خاصية العلوم الطبيعية، وهذه العلوم سيقوم بها المسلمون باعتبار أنها دينهم وأنها علم التوحيد وأنها معرفة الله وأنها تزيد في حب الله، فيترعرع هذا العمل ويثمر في أقرب زمن ويكون المسلمون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠].

إن هذه العقيدة سهلة الزرع في قلوب المسلمين ونتائجها عظيمة جداً. نتائجها الغنى والثروة في الدنيا للمسلمين وظهور ممالك كانت خافية ميتة وابتهاج الأرض بزينة العلماء وعلومهم وانتعاش المدنية انتعاشاً لم تحلم به من قبل، والله ولي المتقين محب المحسنين. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾

اعلم أن هذا السلام المذكور هنا جاء ذكره في يحيى وفي عيسى. وهكذا جاء في صلاتنا نحن المسلمين «السلام عليك أيها النبي»، ويسلم المصلي على نفسه أيضاً وعلى الصالحين، فهنا يقول: ﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[طه: ٤٧].

اعلم أن هذه الحياة لا سلام ولا أمان فيها، فهي متقلبة ملتبسة فالأمان فيها معدوم، ولكن الله يقول: إني أنزل الأمان والاطمئنان على المهتدين، والهداية هنا ترجع إلى الحكمة والعلم. فكلما زاد الإنسان بحثاً في العوالم زاد اطمئنانه، فإن الاطمئنان والأمان على قسمين:

القسم الأول: أن يكون الإنسان جاهلاً ولكنه قد أسلم أمره لله فلا يبالي بما يحصل له، وهذا يصبح أشبه بالمنوّم تنويماً مغناطيسياً يقبل ما يأتيه من الله، وهذا في الحقيقة قد أمن وسلم، لأن المرض والفقر والموت عنده وإن كانت مكروهات مؤلمات فإن ما في نفسه من الراحة والاطمئنان تسلية وتعزية وراحة من ذلك، لا سيما أوقات الاستغراق وهي قليلة.

أما القسم الثاني: فإن بحثه في الحقائق المودعة في هذه السورة والعمل بها يعطيه صورة هذا الوجود، وليس يمكن ذلك إلا بدراسة جميع العلوم، ومتى درس العلوم أدرك أن هذا الوجود مبني على النظام والترتيب، وأن ترتيبه يقضي أن يكون هناك حياة وموت، وأن الأحياء لو داموا لتعطل الوجود، ولماتوا أشنع موتة وهلكوا عن آخرهم، وأن هناك حياة روحية وأنها أرقى من الحياة الجسمية وألطف منها، وأن حياتنا سلم لها. فهذا مبدأ الأمان والسلامة، ويزيد هذا الأمان بالموت إذ تزيد الحقائق له انكشافاً، وكلما ازداد كشفاً ازداد بالحقائق اعترافاً ففرح بها ويكل ما يأتيه من ربه علماً

منه أنه لا يفعل إلا لمصلحته . فإذا قال المصلي : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » فمن هذا الباب دخل . إذن الصلاة في دين الإسلام شرعت لأجل ازدياد العلم لأن الأمان وازدياده بالعلم، والعلم بالبحث .

أين الأمان في قصة موسى عليه السلام

اعلم أن السلام المذكور يجب أن يكون لموسى أوّلاً حتى يناله غيره . وإذا لم يكن للأنبياء سلام وأمان فكيف يكون للأمم أمان؟ .

فاعلم أن قصة موسى تعطيك نموذجاً لنفسك ولأمانك وهذه فائدتها لنا . انظر كيف ذكره بما كان : (١) من إلقاء الحبّ عليه فلا يراه أحد إلا أحبه . (٢) وأنه يصنع على عينه . (٣) تلطف أخته في أن أمه ترضعه . (٤) رجوعه لأمه . (٥) إقرار عينها . (٦) نجاته من الغم بقتل القبطي . (٧) تخليصه من الفتن . (٨) رجوعه من مدين . (٩) اختيار الله له . (١٠) قوله : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[طه : ٤٦] .

إذا سمعت هذا في موسى فاعلم أن الله لم يذكرها إلا لأجلنا ، يقول سبحانه : أنا أعلم أنه ليس أحد في الأرض إلا وقد غمرته بنعم عامة ونعم خاصة . أما النعم العامة فالناس عادة لا يبالون بها ، فإذا جعلت الهواء والماء والشمس والقمر والنجوم والأرض والأنهار كلها عامة للناس فلم يشكر منهم على النعم العامة إلا المخلصون ، ولكن شكر أكثر الناس إنما يتوجه إلى ما اختصصتهم به ، وإذا كان موسى من المخلصين لي فإنه يشكرني على النعم العامة والخاصة ، ولكني ذكرته بالنعم الخاصة به تذكرة للأمم وللأمم الإسلامية خاصة قائلاً لهم : يا أمة الإسلام ما من امرئ منكم إلا وله نعم خاصة به فلقد شاهد من صنعي في أدوار حياته ما يشرح صدره ، ويرى من ذلك أني لم أتركه في كثير من أوقاته ففعلت معه مثل ما فعلت مع موسى مع مراعاة أحواله الخاصة ، لأن ما يصلح لموسى لا يصلح لك بل لك أمور تفرحك قد فعلتها لك ، ولكل أحد من الأشرار والأبرار أسرار لا يطلع عليها سواه فيفرحون بربهم بما اختصهم من النعم . فإذا كان هذا عملي معك أيها المسلم في سابق أيامك فلتعلم أني معك في لاحقها ومرضك وفقرك وموتك . كل هذا لمصالحك كما رأيت المحافظة عليك في الأحوال السرية الخاصة بك المتقدمة . فعلى كل مسلم أن يتذكر نعم ربه الخاصة التي لا يعرفها سواه ولا تناسب إلا نفسه ، وليذكرها وليشكر الله عليها وليقم بخدمة إخوانه وحب الناس حتى يكون آمناً مهتدياً . وهنا جوهرتان :

الجوهرة الأولى : في قوله تعالى :
﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾
إن في النار وفي النور هدى

(١) لقد مضى في هذا التفسير في سورة الرعد أن الحرارة والضوء والجاذبية والصوت كلها على نسق واحد تقلّ كلما تباعدت أقطارها على عكس مربع المسافة ، وانظر ضرب المثل هناك إذ تكون القنابل الأربعة التي بيننا وبينها ثمانية أذرع مساوية كلها في الضوء للقنديل الذي بيننا وبينه أربعة أذرع فقط ، والواحد منها مساوٍ لربع ضوء هذا القنديل القريب ، فالنار والنور قد عرفنا منهما أن هذا العالم له نواميس منتظمة متوافقة .

(٢) رأينا في أضواء العناصر الأرضية خطوطاً سوداء تقاطع الأشعة السبعة التي أضعفها الأحمر وأقواها البنفسجي، وهذه الخطوط تكون في كل عنصر بحسبه، فهي مختلفات في العناصر اختلاف أصناف البياض في أشخاص الناس. فكما أن لكل أبيض بياضاً يخصه مع اتفاقه مع الجنس الأبيض هكذا لكل عنصر في ضوئه نوعاً من الخطوط السود يخالف نظيره في غيره. وبهذه الكيفية أمكن العلماء في عصرنا أن يعلموا ما في الشمس والكواكب الثابتة من العناصر، وأن يحكموا بما في الأرض على ما في تلك العوالم من العناصر لما يرون في أضوائها من تلك الخطوط فيعرفون العناصر عنصراً عنصراً هناك، وبهذا عرف المسلم قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك: ٣] الخ.

فهاهنا وافق العالم السفلي العالم العلوي وعرفنا الثاني بالأول وأدركنا أن الباني لهما واحد، لأن العمل واحد والنظام متحد، وأن الأضواء كلها مركبات من الألوان السبعة. هذه هي الهداية لنظام الطبيعة، وسيأتي ذلك موضحاً في سورة «تبارك» بالتصوير الشمسي عند قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ ﴾ [الملك: ٣].

(٣) ويتلو هذا أنك ترى النار في الأحجار وفي الأشجار وتعجب من أن الحياة لا تتمّ إلا بالحرارة وأن البرودة تخمد فيها الحياة ولا توجد. إن الحرارة يكون فيها التحليل والتركيب والبرودة تبقى فيها الأجسام ثابتة. ناهيك أن الجسم المطمور في الثلج لا يقربه البلى بل هو باق على حاله. ذلك لأن طبع الحرارة التحليل يتلوه التركيب والبرودة طبعها إيقاف الأعمال وإعدام الحياة.

(٤) رأى موسى عليه السلام النار في شجرة العليق ويقول الله في سورة «يس»: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ ﴾ استدل بها على البعث هناك. ففي النار هدى لمعرفة الحكمة والقدرة الإلهية، وتبيان أن هذه الأجسام التي نسكنها الآن ستنهدم وتكون الروح أشبه بالنار والأجسام أشبه بالأشجار، والنار ترتفع إلى العلى ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢].

(٥) وهذه هي مغزى قصة «حي بن يقظان» التي ألفها «ابن الطفيل»، ذلك أنه ذكر أن فتاة خافت من أهلها فألقت طفلها المسمى بهذا الاسم فأرضعته غزالة، فلما ماتت الغزالة هاله الأمر وعظم عليه الكرب ونظر في حاله وهو وحيد بين الوحوش الضارية والفلوات القاصية فأخذ يبحث عن حبيبته الغزالة أين هي، فإن كانت هذا الجسم فهاهو ذا يعتريه البلى وأصبح جيفة وإن كانت في جزء من أجزائه فما هو؟ أفي العين أم في الأذن أم في الكبد أم في الطحال أم في المعدة؟ ثم اهتدى أخيراً إلى أن الحبيب كان يسكن في هذا القلب، والقلب كانت فيه حرارة الدم، والحرارة بها بخار، والبخار كان يحمل الروح، والروح لا تعيش إلا في وسط مثل هذا وهو يشبه نظام الأفلاك وحرارته كحرارتها.

إذن هناك في السماوات عوالم تشبه تلك الروح، أي: روح الغزالة وإذن هناك واحد فوق الجميع ذهبت إليه تلك الأم التي كانت تحبني لأنها لطيفة وكان مجلسها في الجسم ذلك البخار اللطيف وهي تتصرف فيه وتغدو وتروح. هنالك أخذ يفكر في الكواكب والملائكة ومعرفة الله تعالى إلى آخر الرواية، وقد تقدم في سورة «البقرة» نحو هذا.

هذه قصة « حي بن يقظان » التي ألفها « ابن الطفيل » ، ورجع السرّ الذي فيها إلى الحرارة التي لازمت الروح ، ومنها فكر في حرارة الشمس والكواكب وأن هناك أرواحاً عالية وفوقها مدير الأرواح . إذن قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾[طه : ١٠] يشير إلى أن النار مذكرة بالروح وبالملك وبالله كما خطر لابن الطفيل .

إذن النار في كلام موسى هي من أهم أسرار الوجود . فبالحرارة الحياة ، وكل ما لا حرارة فيه لا حياة فيه ، والحياة تقلّ ما قلّت الحرارة ، وتمتنع بتاتاً إذا لم يكن للحرارة من أثر ، وضوء النار يعطينا القوانين الهندسية ويفتح لنا أبواب الحياة الأخروية ويشير إلى عالم الأرواح ويهدينا إلى النظر في العالم الأعلى . هذا بعض ما يشير له قول موسى عليه السلام : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾[طه : ١٠] .

إن هذا القرآن ليس يقرؤه موسى الآن ولا أحد من السابقين فهو إنّما يتلى لنا ، وأما نحن فلندرس الوجود كما يشير إليه القرآن ، والحمد لله رب العالمين .

(٦) جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾[طه : ١٠] هادياً يدلني على الطريق أو يهديني أبواب الدين ، والأول دنيوي والثاني أخروي أخذه العلماء من أن أفكار الأبرار مائلة إليه ، والذي جاء في كلام « ابن الطفيل » في البند الخامس منه . إذن موسى عليه السلام يطلب الدنيا ويطلب الدين معاً فلنفهم نحن في القرآن على قدر عقولنا ، فلسنا نحن أنبياء والأنبياء لهم مرام فوق متناول عقولنا ، والقرآن الآن يقرأ لنا ، فهم عند ربهم ونحن هنا في الأرض ، والأنبياء تذكروا بالنار الدين والدنيا ، والمفسرون قدموا مسألة الطريق على أبواب الدين في هذه الآية .

إذن لنسر في طريقنا ونفسر لقومنا بحسب ما وصل إليه العلم في أيامنا ونذكر قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[العنكبوت:٢٧] ، وقوله في سورة « الزمر » : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ، وأكثر العذاب في القرآن إنّما هو عذاب الدنيا . فتجد عاداً وثمود وأصحاب الرسّ ومدين وقوم لوط وقوم فرعون ، كل هؤلاء عذبوا في الدنيا . إذن القرآن متجه إلى نظام هذه الدنيا مع معرفة الله .

الله أكبر ، لقد اجتمع كل هذا في نار موسى التي رجا أن يجد عندها هادياً يهديه إلى الطريق أو يهديه إلى أبواب الدين ، ولكنه وجد الهدى بنداء ربه الذي تلقاه روحياً ثم تمثل لبدنه فانتقل إلى الحس المشترك فانتعش به من غير اختصاص بعضو وجهة . وسبب هذا كله ضوء النار .

إن النار والنور والكهرباء والحركة يرجع بعضها إلى بعض ، فإذا درسناها فإننا ندرس ما يدل على الله ما يدل على أبواب الرزق في الدنيا . إن النار والنور وما تبعهما بهما نظام الحياة وبهما معرفة الله الذي أنزل في القرآن هذه الآية ليقف المسلم عندها لدرسها ، الله أكبر . لو لم يكن في القرآن سواها لكفت . ولو أن أقواماً نزلت عليهم هذه الآية وعرفوها وحدها لكفتهم أمور الدين والدنيا ، فجلّ الله وجلّ العلم . اهـ .

(١) الحرارة إما منيرة كحرارة حديدة أحميت حتى ابيضت . وإما مظلمة كحديدة أحميت قليلاً .

(٢) البرد لفظة إضافية ترجع إلى قلة الحرارة.

(٣) البخار يتحول إلى غيم بانحطاط حرارته قليلاً، وغاز الهواء لا يتحول إلا بانحطاط عظيم جداً في الحرارة، فجلّ الله الذي جعل الهواء لا يتأثر بالبرودة وقلة الحرارة وإلا لأصبحنا غرقى في سائله ولم نعش يوماً واحداً. فالهواء مركب السحاب فلو صار سائلاً لم تكن حياة لنا على الأرض.

(٤) ما هي الحرارة؟ أجمع العلماء على أن هناك مادة لطيفة جداً تتخلل كل جسم جامد وغيره وهي «الأثير»، والأجسام كلها متحركة ذراتها دائماً فيه كما تتحرك السيارات حول الشمس. إذن ذرات الأجسام والأثير كلها متحركة. وأكثرهم يقولون: إن الحرارة تحرك هذا الأثير وهذه الذرات كما يتحرك الهواء، فتتحرك الأغصان بحركته. فذرات الجسم كالأغصان وذرات الأثير كالهواء والحرارة كالرياح. وأقلهم يقولون: كلا، بل الحرارة سائل لطيف يتخلل دقائق الأجسام كما يتخلل الماء الحصى. فإذا طرق الجسم خرجت الحرارة منه كما يخرج الماء من الخرقة إذا عصرت. إذن أجمعوا أن هناك مادة سواء أكانت هي الأثير المالئ لهذه الدنيا أو هي شيء آخر، فالقولان بينهما تقارب ما، وقد تقدم الكلام في سورة «الرعد» على مصادر الحرارة الثلاثة إجمالاً.

(٥) ثم أقول هنا: انظر إلى عجب عجاب، قد وجد «جول» الإنكليزي بتجارب متعددة لأنه إذا وقع جسم ثقله قنطار مثلاً من علو (٧٧٢) تولدت من حركة وقوعه حرارة ترفع حرارة قنطار واحد من الماء درجة واحدة، وبالعكس أي: إن الحرارة الواجبة لرفع حرارة قنطار واحد من الماء درجة واحدة ترفع جسماً ثقله قنطار واحد علو (٧٧٢) قدماً، وهذا يسمى «ناموس عديل الحرارة الميكانيكي»، ومعنى هذا أن الحدّاد الذي يطرق على السندال طرقة لا تذهب قوته سدى، بل تحولت إلى حرارة والحرارة تتحول إلى حركة، ومعنى هذا كله أن الله عدل ﴿ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩]. فما مثل أعمالنا إلا كمثل الطرق على السندال، وما مثل الحرارة الناتجة إلا كمثل الثواب، والله يقول: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾[آل عمران: ١٩٥] الخ، ويقول: ﴿ وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[يس: ٥٤]. فالحركةُ هي نفس الحرارة إذ حولت إليها كما حول الماء إلى البخار أو الثلج إلى ماء، والثلج هو نفس الماء والبخار هو نفس الماء، وهذا هو الحديث الشريف: «إنّما هي أعمالكم تعرض عليكم» الخ. إذن أعمالنا هي نفسها التي تكون لنا بعد الموت تكمن فينا وتظهر بصور أخرى وهذا حق وصدق. وإذا كان الله لم يضع حركاتنا في الأرض بل جعلها حرارة ونحن نجهلها ولا نراها، فكيف يضيع أعمالنا. اللهم أن هذه النفوس الإنسانية تزرع في أنفسنا أعمالاً، وثمراتها تظهر في نفس الدنيا وفي الآخرة.

(٦) ضع ماء على كفك فإنه حالاً يسخن بحرارته ويتحوّل إلى بخار، فيشعر الإنسان ببرودة الماء لأن حرارة كفه انتقلت إليه واختفت في بخاره. وإذا تكاثف البخار على كف إنسان شعر بسخونته. لماذا؟. لأن البخار المتكاثف كانت الحرارة قد اختفت فيه أي إن البخار لا تزيد حرارته البتة وإنّما هو يحفظها عنده، فإذا رجع ماء سلم الأمانة إلى أهلها، فيحسّ الإنسان بالحرارة التي سلمها أولاً إلى البخار. ويقال مثل ذلك في تحوّل الثلج إلى سائل. وعلى هذه القاعدة قالوا: إن جمود الماء تسخين وذوبان الثلج تبريد. الله حفظ الحرارة في البخار والبخار سلمها إلى الكف لا نقص فيها، وهذا معنى

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء : ٤٠] ، أصبح القرآن يؤيده العلم المحسوس ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧] .

(٧) وللحرارة جعل الناس ميزاناً سموه « الترمومتر » وهو يكون بالزئبق .

(٨) وبالحرارة كانت الآلات البخارية التي حدثت بسبب آثارها في الماء فيتمدد فيحصل الضغط ، فيكون العمل العجيب ، فنسقى زرعنا ونطحن حبنا ونسافر إلى أعمالنا في أرض الله ونصنع كل شيء . كل ذلك بسبب الحرارة .

(٩) وبالحرارة كان السحاب والمطر والبخار الناشئ من البخار ونحوها والرياح .

(١٠) والكهربائية والضوء ونحوها لها أعمال مشهورة عجيبة من حرم منها حرم السعادة وذلّ في هذه الدنيا . هذا بعض تفسير قوله : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] أي : من يهديني لديني أو طريقي ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية :

في الآيتين الكبريين في سورة طه وفي سورة النجم وفي قوله تعالى : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾

هاتان آيتان كبريان إحداهما : رآها موسى ، والثانية : رآها نبينا صلى الله عليه وسلم ، فالتي رآها موسى هي اليد التي أدخلها في جيبه فخرجت بيضاء ، وكذا العصا التي قلبت حية ، والآية التي رآها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هي ما ورد في الأحاديث مثل قوله : « ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قال : هذه سدرة المنتهى » ، وفي رواية : « ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى » إلى أن قال : « فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها » ، ثم ذكر بعد ذلك أنه فرض عليه الصلوات وعلى أمته .

هذه هي الآيات الكبرى فهي عند موسى أمثال عصاه المنقلبة حية ، وعند نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مثل سدرة المنتهى العظيمة الثمرة الكبيرة الأوراق ، ومثل أنها غشيها من أمر الله ما غشيها فتغيرت فأصبحت ذات حسن لا يستطيع أحد وصفه ، وآية موسى في العجائب الأرضية ، وآية محمد صلى الله عليه وسلم في العجائب السماوية ، وآية موسى تغيرت في العصا التي انقلبت حية ، وفي يده إذ صارت بيضاء بعد أن لم تكن كذلك . هذه هي آيات الله الكبرى .

هاتان الآيتان المحمدية والموسوية نزلتا في ديننا لفتح باب العلوم ، والعلوم التي تضمنتها الآيتان الكبريان علوم سماوية وعلوم أرضية ، كبر الآية لأحد أمرين : إما لأنها عظيمة الحجم هائلة وأنها فيها جمال يفوق الوصف ، وإما لأن فيها حسناً بديعاً غريباً وليس لها أسباب معروفة ، فالأول في وصف آيات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والثاني في وصف آية موسى ، ومن جهة أخرى لا تعدو الآيات الكبرى أحد أمرين : إما عظم الحجم والمقدار ، وإما الإبداع في تغير الأوصاف بحال غريبة ، ومن الأول كون الورق كآذان الفيلة ، ومن الثاني انقلاب العصا حية وبياض اليد .

هذه أمور وقعت للأنبياء والأنبياء قدوة لأممهم ، ولم تنقطع آيات الله بعد الأنبياء ، وكيف تنقطع وقد علمنا أن الله كما كان يري الناس على يد موسى العصا ويقول إنه آية ؛ هكذا هو يرينا نحن آيات

كثيرة فهو يقول: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾[غافر: ٨١]، ويقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، ويقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وهكذا في سورة «الروم» أن من آياته خلق السماوات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان، والنوم بالليل والنهار، وطلب الرزق، والبرق وإنزال الماء وإخراج النبات، وكون العالم كله قائماً بأمره.

تبين من هذا أن الآيات كما رآها لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولموسى وقومه هو الآن يريها لنا لم تنقطع، ولكنه وصف ما حصل للأنبياء بأنها آيات كبرى. فيا ليت شعري ما هذا السر؟ هانحن أولاء نرى الآيات في كل شيء فالكواكب آيات، ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠] الخ، الآيات عن أيماننا وعن شمائلنا وفوقنا وتحتنا بنص القرآن. الله وعدنا أنه سيريها لنا وليست خاصة بسدرة المنتهى ولا بعصا موسى مثلاً.

أقول: إن الآيات كبرها وصغرها على مقدار تأثيرها في نفس من يراها، فسدرة المنتهى لما غشيها ما غشيها امتازت بتأثيرها الشديد وفعلها القوي على مقتضى استعداده صلى الله عليه وسلم، وهكذا عصا موسى ويده. فالآية في الأولى والآية في الأخرى فتحتا لنا أبواب العلم في الآيات التي عندنا. الله أكبر قد انفتح باب الجواب وظهر السر المكنون في هذه الآيات. نزل القرآن لرقينا نحن، وليس للجاهل من سماع آية سدرة المنتهى، ولا من سماع عصا موسى، أثر لرقيه. تتكرر هاتان الآيتان الكبريان على أسماع الناس في الأمم الإسلامية، فيمر أكثرهم عليها وهم عنها معرضون، وما علموا أنهما فتح لباب العلم بما في الأرض والسماء.

غشي سدرة المنتهى من أمر الله ما غشيها فكانت آية كبرى لحسن المنظر وعظم الهيئة والإبداع السريع

قلنا: إن كبر الآية على مقدار تأثيرها. فتأثير هاتين الآيتين كبير فلذلك كانتا كبيرتين. إذن لا تكون آيات السماوات والأرض التي وعد الله أنه سيريها لنا فنعرفها نافعة إلا إذا تركت في نفوسنا أثراً كما أثرت تانك الآيتان الكبريان، ولن يكون الأثر في نفوس الأتباع كالأثر في نفوس المتبوعين، بل الأثر هناك أعظم.

وبالاختصار لا تفيدنا آيات السماوات والأرض إلا بالبحث والعلم، بحيث نصل إلى درجة يحدث عندها في نفوسنا آثار تلك الآيات. وما مثل الآيات عند الغافل إلا كمثل الجمال عند العميان وحسن الصوت عند صمّ الآذان. وليس للنائم من علم بما يجري في العالم من حزن وفرح وعز وذل، فهو والميت في هذا سواء.

لا علم لنا بآيات الله إلا بدراسة العلوم التي أحاطت بالأمم الإسلامية. ولقد جاء التصريح بذلك في قوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]، حقاً إن هذا زمانه، أرانا الله الآيات العلمية في أوروبا وبلاد اليابان وتبعتها الصين فعلينا معرفتها. فهاهو ذا أرانا الآيات فقرأناها في كتبهم، فهذا ليس يكفينا بل لا بدّ من أن نعرفها. فهنا أمران: إراءة من الله، وقد حصلت فعلاً بأمثال هذا التفسير وبالمدافع والطيارات، فهذا التفسير إراءة من الله للمسلمين هو وأمثاله قولية، والمدافع

والطيارات والغازات الخانقة التي يرسلها أهل الغرب على بعض بلاد الإسلام آيات فعلية. وبعبارة أخرى: آيات السيف وآيات القلم.

فعل الله الآن مع المسلمين ما فعله المعز لدين الله الفاطمي، إذ فرّق الذهب على عظماء الأمة المصرية في المجلس، وقال: هذا حسبي، ثم جرد سيفه، وقال: هذا نسبي. وهذا هو نظام الله كله. جنة ونار وقلم وسيف، وهو غفور رحيم وهو شديد العقاب، وهو عزيز جبار متكبر كما أنه ودود رحيم لطيف وهاب رزاق فتاح الخ.

فهذان الوصفان اليوم قد ظهرا لأمة الإسلام. أحاطت بهم الأمم من كل جانب وهم جاهلون نائمون، فرفع السيف عليهم والطيارات والغازات الخانقة، وألهم رجال العلم في الإسلام فأروهم اليوم أن العلوم لا بد منها حتى يمكن أن نعيش مع الناس. وما العلوم إلا آيات الله وآيات الله هي كل ما حولنا ونراه أو نلمسه، وهذه لا تؤثر في نفوسنا وتكون جميلة المحيا بهجة إلا بالدرس، والدرس هو الذي يجلي هذه العوالم لنا باسمة الثغر جميلة المحيا حسنة الشكل بهجة تسر الناظرين، كما كانت سدرة المنتهى وكما كانت عصا موسى. فسدرة المنتهى تشير لعلم الفلك، وعصا موسى ويده تشيران لعلم الطبيعة والكيمياء.

نحن لا نعقل جمال السماء فتكون عندنا آية من آيات الله إلا بعلم الفلك، ولا نعقل عجائب الأرض إلا بدراسة علم الطبيعة والكيمياء. الكيمياء سحر حلال هي إبداع الله في الأرض، هي بهجة الدنيا، بها تنقلب الأجسام من حال إلى حال، وتبهج العقول وتحير الأفكار، وإذن تكون هذه من آيات الله التي رآها لنا فعرفناها، فأما إذا لم نقرأ هذه العلوم فإنه يكون أراها لنا ولم نعرفها، وهذا هو الخزي العظيم، الله يرينا ونحن لا نريد أن نرى ولا نقتدي بأنبيائه إذ أراهم الله فرأوا. نعم هم رأوا بالهداية الإلهية والوحي، ولكن نحن مأمورون بالعمل والفكر حتى نفهم الآيات فلسنا أنبياء بل نحن مكلفون بالاقتداء. إن المسلمين إذا لم يفكروا في مثل هذا فقد أساؤوا الظن بكتاب الله.

إن هذه الآيات إنّما أنزلت لمثل هذا المقام. بل أقول: نزلت لترينا في هذا الزمان ما يجب علينا من قراءة العلوم. هذا التفسير وأمثال هذا التفسير من نوع إراءة الله للمسلمين. فعلى المسلمين بعد اليوم أن يعرفوا كل علم على حسب ما قررناه في أواخر سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[الآية: ٢٨٦] وفي مواضع أخرى.

هذه العلوم هي التي ترينا الجمال في هذه الدنيا والبهجة، وكنت أود أن أورد مسائل من علوم السماوات والأرض، ولكن قد مر في هذا التفسير والحمد لله عجائب وعجائب تشرح صدر اللبيب وهي كثيرة في كل سورة تقدمت، مثل إن مادة الفحم هي بعينها الألماس. فهذا العنصر نفسه هو نفس الفحم، وهكذا الفحم يستخرج منه العلماء مئات الألوان للصباغة وغير ذلك، وقد تقدم الكلام عليه بإسهاب في أول سورة «الأنعام»، وهكذا أعظم الكواكب تراه في كل السور السابقة تقريباً، مثل ما مر في أول سورة «يونس» وغيرها.

كل ذلك عجب بل من أعجب العجب، ولكن الذي منع التعجب إنّما هو العادة، فالناس لاعتيادهم النظر إلى ما حولهم غشي على عقولهم. وليس يحصل التعجب إلا إذا حصل أحد

أمرين: إما أن يكون الأمر خارقاً للعادة، كما إذا رأى الإنسان نباتاً غريباً أو حيواناً غريباً، فإنه يدهش ويعجب ويسبح ربه، مع أن هذا الحيوان عند القوم الذين يعيش بين ظهرانيهم لا يلتفتون إليه. وإما أن يتعلم الإنسان سر الأشياء بالعلوم المشهورة، فكل ما كان غريباً على النفس يثير الإعجاب، وكل ما كان معتاداً لا يحرك منها ساكناً. بل إن العصا تقلب حية على طول الزمان، فالعصا قد تتفتت ويعتريها البلى وتصبح من مواد الأرض بالتركيب ثم تصير طعاماً لبعض الحشرات، وتلك الحشرات تأكلها الحيات فتنقلب إليها.

إن العالم الذي نعيش فيه في تقلب مستمر، فكل ينقلب إلى كل على طول الزمان، ولكن هذا لاعتياد للناس عليه لا يؤثر فيهم. فعلى قادة الأمم الإسلامية أن يثيروا الإعجاب في نفوس الطلاب بما ينشرون في مؤلفاتهم للأطفال وغيرهم صور العجائب التي تبهجهم ليبرز ما كمن في نفوسهم من الوجدان وحب العلم كما فعلت الفرنجة، إذ يرسمون لأبنائهم في كتبهم صور العجائب البديعة.

الورق والحرير من الخشب

(١) وأذكر لك اليوم ما قرأته عن أمم الألمان إذ جاء من أخبارهم الزراعية أن لديهم ثلاثين ألف ألف فدان من مائة ألف ألف فدان صالحة للزرع لا تأتي لهم بغذاء الإنسان والحيوان، وإنّما هي نباتات تعطيهم مواد البناء والأدوات والرياش. وهكذا فيها المواد الأولية لصناعة الورق والحرير الاصطناعي لأنهم يستخرجون منها «رب الورق» و«السليلوس» وهو المادة الأولية لصنع الحرير الصناعي الذي انتشرت صناعته وأخذت في الازدياد بالنسبة إلى ذيوع استعماله، لا سيما بعد إتقان صنعه وجعله متيناً، وذلك فضلاً عن اتخاذ خشب هذه الأشجار ومتخلفات أشجارها للتدفئة.

هذا هو الذي قرأته اليوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٧ عن أمم الألمان أثناء كتابة هذا الموضوع، فمثل أن الحرير يتخذ من الخشب وكذلك الورق أمرهما عجب عندنا لغرابته، فكيف تكون الأشجار التي نوقد منها وتصنع أدواتنا نلبس منها أغلى الملابس وأجملها وأبهجها، فنشر أمثال هذا في بلادنا يثير الإعجاب أولاً وحب العلم، وثانياً يبعث في النفوس حب استخراج المنافع من الأرض وما عليها، وثالثاً يبعث فريقاً من الناس على حب صانع هذا العالم الجميل.

(٢) الحرير ينبت في الصخر وهو يسمى «الحرير الصخري»، وهل أتاك نبأ الحرير الصخري؟ ذلك الذي يكون على بعض الصخور وقد يلبسه رجال المطافئ لأن من خواصه أنه إذا وضع على النار لا يحترق. ولقد وضعته أنا بنفسي على النار لطلبة «دار العلوم» إذ كان مدرس هذا العلم غائباً وأنابني عنه، فصار الطلبة يتعجبون، ولما وضعته على النار مدة وطلبوا بقاءه مدة أخرى لم يتأثر، وإنّما النار تحرق الجراثيم المتعلقة به فتنظفه فهي بالنسبة له تقوم مقام الماء.

(٣) وهل أتاك نبأ «شجرة الخبز» التي تنبت في بعض بلاد آسيا، وقد ذكرتها في كتاب «جمال العالم» أو «جواهر العلوم»، وكيف يأكل القوم هناك منها خبزاً كالخبز الذي نتعاطاه نحن في بلادنا.

(٤) وهكذا شجرة «القشدة» التي يتخذ منها القوم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين وهي مذكورة هناك.

بهجة العلم

فتصور أيها الذكي بيتاً تسكنه من الخشب وكراسيه وأدواته منه، والملابس التي تلبسها أنت وأهلك إما من حرير الخشب الذي يتخذه الألمان، وإما من الحرير الصخري، وكلاهما حلال في ديننا لأنه ليس حرير الدودة، ثم جميع الفرش والمساند من ذلك الحرير، ثم إنك اتخذت أنت وأهل بيتك مواقد وأدوات للنار كلها من الخشب وقد غلفت وغطيت بأغطية من الحرير الصخري المذكور وأخذتم تأكلون الخبز واللبن والزبدة من الشجر، فماذا بقي بعد الآن؟ أنبت الله لنا منازل وملابس ومآكل ومشارب كلها من الأرض بل فعل حيوان ولا إنسان.

هذه من آيات الله عند الحكماء ولا عبرة بها عند الجهلاء، تذكرنا بهذا آية ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[النجم: ١٨] وآية اليد والعصا.

اللهم إني أنذرت وحذرت ونصحت على مقدار جهدي، وأنت يا الله مدبر الخلق محكم التدبير مبدع المعجزات والغرائب. فكلما أبدعت من الشجر لبناً وخبزاً ومن الصخر حريراً؛ فاجعل اللهم بعد جهل المسلمين علماً واشتق من نومهم يقظة ومن ضعفهم قوة ومن ذلهم عزة، إنك على ما تشاء قدير.

انتهى صباح يوم السبت ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٧.

الفصل الثالث من قوله:

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

إلى قوله: ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

قال تعالى: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي: إنما يعذب الله من كذب بما جئنا به ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي: فمن إلهكما ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أي: أعطى كل شيء من الأنواع صورته وشكله الذي يطابق كماله الممكن له، ثم عرّفه كيف يرتفق بما أعطي له وكيف يتوصل إلى بقائه. فالإنسان والحيوان والنبات في ذلك سواء كل أعطي صورته الخاصة به، وألهم وتعلم كيف ينتفع وذلك ظاهر في الأولين. وأما النبات ففيه نوع من حركة وحسّ ضعيف كما تقدم ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي: فما حال القرون الماضية والأمم الخالية ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ أي: إنه غيب لا يعلمه إلا الله فأنا عبد مثلك لا أعلم إلا ما علمني ربي ﴿ فِى كِتَٰبٍ ﴾ أي: كأنه في كتاب، وهذا تمثيل لرسوخ العلم عند الله لا يضيع كما قال: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ ضل الرجل: أخطأ الشيء ولم يهتد إليه، ونسي: إذا ذهب عنه الشيء بحيث لا يخطر بباله وهذا محالان على الله تعالى.

ثم وصف الرب بأنه ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾، وقرئ «مهاداً» فالمهد مصدر سمي به أي جعلها لكم كالمهد تتمهدونها، والمهاد اسم لما يفرش أو جمع مهد، فمحصل المعنى أن الأرض تتقلب فيها كما يتقلب الصبي في مهده الذي مهد له وارتاح فيه واطمأن إليه وسكن له ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ وجعل لكم فيها سبلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من قطر إلى قطر ومن

أمة إلى أمة ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ مطراً ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ ﴾ بذلك الماء ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ أصنافاً، ثم وصفها وبينها فقال: ﴿ مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ و« شتى » صفة نبات وهو جمع شتيت، كمريض ومرضى، أي متفرقات في الصور والأغراض والألوان والطعوم والمنافع الخ. يقول الله فأخرجنا بذلك الماء أزواجاً الخ، حال كوننا قائلين: ﴿ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ ﴾ أي: آذنين فيه ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي: لذوي العقول، جمع نهية ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ فالمادة الأرضية منها خلق آدم وخلقنا لأنها تكون نباتاً وحيواناً وهما يصبحان أغذية لنا تصير دماً فلحماً فعظاماً. فنحن من التراب لا آدم وحده ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ للدفن فنفكك ما ركبناه من أجزاء أبدانكم ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ يوم القيامة للبعث والحساب فنؤلف أجزاءكم ونردّ إليها أرواحكم ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا ﴾ بصرناه وعرّفناه صحتها سواء أكانت خارقة للعادة أو كانت تبصرة وذكرى في الكائنات المذكورة ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ الإيمان والطاعة لعتوّه، وقوله: ﴿ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أرض مصر ﴿ بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ هذه حيرة منه فإن الساحر لا يطرد ملكاً من ملكه وإنما يطرده النبي فكأنه شعر بصدقه ﴿ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ مثل سحرك ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ ﴾ أي: مكان موعد، أي: وعد، لا نخلف الموعد ﴿ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ ﴾. ثم أبدل من المكان المقدر قوله: ﴿ مَكَانًا ﴾ ووصفه بأنه ﴿ سُوًى ﴾ بضم السين وكسرها وهو من الاستواء، أي: منصفاً بيننا وبينك، أي: يستوي مسافته إلينا وإليك بحيث لا يجاوز أحدنا ما حدد له من المكان. فهذا أفاد أن الوعد، لا يخلف وأن المكان يكون مناصفة بينهما، وحينئذ أجاب و﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ قد كان الطلب للمكان، وهذا الجواب للزمان، فيقال: إن يوم الزينة الذي هو يوم النيروز عند الأمة المصرية كان له مكان معين، فبهذا عرف الزمان والمكان ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ أي: يجمع الناس وقت الضحوة نهاراً جهاراً ليكون أبعد من الريبة ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ ﴾ أدبر عن موسى معرضاً ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ﴾ مكره وسحرته ولا معنى لعدهم ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ للموعد ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ أي: للسحرة ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ لا تدعوا آياته ومعجزاته سحراً ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ فيستأصلكم ويهلككم ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ عظيم ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ من كذب على الله ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ أي: المناجاة، أي: اختلفوا فيما يعارضون به موسى وتشاوروا في السرّ وأدلى كل فريق بحجته وأسروا فيما بينهم وهم يتناجون: إنه إن غلبنا اتبعناه لأنه إذن يكون نبياً، ثم أعلنوا ما يأتي: ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ بالعلانية ﴿ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ أي إنه أي الحال والشأن هذان لساحران، فالمبتدأ والخبر جملة خبر « إن » المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم ﴾ مصر ﴿ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ﴾ بدينكم وشريعتكم ﴿ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ الفضلى تأنيث الأمثل وهو الأفضل ﴿ فَأَجْمِعُواْ ﴾ فأحكموا، أي: اجعلوه مجمعاً عليه ﴿ كَيْدَكُمْ ﴾ هو ما يكاد به ﴿ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ﴾ أي: حال كونكم مصطفين لأنه أهيب في صدور الرائين ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ وقد فاز من غلب والجملة اعتراضية ﴿ قَالُواْ ﴾ أي: السحرة ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ عصاك أولاً ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ أي: اختر أحد الأمرين، و« إن » وما بعدها في الموضعين مصدر منصوب بالفعل المضمر الذي ذكرناه

وذلك للأدب، ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ مقابلة أدب بأدب وإشارة إلى أنه لا يبالي بسحرهم، فألقوا حبالهم وعصيهم التي لطخوها بالزئبق الذي من عادته أن يتأثر سريعاً بحرارة الشمس، فما أسرع أن تحركت تلك الحبال والعصي ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ أي: فألقوا ففاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم من سحرهم فـ «إذا» هي للمفاجأة ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ فأضمر فيها خوفاً من مفاجأته بذلك على مقتضى الطباع البشرية ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾ ما توهمت وعلل ذلك بقوله: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ يا موسى ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ أي: تلتقم وتبتلع ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ أي: حيلة ساحر ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ ﴾ أي: جنسه ﴿ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ حيث كان وأين أقبل ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ فهم أولاً ألقوا حبالهم وثانياً ألقوا رؤوسهم للسجود ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ في الإيمان له ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ لعظيمكم في فنكم ﴿ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ وأنتم تواطأتم على ما فعلتم ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى، أي: لأقطعنها مختلفات ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ لما تمكن المصلوب من المصلوب عليه جعل كأنه فيه، وقد أطال في ذلك علماء البيان فلا نضيع وقتنا في العلوم الصناعية ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا ﴾ أنا أو رب موسى ﴿ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ أدوم ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ لن نختارك ﴿ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ القاطعة الدالة على صدق موسى ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ عطف على «ما جاءنا» ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي: ما أنت قاضيه أي صانعه أو حاكم به ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي: إنما تحكم علينا في الدنيا وليس لك علينا سلطان في الآخرة. فقوله: ﴿ هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ منصوب على الظرف ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾، «ما أكرهتنا» معطوف على «خطايانا»، يقال: إن السحرة عرفوا بعلامات عندهم أن موسى عليه السلام ليس ساحراً، فأبى فرعون عليهم وأكرههم على معارضته ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ منك ثواباً ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ عقاباً ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: الحال والشأن ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ كافراً ﴿ فَإِنَّ لَهُ ﴾ للمجرم ﴿ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ حياة ينتفع بها ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ﴾ مات على الإيمان ﴿ قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ﴾ بعد الإيمان ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ جمع العليا. ثم أبدل منها ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ دائمين فيها ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ تطهر من الشرك بقوله: لا إله إلا الله، وهذه الآيات الثلاث من كلام الله. انتهى التفسير اللفظي للفصل الثالث.

وهنا أربع لطائف:

(١) في قوله: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾.

(٢) وفي قوله: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ الخ.

(٣) وفي قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾.

(٤) وفي قوله: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾.

اللطيفة الأولى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ﴿٥٠﴾ وفي اتصال هذه السورة بالسور قبلها

هنا بيت القصيد من رسالة الأنبياء، فإنه لما سئل عن ربه لم يجب بأنه هو الذي صوّر الصور وهدى كل نوع من الأنواع مستقره ومستودعه وأحواله الخاصة به.

ثم أعلم أن هذه السورة متصلة بالسور قبلها كأنما هي سلسلة واحدة، ألا ترى أن سورة « الحجر » قد جاء فيها ذكر أنواع المواليد الثلاثة مرتبة من أدناها إلى أعلاها، ثم في سورة « النحل » من أعلاها إلى أدناها، ثم ذكر بينها الإنسان تارة أخرى هناك، ثم جاءت سورة « الإسراء » وهنا ظهر عالم الأرواح في الإسراء وفي مسألة الروح وتجلى موسى في السماء السادسة وقابل نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم، وراجع صلى الله عليه وسلم ربه بإشاراته في الصلوات الخمس وما زاد عليها، فهذه المحاورة بينهما والمجاورة في العمل أشارت إلى ما بين الأمتين من علاقات العلم، لهذا جاء في سورة « الإسراء » تقلب أمة اليهود في النعيم والشقاء المتتابعين عليها في الملك. ثم تبع ذلك قصص الخضر في سورة « الكهف » وكيف كان أمره مع موسى وتلاه الإشارة إلى مناجاة موسى في سورة « مريم »، وإتمام ذلك كله هنا في سورة « طه ». فالإسراء والمحادثة فيها يناسبها أن تكون دروس الأمة الإسلامية مشتقة من قصص موسى. فتارة يذكر نظام دولهم، وتارة يبين طريق تعليمهم، وأن علم الله فوق علم العالم، وتارة يصف الدعوة وكيف كان موسى يدعو فرعون. فهذه السورة متصلة بما قبلها، أي أن هذه القصة هنا إتمام لما جاء في سورة « مريم » من النبذة الخاصة بموسى وتكميلاً للتعليم. فإذا ظهر في سورة « الإسراء » نظام الدول وفي « الكهف » إشراق العلم؛ ففي « مريم » وفي « طه » تبين الجمال الأصلي وازدهر العلم فيها ازدهاراً. ألا ترى كيف جعل العصا رمزاً لنظام الطبيعة وباعثاً قوياً على فهم تقلباتها كما قررناه، كأنه يقول أيها الناس من هنا فليكن البحث، فإذا رأيتم العصا وانقلابها حية فاعلموا أنكم في مادة كلها صور منقلبة منتظمة فادرسوها.

تمثيل القصص القرآني بالنظام الطبيعي

واعلم أن قول الله وعمله متناسبان. ألا ترى أنه يقول: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ ﴾ [الملك: ٣] فقوله وفعله متناسبان تناسباً حقيقياً. أفلا تنظر معي إلى الذكور والإناث من نوع الإنسان. أفلا ترى أن الله قد سلط على كل من الذكر والأنثى الشبق والشهوة بحيث لا يخطر ببال الشاب ولا الشابة وقت الخطبة إلا الاقتراب لقضاء الشهوات، فأما ذكر الولد ونظام الأسرة وما أشبه ذلك فإنّما هو أمر ثانوي. فترى الشاب والشابة كل منهما يرى أن كل آماله أن يحظى بهذه الشهوة التي استوى فيها هو وسائر الحيوان والنبات حتى إذا ما اقترنا واقتربا واختلطا وحملت وولدت فماذا ترى؟ ترى أن بعض الحب والغرام والعطف انتقل إلى هذا المولود، ترى هذا الشاب الذي كان مملوءاً شبقاً وغراماً وعشقاً وشوقاً لزوجه قد اقتطع من هذا كله جزء وجعل بصفة أخرى وهي صفة الرحمة، فانقلب بعض الشهوة رحمة، ثم لا تزال الشهوة تتضاءل والرحمة تتكامل ويعقب ذلك كله حب للزوجة ينمو على وجه أعلى وهو حب المنفعة ونظام الأسرة فينتقل الحب من الشهوة إلى حب المنفعة ونظام الأسرة وحب الأخلاق والشمائل، لا مجرد الشهوات، حتى إذا كبرا انقلبت جميع تلك

الطباع فأصبحت رحمة وتربية وعطفاً وإخلاصاً قلبياً لا شهوة معه، وبالاختصار انقلبت الشهوة رحمة وكانت النتيجة الولد. فأوله شهوة وآخره تسل فالشهوات إذن مبدأ العمران ونظام المدن، هذا ما جرى في الطبيعة.

انظر في هذه القصص. يذكر في القرآن عصا موسى ونار العليق المتقدة، ثم ننظر فنرى أن العامة يفرحون بها وتنشرح صدورهم، بل الله سبحانه ألهم العلماء في كل أمة فألفوا قصصاً ساراً جامعاً لنوع اللذة الحاصلة من الغرابة والفكاهة مع الإشارة إلى بعض الفضائل. فمثل ما في القرآن أشبه بالجمال الطبيعي، ومثل ما في «كليلة ودمنة» من حكاية الثور والأسد والذئب وابن آوى والنمر والثعلب والحمامة المطوقة وما أشبه ذلك كمثل الحلي المصنوع بأيدي البشر. وكما أن الجمال الحقيقي في الغواني والتكافي المصنوع بأيدي البشر من الحلي قد أنتجا البنين والبنات بالاقتران؛ هكذا الجمال الحقيقي في قصص القرآن من العصا والحية وحكاية موسى وهارون والجمال الصناعي الذي صاغته أيدي البشر في الروايات التي تخيلوها قد أنتجت أدباً جماً وعلماً وحكمة. ناهيك ما ترى في هذه السورة.

لم يكتف الله سبحانه بما ذكره في أول السورة من السماوات والأرض بل رجع إلى ذلك ثانياً، فذكر أنه ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾[طه: ٥٠] الخ، ثم أبان أنه أنزل من السماء ماء وذكر النبات وأنواعه والبهائم ونوع الإنسان إذ يولد ويموت ويبعث. هذه هي دائرة الوجود وسلسلة المواليد الثلاثة بعد ذكر السماوات والأرض. فهاهو ذا أعادها هنا كما ذكرها في «النحل» و«الحجرات».

هذه العجائب قد أشار لها بعصا موسى وتقلبها، ثم أوضحها في خطاب فرعون، وصرح بالمطلوب من ذلك فقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾[طه: ٥٤]، كأنه يقول: إن عجائب هذه الدنيا هي الآيات التي يفهمها أصحاب العقول التي تنهى عن الشر والجهل. فكلما نرى الشاب والشابة قد تدرجا في حياتهما من الشهوات الجاذبات للاقتران إلى تربية الذرية وإصلاح الحياة؛ هكذا تدرج الجهال والأطفال عند سماع القصص الشريف والمعنى اللطيف والأدب الجم في القرآن والأدب الصناعي في غيره إلى الحكمة والعلم وفهم الحقائق الكونية. وكما نرى أن الشاب والشابة يصيران في آخر أمرهما مشتركين في التربية وقد صارا شيخين كبيرين لا همّ لهما إلا نظام الأبناء وتربيتهم وزواجهم وزواجهن؛ هكذا حكماء هذه الأمة وعقلاؤها ينظرون في أمثال قصص موسى وهارون شيئاً فشيئاً مستلذين به فرحين، ويتدرجون منه إلى العلوم الطبيعية المحيطة بنا، مستأنسين أولاً بالنار والعليق وبالعصا والحية وتقلبهما، ثم بعد ذلك يتعلقون بنفس الحقائق مباشرة، كما ترى في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠] وفي قوله: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾[طه: ٥٣] إلى آخر هذه السلسلة النباتية والحيوانية والإنسانية إلى نهاية البعث.

فيا عجباً لأمة الإسلام. يكون هذا الدين على هذا المنوال يتدرج بهم من العلم الأدبي في القصص إلى العلم الطبيعي، ويتخذ لذلك الأساليب والطرق العجيبة تارة بذكر الأعاجيب والمعجزات وتلون الطبيعة وتشكلها على أيدي الأنبياء، وتارة بالإضاءة والإشراق الناري في الأشجار الخضراء مع خطاب الله لهم، وتارة يصرح بأن الله هو الذي نوع الأنواع وشكل الأشكال وألهم كل نوع ما أصلح

حياته وأسعده، ثم هم مع ذلك نائمون في أخريات الأمم وقد سبقتهم أوروبا وهم لا يعلمون، وشيوخهم لا يريدون إيقاظهم بل كثيراً منهم نائمون عن هذه العلوم، بل بعضهم لجهله يكفر من بها يؤمنون، وما الكفر إلا بترك العلوم القرآنية ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النور: ٤٦].

اللطيفة الثانية والثالثة والرابعة

في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾

وفي قوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾

تبين لك في اللطيفة السابقة كيف تلطف القرآن بالخروج من قصص الأنبياء إلى العلوم الطبيعية.

أفلا تنظر إلى محاورة فرعون لما سمع موسى يقول: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠] ماذا عمل وقصد أن يرجع إلى سنة المعاندين وطريق المنكرين ويعمد إلى التعجيز والتهويل والتهويش والخروج عن الحقائق إلى الخيالات كما هي سنة المعارضة والمجادلة، وفعل ما فعله القوم إذ طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يوسع عليهم أرض مكة بأن يزيل جبالها ونحو ذلك، أو بأن يقص عليهم قصص فتية الكهف، أو علم الروح، أو تاريخ ذي القرنين مما ذكر فيما تقدم، إذ طلبوه تعساً لا طلباً للحقائق، وقد أجيبوا للبعض بما فيه فائدة ولم يجابوا لما ليس فيه فائدة، وقد حذر الله من هذا فيما تقدم، وأفهم الناس أن الأنبياء جاؤوا للإرشاد، وإنّما هم بشر فلا يقولون من العلم إلاّ ما علمهم الله وما عدا ذلك لا فائدة منه، فالأنبياء لا يعطون من العلم إلاّ ما نفع في رسالاتهم وما عداه ضياع لأوقاتهم ولأوقات أممهم. هذا كله يؤخذ مما تقدم في السور السابقة.

هكذا هنا يقول فرعون حين سمع الحجة العقلية المبنية على النظر في الطبيعة قال لموسى: هل تقص لي قصص الأولين من المصريين مثلاً والآشوريين والبابليين. ولعله ذكر أمة من تلك الأمم أو حادثة يرجع تاريخها إلى قدماء المصريين مثلاً. فقال موسى: وما لنا ولهذا؟ هذا علمه عند ربي فارجع إلى ما نحن بصدده، أنا رسول من عند ربك هو أرسلني. أرسلك بماذا؟ أرسلني بالحجج وقد أريتك العصا واليد، وهاأنا ذا نقلتك إلى ما هو صنعته تعالى وفعله، وقلت لك: انظر صور هذه المخلوقات وإلهاماتها وغرائزها واقرأ علوم الطبيعة، فأنت يا فرعون تحاورني لتخرجني عما رسم لي من العلم. تدرّجت إليك من خوارق الطبيعة إلى نفس علم الطبيعة، وأنت تخرجني إلى علوم التاريخ والأدب لا لا، إن علمها عند ربي في كتاب، ارجع إلى ما كنا فيه واقرأ العلم في طرق الأرض ومسالكها وإنزال الماء من السماء وخروج النبات واختلافه والأنعام ورعيها له، وأن الناس خلقوا على الأرض وانتفعوا بهذا كله ثم يموتون ويحشرون ويحاسبون. هنالك آن أن يقول الله: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا ﴾[طه: ٥٦] أي: الآيات التي هي خوارق للعادات تنفع العامة والآيات الطبيعية التي هي للخاصة. فالآيات بقسميها خارقة وغير خارقة وقد أريناها لفرعون وهذا تقرير قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا ﴾[طه: ٥٦] فالتعبير بالكل لأجل ما قررناه.

موازنة إيمان السحرة بكفر بني إسرائيل إذ عبدوا العجل وكل منهما قد شاهد العصا واليد

لما استبان أن هذه الآيات المنقسمة إلى قسمين قد اتضحت لفرعون قصّ الله علينا أمرين اثنين: أمر السحرة وإيمانهم كما رأيت وسيأتي لك قصص بني إسرائيل وكفرهم لما آمنوا بعجل السامري إذ صنع لهم عجلاً جسداً لا روح فيه، فلما سمعوا خواره آمنوا به، فهاهنا كفر من الجهلاء وهم بنوا إسرائيل وإيمان من العلماء وهم السحرة.

إن السحرة شاهدوا العصا وشاهدوا اليد وشاهدوا أن العصا قد ابتلعت حبالهم وعصيهم وبنو إسرائيل شاهدوا ذلك، ولكن فرق بين الأمرين، فالجهلاء لا يفقهون هذا ولكن هؤلاء السحرة العلماء أدركوا أن الطبيعة التي قرؤوها والعلوم التي زاولوها لا تقوى على أن عصا تبتلع هذا كله، فأما بنوا إسرائيل فهم جاهلون لا يفرقون بين هذا وذلك، وإنّما هم يتبعون كل ما أمامهم، فما هم إلا كأطفال تعطيهم الحلواء فيأكلونها وتأتي لهم بحلواء أخرى فيأكلونها، فهم تبع حواسهم لا دراسة عندهم.

جاء لهم موسى بالعصا فآمنوا، ثم جاء السامري بالعجل فقالوا إن العجل الذي نطق وصار ثوراً عظيماً أحق بالعبادة من رب موسى، وأي شأن للعصا في جانب هذا العجل الذهبي. هذا برهان من الله أن الإيمان المبني على مثل قلب العصا حية لا ثبات له، وأنه إن لم يتبع البراهين العقلية فإنه ذاهب أدراج الرياح وعرضة للتقلب والضياع، وأن المدار إنّما هو على العلوم ونظام الطبيعة ودراسة ما خطه الله على قرطاس الكون من بهجة العلوم ورونق المعارف، وما عدا ذلك فهو مقدمات. اهـ.

القرآن الكريم والفيلسوف اسبنسر

لعلك تقول: ما لنا وللفيلسوف «اسبنسر» وأي فائدة من ذكره وما لنا وله؟. أقول لك: أذكره لأقرر لك حقيقة عجيبة.

أنا هنا بينت لك أن القرآن في هذه السورة أفادنا أن علوم الطبيعة أفضل وأرقى من علوم الأوائل، وبعبارة أخرى: أفضل من علم التاريخ، فإن موسى لما سمع فرعون يعرّج على علوم الأوائل، قال: ارجع إلى الأرض وعجائبها، أي: فكر بعقلك وانظر حولنا في أرضنا وسماواتنا.

هذا هو الذي قدمنا فهل لك أن تسمع ما قرره العلامة «اسبنسر» حتى تعلم أن آخر ما وصل إليه العلماء اليوم في أوروبا وقرروه هو الذي جاء في سورة «طه» بعينه، والمسلمون لا يريدون أن ينظروا فيه، فلنذكر ما قاله الفرنجة حتى تعلم أن الأمة الإسلامية ستنال حظها من العلم بعد أن تنشر هذه الآراء بينها، وتعلم أن الرقي الذي في أوروبا الآن هو الذي قرره القرآن، وآباؤنا المتأخرون عنه نائمون، وسترى في سورة «الشعراء» عند قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[الشعراء: ٢٠٧] كيف كان خراب الأندلس آتياً من غفلة المسلمين عن الحكمة والعلم وانهماكهم في الشعر مع استيقاظ أعدائهم الإسبان للحكمة، وأن هذا من مصدقات آية: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[الشعراء: ٢٠٧].

قال العلامة «اسبنسر» في كتاب «التربية» ما يأتي:

(١) إن الله قد وضع في الطبيعة نظاماً يجمع بين تقدمنا في الحياة وتدريبنا معاً بعكس ما يعمله الناس في المدارس، فالمعلمون في المدارس يعطون التلميذ نماذج وضعوها بأنفسهم لمجرد كونها تمريناً في

الحساب أو الهندسة أو غيرهما، لتكون طريقاً إلى أعماله في الحياة. أما الطبيعة فإن الله لكونه كاملاً كملها، فبينما ترى الهندي الأحمر المتوحش يطارد القنيصة ليستفيد منها الغذاء؛ يكون هو نفسه أثناء العدو قد تمرن على سرعة الحركات والخفة والقوة الجسمية، وذلك أفضل من التمرينات العضلية الصناعية التي يستعملها ضباط المدارس للتلاميذ. فهاهنا أمران جاءا معاً: الغذاء وتمرين العضلات وذلك من الاقتصاد الموضوع في نظام الطبيعة.

(٢) العلوم الطبيعية واللغات: وقد وازن بين العلوم الطبيعية واللغات، فقال ما ملخصه: إن اللغات تكسب الإنسان قوة الذاكرة، والحق أن العلوم الطبيعية أجدر بهذه المنقبة وأحق بهذه الفضيلة. كيف لا وهناك في الطبقات الصخرية الأرضية من الأنواع والعجائب ما يفوت الحصر. وترى الناس يشتغلون بالأمور التافهة كالمناقشة في قصيدة يونانية أو بدسيسة سابقة في مملكة كدسائس «ماري» ملكة الاسكوت، ثم هم يعرضون عن هذه القصيدة الجليلة التي نظمها الله.

أقول: يا سبحان الله، ليسمع المسلمون لينظروا كيف يفطن رجل إفرنجي ويقول هذا القول، كيف يفطن ويقول هذا القول الذي شرحه القرآن ألف مرة وهو في هذه السورة أكثر شرحاً. كيف يفطن أن نظم الله لقصائده الطبيعية أحسن من نظم الشعر وأولى وأهم من توافه التاريخ والدسائس الملكية، وكيف يحقر الشعر والنظم وحوادث التاريخ ويبين أن جمال الطبيعة فوق كل جمال وما هي إلا من جماله. وكيف يقول ذلك والمسلمون نائمون، وكيف يقول ذلك والمسلمون يضيعون أوقاتهم في الخلاف بين سيبويه والكسائي ويصرفون أعمارهم في علوم لفظية، وأفضل من عرفناه من الممتازين يعيشون ويموتون وهم بالشعر مغرمون ولا يفتؤون يحلون قصائد امرئ القيس وطرفة بن العبد ويرون ذلك أكبر مفخرة وأعظم معجزة، ويتضلعون من التاريخ وسرد الحوادث ويملؤون رؤوسهم بأحاديث وسير أبي تمام والمتنبي والبحتري وأبي العلاء المعرّي، ويرون ذلك غاية المنى وهم عن العلوم معرضون أنا لا أقول نترك ذلك. كلا، بل إنما يكون هذا العلم مقصوداً لغيره أي أن الطالب يحذق في علوم الأدب والتاريخ ثم يتضلع من الطبيعة. هذا الذي قلته أنا راجع إلى رجال المدارس في عصرنا من مدرسي اللغة العربية.

أما علماء الدين في بلاد الإسلام فإنهم غرقوا في بحر لجي من الجدل والخلاف في فروع الفقه وأصوله، وأفضلهم من حذق في أصول الفقه من مباحث الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ومتى برع في هذا وقف عنده وأفهمه الأساتذة أنه قد انتهى إلى الغاية، وهؤلاء وهؤلاء معرضون جميعاً عما طلبه القرآن من عرفان نظام هذه الدنيا وبهجتها، وما سنه الله في خليقته، وما أبدعه في الطبيعة، وما أبرز من الجمال المكنون والعلم البديع الذي برع فيه الفرنجة وفاقونا وأخذوا بلادنا وقهرونا على ملك آبائنا وأجدادنا، فسألتك بالله يا من تقرأ هذا أن تكون عوناً لهذه الأمة المسكينة البائسة الإسلامية، وأن تمدها بعلمك، وأن تأخذ بيدها، فإنا ذاهبون إلى الله قبلكم وتركنا هذا القول وديعة عندكم، فأسألك بالله أن لا تضيع الأمانة، وأسألك بالله أن ترشد الأمة أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأن تهديهم وأن تقوم خطيباً في كل مجمع وناد ومجلس، وأن تدرس لهم ما قصه الله وتشرحه وتبين لهم ما شرحناه، وتفكر في الطرق التي تجذب هذه الأمة إلى معرفة ما ذرأه الله في الأرض والسماوات، وأن

تحمل الأغنياء على بذل المال في تعليم هذه العلوم الطبيعية وإذاعتها بين المسلمين، فليس يعلم أكثر المسلمين الآن أن أمثال «اسبنسر» الإنجليزي يحرض على ازدياد العلوم التي رسمها القرآن، وليس يعلم المسلمون أن ديننا يطلب العلوم التي يجهر بها هذا الفيلسوف وآلاف مثله، وأن الطبيعة فوق شعر الشعراء وجمالها فوق كل جمال.

إن جمالها من الله وجمال الشعر والتاريخ من صنع البشر، وأي نسبة بين الجمالين، ثم قال «اسبنسر»: وما أكثر صور الطبيعة وما أقرب تمرينها للذاكرة، فإذا كانت اللغات كثيرة المناحي واسعة الكلمات والمقاصد فالطبيعة أوسع وأغزر. ناهيك ما ترى من عدد النجوم في المجرّة التي في السماء وهي البياض الذي يراه الناس في الليالي الصافية يظنونه سحاباً وما هو بسحاب، وإنما هو نجوم تباعدت عن الأنظار حتى اختلطت على الأبصار تعدّ بآلاف آلاف الآلاف، وهكذا الموادّ التي تركبت منها تلك النجوم.

وقد أظهر تلك المواد علماء الكيمياء بنظرهم في طيف تلك الكواكب بشرح يطول، وهكذا إذا نظر الناس لعلوم الضوء والحرارة والكهربائية والتشريح البشري والبيطري.

وقد أحصى علماء النبات ما ميزوه من أجناس النبات فكان ٣٢٠ ألف جنس، وعلماء الحيوان وجدوا أن عدد أجناسه مليونان أي ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنس من الحيوان، فلا ترى عالماً واحداً قد أتقنها كلها وإنما يتقن فرعاً واحداً.

(٣) يقول «اسبنسر»: إن التضلع من العلوم الطبيعية كما أنه أفضل للذاكرة من حيث كثرة علومه؛ هكذا هو أفضل لها للصلة القائمة بين أجزاء الطبيعة بحيث لا يوجد مثلها في الكلمات.

إن العلاقة بين الكلمات وبين المعاني علاقة غير طبيعية. إنها علاقة عرضية وأين العرض من الجوهر. ألا ترى أنك إذا تتبعت اشتقاق الكلمة ودققت تدقيقاً فإنك ـ وإن سرت سيراً طبيعياً في الاهتداء إلى أصولها كإرجاع ضارب إلى ضرب وكذا مضروب وضراب ـ لا يمكنك الوصول في آخر الأمر إلى السبب في اختصاص الضاد والراء والباء بالعمل المخصوص، ولا القاف والميم والراء لهذا الجرم المنير بالليل.

ولماذا أوجب أن يكون قمر لهذا الجرم. ولماذا لم يكن «ح ب ر»، كل ذلك مجهول عند الناس أي أن العلاقة ليست طبيعية بين الألفاظ وبين المعاني وإن كان الاشتقاق فيه العلاقة طبيعية. أما في الطبيعة فإن العلاقة معقولة مقبولة يترسمها الطالب ويتتبعها.

(٤) وأيضاً أن العلم الطبيعي يقوي ملكة الحكم. قال وقد أحسن الأستاذ «فارادای» في خطبة له عن التربية العقلية إذ يقول: إن أشيع العيوب العقلية هو ضعف ملكة الحكم. وقال ذاك الأستاذ أيضاً: لم يقتصر المجتمع الإنساني على جهله من حيث تربية ملكة الحكم حتى أضاف إلى ذلك الجهل بأنه جاهل بذلك. قال «اسبنسر»: والأستاذ المذكور ينسب هذا النقص إلى فقد التربية العلمية. قال وقد أصاب فإننا مهما كان مبلغنا من اللغات ومعرفتها لا نصل إلى صحة الاستنتاج. وإنما يكون لنا ذلك بصحة الاستنتاج فيما يتعلق بالأسباب والنتائج، ولا تستفاد ملكة الحكم الصحيح إلا من التعود على استنتاج النتائج من المقدمات ثم تحقيق هذه النتائج بالملاحظة والتجربة.

(٥) ويقول أيضاً: إنه يهذب أخلاقنا، فإننا بدل أن نخضع لآراء من سبقونا وحفظناها عن ظهر قلب ونقبلها قضية مسلمة نرى العلم الطبيعي يعوّدنا أن نعرف بأنفسنا ونرى الضارّ والنافع بأنفسنا فيكون ذلك أمتن في اتباعنا واقتناعنا بصحته، ولا ريب أن العلم الطبيعي يعلم الاستقلال لأنه مبني على ملاحظات يقينية، والاستقلال في الرأي أهم وأنفس عناصر الأخلاق.

(٦) وهو يعلمنا خلق المثابرة، فإن الجدّ في الأعمال الطبيعية العلمية يكسب قوة المثابرة على العمل وهذا أضمن طريق للنجاح.

(٧) ثم إن دراسة هذا العلم تعلمنا كيف نطلب الأشياء بإخلاص، فإن جمال الطبيعة يبهج الطالب بها، وهذا الجمال واللذة يجعلانه مخلصاً في الطلب فدراستها تعلمنا الإخلاص.

(٨) ومن أفضل الخصال التي ينالها المغرم بالعلوم الطبيعية نبذ الآراء المدخولة الفانية التي لا تعتصم بالحق وإن قبلها الجمهور، فدارس علم الطبيعة ينبذ ما ليس معقولاً وإن صدق به الجمهور ولا يبالي بما يقال مما ليس له قبول.

فهذه ثمانية خصال ينالها دارس علم الطبيعة نقلتها لك عن «اسبنسر» ولكن مثلث أمثلة تنطبق على عوائدنا وعلومنا، ولكن المعاني كلها من كلامه، نقلتها لك لتطلع على أمم الغرب وتوازن بينها وبين أمة الإسلام التي غفلت عن آيات هذه السورة وكيف كانت هذه الأمور الثمانية قد تضمنها قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥١-٥٣] الخ.

ألست ترى أن هذه الآية هي عين ما قاله «اسبنسر» الفيلسوف، وأن فرعون يقول لموسى: أسمعني علم التاريخ، فيقول موسى: كفى كفى هلم بنا نقرأ تاريخ الطبيعة، هلم بنا نقرأ ما كتبه الله في الطبيعة وما خطه في قراطيس السماء وألواح الأرض، وهي العلوم الحقة التي تعطي قوة الاستبصار والاستنتاج والذاكرة والجمال والإخلاص والحب وهكذا.

هذا هو كلام الله وهذا هو مقصود القرآن ولهذا أنزله الله، فإن لم يعرفه من قبلنا من الأجيال المتأخرة بعد عصر الصحابة فسيعرفه الأجيال الغابرون والأمم المتأخرون، وكم ترك الأول للآخر.

وكم لله على خلقه من فضل وجود، والحمد لله رب العالمين.

بهجة العلوم الطبيعية

فإذا كان هذا شأن العلوم الطبيعية ونحن الآن في دراسة القرآن، فهل لك أن أسمعك ما نظمته سابقاً لتلاميذ المدرسة الخديوية وإن كانت مدارسنا لتسلط الأجانب عليها غير مغرمة بتلك العلوم. فهناك أسمعكها لتكون ذكرى لكل ذي عقل مستبصر وقلب مفكر، و﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] وستنشر هذه العلوم ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ﴾ [ص: ٨٨].

هذا النظم من كتاب جمعه التلاميذ من نظم ونثر ألقيته عليهم بالمدرسة الخديوية اسمه «جوهرة الشعر والتعريب»، وهاهو ذا النظم. في ليلة الثلاثاء ٥ شوال سنة ١٣٣٥ الساعة الرابعة بعد نصف الليل كتبت ما يأتي:

نظمت هذا في جمال الطبيعة

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾[ق: ٦-٨].

قرأت كتاب الله في كل سورة ... وآنست نور الفهم في كل صورة
خذوا عني العلم الذي قد درسته ... وهذبته حتى أضاء ببهجة
فيا قومنا هذي العجائب صوّرت ... وأبدعها الرحمن في كل ذرة
وأتقنها حتى تجلت بديعة ... مزينة في رقشها خير زينة
فأنشأ أفلاكاً وأبدى غرائباً ... وشيدها حتى استقامت بحكمة
ورصع فيها المشرقات ثواقبا ... نجوماً تراها في ليالي الدجنة
تحلى بها جيد الزمان فيا لها ... عقود جمان زانها حسن صنعة

فصل: في عدد النجوم[1]

وقد عدها الأقوام رأي عيونهم ... بستة آلاف لتقريب حسبة
ولكنهم لما رأوها بمنظر ... وتصوير آلات برسم الأشعة
بدت لهم آلاف ألف تعدّها ... مئات بلا حصر لصادق فطرة
ألم تر أبواب السماء التي ترى ... بأعيننا موسومة بالمجرة
عدت كل طور في الحساب لأنها ... إلى اليوم لم يكشف لها ستر حرة
فلما تناءت صوّرت لعيوننا ... كذوب جمان أو كسائل فضة
بدائع آيات مجالي مناظر ... لطائف عرفان تجلى لفطنة

أشكال النجوم مجتمعة

فمنها نجوم رصعت في نظامها ... كسنبلة صفت بحبات حنطة
وآونة تلقى دوائر نظمت ... لتعقلها نفس الحكيم بنظرة
ومنها التي قد صوّرت في جمالها ... مثلثة الأشكال في حسن بهجة
فهذا جمال ليس يعقله الذي ... ينام عن التبيان في كل ليلة

---

(١) إن النجوم المنظورة بالعين ستة آلاف، فيكون فوق الأفق دائماً ثلاثة آلاف وتحته ثلاثة آلاف، والنجوم التي ترى بالمنظار المعظم وبالمصور الشمسي أكثر من مائة ألف ألف، وهناك ما يشبه السحاب في الليالي الصافية في وسط السماء وهي المجرة، وأكثر نجومها لم يمكن رصده لبعده جداً وهو شموس لا نهاية لعددها قد تباعدت حتى صغرت في العين وتضامت كأنها لبن في النظر، وهذه المجرة تسمى في الشرع (أبواب السماء) وعند الإنجليز (الطريق اللبني) وعند الفلاحين المصريين (طريق التبانة).

حياتكم لا تتركوها سبهللاً أسركمو حي كميت بحفرة
وما لي إذا ما قلت ثوبوا لرشدكم نأيتم وقلتم نحتسي كأس خمرة
وبعضهم في الجهل مثل نعامة تصاد فأخفت رأسها تحت صخرة
ففاجأها الصياد مقتنصاً لها كذلكم الجهال ماتوا بحسرة
حياتي حياة العلم فاعجب لحسنها سكرت بلا خمر فيا حسن سكرتي

عجائب الأرض

وفي الأرض آيات وفيها عجائب من الماس والياقوت في نحر دمية
وفيها نحاس للمتاع وعسجد لتقويم ما نبتاعسه ولزينة
وفيها حديد لم يذر من صناعة على الأرض إلا قام فيها بآلة
به قطر تجري على الأرض دائباً وآلة محراث وصنعة إبرة
وفيها نبات قائم فوق ساقه يتيه دلالاً في جمال ونضرة
وآخر لا ساق له كحشائش فهذا لإنسان وذا لبهيمة
تحار عقول العالمين لما ترى عجائب ألوان وإحكام صنعة

فصل: في الجبال والسحاب[1]

ألا يا رجال العلم دونكم اسمعوا مقالي ولا تنأوا بجنب لغفلة
ألا فانظروا هذي الجبال شوامخاً عظائم كانت مذ قرون قديمة
ملونة حمراً وبيضاً لوامعاً وصفراً وسودا كالسحاب الرفيعة
مخازن ماء للبرايا تسوقه لها السحب أمطار على كل بقعة
فمن ذلك النيل السعيد وصنوه فرات جرى حتى تلاقى بدجلة
وكنغو وزنبيرا وليس بعدها سوى علم تخطيط ورسم خريطة

فصل: في عجائب الماء في الجبال[2]

ومن عجب ما سوف أذكره لكم ألا فانظروا هذا النظام بفطنة
تحصل ماء في الجبال فما الذي يزجيه لما أن جرى للخليقة
فهذا سؤال ليس يدري جوابه سوى عالم حبر بعلم الطبيعة

---

(١) السحاب وألوانها وألوان الجبال وأنها مخازن للماء يجري من أعلاها أيام المطر ومن ذائب الثلج، إذ يتنزل بحرارة الشمس بالتدريج، ومن العيون التي تجري من باطنها وتمدّ الأنهار.

(٢) الماء في الجبال يبرد حتى يصير ثلجاً. ومن خواصه أنه يكبر حجمه فيشق الصخر فتتفجر العيون، وهذه الخاصية ليست لسائل سوى الماء إذا جمد.

فيعلم أن الماء من طبعه الذي ... به اختص ما بين الطباع العجيبة
إذا صار ثلجاً زاد حجماً مكبراً ... عن الماء في تلك الجبال الصلبية
فيضغطها ضغطاً فينفذ صاعداً ... وتجري ينابيع بسلسال فضة
عجيب نظام لم يكن عن جهالة ... ولا رمية من غير رام بغفلة

نظام السحاب[1]

فهاكم نظام السحب فاستمعوا له ... خذوه بعقل وافهموه بفطنة
خذوا مثلاً بالقدر والماء غالياً ... عليها بإيقاد اللظى فوق فحمة
وقد صعد التبخير والماء مسخن ... فيرجع ماء ثانياً عند قبة
فإن يكن صنبور لذلك حاصلاً ... ترى الماء يجري قطرة بعد قطرة
ترى الشمس في التمثيل ناراً وإنّما الـ ... ـجبال وأرض كالقدور الرسية
فأما غطاء القدر فهو ممثل ... لما فوق هذا الجو وصف برودة
ومثل ماء القدر بحراً مبخراً ... بشمس الضحى في لمحة بعد لمحة
وذلك كالحمام أيضاً ومثله ... ترى مثل الأنبيق أيسر لفتة
فهذي علوم السحب والقطر والندى ... عروس تبدّت في ثياب رقيقة
تزف إليكم والمجال يشوقكم ... إليها وما مهر سوى صدق نظرة

علم المعادن والفلزات

ألا فخذوا علم الفلزات إنهم ... قد استخرجوها في الجبال العصية
ففي جبل تلقى الرصاص بجوفه ... وآخر تلقاه مشوباً بفضة
وفيها نحاس والرصاص وعسجد ... كذاك بلاتين الجبال البعيدة
فذلكم للناس أشرف نعمة ... بها أصبحوا والله في حال غبطة
فإن ركبوا كانت لهم خير مركب ... وإن يتباهوا فهي أفخر زينة
وإن خاطبوا بعضاً فتلك مسرة ... وبرق جرى وسط السلوك الدقيقة
وإن يحرثوا أو يطحنوا فهي عونهم ... وإن شيدوا قصراً أغاثت بسرعة
وإن هم شروا يوماً تكن خير حاكم ... ليعرف منها قدر تقويم سلعة
وإن حاربوا كانت حراباً وأدرعاً ... مدافعها اغتالت نفوس البرية

---

(١) نظام السحاب وتشبيهه بالقدر تحتها النار فغلت وصار لها بخار فاجتمع عند الغطاء، وكالحمام، وكالانبيق، فالشمس كالنار، وماء البحر كماء القدر، وبخار السحب كبخار القدر والحمام والانبيق، وأن نزول المطر كتقطير الإنبيق وقطرات الحمام، ونحو ذلك.

ليهلك من عاشوا بغير روية ويحيا أولو التوفيق أهل الروية
ومن لم يشم حسن العوالم عقله فذلك والله حقيق نجيبة
من الناس من عاشوا ولا علم عندهم كأنهم فيها سراب بقيعة
الماس من فحم والعسل من نحل والحرير من دود والجوهر من صدف
ومن فحمة سوداء جاؤوا بجوهر بهيج فذاك الماس في صدر قينة
وخير لباس الناس من نسج دودة وخير طعام الناس من فم نحلة
وأعجب آيات الجمال جواهر من الصدف المخلوق في قاع لجة
فهذا على أرض وذلك في هوا وآخر في لج البحار العميقة

أعمار المعادن[1]

وفي المعدن المخلوق في الأرض حكمة تدقّ على أهل العقول السليمة
ترى الشب والزاجات والملح أنضجت كما نضج الكبريت قبل سنيهة
لقد خلقت في التراب والطين كلها ومنها الذي يبدو بأرض خبيثة
ومنها التي في الماء أنشى خلقها كدرّ ومرجان بديع بحلية
على سنة زادا أو اكتملا بها بتدبير رب العالمين وحكمة
ومنها الذي يبقى سنين طويلة ببطن جبال أو رمال دقيقة
كمثل حديد والرصاص وفضة كذلكم باقي معادن سبعة
وأطول من هذا العقيق ومثله الزبرجد والياقوت في طول مدة

عجائب النبات[2]

ومن عجب أمر النبات كمعدن من الدمن الخضر الضعاف الضئيلة
يجيء بها طلّ الندى فإذا بدت لها الشمس زالت عند آخر ضحوة
فمنها نبات معدني مخلق بفصل ربيع مثل إنبات كمأة

---

(١) تختلف المعادن أعماراً في بطن الأرض، فالملح والشب والكبريت المتكونات في الطين والأرض السبخة تتم قبل سنة والدرّ والمرجان يتكونان في سنة أو فوقها، والحديد والنحاس والذهب وأمثالها في مئات السنين، والياقوت والعقيق والزبرجد في دهور طويلة، والعلم الحديث اعتبر المعادن كالذهب والحديد عناصر بسيطة وجعل المرجان حيواناً.

(٢) أقرب النبات إلى المعدن خضراء الدمن والكمء. فالأول ينبت بطلّ الندى ثم يزول ضحوه لحرارة الشمس، والثاني جمع كمأة، فالأول نبات معدني والثاني معدن نباتي، لأن الأول أقرب إلى النبات والثاني أقرب إلى المعدن، وأقرب النبات إلى الحيوان النخل والكشوثى، والأخير يعيش على غيره كالدود، فهو في ظاهره أقرب إلى النبات ولكن فعله فعل الحيوان، وهكذا كل نبات يتغذى بالمولدات النامية مما كشفه العلماء حديثاً مثل الشجر الذي يمتص الحشرات التي تحوم حوله، ومثل شجرة في «مداغشقر» ذكرت المجلات الأوروبية أنها متى شرب منها إنسان ماءها الحاصل فوقها سكر ثم ضمت عليه أوراقها وشوكها فامتصته وصار غذاء لها، والنخل تميز ذكره من أنثاه وإن قطع رأسه مات فأشبه الحيوان بعض الشبه.

تـرى الكمء مثل النبت وهي معـادن ... على الضدّ مما قبلها عند نسبة
وأعلى مقامات النبات الـذي لـه ... صفـات يضـاهي مبـدأ الحيويـة
كنبت الكشوثى إنـه غـير ثـابت ... على الأرض بل يحيا على ذات شوكة
وفـوق غصـون أو زروع وإنـه ... ليشبه نفس الدود في بدء فطرة
كذاك حياة النخـل تبـدي عجائباً ... فذكرانها عـن كـل أنثى استقلت
وإن يشأ الرحمـن أهـد إليكـم ... عجـائب في أجسـامنا والغريـزة
فأعجب هـذا الخلق أمـر ابن آدم ... جسوماً وعقلاً باحثاً عـن حقيقة

ثلاث جواهر

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾

إني لما كتبت هذا العنوان حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يحاورني في مسائل من هذا التفسير، فقال: ماذا تريد بعد ما كتبت في هذا الموضوع؟ فقلت: لقد رأيت اليوم عجباً هو أنسب لهذه الآية، لقد أصبح العلم اليوم يكشف لنا الغطاء عن آيات القرآن.

إن في القرآن قصصاً ومن هذا القصص ما قصة الله عن موسى في سورة «طه» هنا، ولقد جعل الله القصص في الديانات والأشجار والزروع في الأرض. إن الكلام مشابه للغذاء، فكما أن من الغذاء ما لا يناله الناس والحيوان إلا مندمجاً في أوراق النبات وحشائشه حتى يدخل الجسم بلطف فلا يهيج أجزاءه التي يدخل إليها ولا يمزقها بقوّته واندفاعه إليها؛ فيكون الإنسان والحيوان مشتركين في حياتهما ويقلّ مرضهما ويطول عمرهما على مقدار حالهما، بخلاف ما إذا كان الغذاء لحماً أو بيضاً أو لبناً من كل مادة غزر غذاؤها، فإنها تعطي قوة هائلة، ويعقبها ردّ فعل فيكون مرض فموت بغتة كبعض الناس بعد حين، وعلى حسب ضعف الاستعداد الذي لا يعلمه إلا مبدعه. كل هذا في الطب الحديث الذي يفضل أغذية النبات.

هكذا جعل الله في كل دين وفي علوم الأمم التي يكتبها جهابذة المؤلفين أن يلقى العلم بطريق القصص والحكايات والكلام الجميل البديع المؤثر في النفوس، فلا جرم يحدث له أثر في النفس لأنه يدخل إليها بلا استئذان. هذه قصة موسى تراها كأشجار وأزهار وأوراق. وهذه يفهمها العامة كما يفهمها الخاصة، ولكن الحكيم يعرف أين الثمرة فيلتقطها.

ومن ثمرات هذه القصة هنا قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فقوله: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ أصبح اليوم يرى بالمنظار المعظم، وأصبحت علوم الطبيعة كلها تطبيقاً عليه. فبينما القارئ يسمع قصصاً ومحاورات بين موسى وفرعون إذ يراه فجأة أصبح لعلوم الطبيعة دارساً.

فقال صاحبي: أين علوم الطبيعة هنا؟ فقلت: ألم تسمع الله سبحانه يقول: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، فإعطاء الخلق يرجع للتصوير والإحياء والإنماء على

وجه مخصوص، وذلك في النبات والحيوان والإنسان والمعادن وكل شيء، والهداية خاصة بالحيوان والإنسان، فقال: إن هذا التفسير مملوء من هذه العجائب، فما الذي زاد هنا؟ قلت: ستعلم في هذا المقام علم اليقين معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، ومعنى: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾[طه: ٥٠] أي: بلا زيادة ولا نقص. وترى الحساب البديع في خلق الأجنة في الأرحام، وتعلم أن حكاية صصة بن داهر الحكيم الهندي ـ الذي اخترع الشطرنج وجعل حب القمح الذي في العالم كله بالحساب لا يكفي ليوفى بيوت الشطرنج ـ قد ظهر اليوم نظير مغزاها في خلق الجنين في بطن أمه، فإنك سترى أنه يجري على مقتضى المتوالية الهندسية. فقال: قد تقدم هذا في سورة «الفاتحة» عند تفسير: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢]، فقلت: إن ما هناك قد جاء قولاً بلا رسم، وأما ما هنا فإنك ستراه مرسوماً موضحاً أمامك. ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]، الله وعدنا أنه يرينا آياته، وهاهو ذا يفي بعهده لنا شيئاً فشيئاً، ألم تسمع قوله: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١١١]، الله وعدنا أنه يرينا الآيات وهاهو ذا يعرضها علينا، فوجب علينا أن نسارع لأخذها.

إن الأمم حولنا درست نظام حياة الأجنة في النبات والحيوان، ووازنوا بين الأجنة في الإنسان وبين أجنة الحيوان وأجنة النبات فوجدوا اتحاداً واختلافاً. اللهم إن العلم اليوم قد فسر القرآن تفسيراً واضحاً، والقرآن قد نزل ليعرف حق المعرفة في زماننا وبعد زماننا. جلّ الله وجلّ العلم، سترى أيها العزيز أن الله لا يعطي إلا قدر الحاجة ولا معنى للعدل غير هذا، العدل وضع الأمور مواضعها، فإذا رأيت العدل في نظام الأمم والدول ـ كما تقدم في سورة «النحل عند الآية ٩٠»: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ ـ يرجع إلى تكافؤ القوى في الدولة بحيث يأتمر الجند لحراس الدولة من الحكام، ويخضع العامة من الصناع والزراع للطائفتين فوقهما، ولا عبرة بالآراء الخاصة ولا الشهوات. هكذا العدل في نظام الأجنة في بطون أمهاتها، سترى بعينك أيها الذكي في صور أجنة السمك وأجنة الإنسان وأجنة الدجاج أن صغار السمك ما دامت ضعيفة قد أعطيت كيساً فيه قوتها ومتى قويت على الكسب فرغ هذا الكيس، فهذا ستشاهده بعينك في الرسم الآتي قريباً، أفليس هذا هو نفس الآية إذ يقول: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾[طه: ٥٠].

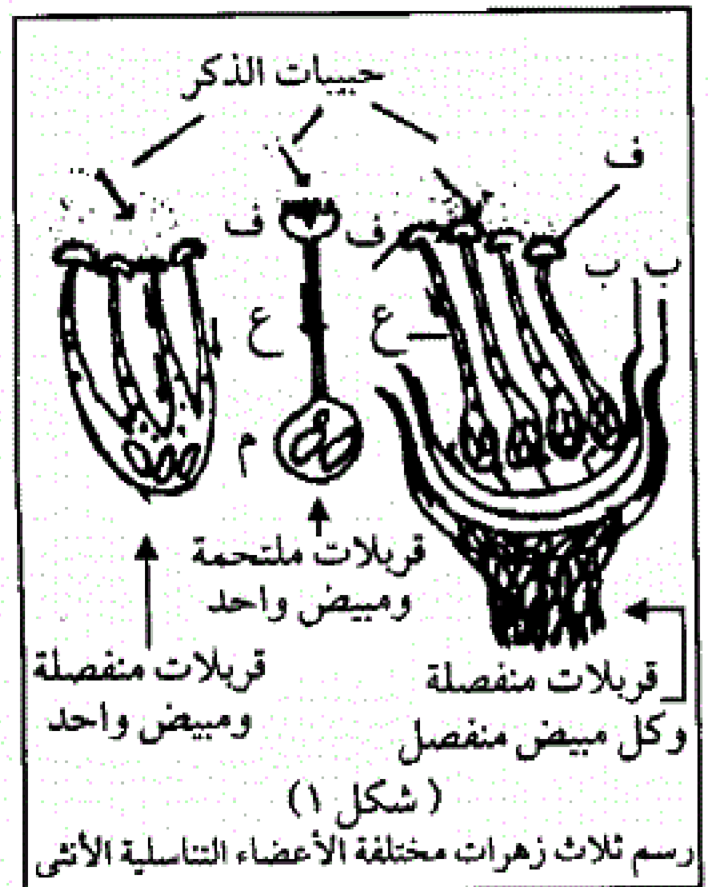
يخلق لصغار السمك كيساً تعيش منه ما دامت ضعيفة ثم يفرغ هذا الكيس وقد قويت. هذا يفسر قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]. ونراه في جنين الإنسان فعل غير ذلك، فإنه ألزم الأم بأن تمدّه في بطنها بدمها يجري في دورته الدموية وفي خارج بطنها بلبنها حتى يقدر على تعاطي الطعام.

فهنا لما جعل له أماً وأباً جعل قوته من أمه، وهناك لما لم يكن للسمك أمّ ولا أب أعطاه كيساً يعيش منه، لأن السمك يبيض بياضاً كثيراً، وهذا البيض هو الذي نسميه بطارخ السمك ونأكله لذيذاً، وما هو إلا بيض كبيض الدجاج تبيضه السمكة في مكان ملائم قرب الشاطئ فيجيء الذكر فيلقي حيوانات صغيرة جداً على بيض الأنثى فيحصل الإلقاح، إذ تدخل الذرات الصغيرة الحاصلة من الذكر في بيض الأنثى كما ستراه، ويربى هذا البيض الملقح في نفس الماء فلا أم ولا أب يعرفان

أولادهما . لهذا كله أعطي السمك الصغير ذلك الكيس المقدّر تقديراً محكماً ولم يعط ذلك طفل الإنسان .

والدجاج يشبه بعض الشبه للسمك وبعضه الآخر لذوات الأربع ، فهو وإن حصل إلقاح بيضه داخل جسمه كما يفعل الإنسان والحيوان قد جعل بيضه خارجاً والجوّ لا يلائمه ، فألهمت الدجاجة أن ترقد على بيضها لتعطيه الحرارة اللازمة لنموّ الجنين داخل البيضة حتى ينمو ويخرج من البيضة ، والفرخ حين يخرج من البيضة لا يحتاج إلى كيس كما احتاجت صغار السمك إليه ، لأن فراخ الدجاج تخرج قوية على الكسب مزودة بالريش مهيأة لملاقاة خطوب الدهر وكوارث الجو وتحمل أعباء الحياة فتأكل الحبّ ، ويساعدها أمهاتها التي رقدت على بيضها ، أو القوم الذين يرقدون على البيض ويستفرخونه كما يفعله أهل هذه الصناعة في بلادنا المصرية ، إذ يقومون بتدفئة البيض بدل الدجاجة وحضنها . فإذا الفراخ استقبلوها بالغذاء وبالإيواء وبالمحافظة عليها في مساكن خاصة ، فذكر أن السمك وإناثه لا يحصل بينهما اجتماع كاجتماع الإنسان والحيوان ، بل التناسل بتقابل بيض الأنثى مع المواد المفرزة من الذكر خارج جسم الأنثى ، ولا احتياج لمغازلة ولا مهر ولا منزل يسكنانه ، والماء قام بتربية الأجنة بتدبير العناية الإلهية ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون : ١٤] .

فلما سمع صاحبي ذلك ، قال : لقد شوقتني إلى هذه العجائب التي بها نفهم قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون : ١٧] . فقلت : ماذا تطلب أولاً ، قال : إن العلم يجب أن يكون متدرجاً من الأدنى إلى الأعلى فأريد أولاً أن أعرف نظام الزهرة وكيفية إلقاحها ، ثم السمك ثم الضفادع ثم الدجاج ثم الإنسان . فقلت : أما النبات لقد تقدم الكلام عليه في سورة « الأنعام » عند قوله تعالى : ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾[الأنعام : ٩٩] ، وهناك ترى رسم الزهرة وكأسها وتويجها وأسديتها ومدقاتها والمبيض والسمة وما يسمى بالقلم ، فارجع إليه إن شئت ، وإنما أزيدك الآن بياناً : ذلك أن المبيض الذي هو عادة يكون في أسفل الزهرة الموضح هناك قد يكون هو واحداً وقد يكون متعدداً ، فإذا كان واحداً فقد يكون متصلاً به عدة أقلام متصلة ، والمراد بالأقلام الأعمدة التي سميت في الرسم الآتي « قربلات » وقد يكون متصلاً به أقلام منفصلة ، وإذا كان المبيض متعدداً كان لكل واحد قلم واحد . انظر الرسم الآتي ـ شكل ١ .

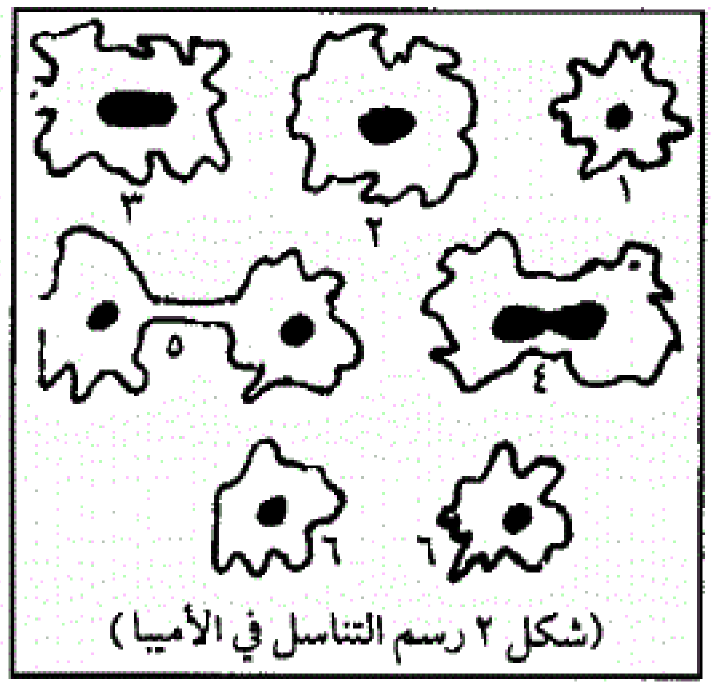


(شكل ١)
رسم ثلاث زهرات مختلفة الأعضاء التناسلية الأنثى

فهذا الرسم في أعلاه السمة التي تقبل الطلع من الذكر ، وهذا الطلع ينزل في القلم إلى المبيض أسفل كما رأيته في نفس هذا الشكل وفيه تتربى بالبزرة . فافهم هذا وافهم ما في سورة « الأنعام » .

وأما أمر السمك فلأقدم لك مقدّمة فأقول :

اعلم أن أصغر الحيوان يسمونه « الأميبا » نمرة (١) في الشكل الآتي شكل نمرة (٢) ، وما هي الأميبا ؟



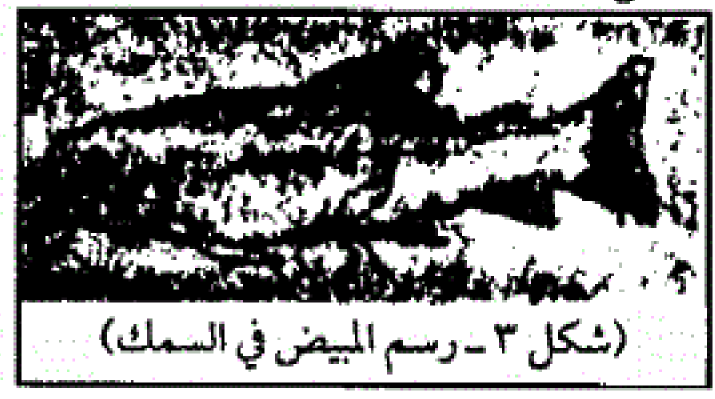
(شكل ٢ رسم التناسل في الأميا)

إن هي إلا خلية واحدة مركبة من محيط خارجي ونواة داخلية، فأما المحيط فهو غير منتظم الشكل، له فجوات ونتوءات كثيرة، وأما الداخل فإنك تراه في الرسم نقطة سوداء وهو منبع الحياة ومركز النمو. انظر الشكل الآتي ـ شكل ٢.

وطريقة تناسله أن يكبر مركز النمو أولاً كما في (نمرة ٢) من هذا الشكل، ثم يعظم الجزء الخارجي (نمرة ٣) من هذا الشكل، ثم يصير مركز النمو أشبه بشكل (نمرة ٤) لهذا الشكل، ثم نرى الحيوان الأصلي انقسم إلى قسمين وهما متصلان (نمرة ٥)، ثم ينفصلان (نمرة ٦)، إذن الحيوان الأصلي قد ذهب وخلق حيوانين، وكل واحد يفعل فعل الأول وهكذا بالانقسام. هاأنت ذا عرفت تناسل أدنى حيوان فقد تكاثر بالانقسام، وهنا حار العلماء في أمر هذا المخلوق الصغير. هل الأول الذي انقسم إلى اثنين قد مات وهذان الاثنان ابناه؟ وهذا الرأي خطأ لأننا لم نر هنا إلا حياة، فهنا واحد حي ثم رأينا نصفيه كل نصف منهما صار واحداً، فهل الواحد هما الاثنان وهذا لا يعقل أم هما ابناه؟. وإذا كانا ابنيه فأين هو وأين جثته. إن جثته هي جثتهما، وكيف يكون الأب عين الابن، وكيف كان الواحد اثنين؟ هذه المشكلة أشبع الكلام عليها اللورد «افبري» وقال: إن هذا الحيوان خالد إذ لا موت فهي حياة متكاثرة لا موت فيها، فربما عاش هذا الحيوان آلاف الآلاف.

وإذا انتهت المقدمة فلأبدأ بالكلام على السمك

فأقول: انظر إلى حرف (م) في (شكل ٣) فهو نفس المبيض المسمى بالبطارخ. وانظر إلى (شكل ٤).


(شكل ٣ ـ رسم المبيض في السمك)



(شكل ٤ ـ الحياة التناسلية في السمك)

وفي هذا الشكل (نمرة ١) صورة بيضة السمك ملقحة، وفي (نمرة ٢) صورة البيضة بعد يومين، وفي (نمرة ٣) شكلها بعد أسبوعين، وفي (نمرة ٤) صورتها بعد ٢٧ يوماً، وفي (نمرة ٥) يبدأ فقس البيضة، وفي (نمرة ٦) يكون عمر الجنين ١٢ يوماً وترى الكيس الذي ذكرته لك آنفاً معلقاً بهذه السمكة الصغيرة التي لا أم لها ولا أبّ إلا رحمة الله التي وسعت كل شيء، والكيس حرف (ك) و(نمرة ٧) هو هذا المخلوق بعد ٢٤ يوماً من الفقس، و(نمرة ٨) فيه السمكة أصبحت قادرة مستقلة. انتهى أمر الكيس.

الكلام على الضفادع

نمرة (١) بويضات الضفدع، نمرة (٢) و(٣) و(٤) التطورات لهذا البيض قبل الفقس، نمرة (٥) و(٦) بعد الفقس، نمرة (٧) ظهرت فيه زوائد خارجة تسمى «الخيشوم» وهو بالإنجليزية «جل»، نمرة (٨) ظهر فيها الفم، نمرة (٩) المنظر الجانبي، نمرة (١٠) ظهرت فيه الأعضاء الخلفية، نمرة (١١) حاله قبل تغير شكله، نمرة (١٢) طوره الثاني قبل التغير، ثم يتم شكل الضفدع. انتهى.

(شكل ٥)
الحياة التناسلية في الضفادع

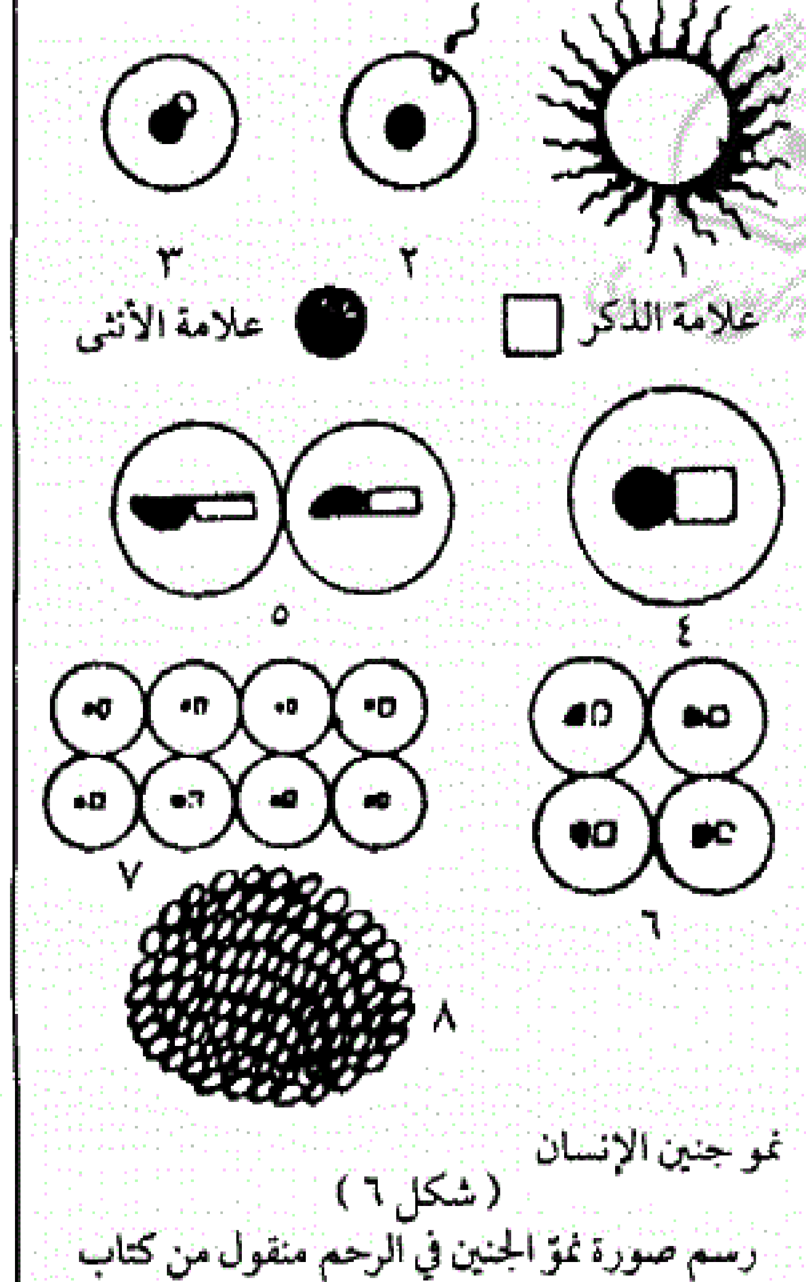
الدجاج

قد تقدم شرحه إجمالاً.

الإنسان

وهنا بيت القصيد: اعلم أن الإنسان في تناسله أمره عجيب. وهاك رسم صورة النمو في الرحم (شكل ٦).

إذا تأملت الزهرة المرسومة في سورة «الأنعام» وجدت هناك الأسديات التي في الزهرة منتهية بكرة صغيرة تسمى «الأنثير» والأنثير هناك هو الحامل للطلع ليفيض على عضو التأنيث الخ ما تقدم. فهكذا هنا هذا الأنثير يقوم مقامه «الخصية» في الإنسان، والمبيض في عضو التأنيث الذي في أسفل الزهر يقوم مقامه في الإنسان مبيضان للمرأة والرحم. فكل مبيض من المبيضين في المرأة يفرز البويضة كما تقدم في السمك والطير والنبات، وهذه البيضة تمر في قناة وتصل إلى الرحم فتبقى فيه فإذا وصلت الحيوانات التي في مني الرجل إلى ذلك الرحم فإنها تقابل البيضة هناك، وهذه الحيوانات تجتهد جميعها أن تصل إلى تلك البيضة، وأخيراً يهجم عليها واحد منها ويدخل فيها، وهذا هو الإلقاح. وهذه البيضة هي مبدأ الجنين الإنساني كما في بذرة النبات وجنين السمك وبيضة الدجاجة وترى في نمرة (٢) صورة حيوان من تلك



(شكل ٦)
رسم صورة نموّ الجنين في الرحم منقول من كتاب «التناسل في النبات والحيوان والإنسان»
وهكذا الشكلان قبله في هذا المقام

الحيوانات المنوية اخترق البيضة، وصورة نمرة (٣) تمثل تمام الإلقاح، وصورة نمرة (٤) تمثل البويضة بعد التلقيح قد كبرت وابتدأت البويضة في الانقسام، وصورة (٥) تمثلها ذات علامتين: إحداهما مربعة للعناصر المذكرة التي تدخل في تكوين الجنين. والثانية مستديرة هي عناصر الأنثى والجنين يكون منهما معاً، (٦) انقسمت فيه البيضة أربعة أقسام، (٧) انقسمت فيه ثمانية أقسام ولا يزال الانقسام والتكاثر الذي يصحبه ظهور الأطراف والأعضاء الخارجية والداخلية حتى يتمّ الخلق. فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذه مناظر يظهر أنها من أصول الحكمة.

إن هذا الوضع واختلاف أساليب التناسل يعطي علماً جماً. فهل تفيض في ذلك بعض الإفاضة، فقلت: نعم سأبحث هاهنا.

(١) في هذه العجائب ولمن خلقت أولاً وبالذات ولمن خلقت بالتبع. أي: من الذي يراد أن يفهمها، ومن هم الذين دون الفاهمين.

(٢) وفي أن كتاب هذه العجائب كتاب كتبه الله بيده صريح لا يحتاج إلى تأويل.

(٣) وفي الموازنة بين جنين المرأة والدجاجة من جهة وبين جنين السمك والضفادع من جهة أخرى، ثم بين جنين المرأة وجنين الدجاجة، ولم كبرت بيضة الثانية وصغرت بيضة الأولى.

(٤) وفي تصارع الحيوانية المنوية من الرجل إلى اقتحام بيضة الأنثى وسبق واحد منها إليها وأن أشراف نوع الإنسان بالحكمة هم الأقلون.

(٥) وفي عملية الانقسام في جنين المرأة والإبداع في نظامها والكلام على ما ابتدعه الحكيم الهندي صصه بن داهر.

(٦) وفي الوحدة العامة في التناسل.

(٧) وفي المقصود من هذا الوجود أهو الشهوة أم هو الأعلى منها؟.

(٨) وفي أن مرتبة علماء الطب والتشريح والنبات في هذا المقام كمرتبة علماء النحو والصرف بالنسبة لعلماء البلاغة.

(٩) وأن الأقوى الأكمل وإن كان قليلاً أشرف من الأكثر إذا كان ضعيفاً.

(١٠) وأن الإنسان في هذه الأرض أشبه بالمسجونين المعذبين.

(١١) وذكر آيات من القرآن على هذه العجائب.

فهذه إحدى عشرة مسألة أفصلها لك تفصيلاً إن شاء الله فأقول:

الفصل الأول: لمن خلق الله هذه العجائب؟

إن الناس والحيوان والنبات قد فصلت أجسامهم ونظمت أعضاؤهم، وهم جميعاً يتمتعون بثمرات هذا النظام. إن أكثر الناس لا يمتازون عن الحيوان في فهم هذا الوجود، فليس يهمّ أكثر أهل الأرض من الذريّة إلا أن يتشرف بهم ويكونوا عوناً له في حياته وذكراً له بعد مماته. هذا ما يدور بخلد جماهير نوع الإنسان، أما أن نظام الأجنة عند السمك يغاير نظامها عند المرأة والدجاجة، وأن هنا عجائب وعجائب، فهذا مما لا محصل له ولا فائدة له عندهم، بل المفكر في هذا لا يحتاج إلى ولد له خاصة وزوجة، بل ذلك علم عام في تشريح الأجسام عامة ونظامها، وإذا كنا نسمع «طيماوس» في

كلامه مع « سقراط » في المحاورة المسماة « طيماوس » التي ألفها « أفلاطون » في الطبيعيات على هيئة محاورة بين « سقراط » و« طيماوس » الذي هو من حكماء « الفيثاغورسيين ».

أقول إذا رأينا « طيماوس » يقول في خلق البصر : إن البصر نار جعله الله في داخل العين فمن تلاقيه بالنار التي في الخارج يتولد الإبصار . وبسط القول في مدح البصر وبيان منافعه ، فقال : إن فائدة البصر على ما أرى أنه لو لم تكن لنا القدرة على إدراك الشمس والكواكب لم نتمكن من الكلام عن السماء والعالم ، إذ من مراقبة اليوم والليلة وتحوّل الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشعور بالزمان وحدث فينا الشوق إلى معرفة الطبيعة والعالم ، فمنه نشأت الفلسفة وهي أنفس ما أنعم الله به على الناس .

أقول : إذا كان هذا رأي « طيماوس » الذي ألقاه إلى « سقراط » في خلق العين وحكمته . أفلا يحق لنا أن نقول في حكمة خلق الأجنة في الأرحام وفي البيض وفي الماء مختلفات أن ذلك الاختلاف يقصد به تعويدنا على النظر والفكر لنجتهد في استخلاص الحكمة من هذه المناظر الحسية الجنينية التي هي أشبه بالحدائق الناضرة كما سأوضحه هنا ، فإنك ترى أن « طيماوس » لم يبال بالمنافع المادية الشخصية في العين ، ولم يهتم إلا بجمال الحكمة والعلم في سير الشمس والقمر والنجوم ، فالمقصود بهذه العجائب التي سأبينها لك إنما هم طائفة المفكرين في نوع الإنسان وهم قليل جداً ، ومن عداهم فليس لهم وزن ولم يقصدوا ، بل هم متممون لنظام الوجود ، وليس يعطي الله هذه الدروس ويبدع هذا النظام إلا لأفئدة تهتز طرباً لما ستسمعه الآن ، فمن فرح بما سأقول في ذلك فهو من المقصودين بهذا المجال ، ومن لم يحركه العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد المزاج يحتاج إلى العلاج . انتهى .

الفصل الثاني

أما أن هذه العجائب كتاب كتبه الله بيده فهذا يفهم بما سأذكره في الفصل الثالث وما بعده .

الفصل الثالث : في الموازنة بين جنين المرأة والدجاجة من وجه وبين جنين السمك والضفادع من جهة أخرى ثم بين جنين الدجاجة والمرأة

علم الله ضعف الإنسانية وعلم أن زماننا ستكون المادة غالبة عليه ، فأبرز هذه الأعاجيب في زماننا لندرسها ونشرحها فنستفيد جمالاً في عقولنا كما استفدنا قوى في أجسامنا وحياة في مدننا .

أبدع الله أمر الأجنة ونوّعها ، وقال لنا : هذا في كتابي فاقرؤوه وتبنوا أمره . هذا بيض السمك والضفادع قد جعلت رحمه الماء ، فما على السمك إلا أن يبيض ، وهكذا الضفادع وعليّ أنا أن أحفظ الأجنة في ذلك الماء البارد ، فأنا لا يثنيني عن عملي حرّ ولا برد لأني مقتدر . فإذا ظن الناس أن الحرارة شرط لازم لنمو الأجنة كما في حمل النساء وبيض الدجاج ؛ فهاأنا ذا جعلت الماء البارد رحماً برحمتي للسمك وللضفادع . ولئن ظن الناس أن التقاء الأنثى والذكر أمر حتم لتربية الأجنة ، فهاأنا ذا قد علمت السمك طريقاً آخر ، فالتقى البيضان ولم يلتق الزوجان . ولئن ظنّ ظانّ أن تربية الجنين الذي يحتاج إلى الحرارة لا بد له من البقاء في الرحم ؛ فها أنا ذا أمرت الدجاجة والحمامة وسائر الطيور فألقت بيضها وحضنته ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾[يوسف : ٩٦] ، وكأن الله يقول : أنا إنما أريد النسل ولست أسلك له سبيلاً واحداً ، بل أسلك طرقاً مختلفة ، هكذا فلتفعلوا فلتكن لعقولكم مذاهب في

أعمالكم، وإياكم والتقليد فإذا قلدتم في العمل ربطتم أنفسكم بطريق خاص فأنتم كعباد الأصنام، أنا إنما أبنت لكم ذلك لتعلموا أن فوق كل ذي علم عليم.

فمن لم ير إلا السمك والضفادع فرضاً ظن أن طريقهما لا سبيل إلى تغييره. ومن لم ير إلا الدجاج فرضاً أو النساء وقف عقله عندهما، فقال صاحبي: لماذا رأينا بيضة الدجاجة كبيرة وبيضة المرأة لا تكاد ترى والقياس يقتضي العكس، وكان مقتضى القياس أن تكبر بيضة جنين المرأة فتكون كالبطيخة أو تصغر بيضة الدجاجة حتى تكون كذرة لا ترى ولا تحس، فقلت: إن المرأة قد تكفلت بتغذية ولدها، فالجنين حين يبدأ في نموه يتصل بسطح الرحم الداخلي فيصله الغذاء بواسطة الشرايين الرحمية وهي تحمل له الدم؛ وبالجملة إن للجنين دورة دموية تبدأ من شرايين الحائط الرحمي وتتصل بشرايين الجنين وتنتهي بأوردة الجنين التي تصبّ في أوردة حائط الرحم، ومتى تمّ نموّ الجنين وولد الطفل صار غنياً عن التغذي بدم أمه فيجب إذن قطع العلاقة الدموية بينهما، والعلاقة بينهما هو حبل طويل «الحبل السري» وهو حبل يبدأ من سرة الجنين وينتهي بقرص متصل بحائط الرحم الداخلي وهو «المشيمة»، فبعد الولادة يربط ذلك الحبل بجوار سرة الطفل. فهذه التغذية هي التي منعت أن تكبر بيضة الجنين الإنساني. أما الدجاجة فليس من شأنها أن يتصل دمها بجنينها بل هو منفصل عنها في البيضة، فاقتضت حكمة الحكيم أن يجعل ما في البيضة من الغذاء كافياً للفرخ في البيضة بحيث يكون مقدراً بمقدار قوته ونموّه حتى يقدر على نقر قشرة البيضة فيخرج بنفسه؛ كما أن الأمم المقهورة لا تعطي الاستقلال إلا إذا قدرت على طرد أعدائها من بلادها بقوتها وكسر السور الحديدي المضروب عليها من أعدائها. ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾[المؤمنون: ١٧]، وقوله: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا﴾[الجن: ١٤]. وآيات الوزن والميزان وهكذا مما نذكره من الآيات في أمثال هذا.

ونظير هذا شجر الجميز وشجر البطيخ؛ فثمر الجميز صغير مع ضخامة الشجر، وثمر البطيخ كبير مع ضعف الشجرة، فانظر للعجب، صغرت ثمرة الجميز لأنها مرتفعة، ولو كانت كبيرة فسقطت لأضرت بأجسام الناس ولتلفت هي لذلك خلقت صغيرة، وشجرة البطيخ ضعيفة وساقها مملوء ماء فهو لا يقدر على حمل البطيخة فحملتها الأرض بدل الشجرة فلم تضرّ كبرها، الله أكبر، جلّ الله وجل العلم، هاهو ذا كتاب الله الذي كتبه بيده قبل أن ينزل الكتب السماوية، خلقنا الله وقال لنا ادرسوه، فهاأنا ذا أدرس مع الدارسين، فيا الله أنت أفهمتنا هذا الصنع وعرفنا لماذا كبرت بيضة الدجاجة وصغرت فلم تر بيضة جنين المرأة، وفهمنا اختلاف الثمار كبراً وصغراً مع أن القياس كان يقتضي غير ذلك، فلما فهمنا الحكمة ثلجت صدورنا.

ولكن الذي علمناه قليل جداً. فأما ما لا نعلمه فهو جميع أحوال هذه الدنيا. هذا غني وهذا فقير وقصير وطويل وجميل وقبيح وعالم وجاهل وذكي وبليد وهكذا من المتناقضات التي لم تدرك حلها. ولكنك لما أفهمتنا هذا القليل أدركنا حسن نظامك وابتهجنا به، وعرفنا أنك أنت خبأت الحكمة عنا في هذه الأمور الجزئية، وبالذي فهمناه نعرف معنى الرضا ونقرأ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[الفجر: ٢٧-٢٨]، والنفس لا ترضى إلا إذا أدركت أمثال

هذه المعاني التي يرمز لها قصة الخضر وموسى عليهما السلام وخرق الخضر للسفينة وقتل الغلام وإقامة الحائط .

إن الذين يفرحون بهذا النظام الذي ذكرناه هم أكابر الأمم والحكماء . وهم هم الذين لهم زينت هذه البدائع والمحاسن وأحبوا مبدعها واشتاقوا إليه وفهموا الحديث : « من أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه » ، وكيف يحب لقاءه إلا إذا عرف أنه حكيم حكمته تامة . وكيف تعرف الحكمة إلا بأمثال هذا ، والعامة تكفيهم قصة الخضر وموسى المتقدمة . ولا يكون المرء سعيداً عند موته مشتاقاً للقاء ربه إلا إذا أفعم قلبه بهذه الحكمة . وأذكر مثلاً نبياً عظيماً وفيلسوفاً قديماً لتدرك أيها الأخ أن الخواصّ من هذا النوع الإنساني هم الذين يحبون لقاء ربهم . فهاك « سقراط » كان يبتسم وهو يشرب السم ومات وهو مستبشر ، وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال عند النزع : « اللهم الرفيق الأعلى » ، وقال : « إن للموت لسكرات » ، وسكرات الأنبياء والأولياء والتابعين لهم سكرات الفرح والطرب بلقاء ذلك الحكيم الذي ألقى الحكمة والعلم على قلوبهم ، أما الفلاسفة الإلهيون فذلك شيء جاء عندهم بالعقل لا بالوحي ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع : في مسارعة الحيوانات المنوية المفرزة من الرجل إلى اقتحام بيضة الأنثى وسبق واحد منها إليها وأن أشرف نوع الإنسان هم الأقلون

سارعت الحيوانات المفرزة من عضو الرجل وكلها تريد اقتحام البيضة ، فلم يفز إلا واحد كما شاهدته في الشكل المتقدم . يظهر لي أن هذا الوجود على هذا المنوال كله حيوانات عددها كثير طلبت الغاية ، وهي أن تلقح البيضة لتصير إنساناً ، فأفلح واحد ورجع الباقي ، هذا رمز لما في عالمنا . فكما أن رئيس الجمهورية أو الملك في الأمة واحد ؛ وكما أن أنبغ المحامين والصناع آحاد يعدون على الأصابع ؛ هكذا أولئك الأفراد الذين زين لهم نظام هذا الوجود هم قليل ، تمرّ الأجيال تلو الأجيال والناس يغدون ويروحون وهم جميعاً أشبه بالحيوان ، لا يدرون من هذا الوجود إلا أنهم يشبهون الحيوان في حياته وهم لا يذكرون ، ولا يعقل أمثال ما نذكره الآن إلا أفراد نسبتهم إلى هذا المجموع الجاهل كنسبة ذلك الحيوان المنوي الذي لقح البويضة في رحم الأنثى إلى جموع المتسابقين معه إلى دخولها في الرحم كما رأيت ، وهذه الطائفة هي التي قال الله فيها : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود : ١١٩] ، وهم خلاصة خلقه وسواهم همج .

ما الناس سوى قوم عرفوا وسواهم همج الهمج

الفصل الخامس : في عملية الانقسام في الجنين في الرحم والإبداع في نظامه والكلام على ما ابتدعه الحكيم الهندي صصة بن داهر

فقال صاحبي : وما للجنين في بطن أمه ولقضية صصة بن داهر وما المناسبة بينهما ؟ فقلت : المناسبة تامة فاسمع القصص ثم انظر المشابهة فتجد نظام الحساب البديع في حساب بيوت الشطرنج هو نفس الحساب الذي روعي في خلق الجنين وفي خلق الحيوانات الدنيئة التي تتكاثر بطريق الانقسام .
قال : فما قصة هذا الحكيم ؟ فقلت : يحكى أن صصة بن داهر الحكيم الهندي لما اخترع الشطرنج

وأعجب الملك باختراعه قال له: تمن ما تريد، فقال: أتمنى أن تضع حبة قمح في البيت الأول و٢ في الثاني و٤ في الثالث و٨ في الرابع و١٦ في الخامس وهكذا إلى ٦٤، فسخر الملك من هذا التمني وظنّ أنه يكفيه قدح من القمح فلامه على ذلك، وقال: أتسخر مني؟ فقال الحكيم: إني تفكرت فلم أجد في منزلي براً فتمنيت هذا، ولكني أتمنى على الملك أن يأمر بضبط الحساب، فأمر الملك بذلك فأخبر أن ما بخزائنه وما على الأرض من القمح لا يكفي ذلك، فقال الملك: تمنيك أعجب من اختراعك.

ثم إن هذه المسألة تحل بطرق أسهلها «اللوغارتمان» من علم الحساب، ولها جداول خاصة يعرف بها الحساب من طريق قوى العدد المضاعفة، ويليها أن يحسب الحب إلى أن يصل إلى جزء من قدح مثلاً، ثم يضاعف إلى تمامه. فهذه البيوت التي في الشطرنج التي هي (٦٤) قد استنفدت قمح الدنيا وأضعافه كما هو موضح في كتابي «نظام العالم والأمم» وهذا نص ما فيه:

تأمل فيما هو أرقى من ذلك وهي مسألة الشطرنج والأخذ فيها بطريق التضعيف إلى ٦٤ عيناً. فكيف كانت حبة القمح بالتضعيف تصل إلى مقدار ما لا يمكن تحصيله من مخازن الدنيا، وذلك أن القمح بالتضعيف في بيوت الشطرنج يصل إلى ١٨٤٤٦٧٤٤٠٧٣٧٠٩٥٥١٦١٦، إلى أن قلت فيه: إن مسألة التضعيف لها قاعدة غريبة، وهي أن كل عدد مضاعف فيها يكون جميع المضاعفات قبله إذا جمعت تساوي ما فوقه إلا واحداً، وتوضيحه أن ثمانية ضعف أربعة، وإذا جمعت ٢ و ٤ و١ كانت ٧، وتضعيف ٨ هو ١٦ فإذا جمعت ٨ على ما قبلها بلغ ١٥ وهو أقل من ١٦ بواحد، وكيفية حسابه أن يكون البيت الأول (١)، والثاني (٢)، والثالث (٤)، والرابع (٨)، فإذا بلغ (١٦) بيتاً كان البيت قدحاً وهو (٣٢٧٦٨) حبة، وإذا بلغ (٢٠) بيتاً صار ١٦ قدحاً وهو «الويبة»، والأردب ست ويبات، وإذا وصل التضعيف (٤٠) صار مخزناً كبيراً وهو شونة وهي $\frac{1}{2}$ ١٧٤٧٦٢ أردباً، فإذا بلغ (٥٠) بيتاً صار مدينة وهي (١٠٢٤) مخزناً «شونة»، فإذا بلغ (٦٤) صار (١٦٨٤٣) مدينة، وهذا النظم يجمع هذا كله:

إن رمت تضعيف شطرنج بجملته

وَاوَا	هَهٌ	طَغْجَزٌ	تَمٌّ	زَسٌّ	دَدَحا
١٦١٦	٥٥	٧٣٧٠٩	٤٤٠	٦٧	١٨٤٤

وهنا جاء في الكتاب أن هذه المسألة يسهلها عمل «اللوغارتم» المشهور في علم الحساب ولكن ذكرها في التفسير يصعب فهمه فلذلك تركناه.

هذا وقد نقلت في كتاب «بهجة العلوم» في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة عن أستاذنا المرحوم علي باشا مبارك في كتابه «خواص الأعداد» وهو الأرتماطيقي ملخصاً منه ما نصه: إنه بعمل الحساب في هذه المسألة ترى أن الحد الرابع والستين من المتوالية الهندسية التي أساسها (٢) وحدّها الأول الواحد هو ٩٢،٢٣٣،٧٢٠،٣٦٨،٥٤٧،٧٥٨،٨٠٨، ومن هذه المتوالية التي أساسها (٢) وحدها الأول (١) يكون مجموع الحدود محصوراً في ضعف الحد الأخير مطروحاً منه واحد، وحينئذ عدد الحب من صنف القمح الذي يفي حق المخترع كان هذا العدد وهو نفس العدد الذي قدمته.

ولما كان الرطل الواحد من القمح المتوسط الحبة والتنشيف يحتوي على (١٢٨,٠٠٠) حبة تقريباً وبضرب هذا العدد في متوسط محصول الفدان وهو (١٢٠٠) رطل من القمح يحصل (١٥,٣٦٠,٠٠٠) وهو مقدار ما في الفدان من حب القمح، وبقسمة عدد الحب على هذا المقدار ينتج (١,١٩٠,١١٢,٤٠٨,٨٨٤) وهو عدد الفدادين المطلوبة لتحصيل القمح المذكور في سنة، وهو قريب من ثمانية أمثال سطح الكرة الأرضية بتمامه لأن سطح الأرض: (١٤٨,٨٨٢,١٧٦,٠٠٠) فداناً.

وأما ما اعتبره «والين» فهو خلاف ذلك الاعتبار، فإنه على مقتضى حسابه رأى كمية القمح الذي يلزم للوفاء بقدر صبرة مساحتها تسعة أميال إنكليزية طولاً وعرضاً وارتفاعاً. وقال غيرهما: إن هذا القمح لا ينتجه إلا زرع أرض مساحتها (٣٦٨,٩٣٤,٨٨١,٤٧٤) هكتاراً وليست مساحة يابس الكرة الأرضية إلا جزءاً من ثمانية وعشرين من هذا القدر المذكور أي (١٣,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) هكتاراً «الهكتار من مقاييس المساحة قدر عشرة آلاف متر مربع»، وعليه يلزم للوفاء بمطلوب الحكيم أن يزرع هذا المقدار ثمانية وعشرين عاماً. هذا إذا فرضنا أن جميع اليابس صالح للزرع. أما إن اعتبرنا الحقيقة وهي أن أكثره غير صالح ـ ومعلوم أن البحار ٧ من ١٠ من سطح الأرض وهي لا تزرع قمحاً فضلاً عن أودية وجبال ورمال كثيرة ـ ثبت لدينا أننا محتاجون إلى قرون كثيرة لوفائه. اهـ.

هذا ما نقلته ملخصاً في كتاب «بهجة العلوم» المذكور محرراً. فأعجب أيها الذكي كل العجب من مسألة المتوالية الهندسية التي دخلت في نظام الموسيقى كما تقدم في سورة «مريم» بحيث كانت دواوين الغناء ١٦ـ٣٢ وهكذا إلى تمام العشرة، وكانت نتائجها سرور الناس والتئامهم وتعليمهم بقبول وانشراح، وكيف كانت خلقة الجنين على هذه القاعدة، بل خلق كل نبات وحيوان، وكيف كان أمر القمح مع بيوت الشطرنج انتهى إلى مقادير تعجز أرضنا عن إنتاجها في قرون كثيرة. إذن هذا العدد سرّ الوجود، وإذن نفهم غرام «سقراط» بعلوم الرياضة وقوله: إن التوغل فيها يمرن النفس على الحقائق ويقربها من عالم الملائكة ومن الله، وقد أمر بها الحكام وضباط الجيوش وحض حكام المدينة على الازدياد من علوم الرياضة أكثر مما حضّ الجنود. وهكذا نفهم قول فيثاغورس: إن أصل هذا العدد. وهذا هو بعض السر في أن الله أقسم بالشفع والوتر إذ قال: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر: ١-٣] فالفجر وتر والليالي العشر شفع، وهما مثالان للشفع والوتر العام، ومسألة المتوالية الهندسية التي نحن بصددها كلها شفع ولكن مبدؤها الوتر، فكل شفع رجع إلى الوتر كما أن العالم راجع الله. ولا جرم أن في ذكر الفجر رمزاً للواحد، وفي ذكر العدد الزوجي بعده وهي الليالي العشر رمزاً لكل عدد زوجي وهو هنا (٢) وما تضاعف منها. انتهى.

حكاية مسامرة

يحكى أن عبد الملك بن مروان أرسل إلى ملك الروم وفداً فيهم الشعبي، فلما دخل عليه قال له ملك الروم: لماذا أيها الأستاذ يقول علماء الدين إن الله واحد ليس قبله شيء ومنه جميع هذا الوجود، فهل تضرب لنا مثلاً لذلك مما نعرفه في الدنيا؟ فقال: نعم الله كالواحد في الأعداد، ومنه كان هذا العالم كله، وليس قبل الواحد شيء. فقال: أحسنت.

ثم قال الملك: يقول علماء الدين إن نعيم الجنة لا ينقص مهما أخذ منه الناس فهل لذلك نظير؟ قال: نعم، السراج توقد منها آلاف السرج ولا ينقص نوره، ثم قال له أيضاً: كيف تقولون إن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون فهل لهذا نظير؟ فقال: نعم، الجنين في بطن أمه لو بال أو تغوط في رحمها لماتت. فقال له: عجبت للمسلمين كيف جهلوا أمرك فلم يجعلوك ملكاً عليهم.

فلما رجع الوفد إلى عبد الملك ودخل عليه الشعبي قال له عبد الملك: أيها الأستاذ يقول لك ملك الروم عجبت كيف جهل قدرك المسلمون فلم يجعلوك ملكاً عليهم. فقال: نعم، قال لي ذلك لأنه لم يرك ولكن لو رآك لحقرني. فقال له: أتدري يا شعبي لم قالها؟ فقال الملك: أعلم. فقال: إنه حسدني عليك فأراد أن أقتلك، فلما بلغ هذا القول ملك الروم قال: والله ما عدا قوله ما في نفسي، لقد تفطن لها وعجب من ذلك العجب. انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ولنرجع إلى موضوعنا ونقول: انظر الآن في نظام الجنين واعجب لجمال وحساب بيضة قسمت ٢ ثم ٤ ثم ٨ ثم ١٦ وهكذا. فكيف بها إذا وصلت ٦٤ كقمح ذلك الحكيم.

هذا انقسام مستمر فيظن من يراه أنه ليس وراء الانقسام وحسابه شيء، إذا هناك عظام مفصلات ورأس ومخ وقلب وكبد وأحشاء مختلفة كما سترى رسمه قريباً، أي رسم المعدة والأمعاء وبعض الأعضاء الأخرى. فانظر إلى أعضاء تبلغ ٢٤٨ عضواً مفصلات بمقاييس لو اختلت قليلاً لم تكن الحياة، ولو لم يراع في الرجلين مفاصل الركبتين ولا في الأصابع مفاصلها ولا في الأيدي مرافقها لم يتم نظام الحياة، كل ذلك تم وفصل مع مراعاة ذلك الحساب الذي يرجع إلى المتوالية الهندسية التي فيها حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين مثل (١و٢و٤) ومثل (٢و٤و٨) ومثل (٤و٨و١٦) ومثل (٨و١٦و٣٢) وهكذا إلى ما لا نهاية له، أيضاً إذا جمعنا حدود هذه المتوالية فإن كل مجموع منها يساوي العدد الذي بعده ناقصاً واحداً، مثل أن تقول (١و٢) يساوي (٤) إلا واحداً و(١و٢و٤) يساوي (٨) إلا واحداً ومثل (١و٢و٤و٨و١٦) يساوي (٣٢) إلا واحداً وهكذا إلى ما لا يتناهى، ثم إن الجموع تكون هكذا بالفرد وهذا علمه واسع أفرد بالتأليف.

إن الله تعالى أبدعنا وخلقنا بهذا الحساب ليفهمنا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[آل عمران: ١٩٥]، وبقية الآيات مثل: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾[الكهف: ١٠٩] الخ، وكأنه يقول لنا: إذا كنتم دهشتم لأمر الحكيم الهندي وعجبتم من أمر حسابه في هذه المتوالية فكيف إذا رأيتم هذا الحساب مصحوباً بخلق العين وطبقاتها السبع ورطوباتها الثلاث المشروحة في سورة «آل عمران» مصورة موضحة ومصحوباً بخلق الأذن وخلق المخ وخلق الإدراك وخلق الحواس الباطنة والظاهرة. إن حساب المتوالية الهندسية التي احتاجت إلى علم «اللوغارتم» عندكم لم تصدني عن إحكام أجسامكم ونظام أعضائكم الباطنة والظاهرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[آل عمران: ١٩٥]. انتهى.

الفصل السادس: في الوحدة العامة في التناسل

إن من تأمل هذا العالم يجد أسلوبه ونظامه واحداً. وهذا دليل الوحدانية لأننا نجد الأسلوب لا يتغير من حيث أصله وإنما يتغير بشكله، فلقد رأينا تناسل النبات وبيضه لا يختلف عن تناسل الحيوان

والإنسان، فكلها ذات بيض وكلها ذات ذكور وإناث، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الذاريات: ٤٩-٥٠]، وإنما نفر إلى الله لأننا عرفنا الوحدة وأدركنا ما السبب في حسن هذا النظام فنرى وحدة ونرى الوحدة مصحوبة بالكثرة الجميلة الموزونة التي يصح أن يقال يجمعها نظام حسن، فهذا الجمال وهذا الإبداع المفرح الذي رأيته يجعل النفس في شوق إلى المبدع فتحبه فتود لقاءه بالموت بعد أن تعلم أنها أدت ما عليها في هذه الأرض لأبناء نوعها.

ذكر «طيماوس» الحكيم ورأيه في هذه الدنيا

قد ذكرت لك سابقاً «طيماوس» الحكيم الذي جعل «أفلاطون» المحاورة على لسانه وعلى لسان «سقراط». قال «طيماوس»: اتخذ الله صورة الحيوان المطلق المشتمل على صورة سائر الحيوان وعلى هذا فإن العالم حيوان عاقل مرئي يتناول سائر الحيوانات. ثم ذكر تكوين جسد هذا الحيوان من العناصر المعروفة عندهم وهي الأربعة المعلومة وأن العالم صار كرة، ثم ذكر تكوين نفس العالم من العقل والمادة وشيء مشترك بينهما، ثم ذكر أن الله لا يصح أن نقول فيه إنه في زمان لأن الأيام والليالي لم تكن قبل خلق الليل والنهار، فالله أوجدها عند تركيبه السماء، وما هي إلا أجزاء الزمان الماضي والمستقبل والحال. فإذن نقول: الله موجود لا غير.

وأما الزمان فهو بالنسبة لنا نحن، وسيأتي لهذا القول بقية في هذا المقام عند المناسبة الآتية، وليس قصدي من ذكر هذه المسألة من كلام «طيماوس» إلا أن نرى أن ما تبدى لنا نحن في زماننا هذا من أن الوحدة في التناسل دلت على وحدة النظام قد لحظها قبلنا حكماء، وقالوا: إن العالم كله حيوان واحد كأنه جسم إنسان أو حيوان، ويشير لذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[لقمان: ٢٨]، وهذه الآية مجرد إشارة.

الفصل السابع
في المقصود من هذا الوجود أهي الشهوة أم العقل؟

لقد استبان لنا في هذا المقام أن السمك لا يتصل ذكره بأنثاه فلا لقاء بينهما، وإنما اللقاح يحصل ولا تعارف بين الذكر والأنثى، وإنما أرانا الله هذه الصورة في الوجود ليضرب نظامنا الحالي كلها ضربة فاصلة، يقول لنا: أيها الناس أنتم تعلمون أن الزواج والولادة على هذا النسق قد شغلكم عن النظام العام والحكمة. ولقد أزلت لك شرائع تعلمكم عقد الزواج والمعاشرة والنفقة والمحبة بين الزوجين وأمرتكم بالمودة وألقيت المحبة في قلوبكم، فربيتم البنين والبنات، وحكوماتكم تساعدكم على هذا، ونظام أسرتكم كله مبني على هذه القاعدة، فلا أسرة إلا على هذه الروابط، ولا دولة ولا حكومة إلا على هذا البناء، فلولا هذا البناء لاختلّ نظام حياتكم كلها.

هذا ما علمتموه في نظامي الذي وضعته لكم، ولكني أقول لكم هذا النظام ليس كل شيء بل هو نظام اقتضاه مزاجكم في أجسامكم، ولكن الحياة في غير بني آدم لا تتوقف على هذا، فهاهو ذا السمك تناسل وألقح بيضه وملأ البحر بالسمك ولا علم للزوجين بما تناسل منهما. إذن هذه التي عندكم صورة من صور الحياة ودور من أدوارها، والحياة مداها واسع وطرقها لا نهاية لها، كما أني لا

نهاية لي فأنا المبدع الحكيم، والدليل على ذلك أن يوم القيامة أحلّ هذه الروابط وأضع نسبكم وأرفع نسبي، ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾[الممتحنة: ٣]، وإنما أفصل بينكم لأجعل الأشكال منضمة إلى أشكالها، فقد يكون الابن والزوجة على خلاف أخلاق الزوج فيبعدان عنه. وهاهو ذا السمك يشهد بذلك. فإياكم أن تظنوا أن الأمر قاصر على ما ترون، واذكروا امرأة نوح وامرأة لوط في القرآن في سورة «التحريم». إذن ليس المقصود من هذا الوجود هو الشهوات وما الشهوات إلا وسائل جيء بها للتوصل بها إلى التناسل والحياة، ومتى جاء الغرض منها لم يبق لها فائدة، وما لا فائدة فيه نزعناه من ملكنا كما ننزع الشهوة من الرجل الكبير والمرأة العجوز، لأنه لا يقدر أن يربي الطفل، وهي كذلك، فنزعنا منها ما يضرهما وأبقيناهما إلى حين. واعتبروا أيها الناس بأمر الأبوين فهما يجتمعان للشهوة أولاً حتى إذا جاء الولد اجتمعا عليه، ولا يزال حنوّهما يبتعد عن جسميهما إلى عاطفتهما نحو الولد حتى تضعف الشهوة البهيمية وتحل محلها الشفقة والرحمة والمشاركة في تربية الذرية.

هناك تجلت العواطف الشريفة والأنوار المنيفة، وأدرك العقلاء أن تلك الشهوة إنما كانت وسيلة وأخذت تضعف وحلّ محلها حب أرقى وأشرف وهو حب جميل يرجع إلى المشاركة المنزلية والعواطف الأبوية، وهذا هو الذي خلق له الناس، خلقوا للعطف والمشاركة والمحبة العامة التي تظهر جليلة في الذرية وتتعداها إلى جميع نوع الإنسان ويكونون بعد أمة كأنهم جسم واحد أو روح واحدة بالاتفاق في الصفات والأخلاق، ولا يتم ذلك إلا بأن ينزع ما في صدورهم من غلّ. كل هذا نفهمه من مسألة التناسل التي نحن بصدد الكلام عليها.

الفصل الثامن

في أن مرتبة علماء الطب والتشريح والنبات في هذا المقام كمرتبة علماء النحو والصرف بالنسبة لعلماء البلاغة

اعلم أن هذه الجملة تقدم نظيرها في أوائل سورة «آل عمران»، ذلك أن عالم التشريح وعالم الطب ينظران إلى هذه الأعضاء نظراً مادياً، فهما لا يعنيهما ما نقول في أمثال هذا المقام لأن هذا ليس محط نظرهما، ولو أن الطبيب ذكر ما أقوله الآن لم يكن ذلك بصفته طبيباً، كلا وإنما بصفته أنه من علماء الفلسفة العامة والفلسفة علم والطب علم آخر وإن كان بينهما علاقة، ولكن علاقة الطب بالفلسفة علاقة الفرع بالأصل، بل علاقة الفرع الصغير بفرع كبير من الشجرة، فإن الطب يتعلق بجسم الإنسان من حيث يصح ويمرض، والفلسفة تبحث عن كل موجود من إنسان وغير إنسان، فالأطباء والمشرحون وعلماء النبات يقرؤون هذه العلوم لما هم بصدده كما يقرأ علماء النحو قواعده، ولكن نظام العالم كله هو الذي يظهر فيه الجمال مثل ما ذكرنا في نظام التناسل كما يظهر ذلك في الشعر والنظم في اللغات، فالعالم شعر جميل، والقول مقال جميل، والبحث في النحو وفي التشريح والنبات غير الإنشاء وغير النظام العام في العالم.

إذا علمت ذلك فهمت كيف رأينا في زماننا كثيراً من دارسي هذه العلوم ملحدين، فهذا سرّه فليس ذلك لنقص علمهم بالطب والزراعة، بل ذلك لجهلهم الفلسفة وعلم الحكمة، فإما أنهم ليسوا

أهلاً لها، وإما أنهم لم يجدوا من يعلمهم، وإما لأن الشهوات أحاطت بهم فأصبحوا جاهلين، وهؤلاء لا بد منهم لنظام الأمة، وهكذا سائر الصناع والزراع ورجال الحكومات والملوك وهؤلاء جميعاً ليسوا هم المقصودين من هذا النظام، وإنما المقصود الحكماء الذين يفرحون بهذا النظام ويعقلونه والذين يكونون عند مليك مقتدر.

الفصل التاسع

في أن الأقوى الأكمل وإن كان قليلاً أشرف من الأكثر إذا كان ضعيفاً

ذلك ما شاهدناه في السمك والضفادع والناموس والذباب والحشرات تلد ما لا حصر له وكلما ارتقى الحيوان قلّ نسله، والإنسان والآساد أقل نسلاً من بقية ذوات الأربع، وهي أقل من سائر الحشرات إذن هنا قاعدة وهي أن كثرة النسل لا تدل على الكمال، وأيضاً نسل الإنسان وإن كان قليلاً أفضل من الآلاف المؤلفة من نسل غيره، والجيش القليل المنظم أفضل من الكثير الذي لا نظام له. قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢٤٩] الخ.

الفصل العاشر

إن الحشرات والحيوانات الذرّية الفاتكة بالإنسان ملأت السهل والجبل، والعلوم التي ارتقت بها الأمم عجزت عن إبادة هذه الذرية الفاتكة بنا المحدثة لأمراضنا، فما مثل هذا الإنسان إلا كمثل المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام في بلاد إيطاليا، فالفاتكون في إيطاليا لا يحكم عليهم بالإعدام. كلا بل يوضعون في سجون مقفلة يصب فيها ماء، ومع المجرم دلو يملؤها منه ليزيح الماء حتى لا يغرقه. ولا يزال هكذا ساعات في النهار متوالية محافظة على حياته، فإذا طغى الماء عليه وأغرقه هلك. وإنما عمدوا إلى هذا لأنه رأوا أن الموت راحة فأرادوا أن يموت معذباً هذا عمل أهل إيطاليا بالمجرمين.

أقول: إن هذا الإنسان لما خلقه الله في الأرض رأى بعدله وحكمته أن يعامله هذه المعاملة، فإننا رأينا تناسل الحيوان الضارّ والحيوانات الذّرية قد غلب على الإنسان وعلومه، وأضرّت الحشرات بقطننا في مصر وبقطن أمريكا، والعلوم لم تساعدنا على إبادتها. وهناك أمراض تحدث كل يوم بالحيوانات الذرية ونحن نجدّ في قطع دابرها وهي تتكاثر علينا كذلك المجرم الطلياني، فانظر لجمال يحيط بنا من كل جانب في السماوات والأرض وعذاب واصب دائم وأجسام تذوب منا كل سبع سنين مرة وتتجدد للعذاب بعد أن تضجت، فحال جسم الإنسان في الأرض أشبه بمن نضجت جلودهم في جهنم فيبدلون جلوداً غيرها، وكأن الأرض جهنم الصغرى، ولذلك تسمع الإمام الغزالي يقول: إن جسم الإنسان مثل جهنم وله أبواب سبعة كأبوابها. ويقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾[التوبة: ٨٥].

إذن نحن الآن في حال تشبه حال جهنم من بعض الوجوه. فيا ليت شعري لم هذا العذاب؟. فهل كنا في عالم غير هذا وأذنبنا؟ هكذا يزعم فريق من القدماء من المبتدعة. أما ابن سينا فقد نفى هذا في «الإشارات» وقال: هذا تناسخ، ومنع التناسخ عقلاً كما منعه الدين نقلاً، فإذا كان ديننا وفيلسوفنا لا يقولان بالتناسخ فلنرفضه ولنرجع إلى ما كان الحكماء قديماً يتلمسونه لنظامنا الحالي من الحكم، وليس ذلك لنعتقد كلامهم. كلا فنحن كما قدمنا أيقنا بأن الله حكيم ويرى أن هذا إسعاد لنا، كما أن

صغر البيضة المنوية في الأنثى من بني آدم وكبرها في الدجاجة لم يدلا على حقارة الإنسان وعظمة الدجاجة . فالنظام العدل هو القائم في هذا العالم ، وقد علمنا منه الكليات وجهلنا الجزئيات فقسناها عليها ، فهاك ما ذكره « أفلاطون » في رسالة « طيماوس » المتقدمة من تركيب السماوات ، وقد تخيل أن الله خاطبها هي والكوكب والملائكة الموكلة بها قائلاً : إنكم لا فساد يلحقكم وسأخلق مخلوقات فيها شعاع من نوري ، فاجعلوا الجزء الميت مع الجزء الذي هو من نوري ، أي المادي مع الجزء الإلهي وهي الروح ، ثم ركبت الأجسام البشرية على هذا النحو . ثم قال بعد ذلك : خلق الله الأرواح البشرية من العناصر التي ركب منها نفس العالم الكلية ، إلا أنها دونها في الصفاء والكمال ، ثم جعل الأرواح في الكواكب فمنها ما جعله في الأرض ومنها ما جعله في القمر ومنها ما جعله في الكواكب الأخرى ، فأوقفها على نظام العالم وعلى الترتيب الذي اقتضته حكمته ، وبين لها أن لجميعها أصلاً واحداً لا فرق بين روح وروح ، لكي لا تتظلم من عدم المساواة بينها ثم شرح لها أنها عند اقترانها بالأبدان إنما يلحقها التأثير من الحواس وما يتبعه من الشهوة والغضب والخوف ، فمن يقهرها يعيش مستقيماً ومن يذعن لها يكون مفقود العدالة ، ومن انتفع بحياته لإصلاح ضميره إنما يرجع كوكبه المختص به فيبقى فيه سعيداً ، ومن قصر في ذلك فقد يصير أنثى في حياة ثانية ، فإذا دام على الشر فيصير حيواناً على شكل ما اعتاده في حياته من أنواع الخطأ ، فلا يزال يموت وينتقل من بدن إلى بدن إلى أن يرجع إلى الصلاح ويسخر ما فيه من العناصر ويجعلها منقادة لرياسة عقله .

هذا كلام « طيماوس » لسقراط الذي ألفه « أفلاطون » ، وإياك أن تظن أن هذا الرأي كان مبرهناً عليه عندهم ، كلا . فكما نقول نحن في ديننا : إنه لا تناسخ ، وهم يقولون أيضاً : إن هذا فرض فرضوه لا غير ، والدليل على ذلك ما قال في نفس هذه الرسالة قبل ذلك .

قال « طيماوس » : إني يا سقراط غير قادر أن أشرح لك فعل الملائكة بإذن الله ومنشأ الوجود شرحاً شافياً متصلاً في جميع أجزائه ، والأولى أن تقنع بكلامي إذا كان مشبهاً وأن لا تنسى أن كلاً من المتكلم والسامع من أبناء البشر ، فلا بد لنا أن نقنع في هذا الموضوع بما هو أشبه ولا نطلب ما فوق ذلك . انتهى .

فعلى هذا يكون هذا القول الذي ذكره وما يضاهيه من أقوال البراهمة في الهند كله أمر فرضي . فأما ديننا الإسلامي فتعجب من أمره . فهذا المقال فيه أمران :

الأول : أنهم فرضوا أن الله خاطب أرواحنا قبل حلولها في أبداننا ، وهذا أمر عجيب ، فإن هذا الفرض هو الذي جاء بتحقيقه الوحي ، فكأن العقول البشرية استشفت من وراء حجاب علوماً محجوبة عنها ، وهذه معجزة عظيمة تفسر قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ، فهذه آيات في صدور علماء الأمم قبل مجيء الإسلام ويكون ذلك حقيقة حاصلة لا مجازاً وهذا جاء به الوحي . إذن ظواهر الآية من خطاب الله لأرواحنا الذي جاء به الوحي قد جاءت به الفلسفة هذا هو الأمر الأول .

الأمر الثاني : وهو التناسخ ما هو إلا فرض افترضوه كما عرفته من كلامهم ، وإنما أوردت لك هذا القول لأريك أن الأمم قديماً بحثوا هذا الموضوع وفكروا في أصل خلقنا ولماذا خلقنا ﴿ وَلِكُلٍّ

دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾[الأنعام: ١٣٢]، وأصل المقام في أن الإنسان في الدنيا كالمعاقبين على ذنوب، والله يقول لنا: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الملك: ٢]، وهذا كاف واف.

وأما مسألة الكواكب وسكناها فأمرها مجهول وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «آل عمران» في مسألة الجنة والنار، وأن الجنة في السماوات والنار ليست في السماوات فارجع إليه إن شئت وهل هي مسكونة؟ إن العقل لا يمنع سكنى الكواكب بل هو يؤيدها ولكن لا دليل عليه، وإذا نظرنا إلى بيض السمك وبيض الدجاج وبيض المرأة في التناسل نستنتج أن الحياة لا تتوقف على حال خاصة. فكما أن بيض السمك يفرخ في الماء وهو بارد، وبيض الأنثى والدجاجة لا يفرخ إلا وهو مستدفئ، أي أن الحياة تحصل في الضدين.

هكذا القول إن الكواكب التي يخالف جوها وأحوالها جو أرضنا وأحوالها لا مانع يمنع من وجود حياة فيها مخالفة لحياتنا هنا لاختلاف البيئة والوسط، وتعطيل الكواكب يخالف الحكمة، فهذا يرجح سكنى الكواكب، ولكن من يسكنها وكيف يسكنونها؟. كل هذا مجهول قديماً وحديثاً.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: إن محصل ما ذكرت في هذا الفصل يرجع إلى التماس معرفة الحقائق في مسألة الخير والشر للإنسان، وأن فريقاً يقول: إن ذلك لذنوب سبقت من أرواحنا في عالم قبل هذا، وقد منعه ديننا وفلاسفتنا، وأن «طيماوس» يقول: إننا خالفنا أوامر الله التي أمر أرواحنا بها واتبعنا إضلال الحواس والشهوات، وإن كنا في أصل فطر أرواحنا متحدين منسوبين للنور الإلهي، وإن كنا أقل من أرواح العوالم العلوية.

ويقول «طيماوس»: إن عذابنا على ضلالنا يكون بالرجوع إلى أجسام منحطة، وإنك تسلم بمخاطبة الله لأرواحنا لوروده في الدين، ولا تسلم بهذا التناسخ الذي جعلوه هم فرضاً لا دليل له. هذا محصل ما قلته فهل تتذكر قولاً للقدماء غير هذا؟ فقلت: نعم سيأتي في سورة «الأنبياء» عند قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥]، إن دين قدماء الفرس تضمنه كتاب «الأوستاوزند»، ومعنى هذا: «المتن والشرح»، ويسميه الإفرنج «الزاندافستا»، وهو كتاب منظوم يقال إنه كان فيه ألف ألف بيت من نظم «زردشت»، وفقد أكثره في أيام الإسكندر ثم جمع الأكثر بعد ذلك.

هذا الكتاب ألفه «زردشت» المذكور بالري بالقرب من طهران قبل المسيح بنحو ستمائة سنة، وقيل قبل المسيح باثني عشر قرناً، أي قبل أن وصل قدماء الفرس إلى «إيران» وهذا كلام محققي الإفرنج. فهذه الديانة كما ستراه هناك كانت تقول في أصل الدين كما يقول الإسلام، فالإسلام يقول: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء: ٣٥] فالشر والخير مقرونان في الإسلام فإن نلنا خيراً شكرنا وإن أصابنا شر صبرنا، فالخير للاقتدار على فعل الخير والشر لتعليمنا خلق الصبر وقوة النفس. هذا ملخص ما في الإسلام، هكذا دين قدماء الفرس يقولون: إن الله واحد، ويمقتون عبادة الأصنام، ويقولون: إن الله عنده مبدآن: مبدأ الخير ومبدأ الشر وكل منهما ملازم للآخر، وهذا معنى المحيي المميت كالنور والظلمة. فمبدأ الخير اسمه «أهورامزدا» أي الروح الحكيم أو الجواد، ثم قيل «هرمزد» والثاني «انفرومانيوس» أي العقل المظلم، ثم صار «أهرمان»، فهذه تعاليم «زردشت» قبل أن

يرتحلوا إلى بلاد إيران ويختلطوا بالمجوس الذين أدخلوا الفساد في دينهم. فهذان المبدآن بعد أن كانا فعلين من فعل الله الواحد في دين «زردشت» صارا إلهين مختلفين إله الخير وإله الشر، فصار الفرس من الثنوية بعد أن كانوا موحدين، وهما إلهان دأبهما الخصام، فهذا يعطي المطر والخصب وهذا يرسل القحط والهوام والحشرات والشوك.

ثم قلت: إذن مسألة كثرة النسل قد جرت إلى نسل الحشرات والحيوانات الذرية، وهذه جرت إلى مسألة الخير والشر، ويرجع شر «طيماوس» إلى حواسنا وشهواتنا ودين قدماء الفرس ــ قبل انتقالهم إلى إيران ــ إلى أنه تقدير الله المحيي المميت، والمحدثون من الفرس المخالطون للمجوس يقولون: إن للخير إلهاً وللشر إلهاً. انتهى الفصل العاشر.

الفصل الحادي عشر

في ذكر آيات من القرآن تناسب هذا المقال، وقد تقدم ذكر آيات كثيرة في فصول متفرقة فلا نعيدها. انتهى يوم الجمعة ١٧ نوفمبر ١٩٢٨.

الجوهرة الثانية: في نظام نمو الحشرات

وقبل أن أغادر هذا المقام اللذيذ والعلم الجميل والحكمة البارعة في نظام النمو في أجنة النبات والسمك والإناث من نوع الإنسان لا يسعني إلا أن أريك أيها الذكي أجمل حكمة وأبهج علم في نموّ الحشرات، تلك العوالم التي عدّها العلماء بمئات الألوف، ولا يزالون يكشفون منها أنواعاً جديدة.

تلك العوالم البديعة جعلها الله محيطة بنا لندرسها، فمنها ما هو مؤذ لنا كالذباب والناموس والبق وهكذا، ومنها ما هو نافع كالنحل ودود القز، وهذا صورته (شكل ٧).



(شكل ٧)
صورة دودة الحرير وفيلجتها
كرة الحرير والحشرة التامة
التي خرجت من الفيلجة

أيها الذكي أنا لست الآن في مقام دراسة هذه الحشرة كأن أقول مثلاً: إن هذه الدودة التي أمامك منها في هذه الصورة اثنتان تأكلان ورق التوت أصلها من بيض صغير جداً مستدير مجوّف الوسط وله قشر صلب وهو سماوي اللون كثير العدد، فإن حشرة الحرير التي ترى أمامك في الصورة منها اثنتين أيضاً تبيض ٤٠٠ إلى ٥٠٠ بيضة وتجعلها في صفوف منتظمة قبل أن تموت.

هذا أمر ربما أنت كنت قرأته في المدارس فلأزيدك به علماً، وأنت تعرف أن هذا البيض لا يفرخ إلا عند اشتداد الحرارة في آخر شهر مارس أو أول إبريل، فبعد أيام قليلة ترى دودة الحرير تحاول

الخروج من البيضة فيقدم لها ورق التوت الذي أمامك فترعاه وتنمو، ثم إن لونها أولاً يكون أسود ثم يصير سماوياً ثم يصير كالقشدة، وتبلغ في الطول خمسة سنتيمترات وإذ ذاك تصير نهمة على الأكل، ومتى تم نموها يظهر عليها أنها تعبت من الأكل فتأخذ تزحف ببطء، ويكون حلق جسمها (١٣) مقطعاً وجلدها ناعم وفي جانبيها بقع سود ولها أرجل زوجية كثيرة العدد، وأكبر أقسام جلدها قرب الرأس وهو منتفخ وجلدها يسقط أربع مرات ويلتفت، ومتى سقط المرة الأخيرة تبتدئ الدودة في غزلها، وحالها إذ ذاك تخالف حالها حين خرجت من البيضة، والحرير عبارة عن مادة سائلة تخرج من رأسها ومتى لامست الهواء صلبت، وتدوم على هذا النسج من ثلاثة أيام إلى خمسة وهناك يتم الفيلج وشكله البيضي الذي ترى أمامك في الصورة اثنتين منه، وترى في داخل كل فيلجة ما يسمى «العذراء» أو يسمى «الدودة الحمراء»، ومتى نامت تلك الدودة في الفيلجة أسبوعين تخرج فراشة قشدية اللون ذات أربعة أجنحة كما تشاهدها في الصورة أمامك، وقرنين شعريين وجسم غليظ عند الأنثى، وهو دقيق عند الذكر، وتمكث قليلاً حتى تلقح الأنثى ثم تموت.

هذا هو تاريخ حشرة «دودة الحرير»، فأولاً تكون بيضة ثم دودة ثم تنام في كرة من الحرير وهي الفيلجة ثم تكون حشرة تامة تبيض ثم تموت، ثم يعيد البيض ما فعله آباؤه مدى الدهر، أنا أقول لك أيها الذكي: إنني لست في مقام أن أكتب هذا وإن كنت كتبته واضحاً لأن كثيراً من الناس قرؤوا هذا في مدارسهم، وترى التلاميذ يشاهدون هذا في صغرهم ويربون تلك الحشرة، هذا معنى قولي إني لست في مقام هذا التاريخ، وإنما الذي سقت له هذا القول أن أوزان ما بين نمو الحشرات ونمو الأجنة في بطون الإناث من بني آدم ونمو أجنة السمك الذي تقدم ذكره. هذه بيضة المرأة أمامك قد عرفتها وفهمت شرحها. هكذا اطلعت على نظام أجنة السمك.

فانظر للعجب العجاب. بيض السمك أفرخ ولم يتلاق الذكر والأنثى عند اللقاح كما علمت بخلاف بيض المرأة والحشرة. بيض السمك بعد الإفراخ نجده ترك كيساً من الغذاء لهذا الجنين يتغذى منه حتى يستقل وذلك بقدر، ولكن بيضة المرأة لا تحتاج لذلك ويقوم دم الأم بالتغذية، وبيض الحشرة المتقدمة أعطي ورق التوت الذي يحضره الإنسان طمعاً في الحرير.



فأما حشرة أبي دقيق فإن الإنسان لبغضه لها لا يحضر ورقاً بل الورق حاضر مما عندها بلا عمل الإنسان وفيلجتها ليست ذات قيمة حريرية بل هي ضيقة جداً، وهكذا فيالج بقية الحشرات لذلك أغناها الله بالورق من أي شجر. أما دودة الحرير فجعل لها ورقاً خاصاً وأكثر لها من الحرير ليعتني بها الإنسان.

(شكل ٨)
صور التقلبات لحشرة أبي دقيق من خروجها من البيضة إلى أن تكون حشرة تامة

فلها الحالات الأربع السابقة : بيضة فدودة ففيلجة فحشرة تامة وهكذا كل الحشرات . وهنا نذكر ما يقوله العلامة « أندرو ويلسون » في كتاب « علوم للجميع » يقول : بينما نرى دودة الحرير تأكل الورق بشراهة عظيمة نرى الحشرة التامة قد خرجت مخالفة لتلك المخالفة التامة ، فإننا نرى لها جناحين مستقلين وهي نشطة تريد أن تذوق لذة الحياة الجديدة ، ونسيت الأولى نسياناً تاماً . وهكذا إذا نظرنا للصور التي تقلبت فيها حشرة أبي دقيق فإننا نرى أنها وهي دودة قد أكبت على الأكل بشراهة ولما سمنت نامت ، ثم نسجت فيلجة ، ثم خرجت ذات جناحين وفم وغير الفم الأول ، الفم الأول كان يمزق الورق تمزيقاً ، والفم الثاني خلق مناسباً كل المناسبة لاستخراج ذلك الكنز الثمين والمخزن المكنون في الزهرات وهو العسل الذي تمتصه ، فهي تطير من زهرة إلى زهرة لتجتني العسل الرحيق ، ولما كانت دودة كانت تزحف على الشجر والورق وكان جسمها مساعداً لذلك مناسباً له . اهـ .

هذا مقال العلامة الإفرنجي في ذلك الكتاب . وهاأنا ذا جاء دوري في القول ولكن بطريق غير ما ذكرته أولاً فأقول : ألا حيا الله العلم وأنار ربوعه . هذه حشرة أبي دقيق وحشرة الحرير . فانظر كيف كانت حشرة أبي دقيق مثلاً على الأرض دودة ، هذه الدودة تزحف على الشجر والورق . ألست تراها كالإنسان الآن . ألست ترى أن الإنسان جهول وجهول . انظر ما سبق في آخر سورة « الكهف » من أن الإنسان الحالي ينتظر ارتقاؤه آلاف الآلاف أضعاف ارتقائه الآن . الإنسان الآن كدودة حشرة أبي دقيق ثم انظر ، ألست تراهم على الأرض شرهين يحارب بعضهم بعضاً .

هذا هو الشره الذي تمثله حشرة أبي دقيق . أو لست ترى أنه يجيء له يوم وربما كان قريباً تسكن شراهته كما سكنت شراهتها وهي نائمة في الفيلجة ، ثم يرقى الإنسان ارتقاء عالياً كما خرجت الحشرة من الفيلجة فصارت خلقاً آخر .

أقول : ربما كان ذلك ، وإن هذا الإنسان تتغير أطواره ويصبح الناس إخواناً في جو الحرية والجمال في هذه الدار ، ربما كان ذلك ويكون هذا الزمان المسمى زمان نزول المسيح . وهنا نظرة أخرى الإنسان في الحياة جماع مناع وذنوبه تبني عليه حجاباً كثيفاً كما قال تعالى : ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[المطففين : ١٤] وهذا الحجاب كالفيلجة فمن الناس من يخرجون مما حبست فيه عقولهم ، ومنهم من لا يخرجون فيزجون في عوالم جهنم ويمثل لهذا موت الفراشة في الفيلجة ، وأيضاً هذه الدروس ترينا أن الإنسان حري به ألا يقف على حال إلا طلب أعلى منها ، وأن الأمم الأرضية ليس مقضياً عليها بحال واحدة فربما يعقب الذل عزّ والاستعباد حرية ، كما نرى في حشرة أبي دقيق ، وترينا أن تربية الذرية تكون في كل شيء بحسبه ، ومن العجب أن يدخل الغزل والنسيج في تربية الحشرات ولا يدخل في نمو الإنسان والسمك وغيرهما .

إن الإنسان عليه الجد كما جدت دودة أبي دقيق ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[العصر : ٢-٣] . فالعمل بعد العلم الذي مبدؤه مجرد الإيمان هو الذي يخرج الإنسان من دور الطفولة إلى دور الرجال ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ ﴾ في عملهم ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ عليه . فالصبر هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى الدرجات كما رفعت الحشرات إلى درجة الطيران في الهواء .

فائدة: يقال إن ما ينسجه دود القز على نفسه من الخيط يبلغ (٣٠٠) متراً. وقد ألغز بعض الشعراء في دودة «القز»، فقال ما يأتي من الأبيات:

وبيضة تحضن في يومين	حتى إذا دبت على رجلين
واستبدلت بلونها لونين	حاكت لها خبئاً بلا نيرين
بلا سماء وبلا بابين	تثقبه من بعد ليلتين
فخرجت مكحولة العينين	قد صبغت بالنقش حاجبين
قصيرة ضئيلة الجنبين	كأنها قد قطعت نصفين
لها جناح سابغ البردين	ما نبتا إلا لقرب الحين

إن الردى كحل لكل عين

انتهى من «علم الدين».

الجوهرة الثالثة
في صناعات الحيوان وحكوماته وجمهورياته
وتقليد الإنسان له في ذلك كله

اعلم أن الحيوان خلق قبل الإنسان والإنسان مقلد له في سائر ضروب الأعمال الصناعية والسياسية وهاك البيان:

(١) عاشت الجرذان تحت الأرض فقلدها الإنسان الأول فعاش في الكهوف.

(٢) ثم رأى الظباء والمها تعيش في الأدواح والآجام فقلدها.

(٣) ثم رأى النمل تتخذ البيوت فاتخذها.

(٤) ثم رأى الحيوان المسمى «الكستور» وهو المسمى «الجند باستر» أيضاً، وهو الذي يبني بيته بالقرب من شاطئ نهر أو بركة ويتخذ له من أغصان الأشجار جسراً متيناً على هيئة سدّ يمنع عنه قوة السيل بأن يتعد تلك الأغصان بعضها فوق بعض ويلصق أحدها بالآخر إلصاقاً محكماً لا ينقصه شيء مما يحتاج إليه من هندسة البناء، فهذا الحيوان رآه الإنسان أنه كما يبني بيوته بهذه الهندسة يبني جسوراً وقناطر فصنع مثله.

(٥) ثم رأى الدب الذي في المنطقة الشمالية من الكرة الأرضية يسافر في البحر على قطع من الثلج إلى حيث يقصد:

(أ) وهكذا رأى السنجاب قوي العزيمة يركب خشبة بهيئة مركب ويرفع ذنبه للريح قائماً مقام قلع المركب ومقام السكان الذي يسميه «الدفة» ويقطع بذلك مجاري الماء.

(ب) وهكذا رأى الطوّاف وهو ضرب من ذوات الأصداف يسافر في البحار فيركب صدفته ويرفع مرساته وينشر أغشيته للريح شراعاً، ويسافر من مكان إلى مكان، ثم إذا فرغ من السفر ألقى مرساته وطوى شراعه واستقر في مكانه كأنه سمع قول الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوى	كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

فلما رأى الإنسان ذلك تعلم فن الملاحة من تلك الحيوانات. ويعتبر مثل هذا الحيوان سمكة صغيرة تعرف بـ« الديمورا » فإنها تتخذ لها أقوى السمك وأصعبه وأعظمه مركباً لها وتسير به حيث شاءت، ذلك أن لكل نوع من السمك عوامة ممتلئة هواء، وهذه العوامة بها يسير حيث شاء فهو يضغطها وينفخها كما يشاء، فيجري حيث شاء، ولكن « الديمورا » لم يعطها الله هذه العوامة ولكنه أعطاها ما يقوم مقامها وأكثر، كما أعطى الإنسان عقلاً يقوم مقام جلود البهائم وقوتها الخ، فلها في جانبي رأسها صمامات مستديرات في صورة شكل البيض، فمتى أرادت الانتقال إلى جهة تريدها عمدت إلى حيوان كبير من حيوان البحر أياً كان، فتلتصق به بواسطة صماماتها المذكورة فلا يمكنه أن يتخلص منها بحال، ولا يقدر أحد على فصلها بالقوة وتسافر به إلى حيث ما تشاء، وهي تفضل كلب البحر فتسافر عليه، وكلب البحر المذكور طوله عشرة أمتار وفمه عظيم جداً يبلغ طول فتحته نحو الثلث من طوله، ومحيطه ثلاثة أمتار وقطره متر واحد وجلده غليظ لا يؤثر فيه الرصاص، ويقطع محيط الكرة الأرضية في ثلاثين أسبوعاً، وجميع السمك يخشى بأسه وهو يتبع السفن ليلتقط جثث الموتى. وقد اصطاد أهل « مرسيليا » كلباً منه فرأوا في جوفه سمكاً كثيراً ورجلاً بثيابه، وهنا نقول: لماذا اختصت « الديمورا » بأنها تذلل كلب البحر وغيره فيجري بها؟. « الديمورا » كالإنسان بالنسبة للحيوان من بعض الوجوه، ولقد منعت وأعطيت. منعت العوامة وأعطيت سلطة بها تذلل غيرها ليجري بها. وهنا نقول: يظهر أن هذا العالم مبني على علم وعدل غير ما تعارفه الناس. الناس تعارفوا أن الإنسان لا يعمل لغيره إلا بأجر، وأين الأجر لكلب البحر لما ذلّله « الديمورا ». وفوق ذلك نرى كلب البحر يأكل غيره.

إن نوع الإنسان إلى الآن لم يقف على جلية الحق. إن الطبيعة المنظمة حولنا فيها قضايا غير التي يعرفها العدل في الأرض. يظهر أن الحقيقة غير ذلك. ألم تر أن السمك وحيوان البرّ والبحر تتغذى كلها بالهواء وبالماء وبالحشائش بلا مقابل. إذن هو لا عمل له وجميع حياته وقواه منحة من صانع هذا العالم للحي. فإذا ذلّله لغيره كان له ذلك، لأن الهواء والماء والحشائش والأرض كلها له. فإذا أمر « الديمورا » أن تركب كلب البحر فهذا حق، ويظهر لي أن هذه العوالم تؤلف هيكلاً واحداً ونظاماً واحداً وحيواناً واحداً، فكل حيوان أو نبات عضو منه، فليكن بعضه لبعض فداء، وهذا درس للإنسان. يقول الله بلسان « الديمورا » وكلب البحر: أنت مخلوق للجميع لا لنفسك فإن عرفت هذه الحقيقة فبها، وإلا فليخضعك الله لغيرك كرهاً كما أخضع كلب البحر لغيره. ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٧٧].

(٦) ورأى الثعلب البري والبحري والكلب والذئب وابن آوى وسائر السباع حرفتها الصيد ولا تعيش إلا به. وهكذا رأى الدب الأسود والكركي يعيشان من صيد السمك. فمن ذلك تعلم الإنسان حرفة الصيد.

(٧) ورأى العنكبوت يصطاد بشبكة ـ كما ستراه في سورة « العنكبوت » ـ فتعلم الصيد بالشباك.

(٨) ورأى بعض السمك له « منشار » و« بلطة » أي : سلاح حاد يشبه الفأس من بعض الوجوه فقلده الإنسان فيهما .

(٩) ورأى للسرطان درعاً يقي جسمه العوارض والمهالك فتعلم صناعة الدروع ، وهكذا منه أيضاً تعلم صناعة الملاقيط والكماشات .

(١٠) وأخذ صناعة « أحقاق النشوق » عن « الاستريديا » وعن « أم الخلول » كما في كتاب « علم الدين » لأستاذنا المرحوم علي باشا مبارك .

(١١) ورأى الخنزير يمد خرطومه فيشق الأرض فتعلم منه الإنسان حراثة الأرض بالمحرات بل ربما كان استخراج الذهب والفضة من الأرض بسبب تقليد الخنزير .

(١٢) ورأى الهرة تتوقى الروائح الكريهة المتصاعدة من الفحم فقلدها .

(١٣) ورأى الكلب يتعاطى مسهلاً عند انحراف مزاجه فأخذ الطب عنه .

(١٤) ولما رأى النمل تجند الجنود وتجهز الجيوش قلدها .

(١٥) ولما رأى اللقلق يعمل بالمشاورة في الأمور تعلم علم الدواوين وجعل له مجالس الشورى للنواب وللشيوخ كما هو مشاهد في هذا الزمان .

(١٦) ولما رأى الغراب كثير الحذر قلده .

(١٧) ولما رأى النسناس والكلاب تصاحب الناس اتخذ ملوكهم جلساء لهم ، وكذا الأمراء والعظماء .

(١٨) ولما رأى الناس السباع ذات جراة وظلم جاروا وظلموا .

(١٩) ورأى الخيلاء والكبر في النمر فقلده .

(٢٠) ورأى النحل مهندساً يبني بيته مسدس الأركان بنظام لا خطأ فيه بحيث يبني مساكن كثيرة في فسحة صغيرة بسبب حسن الهندسة والإتقان ، كما أتقن الله أدمغة الناس وأجسامهم وحسن أشكال أجسامهم ، فقلد الحيوان في ذلك .

(٢١) ورأى الخلد أعلم العلماء في معرفة أحوال الطقس فتعلم منه ذلك كبار فلاسفة الأرض و« المتيورولوجيون » .

(٢٢) ورأى « السمك الرعاد » قديراً على إظهار مقدار عظيم من الكهرباء ، فإذا لمسه الإنسان ارتعد جسمه واهتزّ اهتزازاً عنيفاً ، فقلده .

(٢٣) ورأى الأطيار تغني بغناء مطرب وصوت رخيم عجيب التلحين يشجي القلوب بتغريده ويطرد الأحزان فقلدها .

(٢٤) ورأى « فأر الجبل » يبني بناء متقناً فيجعل بيته على أقبية ويحفر له أقنية ليجري الماء فيها فقلده ، حتى قال فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف : ٥١] ، فيقال له : لقد سبقك بذلك « فأر الجبل » . وهكذا رأى الضب يبني بيته في أجود الأماكن وألطفها هواء فقلدها . قال الشاعر :

سقى الله أرضاً يعلم الضبّ أنها ... بعيد عن الآفات طيبة البقل

بنى بيته فيها على رأس كدية ... وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل

(٢٥) ورأى كلب الماء ماهراً في النجارة والبناية كثير القوة عظيم الهمة والإقدام فيقطع الأشجار وينشرها ويجعلها ألواحاً ثم يبني بها مدنه على جوانب الماء ويسكنها كأهل مصر وباريس وجميع الأمم المتمدينة الذين تعلموا منه الهمة والنشاط في ذلك .

(٢٦) ورأى من الزنابير صناعاً تصنع الورق فقلدها .

(٢٧) ورأى دود القز يغزل فتعلم الغزل .

(٢٨) ورأى دود الربيع نساجاً ينسج خيامه فتعلم منه النسج .

(٢٩) وبعض الطيور دقيق الصنعة في الحياكة فقلده في ذلك .

(٣٠) وبعض الطيور خياط يخيط الأغصان والأوراق ويسكن فيها فقلده في ذلك .

(٣١) ورأى النمل تكد وتكدح ليلاً ونهاراً مع الحكمة فتعلم منها ذلك . ولما كان أمر النمل عجيباً أردت أن أذكر هنا نبذة صالحة عجيبة تاركاً ما هو أعجب لما سيأتي في سورة « النمل » .

النمل في قريته : هندسة عجيبة

النمل والنحل كلاهما مثل للغريزة الصادقة التي لا تخطئ ، فكل منها يعمل أعمالاً غاية في الدقة والتعقيد ، فيجيد عمله كأنه يعقل ، وإن لم يكن للعقل أثر في جميع ما يعمله ، وإنما هو مسوق بغريزته يؤدي عمله أداء ميكانيكياً لا يتردد فيه ولا يفكر . وقرية النمل التي يعيش فيها مقسمة طبقات منها ما هو خاص بادخار الأقوات التي يخرجها أحياناً إلى سطح الأرض لكي يجف إذا رآها قد رطبت وأوشكت أن تتعفن ، ومنها ما هو خاص بالملكة ، وليس لهذه الملكة شيء من سمات الملوكية فإنها مثل ملكة النحل مقصور عملها وهمها على البيض فهي تبيض مدى عمرها . وتبلغ عناية النمل بقريته أنه يدفن ما يموت حتى لا ينتن جسمه ويوبئ القرية ، والنمل في القرية منقسم طبقات فمنه الجنود التي تختص بالقتال والدفاع عن القرية ، ومنه الإناث العاملات اللواتي يخرجن لجمع الأقوات وينظرن في مصالح القرية من رعاية الصغار وإخراجهن إلى الخلاء لتنفس الهواء النقي ثم العودة بهن إلى العناية بالقرية والملكة .

ويعتبر النمل من عجائب الطبيعة ، فإنها تخص نوعاً من الصراصير باختزان العسل فتجبر هذا البعض على أن يعب العسل عباً حتى يتورم جسمه ولا يستطيع الحركة ، ويتركه زمن الشتاء ، فإن أراد أن يشرب ذهب إليه وامتص منه قطرة كما يحلب الناس البقر ، وهو يعتني ببقره ويهيئ له علفه . ويقول الأستاذ « انفرث » وهو من أساتذة جامعة « ميونيخ » وقد اختص في درس طبائع النمل : إن النمل أحياناً ينغمس في تناول هذا الشراب حتى يسكر ، وليس للنمل أجنحة ما عدا الملكة والذكور فإنها مجنحة . ويقال : إن في العالم نحو ألف نوع من النمل تعيش في كل مكان عدا الأصقاع الباردة .

ومما يحكى عن غريزة النمل ما جربه بعضهم مع أحد أفراده ، فإنه أخذ نملة من قرية وأبقاها محبوسة عنده عدة أشهر ، ثم ردها إلى القرية مع نملة أخرى غريبة ، فقتلت النملة الغريبة في المكان وأذن للنملة الأصلية أن تدخل ، وذلك مع عدم وجود أي فرق بين الغريبة والأصلية من حيث النوع . وللنمل ما يشبه الذكاء والتفاهم ، فإذا وجدت نملة مقداراً من الغذاء ووجدت أخرى مقداراً كبيراً ذهبت كل منهما إلى القرية وبعد برهة تعود الأولى بعدد من النمل ، وتعود الثانية بعدد أكبر من النمل

لحمل الغذاء . وللنمل غزوات يقصد منها الاسترقاق ، فإنه يغير على القرى المجاورة ويخطف صغار النمل ويربيه فينشأ رقاً في القرية يخدم أسياده الذين يستعبدونه ، وقد ذكرنا الصراصير التي يختزن النمل في أجسامها العسل . وهناك المنّ أيضاً الذي يعيش أحياناً على أوراق القطن والذي يسمي الفلاحون إصابة أقطانهم به « الندوة العسلية » ، فإن النمل يخطف بيضه ويذهب به إلى قريته فيتركه حتى يتفقأ البيض ، فيقدم البعض لصغاره حتى يكبر ويشرب ما يفرزه من العسل . ووقت التلاقح تطير ملكات النمل ، فإذا تم التلاقح عادت إلى القرية وتقع جناحاها فلا تخرج بل تبقى تبيض حتى تموت .



(شكل ٩)
رسم قرية النمل وطبقاتها

(٣٢) والنسناس يفعل أفعالاً مضحكة وقلده الإنسان بما يسمى « البهلوان » وهو الذي يجري أو يرقص فوق الحبل وما أشبه ذلك .

(٣٣) ورأى القرد يلعب ويمرح حتى يضحك العبوس ويزيل الحزن فقلده وبنى دوراً للألعاب والأمور المضحكة وهي دور التمثيل المسماة « التياترات » .

(٣٤) ورأى في النمل الأبيض بنائين وملوكاً وجنوداً فجمع الإنسان ذلك كله وزاد عليه كثيراً .

(٣٥) ورأى كلاب الماء قد عاشت عيشة المساواة والحرية فقلدها الإنسان بحكومة الجمهورية كفرنسا وألمانيا وتركيا الحديثة وغيرها .

(٣٦) ورأى للنحل وللأرضة كما تقدم في سورة « النحل » حكومات فقلدها الإنسان كما ترى في مصر والترك والإنجليز والإسبان وما أشبه ذلك .

(٣٧) ورأى الأيائل الهندسية تعيش بهيئة مجلس من الشيوخ يحكمها كحكومة بني إسرائيل قبل أيام سيدنا سليمان عليه السلام فقلدها .

(٣٨) ورأى الأفيال تنقاد للأشراف منها ، فقلدها الإنسان فكانت حكومات الأشراف كما في جمهورية أفلاطون المتقدمة في سورة « النحل » .

(٣٩) ورأى الخيول البرية تنتخب لنفسها قواداً منها فتسير أمامها وتهديها في سيرها وتتسلط عليها ، فتعلم انتخاب الأعضاء في المجالس النيابية .

(٤٠) ورأى الغنم البرية تقيم عليها كبشاً منها يقاتل عنها ويسير في مقدمتها ويحميها ، فقلدها في ضباط جيوشه وفي رؤساء العاملين في سائر الأعمال . اهـ .

فانظر لهذا الجمال في هذا العالم البهج الجميل ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة : ١١٥] ، وانظر كيف وزع الله القوى والقدر والأخلاق والصناعات والعلوم على أنواع الحيوان وجمعها في هذا الإنسان ، وإنما جمعها فيه ليدرسها وليفهم قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه : ٥٠] ، فهذا هو الخلق وهذه هي الهداية . فيا ليت شعري من أين يعرف المسلمون معنى أمثال هذه الآية إلا بدراسة هذه العلوم .

اللهم إنك أنت المحمود على نعمة العلم ونعمة الحكمة . اللهم إنك أنت الملهم المعلم وإني أشكرك على ما أنعمت به عليَّ ، ووفقتني أن أجمع هذه الأربعين خصلة من صناعات وعلوم وسياسات وحكومات مفرقات في الحيوان مجتمعات في الإنسان من كتب قيمة حديثة العهد في هذا الزمان الذي انتشرت فيه بعض أنوارك وظهرت فيه بعض علومك وعجائب صنعك وبعض أسرار كتابك ، وأن ما كتبته الآن قطرة من بحر من بحور العلم المكنونة في غرائز الحيوان ، ونبذة من العلوم المخبأة تحت كلماتك المقدسة في كتابك . وعلى مقدار ارتقاء العقول في العلوم يزدادون ارتقاء في فهم كتابك . والحمد لله رب العالمين . انتهى ليلة الأربعاء ٩ مايو سنة ١٩٢٨ .

تذكرة : تقدم في سورة « يوسف » وفي سورة « المائدة » ذكر منافع الطيور وأن الحكومة المصرية منعت صيد طائفة منها ، وتراها مرسومة في سورة « يوسف » ، وذلك داخل في قوله تعالى : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه : ٥٠] فقد هداها الله لأكل الحشرات لمنفعة الزرع وهدى الناس لمعرفتها .

ولقد أصدرت الحكومة المصرية أمر أثناء طبع هذه الآية بمنع طيور أضعاف ما منعت في المرة السابقة لأنها اتسعت معلومات رجالها في ذلك وهاهي ذه:

الطيور النافعة للزراعة

صدر قرار لمعالي وزير الزراعة المصرية بحسبان الطيور المبينة بعد نافعة للزراعة وتحريم صيدها ومنع إتلاف بيضها وأعشاشها وهي «القنبرة وعصفور التين وأبو فصادة واللقلاق والشحفوت والجليل والكروان والسنونو والزرزور والدخلة والزريقة والحسيني والدح والكركي والوروار والبلشون وأبو قردان وعصفور الجنة والهدهد والبلبل والصفير والخطاف وأبو بلقية وأبو اليسر والزقزاق مطوق والزقزاق البلدي والغراب الزيتوني وأبو صدر «أبو الحناء» والجميرة والصعو والهزار والقميحة وأم الهوى وزقزاق شامي». انتهى.

مسامرة في حديث السحرة مع فرعون إذ قالوا له:

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[طه: ٧٤]

إلى قوله: ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[طه: ٧٦]

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في أمثال هذا المقام واطلع على ما تقدم وقال: لقد أحسنت صنعاً في الكلام على قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠]، إذ أبنت أن القرآن يدخل العلوم والحكم في غضون القصص وتكون تلك هي المقصودة، ولكن كيف أبنت تلك المحاورة الموسوية ولم تبين محاورة السحرة مع فرعون؟.

فالمحاورة الأولى قد استبان بها نظام هذه الدنيا، فهل من سبيل إلى أن تستبين الثانية بطريق مشوق جميل حتى نرى نظام الآخرة بهيئة تسر القلب وتشرح الصدر كما انشرحت صدورنا ببيان المحاورة الأولى وجمال نظام العالم الذي نعيش فيه؟.

فقلت له: إن ذلك يتمّ بذكرى أيام الشباب. فقال: إن ذكرى أيام شبابك قد تقدّمت مراراً في هذا التفسير وذكرتها في كتابك «التاج المرصع»، وإنك كنت تدرس الشجر والحجر والزرع والشمس والقمر وأنت لا علم عندك، وأيّ علاقة بين هذا وبين أجرام الإنسان، وجهنم وعمل الصالحات والدرجات العلى في الجنات؟ إني أخال ذكرى شبابك هنا لا يكون إلا تكراراً.

فقلت: لا تكرار فيه فإني سأحدّثك حديثاً عسى أن يكون شيقاً ساراً يلذ لي ذكره، ومتى كان القائل مبتهجاً بالقول ابتهج به السامع. فأما المتكلفون في أقوالهم وإن حسن أسلوبهم بلا قلب حاضر ولا شوق باهر فإن القلوب تنفضّ من حولهم ولا تنتفع الناس بأقوالهم، فأما أنا اليوم فسأعرض عليك ما كنت أجده أيام الشباب في الحقول وأنا لا علم لديّ ولا هدى ولا كتاب منير، إذا كان درسي هذه الدنيا الجميلة وشمسها وقمرها وزرعها وثمرها وكلؤها وأنهارها فلأسمعك ما يروقك سمعه ويلذ لك وقعه ويكون ذكرى للذاكرين. تلك أيام الثمانية. فقال: ما معنى أيام الثمانية؟.

فقلت: الثمانية اسم لأرض كان يملك أبي فيها بضعة أفدنة «جمع فدان»، وكنت أعمل معه فيها قبل سن البلوغ.

ولما دخلت الجامع الأزهر كنت أعمل في تلك الأرض أيام العطلة الصيفية، ونزرع الذرة والقطن ونحوهما، وفي تلك الأيام كنت أرى والدي قد اعتراه نوع من الضعف. فهنالك اهتمت النفس بأمرين: أمر الأسرة والإشراف عليها لحفظ كيانها، وأمر شغلي بنفسي وجهلها مع النظر العام في دين الإسلام مع ضعف صحتي وملازمتي للصيام في بعض الأيام وللتهجد ليلاً، وهاهنا بيت القصيد. فلأبين الآن مقصدين:

المقصد الأوّل: فوائد الجسم من الأعمال في الحقول تبياناً لعمل الصالحات في الآية. المقصد الثاني: كيف ضعف جسمي في باب البحث في أمر الروح ودرجاتها وأنها تكون في طبقات من الأثير بعد مفارقة هذه الأبدان تبياناً لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾[طه: ٧٥].

المقصد الأول

لقد كنت أعمل في الحقل وأحسّ بعد الفراغ من العمل براحة ولذّة وسرور وانشراح صدر وكنت إذ ذاك لا علم لي إلا بكتب النحو وكتب الفقه على مذهب الإمام الشافعي؛ فقد تعلمت كتاب ابن عقيل على الألفية وكتاب التحرير في الفقه على مذهب الإمام الشافعي وقليلاً من علم التوحيد. وهذا كل العلم الذي تعلمته إذ ذاك من الأزهر. فإذا أتممت عمل الحقل وجلست تحت شجرة آخذ كتاب تفسير الجلالين وأقرأ التفسير وأجتهد أن أستحضر كل ما قرأته، فكنت أجد لي فهماً لم أعهده في ذلك الهواء الطلق، وتارة كنت في أثناء إدارة آلة استخراج الماء من النهر أجد نفسي أخذت أفكر في تفسير ربع من أرباع القرآن، فربما قضيت زمناً ليس بالقليل وأنا أستخرج الماء بتلك الآلة ولا أحسّ بتعب من العمل، وبعد الفراغ من العمل أعرض ما جال بفكري على ما جاء في التفسير، فأجد المطابقة تامة غالباً، فكان ذلك يفرحني ويشرح صدري، وأذكر أنني كنت أغدو وأروح من الحقل إلى المنزل ونفسي لا تفتأ تذكر هذا العالم وكيف خلق، وكنت أقول هما أمران: إما أن يكون العالم لا أوّل له من نفسه، وإما أن يكون الذي لا أوّل له هو الذي خلقه.

إذن لا بد من واحد منهما يكن قديماً، فالقدم لا بد منه إما للعالم وإما لصانعه. فالقدم إذن من ضروريات هذا الوجود، فلا غرابة إذن إذا قلنا: إن الله لا أوّل له، لأنا إذا لم نصف الله بهذا الوصف وجب أن نصف العالم به إذا قلنا إنه لا خالق له. وهكذا من الخواطر التي كانت ترد على النفس صباحاً ومساء، وطالما كنت أرى في نومي أني حائر في أمر الشمس وكيف تكون في القطبين أيامها ستة أشهر وكذا لياليها، وأنا لا أعقل لهذا معنى لأني كنت أسمع ذلك من بعض قراء الفلك بالطريقة القديمة. هذه كانت رياضة جسمي في الحقول ويصحبها الفكر الذي لا أقدر على التخلص منه صباحاً ومساء ليلاً ونهاراً، والذي أقصده الآن في المقصد الأول أن أبين صحة جسمي وانشراح صدري وتوقد قريحتي في العمل في الحقل. وما كنت أعمل هذا العمل في الحقل لأجل الرياضة، كلا إذ لا علم لي بأن هناك رياضة مطلوبة. كلا، فلا علم عندنا بذلك، بل كانت عادة أهل بلادي أنهم يحقرون العمل ويرون أن الإنسان كلما علا مقامه كان أبعد عن العمل، فلذلك تجد الأغنياء في قطرنا يرون العمل حطة قدر فيترفعون عنه ويجلسون، فالأغنياء من الرجال والنساء كثيراً ما يصابون بأمراض مزمنة وتعتريهم الأوصاب غالباً، ذلك لما وقر في نفوسهم من أن الكرامة في عدم العمل.

وقد كان العامة من أهل بلادي يعجبون كيف أكون أعلم خلق الله في نظرهم ولا نظير لي في الاجتهاد في العلم ثم أتعاطى الفلاحة وأمسك الفأس وأقطع الحشيش وأسقي الزرع، كل ذلك عار ويقولون مثل هذا يجب أن يكون بجانب العمود في الأزهر وتطلع له جراية ولا يكون في الحقل. فانظر ماذا جرى؟ جرى بعد ذلك أنني لما رجعت الأزهر ثانياً ودخلت «دار العلوم» وعلمت في المدارس وقرأت بعض أخبار الأمم علمت ما يأتي: إن أهل الولايات المتحدة يأمرون تلاميذ المدارس أنهم أيام العطلة يتوجهون إلى القرى فيتعاطون الفلاحة مع الفلاحين.

ولما رجع أولئك التلاميذ إلى المدارس وازنوا بينهم وبين التلاميذ الذين لم يعملوا زمن البطالة فوجدوا أن أولئك العاملين في زمن البطالة في الفلاحة أصح أجساماً وأحسن أخلاقاً وأرقى درجات في العلوم من أولئك الذين لم يكلفوا بتلك الأعمال.

ثم رأيت أن كبار العلماء يقولون: إن أعلى الرياضة أن يعمل الإنسان في الحقول والبساتين، وأوسطها أن يمشي كل يوم أميالاً، وأدناها أن يحرك أعضاءه الحركات التمرينية المسماة الجمبز. هنالك أخذت أقص على تلاميذي هذه الأحوال كلها وأنصحهم آخر السنة أن يفعلوا ما كان اتفق لي وأنا مجاور بالجامع الأزهر، إذ كنت أعمل في الحقل وأحس بقوة عقلية وأخرى جسمية، وأذكرهم بأنهم غالباً من أبناء الأغنياء الذين يحبون العمل، وكنت أقول هكذا إن هذا العمل يعطي: (١) قوة الجسم. (٢) قوة العقل. (٣) انشراح الصدر. (٤) النظر في أنواع النبات. (٥) الذكاء والفطنة بالمحاذاة أثناء العمل على أنواع النبات. (٦) والبحث عن الضار له ثم إتلافه. فذلك كله يجعل للإنسان رياضة جسمية وأخرى عقلية. (٧) التمتع بالهواء الطلق. (٨) التمتع بضوء الشمس وهما الغذاآن اللذان يجهلهما أكثر الناس وإن أكثر الناس لا يعلمون. هذا مبدأ عمل الصالحات، فالرجل الضعيف الجسم الجالس في حجرة فاسدة الذي أغمض عينيه عن جمال هذه الأشجار والحشائش والأنهار الساهي اللاهي كيف يعمل الصالحات.

الله أكبر. أول عمل الصالحات العناية بأجسامنا وعقولنا. فإذا قال السحرة لفرعون: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[طه: ٧٥] فهذا مبدأ عمل الصالحات، وإذا سمعت الفقيه الإسلامي يقول لك: عمل الصالحات الصلاة والزكاة والصيام والحج فلا صلاة لمن لا صحة له والزكاة والحج لمن عنده مال والصحة تساعد على هذا كله وكثير من المرضى لا صوم عليهم. وأيضاً كل هذه الصالحات والعبادات أقل ثواباً من النظر في هذا الوجود واتساع العلم ولا نسبة بين العلم والعمل، ولا علم لمن لا صحة له ولا عقل. إذن ما ذكرته في هذا المقام هو المبدأ العام لعمل الصالحات الذي ذكره سحرة فرعون وإذن تكون هذه القصة قد جاء في أولها النظر في العلوم في محاورة موسى مع فرعون، وهنا جاء فيها النظر في العمل وفي الآخرة، فكأنها أدخل فيها كل علم الدين، فقال صاحبي: لم يذكر هنا إلا مبدأ العمل الصالح وهو صحة الجسم والعقل فأين الآخرة إذن؟ قلت: في المقصد الثاني كما قدمت لك.

المقصد الثاني

كيف كان ضعف جسمي سبباً لفتح باب البحث في أمر الروح ودرجاتها وأنها تكون في طبقات من الأثير بعد مفارقة هذه الأبدان تبياناً لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[طه: ٧٥].

لقد تقدم في سورة « الإسراء » تحت عنوان : كيف كان مبدأ تفكري في أمر الروح ، وذلك في أوائل تفسير السورة أن قلت : إنني اعتراني دوار فغشى عليّ وأنا أعمل في الحقل وذلك لضعف جسمي ، فأورثني هذا الدوار شكاً في حياة الروح بعد الموت ، وقلت : إذا كان الدوار في رأسي أو الإغماء قد فقد حسي فكيف بالموت إذن لا حياة بعد الموت . وبعد ذلك بأمد توجهت إلى الأزهر بعد ترك الدروس ورأيت في المنام قائلاً يقول لي : انظر ، فنظرت فإذا شكل أبيض وسط الزرقة الجوية فوق المقابر ، ثم قال : هذه هي الروح ، واتفق أن ذلك ليلة الخميس . ولما طلع النهار وقع في يدي كتاب « ابن مسكويه » وفي أوّله أدلة الروح ، فعجبت من علم لم أدرسه مدة حياتي موافقاً لما رأيت . كل هذا تقدم هناك في التفسير ، والآن أريد أن أبين الحقيقة ناصعة وأذكر ما عرفته فوق ذلك ، ولكن قبل ذلك أذكر بهجة الحكمة وحسن البشائر التي نلتها في حياتي وعجائب الأنوار الإلهية . ذلك أنني أثناء انقطاعي عن العلم وحيرتي وشكي في أمر الروح وغيرها كنت أجد شوقاً عظيماً إلى أن ألج دور العلم كرة أخرى ، وكلما هبّت النسمات وتمايلت الأغصان تذكرت العلوم والدراسة . ففي ذات يوم وقت الفجر صليت الصبح ووقفت بجانب شجرة والنسمات تهب وإشراق الصباح معترض في أفق المشرق والجوّ لا يزال حالكاً مكفهراً والنجوم لا تزال تتلألأ في آفاق السماء ، إذ رفعت طرفي إلى السماء وقلت : يا الله ما هذه الأشواق المنبعثات إلى طلب العلم . اللهم إني قرأت كتب العشاق فلم أجد عاشقاً نال جميع مراده ، فإذا أسعدتني بطلب العلم مرة أخرى فأنا أسعد العاشقين . اللهم إن كنت قدرت أني لا أرجع إلى التعليم فأطفئ النار المتأججة في صدري وارحمني . ولما كان اليوم الثاني في نفس الوقت وقفت بجانب الشجرة وقلت : يا الله هذه هي الأشواق لا تزال بل ازدادت فأين قضاء حاجتي؟ إذن أنت تريد إخضاعي إلى الأزهر لطلب العلم ، فهاأنا ذا منتظر ، ولقد تم ذلك بعد زمن قليل بعد اليأس الشديد .

وإذ فرغت من بهجة العلم بهذه المسامرة أرجع لتبيان حالي بعد تلك الرؤيا وقراءة كتاب « ابن مسكويه » أقول : ألفت كتباً كثيرة قبل تأليف هذا التفسير مثل « جواهر العلوم » و« ميزان الجواهر » و« النظام والإسلام » و« نظام العالم والأمم » و« أين الإنسان » و« جمال العالم » و« نهضة الأمة وحياتها » و« جوهر التقوى » .

رؤيا منامية

وبينما أنا جالس مرة في متنزه من متنزهات القاهرة إذ أخذتني سنة من النوم وقائل يقول : اسمع إن الإنسان ينتقل من عالم إلى عالم وكل عالم ينتقل إليه تكون أعماله السابقة التي تكلفها ونصب فيها أصبحت له غريزة وطبيعة فيتعلم أعمالاً أخرى وهذه تصبح له غريزة فيما بعد ذلك وهكذا طبقاً عن طبق . أفهمت هل تشك في كلامي؟ فاستيقظت وأنا متعجب من علم لم أسمع به ولا أدري ما السبب فيه ، وبعد ذلك اطلعت على علم الأرواح الحديث ، فماذا رأيت؟ رأيت أن علماء الأرواح يقولون ما يأتي :

إن روح الإنسان في هذه الحياة لها فضائل كالحب والقناعة والعلم ، ورذائل كالحسد والطمع والجهل ، وهذه أشبه بسوائل تنبع من الجسم الأثيري الذي ينطبق على هذا الجسم المادي حاضراً معه الآن ، وهذا الجسم الأثيري لطيف ألطف من الأنوار ، وهذه الأشعة المنبعثة من هذا الجسم تؤثر فيمن

حوله حباً وبغضاً وقبضاً وبسطاً وصحة ومرضاً. وما مثل تلك السوائل الأثيرية إلا كمثل الروائح الكريهة والطيبة، ولا جرم أن آثار الهواء الفاسد يخالف آثار الهواء الصالح، ولذلك يحس الإنسان في الجمع الملتئم بانشراح، وفي الجمع المختلف بانقباض لأن لنفوس الجالسين سوائل معنوية تؤثر في الجالسين معهم ألماً لشدة المنافرة، أو سروراً لاتحاد الأفئدة. وبتواتر الشعاع الضار على الأنفس الأخرى يحدث فيها مرضاً تارة وآراء ضارة أخرى، سواء أكانت الروح الضارة مجسدة أم مطلقة، ولا يمنع ضررها عنا إلاّ أن ننظف أنفسنا بالفضائل، هنالك لا تؤثر فينا تلك الأرواح كما لا يقع الذباب إلا على العين القذرة، ويتفرع على ذلك مسألة العين، وأن الرجل العائن يخرج منه سائل كريه ينفذ في جسم من يقصد ضرره فيؤثر فيه، وهكذا التأثير بالسحر. كل ذلك راجع لتوجه النفس، هكذا أولئك الذين يشفون من المرض بنظراتهم أو بوضع أيديهم عليه فيحصل الشفاء إما حالاً وهو نادر الوقوع، وإما بعد التكرار وهو كثير. كل ذلك بسبب السوائل الجيدة الناشئة من قلوب طيبة محبة للناس ومنفعتهم.

إن أرضنا التي خلقنا عليها مغمورة في ذلك الأثير الذي هو ألطف من النور المحسوس، ولكن هذا بالنسبة لما يحيط بالكواكب الأخرى خشن، وهذا كوكب وراء كوكب، فكلما كان الكوكب أرقى كان الأثير المحيط به ألطف وألطف، والروح بعد الموت لا تقدر أن تصعد إلى عالم أرقى في هذا الجو الفسيح إلا إذا استعدت له، فإنها قد ترى أنواراً بهجة لا تقدر على ولوجها، وعظماء أعلى فلا يمكنها أن تعيش معهم، إذن هناك في البرزخ درجات. فقلت: لعل هذه الحقيقة فيه، ولقد عجبت كل العجب إذ رأيت هذه المعاني في ذلك العلم، وأن القوم يقولون: إن الإنسان جسمه الروحي الأثيري «الكوكبي» متصف بالصفات التي ذكرتها لك هنا، ويقولون:

(١) إن الروح لا يصعد إلى طبقة إلا إذا استحقها بجهده.

(٢) وإن تلك السوائل النابعة منه تكون مانعة له من الاجتماع بمن ليس على شاكلته.

(٣) وإنه يفرح بأمثاله ويغتم بمن ليس على شاكلته.

(٤) وإن هذا الجسم الأثيري تنطبع فيه كل الآراء والعلوم والمعارف والمعاصي والأميال والشهوات، فهذه كلها ترتسم فيه وما هو إلا كلوحة المصوّر الشمسي، وما أعمالنا وأميالنا وعواطفنا إلا كالصور المرسومة في اللوحة ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾[الإسراء: ١٤]، ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا ﴾[الكهف: ٤٩].

(٥) إن هناك شموساً أوسع من شمسنا كالجوزاء، وما المجموعة الشمسية كلها إلا مثل كوكب واحد من الكواكب العظيمة، ولعلّ هناك حياة أرقى، بل علماء الأرواح نقلوا عن الأرواح أن الحياة هناك لا حدّ للسعادة فيها، وأن النفوس إليها ترتقي كما تقدم في «آل عمران» عن روح «غاليلي» الفيلسوف، إذن هذا قوله تعالى: ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾[الانشقاق: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾[آل عمران: ١٣٣].

فهانحن أولاء قد علمنا كواكب عرض الكوكب منها كعرض المجموعة الشمسية التي تشتمل على سماواتنا وعلى أرضنا.

إذن الأمر واضح فلله مخلوقات علمناها لها هذا الوصف وعرضها عرض السماوات والأرض فعلاً، وربما كانت طبقة من طبقات الجنات، وربما كانت تشبهها في السعة، وعلى كل فعلمنا بها جعلنا نتصور الجنات العلى، وأن أمثالها في القدر موجود فعلاً، ولست الآن في مقام الادعاء أننا علمنا هذه الحقائق، فإن الرؤى لا تكون دليلاً ولا كلام علماء الأرواح، وإنّما ذلك يفتح باباً للبحث والتنقيب في هذه المسائل وشرحها بالعلم والحكمة، وإذا كان الصالحون أمثال الخوّاص والشعراني والشيخ الدباغ يقولون: إن أرواح الأموات في هذه الطبقات العلوية في الجو كما يقول علماء الأرواح وذلك تقدم في هذا التفسير نقلاً عنهم. فهذا كله لا يعطينا اليقين، بل يجعل المقام معداً للبحث فالوجدان والرؤى وعلم الأرواح كل هذه لا تعد برهاناً قاطعاً، وإنّما تعطي دليلاً يعطي بعض النفوس بعض الإقناع لتطمئن للبحث والجد عسى أن تصل إلى المعرفة واليقين. إن هذين النوعين وهما العمل الصالح والدرجات العلى في هذا المقال كان مبدأ أولهما الرياضة البدنية في الحقول التي هي أرقى الرياضات، ومبدأ ثانيهما في أمر الأرواح وتركها أثقال الأوزار من العلائق الأرضية بإصلاح النفس وتهذيب الخلق وارتقاء المجموع الروحي في عالمنا الأرضي، حتى يستعد للاجتماع بعالم أعلى في كواكب أخرى مسكونة، ولا يزال هذا النوع الإنساني الأرضي يرقى في الكمال، وبارتقائه يستأهل للاتحاد بطوائف أخرى، وهكذا طبقاً عن طبق حتى يكون أهل الأرض متحدين بعوالم لا ندري عددها، وعلى قدر الارتقاء وازدياد المتحدين تزداد السعادة والارتقاء إلى أن يصل الإنسان إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر في عوالم مجهولة لنا كل الجهل، ثم إن ما قلناه في السعادة والشقاوة في طبقات الأثير إنّما هو عذاب ونعيم البرزخ لا عذاب ونعيم الآخرة فذلك له شأن آخر ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٢٧].

وفي ارتقاء الإنسان في هذه الطبقات يشاهد ـ كما يقول علماء الأرواح ـ الساحات الواسعة التي لا حد لها وفيها تلك الملايين من الشموس البديعة الزمردية والياقوتية والزبرجدية وسرعة سيرها وتجاذبها، ويدهش للعوالم الجديدة التي تبرز في الوجود ويبقى متمتعاً بهذا الجمال البديع، وهو ثمل ببهجة تلك المحاسن وعجائبها، وهذه هي الحال البرزخية، ثم تنتقل الروح إلى كوكب أرقى في أجساد لا كالأجساد الأرضية، بل تكون ذات خفة ولطافة فتموج على سطح الكوكب أو في أرض الجنة موجاً بلا كلفة ولا مشقة، وتلتئم أرواح أهل أرضنا الذين ارتقوا مع أرواح أرضين آخرين، وينشئون من طبقات الأثير روائع المصنوعات الفاخرة بمجرد إرادتهم، لا بمشقات كأهل الأرض الآن، وهم بما أوتوا من علم وحكمة يرجون الأثير رجاً فتحصل فيه تموّجات موسيقية تسبي العقول وتسكر الأرواح، ثم إنهم يقيمون أفراحاً عامة وأعياداً زاهية زاهرة باجتماع الأرواح العامة من الأقطار المتباينة، فيفرحون بانتصارهم جميعاً على ما قاسوا من شدائد ومصائب في الأرضين المختلفات اللاتي تعدّ بالملايين، كما يجتمع في أرضنا المسكينة أهل كل دين من الأديان الأرضية فرحين بإكمال العناء في صومهم أياماً معدودات، وانتصارهم على شهواتهم المانعة لهم من الخروج من هذا العالم المادي القاسي العظيم المشقات، وإذا تفرقوا اجتمع كل جماعة منهم حول روح عظيم يتلقون تعاليمه، وبعد ذلك يتوجه كل منهم إلى عمله الجديد الذي يزيده ارتقاء، فإن لكل روح عملاً لا يتعداه على مقدار قوته وكفاءته، ولا

دخل للاختصاص أو التميز، كلا، بل الكفاءة هي الميزان، فأرقى هذه الأرواح من يوكلون بقيادة الشعوب وحراسة الأفراد وترقي الصناعات.

هذا ملخص ما جاء في كتاب «المذهب الروحاني» ملخصاً له مؤلفه من المؤلفات الحديثة في العلوم الروحية بأوروبا. فنحن إذن على الأرض ملزمون أن نقلع عن النقائص، وأن نحب الله ونحب الخير لعباده، ونحاذر كل الحذر من الخطأ، ونستعين بالله، ونحن سنرتقي طبقاً عن طبق، وأرواحنا مستعدة يوماً ما أن تتقابل مع أرواح أرقى وأرقى، بشرط أن تستأهل لهذه المرتبة بالجدّ والاجتهاد. ثم إن أرواحنا قد يوكل إليها إدارة العوالم عالماً بعد عالم، وتكون أجسامنا روحية لا مادية، ولا تزال تلطف طبقاً عن طبق حتى تصل إلى الله. ويقولون: إن هذه الأرواح كلما ارتقت ازدادت اتحاداً فتكون أشبه بأرواح تلاميذ لشيخ صادق قد أصبحوا كأنهم روح واحدة، أو كالعاشقين الصادقين اللذين اتحدت نفساهما فصارتا نفساً واحدةً بحيث يصبح كل ما في ذهن أحدهما يخطر لذهن الآخر مع الحب والرضا والبهجة. وهذا الذي قالوه لا يمنعه علماء الإسلام، فقد نقلت لك عن العلامة الفخر الرازي أنه يقول: إن أرواحنا مستعدة لإدارة العوالم، آخذاً لها من قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] في سورة «النازعات». فهذا القول هو نفس قول علماء الأرواح.

ويقول الله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [المطففين: ٣٥]. وتقدم عن بعض الصالحين في هذا التفسير أن نفوسنا في عالم البرزخ تكون في طبقات هذا الجو في عوالم السماوات المعلومة للناس، فأما عالم الآخرة ويوم القيامة فشيء آخر. هذا معنى ما جاء في: الفاتحة والتشهد والقنوت في الصبح.

أفلا ترى أن قول المسلم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] يفسره قول موسى لفرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٣٨]، كأنه يقال: لم تحمد الله؟ فيقال لأنه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، لأن هذا هو ربي تربية العالمين، وقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] هو عين قول السحرة لفرعون: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [طه: ٧٥]. وقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] لم يخصه بأهل أرضنا المساكين بل جعله عاماً ليشمل أرواح جميع ملايين الكواكب التي عرفناها والتي لم نعرفها. فقول المسلم الذي سيأتي بعدنا: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] يحضر في نفسه عوالم وعوالم ويتصوّر أرواحاً عالية تصوّراً إجمالياً فيشتاق إليهم حتى إذا ارتقى بعد الموت فرح بهم. وكيف يفرح بما لم يتشوق إليه؟ فإذا اجتمع بهم صاروا إخواناً على سرر متقابلين، ويتصور المسلم بعدنا النعمة المذكورة بأنها درجات بعضها فوق بعض، بحيث يرتقي عالماً بعد عالم إلى مالا نهاية له، وذلك على سبيل التصور الإجمالي. هذه آراء من بعدنا في «الفاتحة»، يرونها منطبقة في ترتيبها على ترتيب المحاورتين هنا بين موسى وفرعون ثم بين السحرة وفرعون.

هكذا يرون معنى التشهد، فأوله «التحيات لله»، والتحيات لله إنّما تكون على نعم واصلة من الله، والنعم هي قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] الخ، وبعد ذلك يسلم المسلم على نبيه وعلى نفسه وعلى عباد الله الصالحين أي سواء أكانوا في أرضنا أم في غيرها، وهذا السلام والأمان والسعادة نتيجة لهدايتهم إلى الصراط المستقيم صراط المنعم عليهم، وهو صراط واحد، وهو خلوصهم

من أدران هذه العوالم المادية ورجوعهم إلى ربهم، واتحاد أرواحهم باتحاد صراطهم، ولا سلام إلا بالاتحاد الروحي، بخلاف أهل الأرض الذين نعيش معهم، فهم قوم جهلاء ونحن شاركناهم في جهلهم، لأن الإنسان الواحد لا يستقل بالسعادة فلا بد من المشاركة لغيره، ومن أراد السعادة وحده فهو جاهل مغرور. فأرباب الخلوة والمنقطعون عن الناس الذين يحبون ربهم ويتركون عبادة قوم لا يعلمون فلا سلام لهم، بل المسلم يطلب السلام لنفسه ولكل صالح، ويسير على صراط المنعم عليهم من كل عالم خلقه الله في أرضنا وغيرها، وهذا قول المسلم أيضاً: «اهدني فيمن هديت» الخ في قنوت الصبح. ثم إن السلام على عباد الله الصالحين يرجع إلى اجتماعهم في الدرجات العلى في الآية هنا. فترتيب «الفاتحة» هو ترتيب التشهد هو عين ترتيب المحاورتين هنا: محاورة موسى مع فرعون، ومحاورة السحرة معه أيضاً.

حمد المؤلف ربه

أفلا يجب علي الآن أن أحمد الله الذي وفق وهدى لما أكتبه الآن، فالموضوع كله راجع إلى أمر عادي، ذلك هو عملي في الحقل بالفأس فأغمي علي لضعف جسمي، فالعمل نفسه في الحقل انتهى الأمر فيه إلى علم الرياض البدنية في الولايات المتحدة، وأن ما اتفق لي من العمل في حقلنا بلا علم هو نهاية ما قرره علماء عصرنا في رقي الأخلاق والعلم. وأما الإغماء فقد فتح لي باب الشك في بقاء أرواحنا فماذا تمّ بعد ذلك؟ رأيت في النوم بياضاً في جو السماء الأزرق، فقيل لي: هذا روح، ثم قرأت أدلة الروح في الفلسفة، ثم قرأت آراء علماء الأرواح المطابقة لآراء علماء الإسلام انتهى، ثم الأمر باجتماع عظيم لأرواح من كواكب لا حصر لها، فصارت أمة تحب ربها وكل له مقام معلوم، فعمل جسمي انتهى بالرياضة العامة والإغماء عليّ في الحقل انتقلت النفس منه إلى عوالم تتحد بلا حصر ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢].

إن نتائج هذه العلوم الروحية التي ظهرت حديثاً لا حد لها في الإسلام. فالقرآن ذكرت فيه الملائكة، وأمرنا نحن بالإيمان بها، وبهذه العلوم عرفنا أن هذه الملائكة لا يحصرها عدد وأنها قائمات بنظام عوالمنا محصيات لأعمالنا، وبهذا تنحل كل مشكلة في الدين والقرآن، فلا وسوسة ولا إلهام إلا بما استعدت له نفوس المتحدين في الأرض بقبولها آراء أشكالها من الأرواح الخبيثة والطيبة، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[الانفطار: ١٠-١٢]، وقوله: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾[الطارق: ٤]. وهنا لا حدّ لثمرات هذا العلم في الإسلام، والمسلم بعدنا الذي ستفتح له أبواب وأبواب من العلم يصبح من عالم أرقى من عالمنا الإسلامي الحالي الذي لم تفتح لأكثره العلوم، فالحمد لله رب العالمين.

بهجة العلم: نور على نور

لما اطلع على ما تقدم صديق لي صالح قال: إذا كان عملك في الحقل وضعف صحتك إذ أغمي عليك قد اتصل أولهما بأحسن الرياضات لطلاب الجامعات بأمريكا، وثانيهما بتقابل الأرواح من سائر أنحاء الكرات السماوية، فهذا معناه أن المصاعب الجسمية والحيرة العقلية تفتق الأذهان لمعرفة الحقائق. فقلت: نعم.

الحيرة والشك وحوادث الدهر
موقظات للحكمة والرقي في أعمال الحياة

إن ما اعترى هذا النوع الإنساني من حوادث الدهر وتقلب الأيام هو الذي رفعه إلى الرقي.
فهاهي ذه أمتنا المصرية لما قامت الحوادث العرابية ودخلت الأمة الإنجليزية البلاد حرك ذلك من النفوس وجداناً فاستيقظت للسياسة ولتعليم الشبان بعض العلوم، فلولا الحوادث العظيمة ما قامت لنا في هذين قائمة، فلقد كان التعليم قبل ذلك يرجع للحكومة وحدها والشعب نائم. أما الآن فالشعب هو الذي اندفع من نفسه لحوز العلوم، وهكذا الأمة الهندية التي كانت تحت حكم ملوك المغول المسلمين، فلما ورثها الإنجليز وحلوا بساحتها ثم كانت ثورة سنة ١٨٥٧ الشهيرة، هنالك استيقظ المسلمون وقام السيد أحمد خان وأسس كلية «عليكره»، وأصدر صحيفته «تهذيب الأخلاق» باللغة الأردية، وظهر فيهم شعراء أمثال الشاعر المشهور «إقبال» الذي ذكر القوم بمجد أسلافهم في شعره المسمى «مد الإسلام وجزره»، ومؤرخون أمثال «السيد شبلي» الذي وضع في التاريخ كتباً كثيرة منها كتابه «الفاروق» ومنها كتابه «شعر العجم» في تاريخ الأدب الفارسي.

وهكذا الأمة التركية لما حاربها اليونان والفرنسيون والإنجليز وساعدهم الخليفة قامت على بكرة أبيها ونهضت نهضة الآساد، وأجلت هذه الدول عن بلادها وأخذت ترتقي سراعاً. هكذا أمة الأفغان إذ جاهدت فأبعدت عنها الإنجليز وأخذت ترتقي. ومثل هؤلاء الإيرانيون الذين ذاقوا أسوأ الذل من ملوكهم ومن أوروبا، هاهم الآن أحرار.

هذه نبذة من حوادث الدهر الموقظات للحكمة والرقي في الأعمال، فأما الحيرة والشك فإن أثرهما في رقي الأمم لا يقل عن آثار حوادث الدهر ومصائب الأيام. ولقد رأيت فيما تقدم أن عقيدة التثليث عند الأمم القديمة كانت رمزاً لدراسة العوالم المحيطة بنا، لا أنها عقيدة دينية بحسب أصلها، فحرّفتها الأمم وانتحلت لها الصبغة الدينية وحاولت الجمع بينها وبين الوحدانية. هنالك اضطرمت نار الجدل والخصام بين العلماء في الأمم، فكان من وراء ذلك اتساع نطاق الجدل، فارتقت بعض الأمم بالعلم وانحطت أخرى بالخرافات، وأزيد هذا المقام تبياناً، ثم أتبعه بما جاء في شريعتنا الغراء من بعض العبادات التي أخذت تلقينا كالسلام الذي نختم به الصلاة. فعلى من يسلم المؤمن والعاقل لا يخاطب ما لا وجود له.

مسألة التثليث

يظهر أن الشعوب كانوا يسألون علماءهم عن نظام هذه الدنيا وكيف خلق هذا الحيوان وهذا الإنسان وهذا المعدن؟ وكيف جرى هذا النهر وأضاءت هذه الشموس؟ فلا يسع هؤلاء إلا أن يقولوا لهم: أمامكم مادة وفيها ملائكة موكلون بها رأينا آثارهم ولم نر أشخاصهم، ومن فوق هؤلاء إله واحد، لأننا رأينا نتائج المخلوقات كلها ترمي لأغراض معينة، ولا يمكن ذلك إلا باتحاد أصل العوالم وتوحيد الخالق. ثم ضربوا لهم الأمثال فقالوا لهم: الله أشبه بالأب في المنزل، والمادة أشبه بالأم لأنها محل لتكوين الحيوان والنبات والملائكة أو القوى المنبثة في هذا المادة ابناً، لأن الابن عادة يكون بين الأم والأب. فالقوة المنبثة في هذه المادة والملائكة يشبهون الأبناء في بيوتنا من بعض الوجوه. ذلك لأن الله

هو الذي خلقهم وسلطهم على المادة، فمن الوجه الأول سموا عوالم القوة ابناً. وكما أن ابن الإنسان يعمل في أرضه؛ هكذا هذه القوة تعمل في المادة التي أشبهت الأم من وجه واحد، وهي أنها محل الإنتاج لا غير، هذا كان يقوله العلماء للعامة. يستنتجون من المادة ومن القوة المنبثة فيها معرفة إله واحد. فلما تمادى الزمان أخذت تلك الفكرة تمتد إلى أصلاب الرجال وأرحام الأمهات. هنالك كان الجهل ولكن الله يستخرج من الفحم نوراً ومن الحنظل سكراً ومن الشر خيراً. فماذا فعل بعد ذلك ؟. جعل هذه الحيرة في الهند وفي مصر وفي بابل وفي آشور وفي أمريكا قبل كشفها سبباً في بحث علماء منهم وصلوا إلى الحقائق، فكتموها خوفاً على هيبتهم أمام شعوبهم، فرقوا علومهم وبحثوا في الفلك والطبيعة وسائر العلوم، ولكن لما علم الله أن الإنسانية لا بد لها من نهضة جديدة أنزل الدين الإسلامي فقال بالوحدانية ومنع التثليث الذي قامت به النصرانية وشوهته، وخرجت به عن أصل الدين المسيحي بل زاد رجال الكنيسة على ذلك أنهم لم يبالوا بالرحمة العامة التي جاء لأجلها الدين المسيحي، فإن أهم خواصه الرحمة، وأتباعه هم الذين أثاروا الحرب العامة في أيامنا هذه كما قال ذلك في الشهر أي شهر يوليو سنة ١٩٢٨ «المستر لويد جورج» من عظماء الساسة في بلاد الإنجليز، فقد صرح على رؤوس الأشهاد أن رجال الكنيسة لم يحركوا ساكناً أثناء الحرب العامة التي لم يثرها إلا الأمم المسيحية لا غيرها من الأمم الوثنية، قال: ولو أنهم رفعوا أصواتهم بمنع الحرب لم يجسر أحد على مخالفتهم. فهذا القول دل على أن التثليث عند المسيحيين الذي أوجب الحيرة أو الشك لا سيما بعد الإسلام قد دفع القوم إلى جمع المال من الأغنياء والمحافظة على العقيدة الموروثة، وانتهى الأمر بذلك إلى الخروج عن أصل الدين وهي الرحمة وحب الإنسانية، فبدل أن يكونوا رحمة للعالمين صاروا هم المثيرين للفتن والحروب بشهادة أكبر سواسهم من الإنجليز. إذن هذه الحيرة في أمر التثليث قد انتهت إلى ما يخالف أصل الدين من الرحمة. إذن فليكن السلام في الأرض بأمم الإسلام في مستقبل الزمان.

حيرة المسلمين في أمر السلام

ذكرت سابقاً أن أمم الإسلام بارتقاء العلوم يزدادون في الدين، وأن الحمد في أول «الفاتحة» مرتبط بمحاورة فرعون وموسى، أي بإعطاء الله كل شيء خلقه ثم هدايته. فإذا قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢] استحضر بقلبه سائر الأفلاك وسكان الكواكب أجمعين، وهذه الكواكب تعد بمئات الملايين، وإذا قال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[الفاتحة: ٧] ذكر النعم عليهم في مئات الملايين من الكواكب، ذلك لأن العلم الحديث أشار إلى ذلك، وإذا قال: «التحيات لله» علم أن تلك التحيات ليست خاصة بأهل الأرض بل في كوكب مسكون من تلك الملايين وأضعافها قوم يحبون ربهم. وإذا قال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» علم أن هذا القول توطئة للمستقبل ليستعد المسلم لتلك الأيام التي سيقابل فيها الصالحين من تلك الملايين من الكواكب. وإذا انتهى من الصلاة وختمها بالمخاطبة بالسلام لمن حوله إذ يقول: «السلام عليكم ورحمة الله» فذلك السلام وخطابه قد أشار له علم الأرواح الحديث، إذ يسلم المسلم على الأرواح الذين يحيطون به من كل جانب، كما رأينا ذلك في كلام العلامة «أوليفر لودج» في سورة «آل عمران» وفي كلام غيره منقولاً في هذا التفسير، إذ يقولون: إن هنا أرواحاً تحيط بنا، وعقولنا بالنسبة إلى عقولهم كعقول النمل بالنسبة لعقولنا، ويقولون:

إنهم يهتمون بنا اهتماماً عظيماً، فتسليم المسلم من صلاته ليس أمراً خالياً من الحقيقة. كلا، فالمسلم يسلم على أرواح حاضرة في كل مكان وعليه أن يقصد ذلك وأن يقصد أن تلك الأرواح لا تختص بعالمنا، فكل مئات آلاف الملايين من الكواكب يسلم المسلم على سكانها ويستحضرهم استعداداً للمستقبل، إذ تذهب الأرض وشمسها ويجتمع كلهم من سائر أقطار الكواكب ويكونون أشبه بالجراد، إذ يسيرون كأنهم أمة واحدة على كثرة عددهم. فعالم الأرواح في المستقبل أولى بذلك.

فتبين بهذا أن حيرة المسلم في أمر السلام والمخاطبة مع أنه لا مخاطب له كشف سرهما العلم الحديث، إذ تتحد الأمم في الكواكب المتباينة وتصر جماعة واحدة صاعدة في معارج الكمال. إذن السلام في آخر الصلاة ظهر سره الآن، فعلى المسلمين أن يسعوا لأمرين: أمر السلام في الأرض بعد أن يرتقوا مثل أهل الأرض، وأمر التفكر في العوالم العظيمة حتى يكون ذلك أسرع لرقي أرواحنا بعد الموت واجتماعها بتلك الأرواح العالية، وهذا من أوكد الأسباب في زهد أرواحنا في هذه الأرض ومن عليها، وتشوقها إلى عوالم أجمل وأجمل، والحمد لله رب العالمين.

لطيفة في قوله تعالى أيضاً:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ﴾[طه: ٤٩-٥٠]

إلى قوله: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾[طه: ٥١-٥٣]

إلى قوله: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[طه: ٥٥]

يسأل فرعون موسى وأخاه من ربكما فيقول: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾ [طه: ٥٠]، ومعنى هذا أنه عظيم الرحمة عام الإحسان والجود لم يفرق بين البقة والفيل ولا بين الحقير والعظيم في العطاء، فهو عام الرحمة والنظام والجود، فقال له فرعون: إذا كانت هذه صفات الله الجميلة إلى هذه المخلوقات المشمولة بالعناية والرحمة والعطف فمزقها شر ممزق؟ ألم تقرأ التاريخ؟ ألم تر أن كل ما خلقه قد أفناه وأهلكه؟ إذن أين رحمته وعطاؤه؟ فهل هذا فعل الحكيم؟ يعطي ثم يمنع ويخلق ثم يمزق شمل خلقه تمزيقاً؟ فأين الحكمة والعناية بل ذلك كله هباء منثور. فأجاب موسى بجوابين:

الأول: أن الله هو الذي يعلم الجواب على هذا السؤال وهو كقوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾[الأنعام: ١٤٩]، وهذا الجواب الإجمالي لعموم الخلق.

الجواب الثاني للخواص: فهو يقول (١) ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾[طه: ٥٣]. (٢) ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[طه: ٥٣]. (٣) وأخرج النبات. (٤) وأكلت الأنعام وأكل الإنسان. والحق أن هذا الجواب مفصل لبعض قوله: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠]، إذن هو مقدمة لنتيجة هي مقصود الجواب. (٥) وهو أنهم خلقوا من الأرض ثم أعيدوا لها ثم أخرجوا منها تارة أخرى، وهذا هو نهاية الجواب للحكماء، فكأنه يقول له: يا فرعون إن هذه العوالم التي أهلكها الله إنّما فعل بها ذلك ليخرجها من الأرض، فتترك هذا العالم الأرضي إلى عالم أرقى منه. فهذا الإهلاك هو عين الرحمة كما يهجر العالم داره وبلده وأهله ويسافر في الأرض ليحصل العلم، فهذا الترك نعمة لا نقمة.

الصلاة في الإسلام والتسبيح فيها يشيران لملخص هذه الآيات، فحياة الناس على الأرض وصحتهم أشبه بحال المصلي إذ يقرأ «الفاتحة» فيقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦] الخ، ولكنه إذا ركع أو سجد لا يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ بل يرجع إلى الله فيقول: «خشع لك سمعي» الخ، ويقول: «سجد وجهي» الخ، ويسبح في حال الركوع والسجود، والتسبيح تنزيه لله عن قصد الإضرار بكل ما يوهم ظاهره إنه إذلال وإهانة. فحال المصلي في الركوع والسجود أقرب إلى الخشوع والخضوع من حال القائم الذي يقرأ «الفاتحة»، فلذلك ترى المصلي يسبح الله، أي ينزهه عن قصد إذلالنا وإخضاعنا، كما أنه منزه عن مذلة الحيوان الذي لم يخلق رافع الرأس بل أشبه بالراكع، وهكذا بعضه يشبه الساجد كالدود. فهذه كلها لم توضع بهذه الهيئات إلا لأجل نفس حياتها والمحافظة عليها، ولو أنها وهي على حالها وجبلتها خلقت على غير هذا النظام لكان ذلك وبالاً عليها، كما ترى نظيره مفصلاً في سورة «الإسراء» عند قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ ﴾[الإسراء: ٤٤] الخ في أمر الألوان واختلافها الذي هو نبذة مما سيأتي في سورة: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[المؤمنون: ١]. إذن كل وضع لحيوان لحكمة ترجع إلى نفس ذلك الحيوان، فهذا النقص في نظرنا كمال لنفس الحيوان. هكذا مرض الإنسان وموته الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[طه: ٥١] في ظاهر أمره هلاك وفي باطنه ارتقاء. إذن قول المصلي: «سبحان ربي العظيم» و«سبحان ربي الأعلى» في الركوع والسجود تذكير بهذه العلوم، أي علوم خلق الحيوان وهلاك الإنسان، وأن الله عزّ وجل منزه عن فعل ظاهر الشر الذي لا ينتج خيراً كثيراً.

فتسبيح المسلم في الركوع والسجود ظلّ لأنوار قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾[طه: ٥٣] إلى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[طه: ٥٥]. انتهى الكلام على الفصل الثالث من القسم الثاني.

الفصل الرابع: من قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾[الآية: ٧٧]

إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾[الآية: ٩٨]

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ أي: من مصر ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا ﴾ أي: فاجعل لهم، من قولهم: ضرب له في ماله سهماً، وأضرب مثلاً، أي: اجعل لهم طريقاً ﴿ فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ يابساً، وهو مصدر وصف به، وهو كقتل وسبب ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا ﴾ أي: اجعل لهم طريقاً حال كونك لا تخاف من الإدراك فلا يدركك فرعون وجنده من ورائك ﴿ وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ الغرق أمامك فخرج بهم موسى من أول الليل وقد استعاروا حليهم فركب فرعون في جنده من القبط فقص أثرهم، فذلك قوله: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ ﴾ أي: خرج خلفهم ومعه جنوده ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ ﴾ أصابهم من البحر ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه أحد من الناس ففيه تهويل. وقرئ «غشاهم ما غشاهم» أي: غطاهم ما غطاهم ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ ﴾ عن سبيل الرشاد ﴿ وَمَا هَدَىٰ ﴾ أي: أرشدهم إليه وذلك تكذيب لقوله: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[غافر: ٢٩].

ثم أخذ الله يعدد نعمه على بني إسرائيل كما عددها على موسى إشارة إلى أنه منعم على البرّ والفاجر، فالأول شاكر كموسى، والثاني كافر بها كبني إسرائيل قومه، فقال: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ خطاب لمن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ فرعون وقومه ﴿ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ لمناجاة موسى وإنزال التوراة عليه لإقامة شعائركم ونظام دولتكم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ في التيه، وقد تقدم في سورة «البقرة»، وقلنا لكم: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ من حلالاته ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ بالإخلال بشكره وتعدي الحدود كالسرف والبطر والمنع من المستحق ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ فيلزمكم عذابي. يقال: حل الدين، إذا وجب أداؤه ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ فقد تردى ووقع في الهاوية ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ عن الشرك ﴿ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ثم استقام كما أمر.

إن الله عز وجل وعد موسى أن يأتي جانب الطور الأيمن ويختار سبعين رجلاً يحضرون معه لنزول التوراة، فاختارهم ومضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وأمرهم أن يتبعوه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ استفهام إنكار أي: أيّ شيء أوجب عجلتك؟ فـ«ما» مبتدأ و«أعجلك» خبر، وهذه العجلة توهم إغفال القوم، فأجابه عليه السلام بأني لم أتقدمهم إلاّ خطوات فلا إغفال لهم، وإنّما أنا كأحدهم، وهذه الخطوات محتملة عادة، على أن هذه الخطوات مع قلتها كانت للمسارعة إلى لقائك شوقاً إلى كلامك، وهذا قوله تعالى: ﴿ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾ أي: هم خلفي يلحقون بي ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ ﴾ إلى الموعد ﴿ لِتَرْضَىٰ ﴾ لتزداد رضاً عني ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ ﴾ ألقيناهم في فتنة من بعد خروجك من بينهم ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ إذ دعاهم إلى عبادة العجل فأجابوه، وكانوا ستمائة ألف مع هارون وما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر. والسامري المذكور منسوب لقبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة، وقيل: إنه كان علجاً من كرمان فاتخذ عجلاً، وكان اسم هذا السامري موسى بن ظفر وكان منافقاً ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ شديد الغضب حزيناً ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾ أي: مدة مفارقتي إياكم، والعهد: الزمان. تقول: طال عهدي بك، أي: طال زماني بسبب مفارقتك ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: يجب عليكم غضب منه بعبادة العجل ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ وعدكم إياي بالثبات على الإيمان بالله ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ مثلثة الميم في قراءات مختلفة، أي: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا فلو ملكنا أمرنا وخلينا وشأننا ما أخلفنا موعدك ـ فنحن كما في المثل: قال الحائط للوتد: لم تشقني؟ قال: سائل من يدقني فإن من ورائي لم يتركني ورائي ـ ولكن غلبنا على أمرنا موسى السامري وذلك أننا حملنا أحمالاً من حلي القبط التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر بعلة أن لنا عيداً غداً، فقال السامري: إنّما حبس موسى عنكم لشؤم حرمتها لأننا مستأمنون وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، ولو عددنا ذلك غنيمة لم يجز لأن الغنائم لا تحل لنا. ثم أمرنا أن نحفر حفرة وملأها ناراً وقال: اقذفوا الحلي فيها فقذفناه

فانصاغ عجلاً مجوفاً فخار. ويقال: إنه كان خبأ في الحفرة قالب عجل وله مجار أشباه العروق فكان له خوار منها كخوار العجل. وقيل: نفخ تراباً من موضع قوائم فرس جبريل عليه السلام يوم الغرق وهو فرس حياة فحيي فخار، ومالت طباعهم إلى الذهب فعبدوه وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ القبط ﴿ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ فطرحناها ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ أي: ألقى ما كان معه من الحلي كما ألقينا ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ ﴾ السامري ﴿ عِجْلًا جَسَدًا ﴾ مجسداً بلا روح ﴿ لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ صوت إما لأنه صار حياً وإما لأن مجاريه المصنوعة بدقة كان يظهر فيها الصوت بمرور الريح فيها ﴿ فَقَالُواْ ﴾ أي: السامري وأتباعه ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾ فأجابه كلهم إلا اثني عشر ألفاً ﴿ فَنَسِيَ ﴾ موسى ربه هنا وذهب يطلبه على جبل الطور.

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أي: أفلا يعلمون ﴿ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ أي: أنه لا يرجع إليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فهو عاجز عن الخطاب وعن النفع والضرّ فكيف اتخذوه إلهاً ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ ﴾ لمن عبدوا العجل ﴿ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبل رجوع موسى إليهم ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ ابتليتم بالعجل فلا تعبدوه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ لا العجل ﴿ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ كونوا على ديني ﴿ وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾ في ترك عبادة العجل ولقد دعاهم هارون بأحسن القول المنظم إذ أزال شبهته، وساق إلى معرفة الله فالنبوة فاتباع الشريعة وهو ترتيب طبيعي وذلك بالنهي عن العجل، ومعرفة الرحمن واتباعه وهو نبي وإطاعة أمره وهو الشريعة، والتعبير بالرحمن دلالة على أنه يقبل التوبة ﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ ﴾ على العجل ﴿ عَٰكِفِينَ ﴾ مقيمين ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ لأنا لا نقبل إلا قوله، فاعتزلهم هارون ومعه المؤمنون بالله، فلما رجع موسى سمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل، فقال للسبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة. فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله و﴿ قَالَ ﴾ له ﴿ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴾ أشركوا بعبادة العجل ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي: أن تلحقني وتأتي عقبي، و«لا» زائدة كما في قوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾[الأعراف: ١٢]، ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ أي: خالفت أمري ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ أي: بشعر رأسي وقد أخذ بذؤابتيه ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: خشيت إذا أنا اتبعتك وفارقتهم أن يصيروا أحزاباً يقاتل بعضهم بعضاً، فتقول: فرّقت بينهم ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ ولم تحفظ وصيتي إذ قلت لك: اخلفني في قومي وأصلح، والإصلاح إنّما يكون بحفظ جامعتهم ومداراتهم إلى أن ترجع إليهم فتتدارك الأمر برأيك، وهاأنت ذا قد رجعت فماذا كنت أفعل. ثم أقبل موسى على السامري منكراً عليه ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ أي: ما أمرك وشأنك الذي حملك على ما صنعت؟ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ أي: علمت بما لم يعلموه، يقال: بصر علم، وأبصر نظر، أي: علمت ما لم يعلمه بنو إسرائيل، وذلك أني رأيت جبريل على فرس الحياة فألقى في نفسي أن أقبض من أثره، فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ولحم ودم ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً ﴾ هي ما يقبض على باليد، أو «قبصة» بالصاد ما يؤخذ بأطراف الأصابع ﴿ مِّنْ أَثَرِ ﴾ حافر فرس ﴿ ٱلرَّسُولِ ﴾ جبريل ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ فطرحتها في الحلي المذاب في الحفرة

أو في جوف العجل ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ زينته وحسنته ، فأنا فعلته اتباعاً لهواي ، وهذا اعتراف منه بالخطأ ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ فَاذْهَبْ ﴾ من بيننا طريداً ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ ﴾ عقوبة على ما فعلت ﴿ أَن تَقُولَ ﴾ لمن أراد مخالطتك وهو لا يعرف حالك ﴿ لَا مِسَاسَ ﴾ لا يمسني أحد ولا أمسه ، فحرّم الله على بني إسرائيل أن يخالطوه ، وحرّم عليه أن يخالطهم وبلغهم موسى ذلك ، وإذا اتفق أن يماس أحداً حمّ الماس والممسوس ، فكان يهيم في البرية ويصيح قائلاً : ﴿ لَا مِسَاسَ ﴾ . ثم ذكر له عذابه في الآخرة فقال : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ في الآخرة ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ لن يخلفكه الله بل ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك في الدنيا ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ ظللت على عبادته مقيماً ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ بالنار أو بالمبرد ، يقال : حرق ، إذا برد بالمبرد ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ ﴾ لنذرينه رماداً أو مبروداً ﴿ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ فحرقه وذراه في البحر ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ ﴾ المستحق لعبادتكم ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا أحد يماثله ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ وسع علمه كل ما يصح أن يعلم ، لا العجل الذي يصاغ ويحرق .

(١) عجائب القرآن وما معنى قول العلماء لا تنقضي عجائبه ؟ .

(٢) ولم أتبعت هذه القصة بقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه : ٩٩] ، ثم أنذر من أعرض عنه .

(٣) وقد ختمت القصة بقوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه : ٩٨] .

(٤) كيف تكون مدارس التعليم الدينية في مستقبل الزمان من إشارة هذه الآيات ؟ .

لما وصلت إلى هذا المقام من التفسير زارني عالم فاضل من رجال المدارس الذين جاؤوا من أوروبا حديثاً ، فقال بعد أن قرأ ما تقدم : ماذا تفيدنا هذه الآيات ولقد أضحت الأمم اليوم يطيرون في الجو ويسيرون بالبخار على الأرض وتغطس سفنها الحربية فتفتك بالسفن العائمة وتسمى « الغواصة » والأمم كلها ارتقت فأي ارتقاء في تكرار هذه القصص ؟ وما فائدة ذكر عجل السامري وسحرة فرعون وعصا موسى بعد ما ترقت الأمم وأخذت تجد وتنال حظوظها ، وهل دراسة هذا إلا ترديد لما كان في الأزمان الغابرة والأجيال البائدة ؟ .

ثم إن الناس في زماننا على قسمين : قسم يرى أن هذه الأمور لم تكن ، وهؤلاء يكفرون بالديانات ويتركونها للعامة . وقسم يرى أنها حق ، وهم العامة الذين لا هم في العير ولا في النفير . فقلت : يا صاح إن هذه كنايات ، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي فلا نحن ننكرها ولا نقف على مجرد لفظها ، وهذا أبلغ ما يكون فإن الكناية أبلغ من الحقائق .

واعلم أن الباحثين في أصلها قوم لا يعلمون ، لأن المقام مقام علم وحكمة ، والعلم والحكمة إنّما يكونون من الاعتبار بالقصة والأخذ بحقائقها ، فأما تضييع الوقت في أنه كيف كانت عصا موسى ويكون المرء بين تصديق وتكذيب فذلك ضلال ووبال ، قال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦] فيضل به أولئك الباحثين المضيعين لأوقاتهم إذ لا يعلمون المقصود من الكلام ، ويهتدي المفكرون الذين يبحثون عما يراد من هذه الكنايات .

قال: ما المقصود من هذه القصص؟ وما شأن عصا موسى وسحرة فرعون وعجل السامري؟.

العلوم العقلية

فقلت: اعلم يا صاح أن الله جعل هذه الأمور أمثالاً للمسلمين، يريد الله أن ينشئ أمة إسلامية غير الأمم المتأخرة الماضية. قال: وكيف ذلك؟ قلت: انظر ألست ترى أن عصا موسى بها غلب سحرة فرعون، أي: غلب الحق الباطل. قال: بلى. قلت: ثم جاء الباطل وهو العجل الذهبي فغلب الحق. قال: نعم. قلت: وما شاع الباطل إلا عند جهال بني إسرائيل الذين عبدوا العجل، ولو كانوا علماء كالسحرة لبقوا على دينهم. قال: حقاً، قلت: حينئذ تكون النتيجة أن المعجزات الوقتية فائدتها وقتية. قال: نعم. قلت: والعلوم الحقيقية فائدتها حقيقية ثابتة تبع ثبات العلم فيكون الإيمان ثابتاً. قال نعم. قلت: حينئذ يطلب الله منا نحن لا من الذين ماتوا لأنهم عنده، ولا من موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام لأنهما عنده أيضاً، أن نكون محققين في كل شيء. قال: نعم.

الحجر في الجبل نبع منه الماء

قلت: أذكرك بما ذكرتك به في سورة «البقرة» إذ قلت: إن عصا موسى لما نبع الماء من الحجر بسببها؛ ذكر الله بعدها بآيات أن الحجر تتفجر منه الأنهار، وأن هذا إشارة إلى أن الناس يجب عليهم أن يتنبهوا لما في الطبيعة من عجائب وغرائب، إذ أن الحجر تتفجر منه الأنهار بسبب الماء الذي في باطن الجبل فإنه يصير ثلجاً فينتفخ بخاصية تخصه فيكسر الحجر. فهذا الثلج والخاصة التي له هي معجزة الله يضرب بها الحجر في كل حين ويخرج الأنهار في أمكنة كثيرة. قال: نعم قرأت ذلك هناك. قلت: فحينئذ يريد الله بذكر الحجر وضرب موسى له بالعصا أن يقرع العقول فتدرك السر المصون في الطبيعة الكامن في الأحجار، وهذا السر هو اختصاص الثلج بأنه يكون أكبر من حجمه إذا جمد وليس سواه من الموائع بهذه الخاصة، وقد فعل الله ذلك ليجعله وسيلة لتكسير الصخور فتفتح فتجري الأنهار كما وضحته هناك. قال: هذا ظاهر لا غبار عليه. قلت: هكذا هنا. وقال: وما هنا؟ قلت: فإنه ذكر العصا وقد أوضحنا الكلام عليها، وذكر بعدها أموراً تليق لها. قال: ما معنى هذا؟ قلت: معناه أن الحجر هناك لما ضربته العصا وانفجر الماء قلنا إنه إشارة لما سيذكره هناك من الأحجار المتفجرة في الجبال، أما هنا فلم يذكر الحجر، كلا لأنه هنا ذكر أن العصا قلبت حية، وجاء في سياق الكلام أنها كانت تورق وتثمر متى أراد ذلك، أي أنها تنقلب في صور مختلفة فلم يذكر هنا أنها تفجر بسببها نهر، بل قال: إنها هي قلبت حيواناً تارة ونباتاً أخرى من سياق الكلام. قال: نعم وما قصدك بهذا؟ قلت: قصدي أن الله ذكر هنا أنه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأنه جعل في الأرض سبلاً وأنزل ماء من السماء وأخرج به النبات والحيوان الذي يرعاه والإنسان الخ. قال: هذا عرفته فيما تقدم وماذا تقصد به؟ قلت: كما أنه هناك ذكر ما يناسب الحجر المتفجر فأتبعه بحجر في الجبل يخرج منه الماء به فهمنا أنه يقصد أننا ندرس الطبيعة، هكذا فعل هنا فذكر الحيوان والنبات اللذين يصوران من المادة كما قلبت العصا إليهما، ولم يذكر حجراً هنا ولا نهراً خارجاً منه، مما دلنا على أن الأمر مقصود، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]، فأصبحت النتائج هكذا:

(١) الاتكال على خوارق العادات وحدها لا يكفي لدوام الإيمان.

(٢) العقل والفكر والتضلع في العلوم كسحرة فرعون هو الحافظ الوحيد للإيمان.

(٣) والعلوم التي تدرس لذلك هي العلوم الطبيعية المذكورة في قوله: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾[طه: ٥٣] الخ. وبعبارة أخرى: العلوم الطبيعية والفلكية لأنها سلسلة واحدة منظمة. قال: الآن قد فهمت، وهل هذه العلوم للدنيا أم للآخرة؟ قلت: هي للدنيا والآخرة معاً. قال: وكيف ذلك؟ قلت: هذه العلوم هي أنفسها علوم التوحيد وعلوم حب الله وعلوم شكر لله وهي أفضل وأنفس العلوم، وعلم الفقه ما هو إلا فرعها والفرع أقل من الأصل، فعلى المسلمين قاطبة في أقطار الأرض أن يسمعوا هذا ويعملوا به فإنه أمر الله والله هو الآمر به، بل أقول فوق ذلك: إن الله سيتم هذا الأمر وتدرس العلوم كلها في أمم الإسلام، وأنا واثق بذلك كل الوثوق. قال: ما المنهج الذي تظنه سيكون في التعاليم الإسلامية؟.

المناهج العلمية المستقبلة في أمة الإسلام في التعليم الديني

قلت: إن الأمم الإسلامية ستقلب التعليم رأساً على عقب، وسيصبح التعليم في علم التوحيد هكذا تؤلف رسائل صغيرة مشوقة جميلة فيها عجائب الحكمة وبدائع الخلقة كالحيوانات الغريبة والجواهر الشريفة والعجائب المدهشة يفرح بها صغار الطلبة في كتب صغيرة مجلدة تجليداً جميلاً مرسوماً فيها صور من تلك العجائب بهيئة مشوقة، وتجعل تلك الرسائل متفاوتة المقدار. ففي السنة الثانية أكبر منها في الأولى، وفي الثالثة أكبر منها في الثانية، وهكذا في الرابعة، فما تمضي أربع سنين وقد قرأ الطالب فيها أربع كتب متدرجة في الكبر عجيبة العلم إلا وقد أحب الله حباً جماً لما يذكره الأساتذة عند كل عجيبة من قدرة الله وعلمه وحكمته ونظامه، ثم هو أيضاً قد أدرك العالم الذي يعيش فيه فأخذت قواه العقلية تنهض وتنتعش واستعد للحياة وأصبح رجلاً غير رجال اليوم. فإذا انتقل إلى القسم الثانوي كما في الجامع الأزهر وأخذ يدرس فيه وقد نال في الابتدائي حظاً من العلوم الرياضية فحينئذ استعد لدرس العلوم الطبيعية فعلاً، فيدرس التلاميذ تلك العلوم وهم أيضاً في نفس المدارس أو المساجد يدرسون الفروع الأخرى من الدين، وهنا يدرسون الفلك وعلم النبات وعلم الحيوان والتشريح، وهذه العلوم تدرس درساً إجمالياً مشوقاً مبنياً على شوقهم السابق لها في القسم الابتدائي.

هؤلاء التلاميذ متى تخرجوا من القسم العالي وخصص كل منهم لفن فقهي أو إرشادي أو طبيعي أو فلكي كانوا قدوة الأمة ومرشديها، وأصبحوا أمة حية حقيقة، فيكون عالم الدين إما قاضياً وإما مهندساً وإما طبيباً وإما عالماً بطبقات الأرض. فهذه كلها علوم طلبها القرآن بل العلوم الطبيعية هي نفس علم التوحيد. وقد ألفت كتباً شتى في تشويق المسلمين للعلوم ككتاب «جمال العالم» وكتاب «نظام العالم والأمم» وكتاب «النظام والإسلام» وكتاب «نهضة الأمة وحياتها» وكتاب «القرآن والعلوم العصرية». وفي هذا التفسير عجائب كثيرة مشوقة أيضاً، وكتاب «جواهر العلوم» وكتاب «ميزان الجواهر» وغيرها. قال: وماذا تصنع بما يخالف قولك من التعاليم الموجودة الآن في الإسلام؟ قلت: هذا القول لا يخالف طرق المتقدمين البتة، نعم يخالفها في الأسلوب وفي عدم ضياع الزمن وفي الانتفاع بالعلم دنيا وأخرى، وفي توسيع اختصاص العالم الديني، فبدل أن يكون قاضياً فقط يكون طبيباً أو عالم فلك، ولا حرج في ذلك كما فهمت في هذا المقام.

أيها الفاضل الذكي إنك قد فرض عليك أن تلقي عصاك فتلقف ما صنعوا إنّما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . فقال لي ذلك العالم : أما قولك فرض علي فلم أفهمه وكذلك لم أفهم ما هي العصا التي استعملها ولا ما هو السحر الذي تستأصله العصا ، وما هذه منك إلا مقالات كمقالات الشيوخ الذين يدعون الولاية وأكثرهم لا يفيدون الناس شيئاً ، فأفهمني ما قلت بطريق واضح . فقلت له : ما المقصود من حصول السحر ؟ أليس القصد منه انصراف العقول والأبصار عن الحقائق إلى الضلالات ؟ قال : بلى . قلت : إذن كل ما صرف عن الحق تجب إزالته سواء أكان سحراً أم كان غيره ، فإن النتيجة واحدة وهي الضلال . قال : وما الضلال والانصراف عن الحق الذي تعني ؟ قلت : اعلم أن المسلمين لما تولى أمرهم ملوك من أمم غريبة النزعة منحطة المدارك تولاهم الخور في العزائم والقعود عن العلم وإدراك الحقائق ، فهؤلاء الملوك حصروا عقول العلماء في دوائر ناقصة من العلم ، وأشاعوا كتباً بينهم خاصة وبعضها عديم الجدوى قليل العائدة والفائدة ، واتسع الجدال بين العلماء في أمور لا توصل إلى السعادة في الحياة الدنيا ولا في الآخرة ، وأطالوا الجدل في العلوم التي هي آلة لغيرها ، وانصرفوا عن الحقائق إلى المقدمات إلى الوسائل دون النهايات ، فاستيقظت أوروبا لذلك وأخذتهم على غرة وخسفت بنا وبديارنا الأرض ، فأخذت كثيراً منها صاعقة العذاب الهون بما كسبنا من الجهالات وما أحاط بنا من الخرافات ، فهذه الطرق العلمية سدت على الناس طرق العلم الصحيح كأنّما سكرت أبصارهم وكأنهم مسحورون ، وذلك نفر كثيراً من المسلمين من العلم الصحيح ، فإذا لم نسمّ هذا سحراً فإن المقصود من السحر قد حصل منه ، فإذا كانت البصائر قد غطيت عن الحقائق فأي سحر أنجع من هذا ؟ وإذا كان سحرة فرعون أخذوا بأبصار آلاف ؛ فهذا العمل قد صرف مئات الملايين عن طرق السعادة حتى اصطادنا الفرنجة ، فهاهنا تم مقصود السحر بما هو أعم وأتم . فترى كتب التوحيد لا تفي بالغرض لصعوبتها وعدم تشويقها وكثرة جدلها في أمور خارجة عن نظام هذه الدنيا التي جعلها الله محل دراستنا فمنها حياتنا وهي لوح دراستنا ونظام مدارسنا ، فحرم منها المسلمون بقشور ما أنزل الله بها من سلطان إلا بعض شذرات أو كتب قليلة العدد ، فأما البقية فهي غير صالحة لارتقاء النفوس ولا معرفة الله ولا حبه ولا الانشراح به . قال صاحبي : هاأنا ذا عرفت السحر .

السؤال

(٥) فملخص ما تقدم كيف سحر المسلمون ؟ .

الجواب

سحروا بالانصراف عن العلوم النافعة في التوحيد وفي الحياة الدنيا المرتبطة به لا تنفك عنه .

فقال : وما العصا ، وكيف يكون إلقاؤها ، وكيف تلقف هذا السحر ، ومن أين تدعي أنه فرض عليّ ؟ قلت : إذا عرفت ما هو السحر فقد عرفت ما هي العصا ، إن موسى أمر أن يلقي عصاه . فإلقاء العصا ليس مقصوداً بالذات إنّما المقصود إزالة السحر ، وبعبارة أخرى : إزالة الجهالة . فإذا رجعنا للحقيقة واضحة ناصعة ظاهرة قلت جهل يزال ، فموسى أزاله بعصاه وأنت أزله بما لديك من القوى فالأمر واضح . وكما أن الغذاء يقصد به حياة المغتذي فليس يهم تعيين الطريق الذي به يتناول ، فالنبات يتناوله بعروقه وأوراقه والحيوان بفمه والدود يمتصه بجلده والإنسان بيده ثم بفمه ، وبعض الناس يتعاطاه

بملعقة أو بشوكة فلتكن أي طريق فالحياة حاصلة، مهما تنوعت تلك الطرق ومهما اختلفت. فهكذا هنا يراد إزالة الجهالة. أزالها موسى بعصاه فلنزلها نحن بما عندنا. قال: أين العصا عندنا؟ قلت: ما ذكرته لك الآن من صورة الدراسة والمناهج العلمية والكتب التي تؤلف في سنين مختلفة مرتبة منظمة جميلة المنظر حسنة الهيئة مجلدةً تجليداً جميلاً بهية الشكل، تفرح التلاميذ بما حولهم من مزارع وما فوقهم من شموس ونجوم، ثم يخصص كل امرئ في علم خاص كقضاء أو طب، وتكون مدارس الإسلام حافلة بتلك العلوم، ويعرف الناس ربهم معرفة أجل وأجمل من هذا العمى، وحينئذ يظهر الإسلام على الأديان كلها ويؤدب رجال الشرق رجال الغرب ويطردونهم من بلادهم حتماً.

وملخص هذا أن تدرس العلوم الطبيعية والرياضية بطرق جميلة وتجعل من علوم الدين وأنها أهمها وهي أفضل وأجمل وأرقى من علم الفقه، لأن هذه أصول التوحيد وتلك فروعها والأصل مقدم على الفرع وكلاهما لازم للإسلام والمسلمين. قال: وكيف تقول إني مأمور بهذا ولست نبياً؟ قلت له: لم أنزل الله هذه الآيات؟ ولم قال بعد تمامها: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ ﴾[طه: ٩٩-١٠٠]، فأين الذكر الذي ذكره الله هنا وكيف خصص هذا المقام بقوله: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾[طه: ٩٩]، وأنذر من أعرض عنه؟ مع أن القرآن كله ذكر، فلم قال هذا القول هنا؟ أليس ذلك للتنبيه على أن هنا نكتة يجب التنبه لها وفكرة يجب البحث فيها، والفكرة هي ما ذكرته لك من القول المتقدم، وهو أن نجد في إزالة الضلالات العالقة بالأذهان.

واعلم أن الله علم أن الإسلام سينتشر في أنحاء المسكونة وسيقعون في الجهالات، فأنزل الله هذا العلم في هذه السورة، وأبان أن معرفة الحقائق ناصعة هي المزيلة لما لحقهم من الجهل والذل وظلم أوروبا، فوصف لهم الداء والدواء وأبان لهم طرق إزالة الخرافات من العقول، وأفهمنا أن العلوم الطبيعية هي المرقية للأمم. فأما الاتكال على الظواهر فإنه مدعاة للوقوع في شرك الجهالات. وأما قولك: إنك لست نبياً، فأقول لك: ألست تعلم أن النهي عن المنكر واجب على الأنبياء وعلى غيرهم؟ قال: بلى. قلت: وإذا عرفت أن الأمة اليوم واقعة في جهالة عمياء أفليس يجب عليك أن تبادر إلى إزالتها؟ قال: بلى. قلت: ألم يقل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٨٢] قال: بلى. قلت: هكذا فعل صلى الله عليه وسلم فإنه ألقى عصاه كما ألقى موسى عصاه وأزال السحر كما أزال موسى السحر، ذلك أنه علم القوم وأسمعهم القرآن ثم كسر الأصنام التي كانت تسحر عقول القوم بكثرة المشاهدة والتعظيم والتبرك حتى صارت شبحاً سحرياً يسحر العقول ويصرفها عن الحق، فهذا تنويم مغناطيسي حقيقة مؤثر تأثير السحر. ألست ترى أنه فعل ما فعله موسى؟ قال: بلى. قلت: ألست أنت الآن مكلفاً بذلك بدليل وجوب النهي عن المنكر وبدليل قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الأحزاب: ٢١]. قال: بلى. قلت: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[طه: ٦٩] فإن بعض القوم سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم. قال: إذن فهمت ولكن أتريد أن انصراف العقول الإسلامية الذي قام مقام السحر ناشئ من صعوبة الكتب وحدها؟ قلت: هناك أسباب كثيرة فليست كل الكتب صعبة

وليست كل الطرق عقيمة، ولكن انصراف العقول اليوم طم وعم العباد والبلاد، فأوروبا أرسلت رسلها فغمست المتنورين منا في اللذات والشهوات وأفهمتهم ضلالات فبغضتهم في دينهم ودنياهم، وطرق التوحيد عندنا عقيمة فأصبح الناس بين نارين: نار الجهالة الشرقية، ونار الضلالة الغربية، وهذا هو الدجل وهذه أشبه بأفعال المسيخ الدجال، وليس يصرف هذا الدجال، أي: الذي يشبهه إلا الطريق العيسوي والهدي الإسلامي، وقد أبنته لك ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[طه: ٦٩]، كما لا يفلح الدجال أمام المهدي وعيسى، فعيسى يقتل الدجال، والحقّ يغلب الباطل والخير يغلب الشر، وجند الله الغالبون، وفضل الله واسع. فاعرف الحقائق وابتعد عن المزالق واسق الناس من الموارد ولا تسقهم من ماء آسن، بل اسقهم من كوثر ومن رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

قال: وهل أنت بما تقول واثق أم هذه أماني؟ قلت: اعلم أن الله عز وجل أذن للمسلمين اليوم وغداً أن يتبوّؤوا مكانهم في الأرض ومكانتهم بين الأمم وأنه ناظر إليهم، ناظر نظراً عظيماً وهو اليوم يبث في نفوس أفراد منهم هنا وهناك طرائق العلم وأزهار الحكمة وثماراً شهية. وهؤلاء الأفراد أنبتهم في أمكنة مختلفة وقد تجلى عليهم بالنور وهم ينشرون ذلك النور في الأقطار الإسلامية، وسيسمع المسلمون أقوالهم وسيكون لهم مجد قد آن أوانه وقرب إبانه، فاقرأ إن شئت: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴾[فصلت: ٤٧] فقد وعد الله أن يرينا آياته في أنفسنا وذلك بعلم الأرواح وعلم النفس في الآفاق وذلك بالعلوم التي ذكرناها وحرّضنا عليها وأعدناها في هذا التفسير تكراراً وقلناها مراراً، وأقول لك: إن ظهور هذه العلوم بهذه الطرق هذا أوانه حتماً، وهذا هو الوقت الذي وعد الله به، وهاهو ذا ينجز وعده، وفي زمن قريب سيظهر علماء وفضلاء وحكماء في بلاد الإسلام، ألست ترى أن القرآن الذي كان الجهلة من المسلمين يعتقدون أنه مبعد عن العلوم قد أصبح اليوم كما تراه محرضاً عليها شارحاً لها مهيئاً لها، وأصبح أمثال هذا القصص ليس أمراً مضى وانقضى فحسب، بل هاأنت ذا تراه يصلح لكل زمن سيأتي، فللناس أن يقولوا بعد آلاف السنين: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾[طه: ٦٩]، ويرون أن علم البلاغة يفهمنا أن المأمور الآن إنّما هو نحن، قد أمرنا أن ننشر العلم ونزيل الضلال والجهالة لا أكثر ولا أقل، وهذا قول مقبول بعد مئات الآلاف من السنين. فإذا قال الله: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾[الأحزاب: ٤٠] وإذا قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾[المائدة: ٣]، فهاهو ذا قد ظهر المقصود واتضح الحق وأن هذا القرآن صالح لجميع الأزمنة والأمكنة، لأنه مسائل عامة في غاياتها وإن كانت خاصة بالنظر إلى ظواهرها، وسيقوم بهذه الأمور عقلاء وعلماء يملؤون الأرض نوراً وعلماً قريباً وقريباً جداً. وإني أطلب من الله أن تكون أيها الذكي المطلع على هذا التفسير منهم في تذكير الناس بما علمت من هذا التفسير وغيره، وأن يكون مطمح نظرك رقي الأمة الإسلامية التي هي جسم أنت أحد أعضائه، والله يتولى الصالحين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. انتهى الفصل الرابع وهو آخر فصول المقصد الثاني من هذه السورة.

المقصد الثالث

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا

مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ ﴾ أي: مثل ما قصصنا عليك قصة موسى وفرعون نقص عليك من أخبار الأمم الماضية تكثيراً لبيناتك وعلومك وتبصرة لك وزيادة في علمك وعلم المستبصرين من أمتك ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ قرآناً فيه الأخبار والأقاصيص للاعتبار بها والتفكر فيها ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ عن الذكر وهو القرآن ﴿ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴾ عقوبة ثقيلة، والوزر: الحمل الثقيل لغة، وقوله: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ﴾ في الوزر، وهو حال من الضمير في «يحمل»، وإنّما جمع على المعنى، ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴾ «ساء» كـ«بئس» أي: ساء الحمل حملاً وزرهم، فالفاعل ضمير مفسر بـ«حملاً» ووزرهم مخصوص بالذم محذوف، وقوله: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أي: يوم تنفخ الأرواح في صورها فالصور هنا جمع صورة، وقد قرئ «في الصور» بضم ففتح وهو ظاهر في هذا المعنى ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ أي: عمياً، لأن حدقة من يذهب نور بصره تكون زرقاء، وزرقة العين أسوأ ألوانها، والروم كانوا أعدى أعداء العرب وهم زرق العيون فوصفوا بوصف مبغض من حيث اللون سيئ من حيث ذهاب البصر فهو أبلغ من عمياً ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ أي: يتسارّون، يقول بعضهم لبعض سراً من هول اليوم ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: ما لبثتم في الدنيا أو في القبر إلا عشر ليال، استقصاراً لمدة لبثهم لما عاينوا من شدة العذاب وهوله معتبرين ما تقدم أيام نعيم لأن أيام النعيم قصيرة ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ وهو مدة لبثهم ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أعدلهم رأياً ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ قصر في أعينهم بالنسبة لأهوال القيامة ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ وذلك أن رجلاً من ثقيف سأل عنها النبي صلى الله عليه وسلم فأجيب بنزول هذه الآية. والنسف: القلع من أصولها، ثم يجعلها هباء منثوراً، فأولاً يجعلها كالرمال ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أي: يدع أماكن الجبال من الأرض أرضاً ملساء صفصفاً مستوية لا نبات فيها ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ أي: لا انخفاضاً ولا ارتفاعاً فلا وادي فيها ولا رابية ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يوم إذ نسفت، وهو بدل ثان من «يوم القيامة» ﴿ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ ﴾ داعي الله إلى المحشر ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ لا يميلون ولا يزيغون عنه يميناً ولا شمالاً ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ ﴾ أي: خضعت ﴿ لِلرَّحْمَـٰنِ ﴾ لمهابته ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ صوتاً خفياً كصوت أخفاف الإبل ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ ﴾ عنده ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ أي: إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع ﴿ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ فلا يشفع إلا

المأذون الذي رضي الله قوله. ثم اعلم أن الشفاعة في الآخرة تابعة لإذن الله كما هنا وعلامة إذن الله أن يكون المرء مرضي القول، ومن رضا القول أن يكون مقبول القول في الدنيا قد سمع الناس نصائحه لطهارة قلبه وخلوص نيته. وعلى مقدار الآثار الواصلة من الشافع إلى المشفوع تكون درجة الشفاعة. فالأنبياء يشفعون والعلماء يشفعون والأستاذة يشفعون والشهداء يشفعون. ولكل منهم في الشفاعة درجة خاصة، وهي مقدرة بمقدار آثار في المشفوع لهم، وعلامة قبول شفاعتهم في الآخرة قبول نصائحهم في الدنيا. فكلما كانوا أبين قولاً وأكثر أثراً كانت شفاعتهم على مقدار ما وصلوا إليه من نفوس سامعيهم، والله هو العالم بالشافعين والمشفوع لهم ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ما تقدمهم من الأحوال ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وما يستقبلونه منها، فهو عالم بالشافع الذي أنار القلوب بعلمه، وبالمشفوع له الذي نال تلك الآثار فيعطي الإذن وقبول الشفاعة في المشفوع له بقدر ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ أي: ولا يحيطون بالله علماً ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ ﴾ أي: ذلت وخضعت ﴿ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ أي: الذي لا يموت القائم بتدبير خلقه ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ أيس من رحمة الله تعالى ﴿ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أي: من حمل إلى موقف القيامة شركاً، لأن الظلم وضع الشيء في غير محله ولا ظلم أشد منه ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الطاعات ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ مصدق بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ أي: فهو لا يخاف ﴿ ظُلْمًا ﴾ أن يزاد في سيئاته ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ أي: نقصاً من حسناته ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ عطف على: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ ﴾ [طه: ٩٩] أي: ومثل ذلك الإنزال ﴿ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ بلسان العرب ﴿ وَصَرَّفْنَا ﴾ كررنا ﴿ فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يجتنبون الشرك ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ﴾ الوعيد أو القرآن ﴿ ذِكْرًا ﴾ عظة ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: ارتفع عن الظنون وأوهام الأفهام ومشابهة المخلوقات الملك الذي يحتاج إليه الملوك، وإنّما كان ملكاً حقاً لأن ملكه لا يزول، أما ملك الملوك فإنه زائل.

ثم أخذ يستطرد لذكر القرآن قائلاً: وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأنَّ ريثما يسمعك ويفهمك، وهذا قوله: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي: بقراءته ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ أي: من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ بالقرآن ومعانيه. ويقال: إن الله ما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ ﴾ أي: أوحينا إليه ألا يأكل من الشجرة. يقال في أوامر الملوك: عهد إليه وأوحى إليه وعزم عليه، وهذه القصة معطوفة على: ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾ [طه: ١١٣]، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبل وجودهم، فخالف ما عهد إليه، وهم أيضاً مخالفون فالمخالفة راسخة في الأصول منتقلة إلى الفروع ﴿ فَنَسِيَ ﴾ العهد وهو النهي، والأنبياء يؤاخذون بالنسيان، أو نسي، أي: ترك ما وصي به من الاحتراز من الشجرة ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ تصميماً في الرأي وثباتاً في العزيمة ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ أي: اذكر حاله في ذلك الوقت لتعلم كيف نسي ولم يكن له عزيمة ولا ثبات. ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ قد تقدم الكلام على كل ما قاله الناس في الملائكة في سورة «البقرة» وعلى أدلة وجودهم. وقال الحسن: الملائكة لباب الخليقة من الأرواح ولا يتناسلون، وهذا القول يرجع إلى أحد الأقوال المذكورة في سورة

« البقرة » التي تشير إلى أن الملائكة والشياطين أرواح من ماتوا من الناس، فإن كانوا أبراراً فهم الملائكة وإن كانوا أشراراً فهم الشياطين، ويكون الأولون إلى النور أنسب والآخرون إلى النار أقرب. وتقدم في حديث مسلم أن النار حجاب الله، فهكذا هي التي حجبت الشياطين هي والمادة التي منها أنشئت، وحجباً الناس أيضاً عن ربهم، ولا مجال للبحث هنا فارجع إليه هناك. وهنا يقال: لمَ لمْ يسجد إبليس؟ فقال: ﴿ أَبَىٰ ﴾ أي: أظهر الإباء وتوقف ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ لأنه لم يسجد لك ولم ير لك فضلاً فاحترسا منه ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ فلا يكونن سبباً لإخراجكما منها ﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ فتتعب في طلب القوت، ولم يقل فتشقيا لمراعاة رؤوس الآي ولأن الرجل هو المكلف بنفقة المرأة، فجعل الشقاء عليه خاصاً به ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ عن الملابس فيها ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا ﴾ لا تعطش ﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ ولا تبرز للمشي فيؤذيك حرها، لأنه ليس في الجنة شمس، وهذه الأربعة هي مدار الكفاف فالشبع والري والكسوة والكنّ هي التي عليها مدار الحياة، ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ أي أسرّ إليه ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ أي: الشجرة التي إن أكلت منها بقيت مخلداً ﴿ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ لا يزول ولا يضعف. فالله وإبليس كلاهما رغبا آدم في النعيم المقيم، فالله جعله في الاحتراس من الشجرة وإبليس علقه على الأكل منها، فاتحدت الغاية واختلف الطريقان، فالرحيم سلك بعبده الطريق المؤدي الموصل، والعدو سلك الطريق الذي لم يوصل ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ أي: أكل آدم وحواء من الشجرة ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ أي: عريا من الثياب التي كانت عليهما حتى ظهرت عوراتهما ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي: يلزقان بسوءاتهما من ورق التين ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ وغوى أي: أخطأ الطريق الموصل إذ طلب الخلد بأكل ما نهي عنه.

جاء في حديث رواه البخاري ومسلم: قال صلى الله عليه وسلم: « احتج آدم وموسى، فقال موسى يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده، أتلومني على أمر قدّره الله تعالى قبل أن يخلقني بأربعين عاماً؟ فحج آدم موسى ». واعلم أن مثل هذا الحديث يتخذه الضعفاء حجة على فعل المعاصي وهو خطأ، بل مثله ينفع الإنسان بعد وقع الذنب ليتسلى به، فأما قبل وقوع الذنب فمن الجهالة الاحتجاج به، لأنه يكون ذلك وسيلة إلى تبديد القوى الإنسانية وإضاعة الدين والقرآن، وهذا هو الضلال المبين. ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ اصطفاه وقربه بأن حمله على التوبة ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ قبل توبته حين تاب ﴿ وَهَدَىٰ ﴾ هداه لرشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ﴾ الخطاب لآدم ومعه ذريته، ولإبليس ومعه ذريته ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي: بعض الفريقين لبعض عدو ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ أي: كتاب ورسول ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾ أي: الكتاب والرسول ﴿ فَلَا يَضِلُّ ﴾ في الدنيا ﴿ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ في الآخرة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ أي: الهدى الداعي إلى عبادتي ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ضيقاً، وهذا مصدر وصف به، وقرئ « ضنكى » كسكرى، وهذا الضنك يدركه ذوو النفوس الجاهلة في الدنيا، ولو كانوا أغنياء بسلب القناعة عنهم وحرصهم وجشعهم وسوء ظنهم بالله

وفرط انشغالهم بأسباب الاكتساب، وهؤلاء لم يدخلوا في السلام العام الذي يقوله المسلم في الصلاة، فإنه لا أمان لهم لسوء ظنهم بالله وبكل شيء في الوجود، فإن نزلت المحنة بهم لم يروها إلا تعذيباً، وإن نزلت بهم النعمة حرصوا عليها، وإن ذهبت منهم كادت نفوسهم تزهق، فإذا ماتوا عذّبوا في القبور على شهواتهم، وحزنوا واغتموا على ما ظنوه نعيماً، وإذا بعثوا بعثوا على ما ماتوا عليه حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. هذه هي المعيشة الضنكى. واعلم أن بعض الناس يعيشون في الأرض ويعذبون وهم لا يشعرون أنهم يعذبون. يظنون أن العذاب نعيم وأن السعير جنات، فيرى الأغنياء الذين لا حظّ لهم من عالم الجمال أنهم في خفض وفي دعة وفي سعة، وقد فاقهم الفقراء والخدم الذين في قصورهم والباعة في الطرق، فهؤلاء فاقوهم في السعادة والحظوظ الدنيوية وهم لا يعلمون، وقد اكتفوا بالمظاهر التي لا تحسّ بها قلوبهم، وقنعوا بما يتملق به الناس إليهم وهم لا يعلمون أنهم أشقياء في هذه الحياة. وهذا هو المعنى الذي ظهر لشاعر إنجليزي ولشاعر آخر اسمه « وليم وتون »، وقد ترجمت شعرهما وأنا مدرّس بالمدرسة العباسية بإسكندرية لتلاميذها، وهذا هو الشعر المذكور ذكرته هنا لتعلم أيها الذكي كيف كانت العقول البشرية وأصحاب النفوس الشريفة قد اصطلحت واتفقت على المعاني التي أنزلها الله في القرآن الكريم أنه أنزل للناس كافة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، وإذا كان رحمة للناس كافة فإذن يكون موافقاً لجوهر أرواحهم، مناسباً للفطر الأصلية، مستحوذاً على المعاني العالية التي اشتركت فيها الأرواح الصافية الخالية من الأغراض البعيدة عن الأهواء التي تغترف المعاني من بحر الأنوار المشرق من وراء الحجب الذين يأنسون بعالم الجمال، وهم بعيدون عن التأثر بالأحوال الإنسانية العارضة الشاغلة لأهل هذه العصور، وإن كانوا في أمم ظالمة ودول جشعة سيقتلها الحرص والطمع ولو بعد حين.

أيذوق الفقراء السعادة أكثر من الأغنياء؟

من شعر ترنش الشاعر الإنجليزي

قوم صفت الدنيا لهم ... وسماؤهم صحو عجب
فيها شمس وبها قمر ... لم تحجبهم عنها حجب
فإذا ما اغبرّ بأفقهم ... مقدار الظفر له غضبوا
وفريق عاش ودهرهم ... ليل فيه السود النوب
فإذا لمحوا من بارقة ... فرحوا جذلاً وبهم طرب
هذا مثل فيه عظة ... لذوي التوفيق إذا ضربوا
فانظر زمراً سكنوا مصراً ... وبنوا قصراً ولهم ذهب
ولهم نعم فيها نعم ... فإذا راحت فلها لجب
يشكون الدهر وما نصبوا ... إن شاكهم وبر صخبوا
فكأن الفضل بما طلبوا ... مما من عليهم حرب

وكـأن المـال جهنمـهـم ... وثـراء المـال لـهـم عطـب
وتـرى رهطـاً سـكنوا الأكـ ... ـواخ فـذا شـعر هـذا قصب
وحياتـهـم في مخمصـة ... ومعيشـتهم أبـداً وصـب
حمـدوا الرحمـن علـى نعـم ... وبـه فرحـوا ولـه انتسـبوا
فكأنـهـم لمـا سـلبوا ... مـا أعطـاهم منـه كسـبوا
فـالحب كسـاهم مـن حلـل ... وبكـأس سـعادته شـربوا

وصف السعداء في الدنيا

من شعر وليم وتون الشاعر الإنجليزي

ألا حبـذا مـن عـاش في النـاس ألمعـاً ... ذكـي فـؤاد لـم يكـن قـط إمعـه
يصـول بسـيف الحـق والحـق أبلـج ... إذا اضطـرب الأهـواء في كـل معمعـه
ولـم يـك عبـداً طائعـاً كـل شـهوة ... إلى المـوت تـاقت نفسـه وهـو في دعـه
فـلا أوثقتـه شـهوة بوثاقـهـا ... إلـى هـذه الدنيـا ولا المـال أطمعـه
ولـم يغبط القـوم الذيـن سـمت بـهـم ... مصادفـة أو يسـتهانوا مـع الضعـه
مـا غـره مـدح ولا شـرع واضـع ... ولكـن صـوت العـدل في القلـب أقنعـه
فيـأوي إلـى الركـن الشـديد ضميـره ... فـنزه تـاريخ الحيـاة وأبدعـه
وصار كفـاف العيـش لا الخـب طـاعم ... لديـه ولا الطـاغي إذا رام ضعضعـه
يصلي علـى حيـن العشيات والضحى ... لوجـه جـلال الله لا وجـه صفعـه
ويـوم فـراغ النفـس تلقـاه قارئـاً ... كتـاب نبـي أو مسـامر مـن معـه
فهـذا هـو الحـر الـذي عـاش مسـعداً ... فـلا خـوف يخشـاه ولا حـرس أوقعـه
مليـك قيـاد النفـس لا ملـك الـورى ... ولـم يـك ذا مـال بـل الملـك أجمعـه

فانظر كيف وصف شعراء أوربا حال الأغنياء أولاً وكيف بينوا أن السعيد إنّما يكون سعده بصفات الكمال والقناعة والوقار لا بالشهرة الكاذبة والمدح وكثرة الغنى. هذا بعض ما يفهمه علماء الإسلام من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه: ١٢٤]، وإياك أن تظن أن المسلم خارج عن دائرة المعيشة الضنك غنياً كان أو فقيراً إذا كان قلبه غافلاً عن ذكر الله وعن الصلاة.

فكم من المسلمين من يصلون ويصومون ويعبدون وهم أجسام خاوية ونفوس خالية وعقولهم ذاهبة. إياك أن تغتر بأنك مسلم أو مؤمن. إياك أن يغرك ذلك فليس لك حظ من الإسلام إلا على مقدار تشرب نفسك بهذه المعاني وحب الله وحضور الأمور العالية في ذهنك، إذا أردت أن تحظى بالعيشة السعيدة بقدر إمكانك في هذه الدنيا فاسمع ما سيأتي بعد آيات في هذه السورة واسمع قوله

تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[طه: ١٣٠] . إن أسرار القرآن ستظهر عما قريب للمسلمين .

انظر لكتاب الله تعالى كيف يقول: إنّ من أعرض عن ذكر الله فإن له معيشة ضنكاً، ثم يأتي بعد آيات في نفس السورة ويصف الدواء الناجح لهذه المعيشة الضنك، فيقول: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾[طه: ١٣٠] الخ، ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾[طه: ١٣٠]، ويقول: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾[طه: ١٣١]، ويقول: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾[طه: ١٣٢] .

فهاأنا ذا أسير في تفسير الآيات ليتضح المقام فلنسر في وصف هؤلاء ذوي المعيشة الضنك المذكورين، قال الله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ البصر والقلب كما كان أعمى القلب في الدنيا ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ فأجابه الله قائلاً: ليس المدار على البصر الظاهر إنّما الأمر موقوف على التعقل والتفكر فأنا لم أحشرك إلا على ما مت عليه، وهذا قوله: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾، ثم أخذ يفسره فقال: ﴿ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا ﴾ واضحة نيرة ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ عميت عنها وتركتها اتباعاً لأبيك آدم وقد نبهتك بقصته فما ارعويت ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ ومثل تركك إياها ﴿ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ تترك في العمى والعذاب ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بالانهماك في لذاته والاستغراق في أسباب الحياة الدنيا وهو معرض عن آياتنا ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ فكذبها ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ وهو الحشر على العمى، وعذاب القبر والنار ﴿ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ من ضنك العيش، لأن العذاب الفاني أقل من العذاب الباقي، لقد وعد الله المعرضين عن ذكره تعالى بعذابين في الدنيا بالضنك والذل، والآخرة بعذاب جهنم وبالعمى الحقيقي، ثم ختم الآية بأن العمى في الآخرة وعذابها أشد من ضيق العيش في الدنيا . فما أوضح هذا القول وما أعجبه .

ولما كانت حياة الأفراد مقيسة على حياة الأمم كما تنبه لذلك «أفلاطون» في كتاب جمهوريته الذي وضعه على لسان أستاذه «سقراط» إذ قال فيه: إن الأمم لا تتم مدنيتها إلا بأربعة أشياء: حكام مفكرين بحكمة وعقل، وجيوش منظمة مدربة خاضعة لآراء رؤساء المدينة، وعامة قائمين بواجباتهم من صناعة وتجارة وعمارة وزراعة وأدب وطاعة تامة، فهؤلاء الأقسام الثلاثة إذا قام كل منهم بما أوجبه القانون عليه؛ فالرؤساء حكماء والجيوش مطيعون والعامة ممتثلون أمر الفريقين كانت هذه الصفة هي العدل، وإذن لا سعادة لأمة إلا بهذه الأربعة: حكمة في الرؤساء وشجاعة في الجنود وعفة في العامة وعدل بانتظام هذه الأحوال والتئامها . ثم قال بعد ذلك: وهذه إذا كانت أحوال الأمة فأحوال الإنسان الفرد تقاس على حال المجموع . فلتكن قوتنا الشهوية للملبس والمطعم والتزوج أشبه بالعامة في الأمة، وقوتنا الغضبية طائعة لقوتنا العقلية فلا تتحرك لعمل بطريق الغضب إلاّ إذا كان العقل يأمر به، وقوتنا العقلية قائمة بالحكمة والعلم دراسة مفكرة . وبانتظام هذه الثلاثة يكون العدل فالإنسان لا سعادة له إلا بهذه الأربعة ومنها تفرعت جميع الأخلاق: العفة، الشجاعة، الحكمة، العدل . هذا ملخص جمهورية أفلاطون، ذكرتها لك هنا لتعجب كيف ذكر الله الآيات الآتية بعد السابقة، ذكرها ليقيس حال الأفراد على حال المجموع .

فانظر كيف جاء القرآن بما هو ملخص الفلسفة العالية الموضوعة في كتاب عظيم ضخم. انظر كيف لخصها في بضع آيات، فقد ذكر الأشخاص الذين عاشوا عيشاً نكداً في الدنيا وسيشقون في الآخرة. وهذا العيش النكد بإعراضهم عن ذكر الله، وهذا هو علم الحكمة ويتبعه سائر ما تقدم، ثم أتبعه بذكر أحوال الأمم الجاهلة، قال: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ أفلم يبين لهم إهلاكنا من قبلهم من القرون وهم يمشون في مساكنهم، ففاعل يبين هو المأخوذ من قوله تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ أي: حال كونهم يمشون في ديارهم ويشاهدون آثار هلاكهم. أفلا يقيسون أحوال الأفراد على أحوال الأمم، أفلا يفكر كل واحد في نفسه أن الله الذي أهلك هذه الأمم هو الذي يعامل الأفراد معاملة الأمم، والفرد طبعه طبع المجموع مقيس عليه كما يعرفه فلاسفتكم في الأرض بعقولهم وذكائهم، فكيف غفل الناس عن ذلك، ونحن كما عذبنا الأمم بهلاكها تارة وبتنغيص عيشها بالحرب والضرب والقتال نفعل كل ذلك بالإنسان الواحد، فتارة نأخذه بغتة وتارة نبقيه ونجعله في معيشة ضنك. وإن الإنسان ليسهل عليه أن يدرس الأمم وأحوالها فليقس نفسه عليها. وأنا لم أؤخر العذاب عن هذه الأمم الكافرة من قريش وغيرهم إلا لكلمة سبقت مني في اللوح المحفوظ وفي علمي القديم أن أؤخر العذاب عن بعض الأمم، لأني أردت أن أبتليهم لعلهم يؤمنون أو تخرج منهم ذرية مؤمنة ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي: الحكم بتأخير العذاب عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَكَانَ ﴾ العذاب المماثل لما نزل بعاد وثمود وغيرهما ﴿ لِزَامًا ﴾ لازماً لهؤلاء الكفار ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ عطف على «كلمة» أي: ولولا العدة بتأخير العذاب وأجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة أو بدر لكان العذاب لزاماً.

فصل: في الكلام على سعادة الإنسان في الدنيا وكيف لا يعيش معيشة ضنكاً

اعلم أن الله بعد أن ذكر حال الذي يعيش معيشة ضنكاً، وبين أن العقل المحجوب الذي في غشاه عن ذكر الله معذب صاحبه في الدنيا وإن كان غنياً، وأن عذابه في الآخرة تبع لعذابه في الدنيا، وأن حاله مقيس على حال الأمم، وأن الفرد كالأمة ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]، أتبعه بذكر الدواء لهذا الداء لينبه المسلمين إلى الحياة السعيدة. وأن كلمة الشهادتين والإسلام الظاهري مع غفلة القلب لا يكفيان لها فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأربعة أمور:

الأول: الصبر.

الثاني: العبادة مع حضور القلب.

الثالث: أن لا يتعلق بأمور الدنيا فيشتهي مثل ما عند الأغنياء.

الرابع: أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر عليها. هذه هي الشرائط الأربعة لسعادة النفس في الدنيا وأن الإنسان لا يكون في عيشة مضنكة.

الأمر الأول: الصبر

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ من الشتم والتكذيب ما دمت غير قادر على تأديبهم وتهذيبهم حتى يأتيك الأمر بالجهاد.

الأمر الثاني: الصلوات

وهي الصلوات الخمس مع صلاة الليل وهي التهجد ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ أي: وصلّ ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي: وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه معترفاً بأنه المولي للنعم كلها بأن تقول في صلواتك: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢] الخ وليكن ذلك ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ وهي صلاة الفجر التي تكون في أوقات الصفاء والجمال والبهجة وإشراق الجوّ بنور بهج بديع مشرق مذكر بالنور الإلهي المالئ للكون ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ وقت الظهر ووقت العصر وقد أزفت ترحل من العالم الأرضي إلى عالم أرضي آخر، فتكون الصلاة في هذين الوقتين للاعتراف بما حباه الله للناس من النور الذي أكسبهم حياة ومعيشة وسبب لهم الخيرات والنعم وحاطهم بأصناف الكرامات من جنات وأعناب وسحاب وضياء به يبصرون طرقهم ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾ الآناء جمع إني بالكسر والقصر أو أناء بالفتح والمدّ أي الساعات، يقول: صلّ في ساعات الليل المغرب والعشاء وصلاة التهجد، فإن هذه الأوقات هي التي تشعر القرب بالله تعالى ويسجد ويقترب منه، لأن المشاغل الدنيوية ليس لها سلطان على القلب إذ ذاك كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[المزمل: ٦] أي: أشد مواطأة وموافقة وأبين قولاً، ففيها يوافق القلب اللسان ويخاطب ربه ويفرح به ويفيض عليه الأنوار والبهجة. وليس يعرف ذلك المسلم إلا بالتجربة أما مجرد السماع فلا يكفي، وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ فإنه تكرار لصلاتي الصبح وصلاة المغرب وهو معطوف على ﴿ قَبْلَ ﴾ يقول الله: سبحني في هذه الأوقات ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ أي: رجاء أنك ترضى ـ بالبناء للمجهول ـ أي: يرضيك الله بالإلهام والمسرات النفسية والأنوار القلبية والهداية والتوفيق وأن تكون هادياً للناس، وفي الآخرة بمشاهدة الله الذي كنت تشتاق إليه وأنت حي في الدنيا، أو بالبناء للفاعل أي تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسرّ قلبك في الدنيا والآخرة.

الأمر الثالث

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي: نظر عينيك ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ ﴾ استحساناً له وتمنياً أن يكون لك مثله ﴿ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ أصنافاً من الفكرة ثم أبدل قوله: ﴿ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: ذوي زهرة الحياة الدنيا. ولا جرم أن الزهرة ذابلة قريباً والثمر هو الباقي ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي: لنبلوهم ونختبرهم فيه ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ وهو الهدى والتوفيق وثوابهما ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما منحوا من الدنيا ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ فإنه لا ينقطع.

ثم اعلم أن الرزق الذي جاء في هذه الآية ينتهي إلى مشاهدة الله تعالى والاستغناء به عن عالم المادة لأنه هو المصدر الأول لكل نعمة، فإذا اقتنع الجهال من سائر الأمم بالمال والمناصب وهي زائلة بل قواهم نفسها مضمحلة ذاهبة في هذه الدنيا قبل الآخرة؛ فإن أرباب النفوس العالية لا يقر لهم قرار حتى يشاهدوا مبدأ هذا الجمال البارع. نعم لا يحبون شيئاً إلا أن يروا ربهم، وهذه الرؤيا لا معنى لها إلا العلوم والمعارف الشريفة التي تنتهي بالمشاهدة اللائقة لذلك المقام لا مشاهدة الحواس.

ولعلك تقول هذه خطوة كبرى، أقول لك: إنها من حديث البخاري ومسلم، فعن جرير بن عبد الله قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: إنكم سترون

ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾[طه: ١٣٠]. اهـ.

إن هذا الحديث خير مفسر لهذه الآيات. يقول الله تعالى: صلوا صلواتكم الخمس وصلوا تهجداً بالليل، ذلك لأتجلى عليكم إذا وجهتم قلوبكم إلي في نفس الصلوات، وإياكم أن يشغلكم المال واللذات الفانية، فإنّما المال زهرة والعلم ثمرة، ولا ثمرة إلا أن تشاهدوني فلا مال الدنيا ولا الجنة في الآخرة بمقنعين ذوي العقول دون أن يروني، وكيف يروني إلا باستحضاري في قلوبهم. وكيف يستحضروني في قلوبهم إلا في خلواتهم، ولا خلوة أفضل من خلوة القلب في الصلاة، ولا تتم الصلاة وخلوة القلب فيها إلا باحتقار المال وعدم تمني ما عند الناس، وعدم الاحتفال بهذه المادة، فإن كنت غنياً أو فقيراً فليكن المال عندك كزهرة والعلم كثمرة، ومتى دمت على ذلك ومت فإنك تراني وتشاهدني أيها العبد مشاهدة حقة، ولا تظن أن قيامك بأمر أمتك وعملك لهم يمنعك من ذلك فمن أحسن لعبادي فقد تقرب إليّ بهذا الإحسان.

الأمر الرابع

قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وأمر أهل بيتك والتابعين لك من أمتك بالصلاة كما أمرت أن تصلي أنت ﴿ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ وداوم عليها ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ﴾ لا نسألك أن ترزق نفسك وأهلك ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ وإياهم ففرغ قلبك لأمر الآخرة ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ ﴾ المحمودة ﴿ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ لذوي التقوى. وكان عروة بن الزبير إذا رأى ما عند السلاطين قرأ: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾[طه: ١٣١] الآية، ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله. وكان بكر بن عبد الله المزني إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا بهذا أمر الله ورسوله. وعن مالك بن دينار مثله. وفي بعض الأسانيد أنه كان عليه الصلاة والسلام إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية.

وإياك أن تظن أن هذا معناه أن نقعد عن الكسب، بل معناه أن نسعى في الكسب وقلوبنا مع الله، كما أن العاشق المحب يسعى في جمع كلمة أهل العروس على حبه، ويسعى في جمع المال، وكل ذلك لا يمنع من الفرح والغرام بنفس العروس، فهو يسهر ويكد ويحصل للاجتماع بها فيجمع المال ويلاطف أهلها، ويتوسل بأصحاب أبيها، وهي في نفسه الشغل الشاغل بل كل أعماله موجهة إليها، ناهيك ما ترى أن المسلمين مأمورون أن يصلوا صلاة الخوف وهم متلبسون بالحرب، فتكون المدافع والرشاشات منصبة عليهم وهم مجدون في التكبير وذكر الله، فإذا سمعت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي إذا أصابه ضرّ وهكذا ابن دينار وغيره؛ فاعلم أن هؤلاء هم أنفسهم الذين فتحوا البلاد ودوخوا الممالك، وما كان ذلك وهم يصلون، بل كانوا يحاربون ويصنعون الأسلحة ويشترونها ويفعلون من المؤامرات السرية والاستحكامات العسكرية ما أعجزوا به أهل زمانهم، فالمعنى هنا أن يكون القلب بذكر الله معموراً وبالعمل في الدنيا مجداً. ولو أنا تركنا القول بدون هذا التعليق لظنّ البعض أن ذلك كاف في الحياة، وأمثال هذا القول والأخذ به وحده هو الذي أضاع على الأمة دينها ودنياها، فيظنّ من لا عقول لهم أن الدين ليس فيه إلا هذا مع أن هذا أحد طرفي الدين والطرف الآخر أعمال الحياة من جهاد وصناعة الخ فتأمل. وبهذا تعرف معنى قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦]

أي: من أخذوا بأحد شقي الدين من القرآن ﴿ وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ ﴾[البقرة: ٢٦] أي: من أخذوا بجميع أطراف الدين، فلا أعمال القلب تلهيهم عن أعمال الجوارح ولا أعمال الجوارح تلهيهم عن أعمال القلب. هذا هو الحق الصراح. فأما الكسالى منهم فهم الذين فهموا في الدين غير هذا فعطلوه وعطلوا أهله، فأخذتنا أوروبا وأذاقتنا سوء العذاب الهون ومزقتنا كل ممزق، وسيلتئم الصدع وينضم الجمع ويتم الأمر ويرقى المسلمون وإلى مجدهم يرجعون وذلك في أقرب الأوقات.

ولما كانت الآيات السابقة التي فيها الشروط الأربعة للسعادة في الدنيا وتبعها الأخرى قد جاء فيها الصبر على ما يقولون وأنه أول الشروط؛ أخذ هنا يبين ما يقولون لنتأسى بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولنصبر كما صبر، ولا نبالي بما يقول فإن العاقبة للتقوى، فقال: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ ﴾ أي: هلا يأتينا محمد بآية من ربه تدل على صحة نبوته ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري للتقرير، يقول لهم: يا أيها الكافرون كيف تطلبون آية أوما عرفتم ما جاء في القرآن لا سيما ما في هذه السورة من قصص الأولين ونبأ المرسلين كموسى، وذلك ملخص ما جاء في التوراة في مواضع مختلفة وصحف متفرقة، وكيف كانت هذه الزبدة ملخص علوم وآراء، لو عمل بما فيها لكونت أمة ولأقامت شعباً كبيراً إذ جاء فيها أن العلم لا يبنى إلا على الحقائق، وأن معجزة موسى بعصاه وبيده لم يؤمن بها إلا العلماء والسحرة. أما إيمان الجهلة من بني إسرائيل فقد زلزله للسامري بعجله فكيف تطلبون مني آية على صدق نبوتي تؤمنون بها زمناً ما ثم تنسج عليها عناكب النسيان إذا ظهر فيكم من يدعي نبوة أو ولاية وأتى بما هو من قبيل التخييل السحري، فإنكم تتبعون ذلك وتتركوني وتكون كل آرائكم موجهة إلى من فعل ذلك ولو كان على ديني، كما اتفق لبعض المسلمين الذين أظهروا غرائب فظنهم الناس أنهم اتصلوا بالعرش فهم مؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولكن قلوبهم معلقة بأولئك الشيوخ لا يسمعون إلا لقولهم ولا يريدون سواه وإن كانوا مؤمنين. فيقول الله هنا: أما كفاكم يا أهل مكة ما قرأتم في هذه السورة من أن ما تقترحونه من الآيات كإزاحة جبال مكة أو تفجير الأنهار أو غيرها لا قيمة له في اتباع الأنبياء، وإنما المدار على العلوم العقلية، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي: من قبل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ ﴾ هلا ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ بنزول العذاب ﴿ وَنَخْزَىٰ ﴾ في العقبى ﴿ قُلْ كُلٌّ ﴾ أي: كل واحد منا ومنكم ﴿ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ منتظر للعاقبة ﴿ فَتَرَبَّصُواْۖ ﴾ أي: فانتظروا أنتم ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ يوم بدر أو يوم القيامة ﴿ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ ﴾ المستقيم ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ من الضلالة نحن أم أنتم. انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثالث من سورة « طه ». وهنا أربع لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾[الآية: ١١٣]

إلى قوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[الآية: ١١٤]

اعلم أن الأحكام التي تشتمل عليها الشرائع ومنها القرآن ستة: الاعتقادات، العبادات، المشتهيات، المعاملات، الزاجرات. الآداب الخلقية.

فالاعتقادات خمسة: إثبات وجود الباري جل ثناؤه بصفاته، وإثبات الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين خلقه، والكتاب، والرسل، والمعاد، وقد انطوى على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾[النساء: ١٣٦].

وأما العبادات فثمانية: الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والاعتكاف والقرابين والكفارات.

وأما المشتهيات فهي أربع: المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات.

وأما المعاملات فهي أربع: المعاوضات كالبيع والإجارة وما يجري مجراهما، والمخاصمات كالدعاوى والبينات، والأمانات كالودائع والعواري، والتركات كالوصايا والمواريث.

والمزاجر خمس: مزجرة عن فوات الأرواح حفظاً للنفوس كالقصاص والدية، ومزجرة لحفظ الأعراض كحد القذف والفسق، ومزجرة لحفظ الأنساب كالجلد والرجم، ومزجرة لحفظ الأموال كالقطع والصلب، ومزجرة لحماية البيضة للمرتد وقتال البغاة.

وأما الآداب الخلقية فثلاثة: (١) ما يختص به الإنسان في نفسه وإصلاح أخلاقه كالعلم والحلم والسخاء والعفة والشجاعة والوقار والتواضع. (٢) وما يختص به في معاشرة ذويه ومختصيه كبر الوالدين وصلة الأرحام وحفظ الجار ورعاية الحقوق ومواساة أهل الفقر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف. (٣) وما يختص به أولو الأمر من سياسة الرعية.

انتهى من مقدمة التفسير للعلامة الشهير أبي القاسم الراغب الأصفهاني، وقال في نفس هذه المقدمة أيضاً ما نصه: إن الناس لن يتساووا في معرفة القرآن، وإنّما ينالون منه بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم فالبلغاء تعرفه من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص به. وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه، وعلى ذلك أخبار النبي صلى الله عليه وسلم، فقد قال: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها كما سمعها حتى يؤديها إلى من لم يسمعها فرب مبلغ أوعى من سامع». اهـ.

وهذا يوضح لنا معنى قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤] فالزيادة في العلم تزيد الإنسان فهماً في القرآن، وقراء هذا التفسير يعرفون هذا حق المعرفة، لأن العلوم في هذا الزمان قد برعت وأظهرت ما كان خافياً على الأمم المتقدمة. وهذا سر قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤] فعلى المسلم أن يزداد علماً حتى يدرك مقاصد القرآن ومراميه.

وقال أيضاً تحت عنوان «فصل في انطواء القرآن على البراهين والأدلة» ما نصه: قال عليه الصلاة والسلام: «إن لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حرف حداً ومطلعاً» لا على ما ذهب إليه الباطنية.

ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر، ولذلك إذا ذكر الله تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها بإضافتها إلى أولي العقل ومرة إلى أولي العلم ومرة إلى السامعين ومرة إلى المفكرين ومرة إلى المتذكرين تنبيهاً على أنه بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الرعد: ٤] وغيرها من الآيات. اهـ.

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ أيضاً

اعلم أن هذا العالم الذي يعيش فيه يخدم بعضه بعضاً ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[مريم : ٧٧] ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا ﴾[الرعد : ١٥] ، ومن السجود لله أن يكون المخلوق نافعاً لغيره شاء أم أبى ، ويستنتج من صفات هذا العالم أن النفوس الإنسانية لا تنال سعادتها إلا إذا صفت سرائرها وكانت نسبتها إلى العالم كله واحدة ، بحيث يستوي عندها المحبوب والمكروه وتعمل الخير لأجل الخير لا لأجل منفعته . وهذه المقدمة سقتها لأقول : قد خدم السمك الصغير في البحار السمك الكبير فأكله . فهذا قدم جسمه وهو كل ما في مقدرته ، وقدم السمك كبيره وصغيره أجسامه للإنسان ، وقدمت الغزلان والبقر وغيرها من سائر الحيوانات الوحشية أجسامها قرباناً للأسود والنمور ، وخلفت البقر أظلافها للغراء وجلودها ، وهكذا جلود الغنم وغيرها لمنافع الناس ، وهكذا الصناع في كل أمة من أمم الأرض إذا اخترعوا صناعة حديثة يخدمون نوع الإنسان كله إذا سار في سبيلهم شاؤوا ذلك أم أبوا ، فترى من اخترع البخار والكهرباء والبريد الذي له سلك والذي لا سلك له ، ومن اخترع قطار سكة الحديد ، ومن اخترع « الراديوم » والآلة الحاكية « الفونوغراف » كل هؤلاء قدّموا عملهم لنوع الإنسان كما قدم الحيوان لحمه وجلده له ، ولعمري إنه لا فرق بين صانع أتقن صنعته فقلده سواه وهو لا يقصد ذلك ، وبين نمر مات وترك جلده لنوع الإنسان كلاهما لا قصد له . إذن هما سيان . إذن لا خير في عمل يعمله الإنسان للنفع العام إلا إذا قصد ذلك ، وهذا معنى الحديث : « إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرئ ما نوى » .

إذا عرفت فانظر إلى النبوة ، إن النبوة يقصد منها الهداية العامة وليست كصناعات الصناع أو نحوها ، بل هذه يراد بها قصد هداية للناس ، فإذا رأينا الله عز وجل فطر العالم كله على مقتضى صفاته وهي إفاضة الخير فإن كل موجود مستعد لإفاضة الخير على غيره ، ولكن أكثر ذلك بلا قصد ، فالله هو العالم الحكيم وهذه المخلوقات لا تلحقه في ذلك الوصف . أما الأنبياء ومن اقتفوا آثارهم فهم يصنعون الخير قاصدين نفع الناس مقتدين بفعل ربهم في خلقه ، فهو مفيض للخير وهو عالم وحكيم . والأنبياء درجات فمنهم من أرسل لقومه ومنهم من أرسل للعموم ، فإنك تسمع الله يقول : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[الأعراف : ٦٥] ، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾[الأعراف : ٧٣] ، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[إبراهيم : ٥] ، ويقول في النبي صلى الله عليه وسلم في نفس السورة قبل ذلك : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[إبراهيم : ١] .

إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الناس ، والأنبياء كل رسول مرسل إلى قومه ، وتسمع الله يقول : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء : ١٠٧] . هاهنا وصلنا إلى المقصود . رسول الله ليس كالأنبياء في الاختصاص بأمة ، والأنبياء ليسوا كأرباب الصناعات بحيث يتعداهم النفع لغيرهم وهم لا يقصدون . إذن رسول الله أرسل للناس جميعاً ليفهموا وهو يقصد ذلك .

فماذا حصل ؟ لما ظهر الإسلام ماجت الأرض واضطربت ، لماذا اضطربت ؟ لأنه قال : إني أرسلت إلى جميع الناس ، وقال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله » ، فماذا حصل ؟ فتحوا الفرس والروم ، وماذا حصل ؟ امتد الفتح إلى أقصى الشرق .

فهناك حصل أمران عظيمان وهما السيل الجارف الذي جاء من أوروبا بالحروب الصليبية ، ونظيره من الشرق حرب المغول والتتر وهم يأجوج ومأجوج المتقدم شرحهم شرحاً وافياً في سورة « الكهف » . هنالك تداخل العالم بعضه في بعض شرقاً وغرباً . وذلك كله تم في الألف الأول من التاريخ الإسلامي . أما الألف الثاني الذي نحن فيه فإنه قد ظهرت فيه ثمرات ذلك التداخل بين الشرق والغرب ، واستنار الناس شرقاً وغرباً كل بقدره .

تقدم في آخر سورة « الكهف » أن نوع الإنسان مضى له على الأرض (٣٠٠) ثلاثمائة ألف سنة . وهذا وإن كان أمراً تقريبياً يمكن الائتناس به ، وقد جاء أن الرسل فوق ثلاثمائة رسول . هذه ثلاثمائة ألف سنة أو أقل أو أكثر وهؤلاء الرسل الذين أرسلوا لهم لم يأذن الله لرسول منهم في تلك الأيام أن يعلن صوته للعالم ويقول أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، ولكن أعلنه آخر رسول ، ولما أعلن هذا الإعلان ماجت الأرض وهاجت ، وقرأ الغربي علوم الشرقي وبالعكس ، فحصلت هذه المدنية التي نحن فيها الآن ، ولم يتم هذا إلا بالرسالة . إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة لأهل أوربا والصين واليابان وأمريكا ، لأن هؤلاء جميعاً لم تتم لهم هذه المدنية إلا بسبب انتشار الإسلام وتداخل الأمم ، ولولا هذا التداخل لم يتم شيء من هذه المدنية . والدليل على ذلك أنه لم يتم شيء من هذا في التاريخ الذي بلغنا ، وربما كان في أزمان نحن نجهلها الآن .

إذن المدنية الحاضرة ثمرة الإسلام ، والإسلام جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمره الله أن يدعو فقال له : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، وفرق بين قوله : ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ وقوله فيما تقدم : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه : ٥٠] ، فهناك ذكرت ليعرف الناس حقائق ما في السماوات والأرض ، لأن الله جعل حمده منوطاً بمعرفة ما في السماوات والأرض والظلمات والنور أي أننا نحمد الله على هذه البدائع والعجائب .

أما هنا فهو يأمره أن يقول : ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ فأتى بـ « ياء » المتكلم أي الزيادة نافعة لي مباشرة ، فلذلك طلبها وقال : ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . وإذا دعا محمد صلى الله عليه وسلم ربه بأن يزيده علماً فأمته مأمورة كما أمر هو أن يزيد علماً ، فإذا أمر بالدعاء بالزيادة فقد أمر بالزيادة تبعاً وأمته تبع له ويتبع هذا أن يزيد العلم في أمة الدعوة كلها ، لأنه صلى الله عليه وسلم جاء للرحمة العامة فكأنه دعا بزيادة العلم لجميع أهل الأرض ، لأن أمته مأمورة بازدياد العلم كما أمر هو ، وازدياد علمه هو سيتبعه الانتشار فيعم الأمم ، وقد حصل هذا كله ، فإن الأمم الإسلامية أولاً أثارت ثائرة الكتب اليونانية ، ثم لما نشرت علومها جاءت أوروبا فأخذتها وزادت عليها ، ثم جاءت الصين واليابان . كل هذا سر﴿ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . وإذا قال نبي : ﴿ زِدْنِي ﴾ فليس ذلك كقول آحاد الناس . إن الجاهل يقصد نفعاً والعالم يقصد العموم والأنبياء أعم فهم كالشموس . فإذا قالت الشمس : يا رب زدني نوراً ، فليس لهذا معنى إلا أن تفيض النور على غيرها ولو بواسطة القمر فذلك من مقصودها . فإذا رأينا العلم انتقل إلى المشرق والمغرب وازداد ثم ازداد فهذا من آثار ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . ولأذكر لك في هذا المقام ثلاثة أمثلة من ازدياد العلم في العالم الذي نعيش فيه :

(١) مثال لما في قاع البحر من العجائب في العلم الحديث .

(٢) مثال لما فوق الأرض من بدائع علم الحياة .
(٣) مثال لما في عالم الجو والسماوات من غرائب الإبداع .

المثال الأول : في مسألة المطاط « الكاوتشوك »

إن المطاط أو « الكاوتشوك » تقدم الكلام عليه في أول سورة « يونس » مرسوماً موضحاً منافعه وخواصه العامة . وقد قلت هناك : إن الله جعله قليلاً في الأرض لينصب الناس في تحصيله الخ ، وما كنت أعلم ما تم في ذلك ، فانظر ماذا جرى . رأت أمريكا وألمانيا أن البقاع التي فيها الكاوتشوك تحت سيطرة الإنجليز وقد عمت الحاجة إليه ، فماذا يصنعون؟ أخذ أهل أمريكا يجدون على أن يظفروا بمادة تقوم مقام المطاط ، كما أمكنهم أن يستعيضوا عن الجلود بمادة أخرى ، فوفق أحد علمائهم إلى مادة في قاع البحيرة المالحة الكبرى في أمريكا ، ورأى أنها تصلح بعد مزجها بقليل من المطاط البالي المنبوذ لتكوين مطاط كالمعتاد المستخرج من الشجر . وما هي تلك المادة؟ هي نوع من النفط الأسود وجدت تحت قاع تلك البحيرة بعمق يختلف من ١٢٥ قدماً إلى ١٤٠ قدماً ، وهذا النفط أسود يشبه في كثافته عسل القصب ، وفيه ٩٩ من المائة من زيت كبريت جامد نشأ من بقايا حيوانات قديمة مندثرة ، وبقي مخزوناً بين طبقات من الطين في منطقة تبلغ مساحتها ألفي فدان عند شاطئ البحيرة الشمالي . فهذا النفط ينقى ويمزج بالمطاط البالي ، وهو أفضل اقتصاداً من المطاط الشجري المتقدم ، وثمنه أقل من ربع ثمن المطاط المعتاد ، ويكفي لكل ستين جزءاً من النفط المذكور أن يضاف ١٤ جزءاً من المطاط المستعمل . أما الألمان فإنهم يقومون الآن بتجارب أخرى في ألمانيا لصنع المطاط كله من مواد كيمائية ليسهل وجودها في كل مكان ، وتقول الصحف الألمانية إنها مستبشرة بالنجاح . اهـ .

فانظر لهذا الإنسان كيف خلق الله له المطاط وقلله ، ولكنه في زماننا أكثر له العجلات والأدوات المتحركات التي تحتاج إلى المطاط ، فكأنه قال : أيها الناس هاأنا ذا خلقت لكم نموذجاً وهو المطاط وقد قللته في الأرض فزيدوا علماً واختبروا المواد الأرضية ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر : ٢١] .

المثال الثاني : ما فوق الأرض من بدائع أسرار الحياة

تقدم في سورة « الأنعام » عند قوله تعالى : ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾[الآية : ٩٩] وصف الذرات الصغيرة وهي طلع الأزهار ، وقد رسمت هناك أشكاله مكبرة باعتبار أن لكل نبات شكلاً خاصاً لهذه الحبيبات الصغيرة التي بها يكون إلقاح النبات .

فهاهنا تذكر أمراً عجيباً . ذلك أن الناس في عصرنا لم يوفقوا إلى معرفة الشيء الذي يبعث الحياة في الأحياء . وبعبارة أخرى : لم يصلوا لسر الحياة ولم يقدروا أن يصوروا نمو الحياة وحركتها في الأحياء . ولكن الأستاذ « أرثر بيلسبوري » يقول : إنه وصل إلى تصوير الجوهر الحيوي في الزهر ، ويقول : إن يشبه تفاعل الحياة في الحيوان شبهاً مدهشاً . ومتى تم هذا الكشف واعتمده العلماء بعد التجربة تجعل الطبيب قادراً على معرفة ما تتعرض إليه الحياة الأولية في كل جسم من العوامل التي تحدث ضرراً في بعض الأعضاء الحيوية ، وينشأ عنه مرض معين ، لأن المرض عامل طارئ على الجسم يعطل العمل الحيوي المستمر ، وتظهر أعراض هذا التعطيل ، فسمي مرضاً معيناً ، ووظيفة الطبيب أن

يعرف مكان العلة ويعطي العلاج لإزالته . ومتى وقف الناس على ذلك عرفوا دواء الداء ونشطوا الأعضاء الخاملة ، ويصبح جسم الإنسان كأنه آلة ميكانيكية في نظر المهندس ، فالمهندس يعرف مواضع خلل الآلة فيصلحها . هكذا الطبيب في الجسم ، ويصبح الطب علماً يقينياً بعد أن كانت أعماله ظنية .

فهذا الأستاذ أمكنه أن يصور ذرات اللقاح وهي متحركة ولم يسبقه أحد إلى تصوير ذرات لقاح نباتية حية . وذلك أنه كان في جزائر «هاواي» فرأى « زنبقة العنكبوت » فكشف بين ذراتها اللقاحية وحدة حيوية حمراء اللون ، فأدرك أنه توصل إلى ما كان يريده ، وأنه رأى الشيء الذي يبعث عملية الحياة في النبات والشجر ، فجمع تلك الذرات التي لا تظهر للعين المجردة إلا إذا كانت متراكمة ووضع ما اصطفاه منها في نقطة من سائل خاص ووضعها على قطعة من الزجاج ووجه إليها منظاره الخاص ، فرأى تطور الذرات بعد بضع ساعات ، وفتق منها غشاؤها الخارجي وظهر من داخلها ما هو كالعرق يتلوى كالدود ، وبعد قليل انسلت منه تلك النطفة «وحدة الحياة» وملخص هذا أن ذرة اللقاح ظهرت من داخلها مادة الحياة وذرة اللقاح المذكورة لا ترى فبالأولى ما خرج منها وهو سر الحياة ، ولم يمكنه أن يصدر هذه المادة إلا بعد أن جعلها مائة ألف ضعف . وهذه صورة سر الحياة (شكل ١٠) .

(شكل ١٠)
رسم جراثيم حية في نقطة سائل تمثل نطفات لقاحية تمتزج برأس ورقة أخرى لتكوين الحياة

المثال الثالث : السفر إلى القمر

لعلك سمعت هذا العنوان فاستهجنته كما استهجنته أنا . ولا جرم أن هذا معقول أنه ينبذ . فإذا كان الإنسان ليس عالماً بأمر فهو ينكره ، ولكني اطلعت في بعض المجلات على مقال واف معقول فذكرته هنا لذكر المثال الثالث لقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه : ١١٤] ، فإن علم النفط في قاع البحر وعلم سر الحياة في النبات والحيوان ازدياد للعلم مستمد من قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، وهذان علمان في البحر وفوق الأرض فلنذكر زيادة العلم في الجو فنقول : أذكرك بما تقدم في سورة « الحجر » عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[الآية : ٧٥] ، فقد ذكرت هناك المتوسمين من أمة الإسلام حين يرون أن القوم يريدون أن يستخدموا الفحم الذي في القطب للأعمال الإنسانية ، وأن يجدوا في تقريب المسافات وجميع الأعمال فارجع إليه هناك . فهناك يفكر بعضهم أن يستخدم سرعة دوران الأرض في تقريب المسافات الخ .

أما هنا فإن القوم وصلوا إلى ما يأتي: ذلك أن القوم في برلين وميونيخ بألمانيا جربوا في معامل « أوبل » الشهيرة طرازاً جديداً من المركبات، وذلك أنهم لا يديرونها بالمحركات المعروفة. كلا بل يديرونها بجهاز من الأسهم الغازية تقذف الغاز من أنابيب خاصة وتسير بقوة اندفاعه بسرعة عظيمة، وقد جربت مركبة من هذا النوع فبلغت سرعتها في ثمان ثوان مسافة عظيمة، وقد تعاقدت معامل « أوبل » مع الطيار الألماني « راب » المشهور ليركب طيارة صغيرة تجهز بالجهاز السهمي الجديد وترتفع عن الأرض بسرعة (٥٠) كيلو متراً ثم تبلغ سرعتها (٤٠٠) كيلو متراً في الساعة، وستنشأ طيارة أخرى بعد إتمام التجارب الأولى للسير بسرعة عشرة آلاف كيلو متراً في الساعة، وطيارة كهذه تستطيع أن تقطع المسافة من الأرض إلى القمر في أربعين ساعة فقط، ولكن لا شك في أن المسألة ليست مسألة اجتياز المسافة فقط بل مسألة الصعوبات النامية العظيمة التي لا بد لمحبي السفر إلى القمر من تذليلها قبل أن يعزموا على رؤية عالم غير هذا العالم. ويعود الفضل الأول في البحث عن هذا الجهاز السهمي إلى الباحث الألماني « ماكس فاليه » وقد كان أول من أنشأ الجهاز ثم أخرج فكرة ذلك الباحث الكبير إلى حيز العمل المهندس الألماني « فردريك سندر ».

على أن الذين يقومون الآن بهذه التجارب لا يفكرون في السفر إلى القمر مباشرة حالما يصنعون طيارة ذات جهاز سهمي، بل يريدون أن يعرفوا ما في جو الأرض قبل أن يزوروا جو القمر وسيبدؤون مباحثهم بالارتفاع إلى علو عظيم يبلغ عشرة آلاف متر، حتى يستطيعوا أن يعرفوا مقدار ضغط الهواء عنده وطرق مقاومته. ولما كان ضغط الهواء ضعيفاً جداً على ذلك العلو أملوا أن يستطيعوا إنشاء خط جوي بين أوروبا وأمريكا تطير به الطيارات ذهاباً وإياباً على ذلك العلو، فتجتاز المسافة بين القارتين بسرعة وسهولة عظيمتين بفضل الجهاز السهمي من جهة وضعف مقاومة الهواء من جهة أخرى.

وإذا جاء الجهاز السهمي بالنجاح المنتظر منه فإن الاحتمالات التي تفتح أمام العلم وأمام حركة النقل في العالم ستكون عظيمة جداً، لأنه لا بد من أن يحل هذا الجهاز في المستقبل محل المحرك ذي الاحتراق الداخلي الذي تسير به الطيارات والسيارات والسفن الحديثة اليوم، كما حل هذا المحرك محل المحرك البخاري الذي تقدمه. وهكذا يسير علم النقل من الحمار إلى البخار فالزيت ثم الغاز.

ومتى كشف الإنسان أسرار الكرة الهوائية المحيطة بالأرض فلا شك أن سيشرع في استكشاف ما وراءها ويفكر عندئذ في رحلة إلى القمر تبدأ أولاً بحب الاستطلاع العلمي وتنتهي عند ظهور نتائج حسنة منها بالسعي إلى الحصول على الفوائد المادية. وستظهر النتائج الأولى لتجارب الجهاز السهمي في هذا الصيف، ويتلوها درس طبقات الهواء العليا على الأثر، فإذا نجحت كلها فإن فكرة السياحة إلى القمر التي حلم بها « جون فرن » لا تبقى حلماً بل تصير حقيقة مشهودة ليطمئن علماء الإحصاء وقالوا: إن الأرض لن تضيق بسكانها، بل قبل أن تمتلئ بهم وتعجز خيراتها عن إشباعهم سيكشفون أرضاً أخرى في الكواكب السيارة وينتقلون إليها لتخفيف الضغط على هذه الأرض المسكينة. قالوا: وفي ذلك الحين تصدر إدارة البريد إعلانات تنبه بها على الناس أن يذكروا اسم الكوكب الذي يقيم فيه الشخص المرسل إليه الخطاب، فلا يكتفون بكتابة لفظة مصر أو ألمانيا أو إنكلترا للدلالة على المملكة التي يقيم فيها الشخص، بل يضيفون إليها الأرض أو القمر أو المريخ. انتهى.

أقول: أنا لم أذكر هذه المسائل على أنها حقائق ولكن ذكرتها لأبين للمسلمين كيف أخذ العلم يزداد عند الأمم، وكيف يفكرون في تلك الزيادة، ذكرتها هنا لقول اللهتعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ فكأن هذه الدعوة ظهر أثرها في أمة الدعوة. أما أمة الإجابة وهم نحن المسلمين فهم خلو من حب تلك الزيادة. فأما مسألة العروج إلى القمر وقولهم إنهم يسكنون هناك أو في كواكب أخرى؛ فهذه أمور خارجة عن الطور الإنساني الحالي، وتراهم يقولون: إنها حلم «جون فرن».

وأنا أقول: وأنا أيضاً حلمت هذا الحلم، وذلك أني رأيت في المنام أني طلعت أرض القمر وصرت أقول في نفسي حسن حسن أهل الأرض إذا أرادوا الاستعمار فهاهو ذا القمر يسعهم، وكنت مشغولاً بأمر الأشجار وزرعها في مصر لأجل الطيور المتقدم ذكرها في سورة «يوسف» فرأيت في أرض القمر شجراً فقلت الحمد لله هنا شجر تعيش فيه الطيور النافعة للزراعة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴾ [يوسف: ٤٤] وهذه خطرات للأنفس. واعلم أن سكنى الكواكب لأهل الأرض غير معقولة، لأن لكل كوكب جواً يخالف الآخر كما أن لكل حيوان نمواً يخالف الآخر كما تقدم في هذه السورة، وقد أشارت لذلك الأرواح في استحضارها، فليس من المعقول أن يعيش أهل الأرض بأجسامهم في كوكب آخر، والحمد لله رب العالمين.

بيان أن آية ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ميزان الأمم ارتقاء وانحطاطاً

وتبيان ما قاله العلامة ابن خلدون في ذلك. وبيان مجالس العلم والأدب في العصر العباسي على يد العباسيين في بغداد، وبني بويه في العراق وفارس، وبني سامان في الدولة السامانية في تركستان وهكذا الدولة الزيارية في طبرستان والدولة الغزنوية بأفغانستان والهند والدولة الحمدانية في حلب والموصل والمروانية بالأندلس والفاطمية بمصر، وأن هذه الدول رفعت شأن العلماء فبقيت، ولما زال احترام العلم والعلماء انحطت الأمم الإسلامية وبيان انحياز العلم إلى بلاد أوروبا ونصر الملوك هناك العلماء من أي أمة كانوا. وتبيان أن عالماً كمثل «باستور» الآتي ذكره بفرنسا يبني لأمته مجداً وسعة في الرزق لا حد لأمد. فهكذا يجب أن يكون ذلك في مستقبل الإسلام امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾.

هذا بيان ما قاله العلامة ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان: فصل في أن علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس. ذكر هنا أن خلال الخير أغلب على الإنسان من خلال الشر، وأقول: إن هذا حق لأن عالم المادة كله غلب خيره على شره، ولولا ذلك لم يبق في الوجود.

ثم قال: إن العصبية لها غاية وما غايتها إلا الملك. ثم قال: إن وجود العصبية من غير خلال حميدة نقص فكيف يكون حال الملك إذا كان بلا خلال حميدة، إذن الخلال الحميدة لا بد منها للملك ولحفظه.

ثم قال: فإذا وجدنا أن الذين يتغلبون على كثير من النواحي والأمم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات، والاحتمال من غير القادر، والقرى للضيوف، وحمل الكل، وكسب المعدم، والصبر على المكاره، والوفاء بالعهد، وبذل الأموال في صون الأعراض، وتعظيم الشريعة

وإجلال العلماء الحاملين لها ، والوقوف عند ما يحددونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم ، واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم ، والحياء من الأكابر وتوقيرهم وإجلالهم والانقياد إلى الحق مع الداعي إليه ، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم ، والتبذل في أحوالهم ، والانقياد للحق والتواضع للمسكين ، واستماع شكوى المستغيثين ، والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها ، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك . قال : فإذا علمنا ذلك في المتغلبين علمنا أن هذه أخلاق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم ، وإنه خير ساقه الله تعالى إليهم مناسب لعصبيتهم وغلبهم ، وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثاً منهم ، والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم ، فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه إليهم ، وبالعكس من ذلك إذ تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها ، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعياً عليهم في سلب ما كان الله قد أتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾[الإسراء : ٨] .

ثم قال : واستقر ذلك وتتبعه في الأمم السابقة تجد كثيراً مما قلناه ورسمناه . ثم قال : واعلم أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم سواء أكان هؤلاء من أهل العصبيات أم كانوا ضعافاً . ولهذا يكون أول ما يذهب من القبيل أهل الملك إذا تأذن الله بسلب ملكهم إكرام هذا الصنف من الخلق . فإذا رأيته قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم ، وارتقب زوال الملك منهم ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ ﴾[الرعد : ٦] والله أعلم .

انتهى بالحرف من ابن خلدون مع قليل من الاختصار ، وإنّما ذكرت هذه المقالة مع طولها لأنها هي القاعدة التي سأبني عليها ما سأذكره من أن حب العلم والعلماء وإكرامهم هو محور الرقي . وبضدها تتميز الأشياء .

فهاك العصر العباسي الذي ابتدأ سنة ١٣٢ هجرية وانتهى سنة ٦٥٦ هجرية أي من سقوط الدولة الأموية إلى سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ ، وقد جعلها المؤرخون المعاصرون لنا أربعة أدوار : الأول إلى سنة ٢٣٢ ، والثاني من ابتداء خلافة المتوكل إلى استقرار الدولة البويهية في بغداد سنة ٣٣٤ ، والثالث ينتهي بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، والرابع إلى سقوطها في يد هولاكو والتتار كما تقدم .

لقد كان الرشيد والمأمون وقبلهما المنصور والهادي والمهدي كل هؤلاء كانوا يكرمون العلماء ويحرصون على نشر العلم وهذا أمر مشتهر . فلنذكر ما كان من أمر العلم وإكرام العلماء بعدهم أيام هارون بن محمد بن هارون الواثق ويكنى بأبي جعفر ، قد بويع بالخلافة سنة ٢٢٧ . قال المسعودي : كان الواثق محباً للنظر مكرماً لأهله مبغضاً للتقليد وأهله محباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم

ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين. وهنا ذكر هيئة المجلس الذي كان يتذاكر فيه الطب مع العلماء مثل «ابن ماسويه» و«ابن بختيشوع» و«حنين ابن إسحاق» إذ أخذوا يتباحثون معاً بمشاركة الخليفة لهم في الطريق الذي يدرك به الطب، هل هو التجربة فقط كأن يرى الناس الرعاف والإسهال والقيء ونتائجها، وكأن يرى الإنسان في المنام أنه عالج مريضاً بدواء ففعل ذلك فشفي، أو يخطر بباله ذلك في اليقظة فيفعله فيشفي. وهكذا ذكروا أن جمهور الأطباء يجرون على القياس، وللقياس مقدمات أولية مثل معرفة طبائع الأعضاء والأبدان والأهوية والأعمال والصناعات والعادات والأطعمة والأشربة، ثم بحثوا في الأسنان وأقسامها وأنها ٣٢ سناً.

وهكذا ذكر «حنين» أن خمسة تغير الهواء وهي: أوقات السنة، وطلوع الكواكب وغروبها والرياح والبلدان والبحار، وأن أحوال البلدان أربعة: ارتفاع وانخفاض ومجاورة الجبال والبحار وطبيعة تربة الأرض.

ثم قال: إن ارتفاع البلدان يجعلها أبرد وانخفاضها يجعلها أسخن، فأما مجاورة الجبل، فإن كان جنوبه كان البلد أزيد برودة، وإن كان الجبل في الشمال كان البلد أسخن.

ثم قال: وإذا كان البحر من البلد من ناحية الجنوب فإن ذلك يسخن ويرطب، وإن كان في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد.

ثم قال: وإذا كانت البلدان أرضها حضرية كان ذلك البلد أبرد وأخف، وإن كانت طيناً جعلته أبرد وأرطب. وإذا جاورت البلاد نقائع ماء أو جيفاً أو بقولاً عفنة وغير ذلك مما يتعفن تغير هواؤها. انتهى ما اخترته منه.

هذه سيرة الواثق وكان يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته. فلما توفي الواثق وخلفه أخوه جعفر المتوكل انحرف بعض الانحراف على العلماء، فقد قتل ابن السكيت، وغضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه إلى البحرين، وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من علية الكتاب وأخذ منه مالاً وجواهر وأمر أن يصنع به ذلك في كل يوم.

ولما قتل المتوكل اضطربت الأحوال واستفحل شأن الأتراك ونفرت قلوب طلبة العلم وأكثرهم من الفرس والعرب، فتفرقوا من بغداد رويداً رويداً إلى فروع المملكة العباسية.

أفلا ترى عقاب الله للدولة؟ أفلا تراه أنزل العقاب صارماً على الأمة على ما فعله المتوكل. قتل بعض العلماء ونفى بعضاً وصفع بعضاً فقتل هو أولاً، ثم اختلت المملكة وقويت شوكة العامة على الملوك وهاجر العلم من بغداد. فالمتوكل وأمثاله لم يقولوا: ﴿ رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾[طه: ١١٤] كما أمروا، بل قالوا: ربي زدني جهلاً. وهكذا كقوله تعالى في سورة «سبأ»: ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾[سبأ: ١٩]. إن أهل سبأ لم يطلبوا من الله أن يباعد بين أسفارهم بل كان فعلهم من التخريب والسلب والنهب أوجب ذلك فخربت البلاد وطالت مسافات السفر في القفر بعد اتساع نطاق العمارة. هكذا هنا لم يقل المتوكل رب زدني جهلاً، وإنما جرى على أسلوب لا يوافق ازدياد العلم كما أمر في الآية، فتمت كلمة العذاب. فهذا مصداق ما قاله ابن خلدون فيما ذكرناه وأن احترام العلماء علامة الرفعة والعكس بالعكس.

الدول التي تفرعت من الدولة العباسية ورغبتها في العلم			
اسم الدولة	مقرها	مدة حكمها	جنس مؤسسها
المروانية	الأندلس	من سنة ١٣٨ ـ ٤٢٢	عربي
السامانية	وراء النهر	من سنة ٢٦١ ـ ٣٨٩	فارسي
الزيارية	جرجان	من سنة ٣١٦ ـ ٤٣٤	فارسي
الحمدانية	بين النهرين وحلب	من سنة ٣١٧ ـ ٣٩٤	عربي
البويهية	العراق وفارس وغيرهما	من سنة ٣٢٠ ـ ٤٧٤	فارسي
الغزنوية	أفغانستان والهند	من سنة ٢٥١ ـ ٥٨٢	تركي
الفاطمية	مصر	من سنة ٣٥٧ ـ ٥٦٧	عربي

عزّ العلم في ظل الدولة البويهية

أنصار هذه الدولة الديلم من الجيلان وراء خراسـان ، وآل بويه يرتفعون في نسبهم إلى ملوك الفرس القدماء ، وجدّ آل بويه اسمه « بويه » ولقبه أبو شجاع ، له ثلاثة أبناء هم علي ولقبه عماد الدولة وحسن ولقبه ركن الدولة وأحمد ولقبه معز الدولة . كان آل بويـه هـؤلاء يحبـون العلـم والأدب وكـان وزراؤهم من العلماء والشعراء والكتاب كابن العميد والصاحب بن عباد وسابور بن أزدشير المهلبي بل نفس ملوك آل بويه اشتهر بعضهم في العلم والأدب مثل عضد الدولة ، وقد قرب إليه العلماء واستحثهم على تأليف الكتب ؛ فألف له أبو إسحاق الصابي كتاباً في أخبار « آل بويه » ، وألف له أبو علي الفارسي كتاب « الإيضاح والتكملة » في النحو ، وقصده المتنبي والسلامي وغيرهما . ومن شغفه بالشعر تمنى أن يكون هو المصلوب بدل ابن بقية الوزير لتقال فيه قصيدة محمد بن عمران الأنباري التي مطلعها :

علوّ في الحيـاة وفي الممـات　　　لعمرك تلك إحدى المعجزات

وقد كانت عظمة دولتهم كلها ترجع لنصرهم العلم وشدة رغبتهم فيه . فانظر كيف كـان ركـن الدولـة « ابن بويه » في الري وهمذان وأصبهان مستوزراً ابن العميد الكاتب المشهور .

وهكذا بهاء الدولة بن عضد الدولة في العراق والأهواز استوزر سابور بن أزدشـير ، فأنشأ هـذا الوزير في كرخ بغداد خزانة كتب وقفها على إفادة الناس ، قال ياقوت : لـم يكـن في الدنيـا أحسـن كتـب منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحـررة . وقـد كـان الصـاحب بـن عبـاد وزيـر مؤيد الدولة بن ركن الدولة ثم وزر لفخر الدولة أخيه وكان له عشرات من أهل العلم والأدب يقيمون عنده وعشرات يفدون عليه .

الدولة السامانية في تركستان

رأس هذه الدولة سامان من أشراف بلخ وأعقابه أنشـؤوا دولـة عظيمـة في خراسـان وتركسـتان وزهت في أيامهم بخارى فكانت مجمع الأدباء والعلمـاء والشـعراء ، واشـتهرت نيسـابور وقـد أنشـئت فيها أقدم المدارس الإسلامية ، وملوك هذه الدولـة عشـرة واشـتهر كثـير منهـم بـالعلم والأدب ، ومنهـم منصور بن نوح الذي استوزر البلعمي العالم الفارسـي فـترجم لـه تـاريخ الطـبري إلى اللغـة الفارسـية وخلف ابنه نوح وهو الذي اقترح نظم الشاهنامة « الياذة الفرس » في الفارسية اقترح ذلك على شـاعره

الدقيقي فنظم له بعضها، ولما قتل أتمها الفردوسي بعده بإشارة السلطان محمود الغزنوي. ولما سمع نوح بشهرة الصاحب بن عباد وزير البويهيين كتب إليه سراً يستدعيه إلى بخارى ليفوض إليه وزارته وتدبير مملكته فاعتذر الصاحب بأن كتبه تحتاج في نقلها إلى ٤٠٠ جمل، والكتب التي جمعها نوح هي التي ذكرها ابن سينا في تاريخه أنه استفاد منها في صباه وأن منها كتباً نادرة الوجود.

الدولة الزيارية في طبرستان

أول ملوكها مرداويج بن زيار، وأشهرهم بحب العلم ونشره شمس المعالي قابوس بن وشمكير سنة ٣٦٦ ـ ٤٠٣ هـ كان كاتباً عنده معرفة بالفلسفة والنجوم والنجامة. وقد ألف رسالة في الإسطرلاب وكان يراسل الصاحب بن عباد، وهو القائل الأبيات الآتية:

قل للذي بصروف الدهر عيرنا ... هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف ... وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم ما لها عدد ... وليس يكسف إلا الشمس والقمر

الدولة الغزنوية بأفغانستان والهند

مقرها غزنة وأعظم ملوكها السلطان محمود سنة ٣٨٨ ـ ٤٢١ صاحب الفتوح العظيمة في الهند وناشر الإسلام فيها، وكان يلقب بيمين الدولة. فتح بخارى وخلف الدولة السامانية فيها وغلب على الزياريين، وحكم أفغانستان وتركستان وخراسان وطبرستان وسجستان وكشمير وشمال الهند.

والذي يهمنا أن مجلسه كان حافلاً بالعلماء والشعراء، وتلك كانت عادة ملوك عصره. وقد اقترح على الفردوسي إتمام الشاهنامة فأتمها كما تقدم.

مسامرة

كان محمود هذا لا يسمع بعالم أو شاعر إلا استقدمه إليه، فعلم أن في مجلس مأمون بن مأمون أمير خوارزم جماعة من رجال العلم والفلاسفة. وفي جملتهم ابن سينا الطبيب والبيروني الرياضي المؤرخ وأبو سهل المسيحي الفيلسوف وأبو الحسن الخمار الطبيب وأبو نصر العراق الرياضي وغيرهم، فتاقت نفسه إلى إحرازهم في مجلسه، فكتب إلى مأمون كتاباً أرسله مع بعض خاصته خلاصته ما يأتي: علمت أن في مجلسك جماعة من العلماء المبرزين مثل فلان وفلان فأرسلهم إلي ليتشرفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم، فلم يكن للأمير مناص من إجابة الطلب لكنه كان حريصاً عليهم، فتلا عليهم الكتاب وقال لهم إنه لا يقوى على رد طلبه، فقبل البيروني والخمّار ـ بتشديد الميم ـ والعرّاق بالذهاب، وفر ابن سينا والمسيحي. إن إكرام العلماء كان في نظر أهل ذلك العصر من أسباب الأبهة وأدلة الحضارة.

فهذا وأمثاله من الأمم الفارسية أكرموا العلماء وعظموا العلم وتنافسوا فيه لأن لهم سابقة في ذلك، وهم الأكاسرة ملوك الفرس أولئك الذين شادوا العلم مناراً ورفعوا له قدراً. وهؤلاء الملوك على آثارهم يهرعون وبهم يقتدون وعليهم يقومون وبسيرهم يقتدون، فهل يعلم ذلك أمراء العرب بالجزيرة اليوم ولآبائهم دولة كانت شامخة الذرى رفيعة القدر. فهل يشرفون آباءهم باحتذائهم حذوهم كما فعل أولئك الفارسيون.

إن هؤلاء الملوك الفارسيين سواء أكانوا من الزياريين أو البويهيين أو السامانيين قد نزعوا في إكرام العلماء إلى ما نزع إليه كسرى، إذ أرسل إليه برزويه الطبيب الفارسي إلى بلاد الهند ليترجم كتاب «كليلة ودمنة» فتوجه الطبيب المذكور خفية إلى الهند وترجم الكتاب ورجع وقرأه على الملك ووجوه القوم، فأكرم مثواه وأنزله المنزلة السامية وخلع عليه، وقال له: خذ ما تشاء من المال. فقال: كلا ثم كلا، ولكني أريد أن يكتب وزيرك تاريخ حياتي في مقدمة الكتاب تشريفاً لي، ففعل وكتب تاريخ حياته وأنه كان من أبوين شريفين، وأنه طلب العلم لله والدار الآخرة لا للجاه وللمال، وأنه كان يأخذ على التطبيب أجراً عظيماً من الأغنياء ويصرفه على الفقراء المرضى ويواسيهم من جيبه الخاص وأنه كان يعتقد أن من طلب العلم لأجل العلم ولله نال الدنيا مع العلم، ومن تعلم العلم للدنيا فقط لم ينل حظ الآخرة. فطالب العلم إما أن يكون عمله كالحنطة أو كالكلأ فزرع الحنطة ينفع للإنسان والحيوان وزرع الكلأ لا يفيد إلا البهائم، فمن طلب الأعلى نال معه الأدنى ومن طلب الأدنى لم ينال الأعلى. اهـ.

حب الدولة الحمدانية في حلب والموصل للعلم

هؤلاء من قبيلة تغلب، وهذه الدولة حكم منها أربعة أمراء في الموصل وخمسة في حلب، حتى خرجت الموصل منهم إلى البويهيين سنة ٣٨٠، واستولى الفاطميون على حلب سنة ٣٩٤، وكان سيف الدولة أبو الحسن علي صاحب حلب ممدوح المتنبي ونفس سيف الدولة كان شاعراً نقاداً للشعر محباً للعلم مقرباً للعلماء.

الدولة المروانية بالأندلس

إن الناصر وابنه الحكم كانا محبين للعلم وهذا تقدم في هذا التفسير وأمرهما مشهور، وكان الفقهاء والأدباء يحضرون مجالسهما. وكان الناصر مولعاً باقتناء الكتب فجمع منها ما لم يجمعه أحد قبله، وأنشأ في قرطبة مكتبة جمع إليها الكتب من أنحاء العالم، كان يبعث في شرائها رجالاً من التجار ومعهم الأموال ويحرضهم البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتاب. وكان أبو الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني معاصراً له وهو أموي فبذل ألف دينار ذهب على أن يرسل إليه كتاب «الأغاني» قبل إخراجه إلى بني العباس. وفعل نحو ذلك مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وغيره، وكانت فهارس الدواوين وحدها (٤٤) فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة، قال بعضهم: فإذا قدرنا للصفحة (٢٥) اسماً فقط كان مجموع عدد الدواوين (٤٤٠٠٠) كتاب فكيف بسائر الكتب؟. ويقول ابن خلدون: إن مجموع ما حوته تلك المكتبة (٤٤٠٠٠٠٠)، ونبغ من ملوك الطوائف بعدهم جماعة مثل إسماعيل بن ذي النون المتوفى سنة ٤٣٥ هـ.

الدولة الفاطمية بمصر

استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٧ هـ وقد نبغ في تنشيط العلم منهم اثنان: العزيز بالله سنة ٣٦٥ ـ ٣٨٦، والحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ ـ ٤١١، فأنشأ خزائن الكتب فيها مئات الآلاف من المجلدات في العلوم في مكتبته التي كانت تسمى «دار الحكمة» أو «دار العلم»، وقد أباح فيها المناظرة

للمترددين إليها وسهل لهم المطالعة والنسخ ، وهي التي قلدها أستاذنا المرحوم علي مبارك باشا فقال لإسماعيل باشا : إن مصر كانت فيها دار العلم يحضر إليها رجال يتناظرون في أنواع العلم ، فأذن لي أن أحضر طلاباً من الأزهر نسميهم طلبة « دار العلوم » ، فأذن له فدار العلوم هي المكتبة الخديوية بدرب الجماميز إذ ذاك . ثم استأذن في أن ينشئ مدرسة يسميها « مدرسة دار العلوم » المعروفة الآن بمصر ، وهي المدرسة التي تعلمنا فيها ، ولولاها لم نكن نعرف شيئاً من العلوم ، والفضل في ذلك للقدوة الحسنة بالحاكم بأمر الله ، فجعل أستاذنا المكتبة الخديوية كأنها دار الحكمة وتحيل في أن يجعل لها مدرسة ، وقد مضى لها ٥١ سنة الآن وحسن التحيل من وزير المعارف أستاذنا المتقدم . وهكذا صارت هذه المدرسة نبراساً لمصر ولغيرها من البلدان في هذا القرن العشرين . وهكذا أنشأ الحاكم « المرصد الحاكمي » وبناه على جبل المقطم ، وبقي عمدة الراصدين حتى بنى نصر الدين الطوسي مرصده في مراغة بتركستان سنة ٦٥٧ هجرية .

تذكرة في أحمد بن طولون ونصره للعلم

لقد كان أحمد بن طولون يفعل ما فعله أولئك الأمراء ، فقد كان له مجلس عام يحضره العلماء من كل حدب وصوب ، وأذكر أني قرأت للمسعودي المؤرخ أنه يوماً قال : هل بقي من العلماء أحد في مصر لم أره؟ فقالوا له : هناك في أقصى الصعيد عالم قبطي تبلغ سنه ١٣٦ سنة يسكن في منزل على شاطئ النيل ، فأمر بإحضاره مكرماً معظماً ، فلما حل بساحة الأمير ووضعت أمامه المائدة الملكية أخرج مآكل من حقيبته ، وقال : دعوني آكل مما اعتدت عليه ، فإن هذه البنية إذا غيرت طعامها اختلت واعتلت وأسرعت للزوال ، فبقاؤها خير لكم لتنتفعوا بها ، فلما بلغ الأمير ذلك أذن فيه وأباح له ذلك . ولقد أدهش علماء المسلمين والنصارى واليهود حين تباحثوا معه . وقد سألوه عن الهرم وبنائه وعن الكتابة التي عليه وعن بعض جزائر البحر الأبيض المتوسط وعن بعض البحيرات القريبة من البحر الأبيض المذكور ، فكان يجيبهم أجوبة ظهر صدقها في الكشف الحديث ، وأذهل القوم علمه وحكمته . فسأله المسلمون : كيف اتبعت دين المسيح وأنت حكيم فيلسوف وهذا الدين مضطرب؟ فقال : هذا الدين حق لأنه مخالف للعقل . ذلك أنهم يقولون : إن الإله رأى ابنه يضرب ويصفع ويحقر ويصلب ويجعل أضحوكة ويذل وهو يستغيث وإكليل الشوك والقتاد فوق رأسه وأبوه القادر على كل شيء لا يرد عليه ولا يغيثه ولا يرحمه . فمن هذه الوجهة عقول بني آدم لا تصدق هذا الدين ، ولكني وجدت أناساً من القديسين قد اهتدوا بهذا الدين وصاروا صلحاء فاتبعته واهتديت بهديهم . إذن هذا الدين فوق العقل . فلما سمع المسلمون والنصارى ذلك رضي الطرفان بقوله . وخاطبه يهودي في المجلس كالمعترض عليه فقال له : أيهودي أنت؟ قال : نعم . قال : أيها الأمير إنه مجوسي . فغضب اليهودي فقال : أيها الأمير سله أليس في التوراة أن الإنسان يتزوج ابنة أخيه؟ فقال : بلى ، قال : أوليس الإنسان إذا مات أخوه وجب عليه أن يتزوج زوجته؟ قال : بلى ، قال له : إذا يتزوج بنته أفليس هذا دين المجوس بعينه ، فدهش الحاضرون من قوله وزاد الرجل احتراماً وإعظاماً وإجلالاً . انتهى .

ولأختم هذا المقام بذكر موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الذي ذكر في تاريخ حياته وكيف قرأ كل علم وكل حكمة من أدب وفلسفة ، وبالجملة لم يدع فناً إلا عرفه . فمثلاً يقول : حفظت اللمع

في ثمانية أشهر، وتقويم اللسان في ١٤ يوماً وهكذا. قال: وحفظت كتاب النجاة وكتبت الشفاء وبحثت وهكذا.

ولما كان المقام مقام البحث في تعاون الأمراء على العلم وتنافسهم فيه وحبهم للعلماء ضربت الذكر صفحاً عن تاريخ حياته كله فلأ حص الكلام بما كان من أمره مع صلاح الدين الأيوبي. قال: ثم إني توجهت إلى زيارة بيت المقدس ثم إلى صلاح الدين بظاهر عكة فاجتمعت ببهاء الدين بن شداد قاضي العسكر يومئذ ثم جمعه على عماد الدين الكاتب، قال: وذاكرني في مسائل من علم الكلام، ثم قاموا إلى القاضي الفاضل قال: فرأيته يكتب ويملي على اثنين، قال: وسألني القاضي الفاضل عن قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾[الزمر: ٦٨] الخ أين جواب «إذا»، وأين جواب «لو» في قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ ﴾[الرعد: ٢٩] الخ، وعن مسائل كثيرة، ومع ذلك لم ينقطع عن الكتابة والإملاء فأرسله إلى مصر وأوصى عليه بها، وعاش بها أمداً طويلاً ودرس في الجامع الأزهر، ثم توجه إلى القدس، ثم إلى دمشق سنة ٦٠٤. وإلى هنا انتهى ما أردت من ذكر تعاون أمراء الإسلام وملوكهم على نصر العلم وحب العلماء، وأن ذلك كما قال ابن خلدون هو رأس الأمر وملاكه.

فحب العلم وتعظيم العلماء إذا حل بأمة فتح لها باب الفضائل وسائر أخلاق الكمال، وذلك إيذان من الله بأنهم يملكون زمام السياسة. وإذا أدبر عن الأمة هذا الحب ــ أي: حب العلم ــ نفرت منهم سائر الفضائل ويتبعها ذهاب الدولة.

فهذا القدر من التاريخ يثبت لك بياناً لقوله تعالى هنا: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾[طه: ١١٤]، ولم يبين نوع العلم بل جعله عاماً كقوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾[الزمر: ٦]. وإني لأعجب من هذه الآية وأقول: إن الله لو أرسل رسولاً وأيده بالمعجزات فصدقه الناس ولم ينزل عليه سوى قوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾[طه: ١١٤] لكفت في إظهار أمم وأجيال وملوك وحكماء وعلماء وإن لم ينزل غير هذه الآية.

ولقد عجبت لأمم الإسلام المتأخرة كيف ضلوا وجهلوا ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[الحج: ٣٩]. هذه هي الصورة الواضحة الظاهرة الباهرة الجميلة من تعاون أمراء الإسلام على العلم وعلى احترام العلماء وحبهم، وكيف رأينا المجد يصاحب العلم. فلما أن نسوا: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾[طه: ١١٤] انحطت الأمم الإسلامية. وأذكرك بما جاء في سورة «الأنعام» عند قوله تعالى: ﴿ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ ﴾[الأنعام: ٩١].

انحطاط التعاليم في بلاد الإسلام

لقد استبان هذا المقام في سورة «الأنعام» وذكرت لك ما فعلوه في القرن السادس إذ أحرق ابن المارستانية كتب الركن عبد السلام الجيلي بموضع يقال له «الرحبة» ببغداد، وهذا الإحراق بمشهد من الناس، فاقرأه مفصلاً في سورة «الأنعام»، وذلك سنة ٥٨٩. فانظر كيف أحرق المسلمون في هذا التاريخ ما جمعوه من العلوم في العصور الأولى، واعجب من صنع الله عز وجل كيف رأيت المتوكل العباسي شرد العلماء من بغداد، وقتل ابن السكيت فمات هو مقتولاً، وانتقل العلم من جذع الدولة

إلى أطرافها وتولاه أمراء من الفرس والترك والعرب غير العباسيين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١]، فقد تغيرت عقول المسلمين في القرن السادس وقالوا: ربنا لا تزدنا علماً، بل قالوا: كلا أنقص علومنا. فماذا فعل الله؟ لم يمض أقل من قرن حتى دخل هولاكو بغداد. لماذا؟ لأن المسلم إذا كان غبياً جاهلاً يذله الله ولا يرضى للمسلم أن يكون غبياً، لأن نبيه صلى الله عليه وسلم أمر أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[طه: ١١٤] أي: وهو يزداد علماً، فإذا أخذ علمه في النقص أذله الله. ولقد كان علي بن علي الملقب بالسيف الآمدي مبرزاً في علوم الأوائل، فلما دخل بغداد جفاه الفقهاء ووقعوا في عقيدته، ففر إلى مصر سنة ٥٩٢ وظهر وعلم ثم حسده الفقهاء بها أيضاً ففر منها أيضاً هارباً.

وهكذا قد أحرق القوم كتب الغزالي بالأندلس وفي المغرب الأقصى. فلما كره المسلمون العلم سلط الله عليهم الحروب الصليبية، وهجم المغول والتتار فاكتسحوا ما بالمكاتب من الكتب، لا سيما ما كان منها في بخارى وسمرقند، وما كان منها يجلب لما دخلوها سنة ٦٥٨، فقد مزقوا الكتب وأحرقوا ألوفاً لا تحصى.

وهكذا تذكر أيها الذكي ما تقدم في سورة «إبراهيم» من اضطهاد ابن رشد في الأندلس وكيف كان حاجب هشام بن الحكم يضطهد العلماء ويحرق الكتب. وكيف كانت دولة الموحدين، فقد نصر العلم أولاً عبد المؤمن، ولكن يعقوب المنصور نفى ابن رشد وأمر بحرق الكتب، فهي كالتي قبلها نصر للعلم أولاً واضطهاد آخراً. هناك تقرأ المنشور الذي نشر لتنفير الناس من الفلسفة والعلوم والحكمة. انتهى.

التجاء العلم إلى أوروبا ورجوعه إلينا ثانية

انتقل العلم إلى أوروبا وتنافس ملوكها في عصرنا على حب العلماء، كما كان ذلك في الدول الإسلامية المفرعة من الدولة العباسية سواء بسواء. وبعبارة أخرى: إن العلم لما حماه المسلمون بقي عندهم وأعز دولهم، ولما أهانوه وأهانوا حامليه وحرقوا كتبه التجأ إلى الأمم المسيحية وقرت عينه هناك بهم. وهاهو ذا يمد يده إلينا. وهاأنا ذا وآلاف مثلي في المسلمين يمدون أيديهم له ليرجعوه إلى نصابه في بلاد الشام ومقره الأول تلبية لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[طه: ١١٤].

إذا قلت: هرب العلم من بلاد الإسلام، وقلت: إنه آوى إلى الأمم المسيحية فليس معنى هذا أنهم لم يحاربوه، كلا. بل كان حربهم لهم أشد فتكاً وأعظم وقعاً وأكثر صرعى. اقرأه فيما تقدم في سورة «التوبة» عند قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[التوبة: ٣١] الخ، فأنا لا أعيد ما ذكرته هناك، فقد قرر المؤرخون عدد الذين قتلوا بأوامر من ديوان التفتيش الذي أسس في سنة ١١٨٤ في مجمع فيرونا، وصادق عليه البابا «اينوشنسيوس الثالث» سنة ١٢٠٤، وثبته نهائياً البابا «غريقوريوس التاسع» ببراءة خصوصية.

أقول: قدرهم المؤرخون بالملايين، ولست أعيد ما ذكرته هناك بالتفصيل فارجع إليه. فهذه الملايين المقتولون بأمر البابوات لم يقتل مثلهم ولا جزء من آلاف من عددهم عند المسلمين، ولكن العجيب أن العلم هرب من بلاد الإسلام مع قلة ضحاياه ولكنه وطدت أركانه وثبت بنيانه واشتد

ساعده ونصر على أعدائه في أوروبا المسيحية مع كثرة ضحاياه وقتلاه. وفي المعنى: ومن طلب الحسناء لم يغلها مهر. وقال المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

إن السعادة على مقدار النصب. تغلب العلم في تلك الأصقاع الباردة على أعدائه بعد أن جندل من أصدقائه آلاف الآلاف. أتدري ماذا حصل؟ عم أقطار أوروبا ثم حل بساحات أمريكا واليابان والصين، وهاهو ذا يحاول فتح عقول أمم الإسلام فدخل إيران وبلاد الترك وقد دخل ظاهراً بلاد مصر ويحاول الرجوع إلى بلاد العرب. أتدري أيها الذكي لماذا صبر العلم هذا الصبر فنجح؟ ذلك بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الكلام على الشمس والأرض والأمم الإسلامية عليها والعلم والنبي صلى الله عليه وسلم

الشمس أشبه ببرتقالة بالنسبة لعوالم الكواكب التي عظم عددها جداً. فإذا قدرنا شمسنا برتقالة فلنقدر سائر الكواكب مجتمعة كالكرة الأرضية بل أكثر من ذلك، وأرضنا بالنسبة للشمس أقل من حبة رمل، فإذا قام على هذه الحبة من الرمل أمم وأمم فإن صورهم جميعاً لا ترى بأقوى المناظر. فإذا تصور أمة من تلك الأمم التي لا ترى على قبة تلك الحبة من الرمل وقال قائل منهم: أيها الناس إن ربنا الذي خلق هذه العوالم كلها الذي شمسه العظيمة وأرضنا بالنسبة لها صغيرة جداً، قال لي: ادعني أن أزيدك علماً.

إذا قال ذلك قائل منهم فلا جرم يقولون جميعاً بلسان واحد: إذا كان ربنا قال لك هذا فمعناه أن أعداءك وأعداء أمتك وأحبابكم جميعاً يتعلمون، فيقول: لماذا هذا؟ فيقولون: لأن حبة الرمل التي نحن عليها بالنسبة للعوالم صغيرة جداً، ونحن عليها قليل جداً بالنسبة لغيرنا. فإذا قال الله لنا ذلك واعتنى بنا مع عظمته فإن هذا علامة على رقينا جميعاً.

إيضاح هذا المقام

لما قال النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون: ربنا زدنا علماً، أجاب الدعاء فنشر العلم في أوروبا والصين واليابان، ونشر العلم في تلك الأقطار هو عينه زيادة علم للمسلمين، لأن علم الأمم دخل علينا بلادنا وصناعاتهم وكتبهم قد أثرت فينا فزدنا علماً. وبعبارة أخرى: إن موجة العلم أولاً ماجت من الحجاز فعمت أمماً في الشرق وحاربوها، فعمت أوروبا وبلاد الشرق كرة أخرى. وهانحن أولاء نتعلم من علومهم التي كان أصل التحريض عليها من ديننا، فبالاختصار أن رقي العلم في الشرق والغرب رقي للمسلمين منه. إذن الحركة الفكرية في العلم في الأمم استجابة لدعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، لأننا الآن ننقل في هذا التفسير من علوم الأمم فزدنا علماً وسيزيد قراء هذا التفسير علماً. كل ذلك بنقل علوم الأمم، فزيادة علمهم زيادة علم لنا إجابة لدعوة نبينا ودعوتنا بازدياد العلم، فإذا رأينا الصين في هذا الأسبوع «يوليو سنة ١٩٢٨» ارتقت وأمرت الأوروبيين أن يسيروا على قوانينها فهذا من دعوته صلى الله عليه وسلم.

يا عجباً كل العجب إنا لم نسمع في التاريخ أن الأمم كلها على نمط واحد في التعليم إلا في هذه الأعصر، ولم يحصل ذلك إلا بعد نزول نبي من عند الله وبلغ الأمم قائلاً: إن الله أمرني أن أدعوه أن يزيدني علماً، ولم ينقطع العلم بعد أن نزلت هذه الآية، وقد عمّ العلم الأمم كلها ولم يرد في التاريخ نظير هذا.

اللهم إنك أنت الذي جعلت الأمم كلها كأنها فرد واحد، فإذا علمت واحداً فقد علمت العموم ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[المائدة: ٣٢]. اللهم إن أهل الأرض أمة واحدة بل هم كشخص واحد ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٩٢].

كيف يتعاون ملوك أوروبا وعلماؤها على رقي العلم

لقد تقدم في سورة «إبراهيم» عند قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾[الرعد: ٤٣] كيف تعاون القوم في أوروبا على العلم وكيف نرى أن «تبخو براهي» العالم بالأجرام السماوية قد أعانه ملك الدانمارك وملك الإنجليز وإمبراطور ألمانيا وهكذا غيره وغيره فارجع إليه هناك. وأقول هنا فوق ما ذكرت هناك: تقدم أني ذكرت هناك «ديدرو» الذي ألف دائرة المعارف الفرنسية، وكانت هي السبب الأعظم في الثورة الفرنسية، وهي التي زلزلت عقائد الشعب في رجال الدين، فهذا المؤلف قد كان رقيق الحال فقيراً في فرنسا، ولما كبرت ابنته وأراد تزويجها لم يكن عنده مهر لها، وعلمت بذلك الإمبراطورة «كاترينا» فأرسلت رسولاً اشترى منه مكتبته بألف جنيه وأبقتها في باريس وأقامته حافظاً لها براتب سنوي. فهذه إمبراطورية «الروسيا» ساعدت عالماً فرنسياً.

وانظر إلى الآمدي المتقدم ذكره كيف اضطهد في مصر وفي بغداد لما أراد الله انحطاط العلم في الإسلام، وانظر إلى مجالس العلم عند الأمراء في القرن الرابع الإسلامي فيما تقدم كيف تعاون العلماء على رفعة شأن العلم عند إرادة الله رقي الإسلام والمسلمين.

إعظام ملوك أوروبا وعلماؤها للعلامة لويس باستور المتوفى سنة ١٨٩٥

أذكر هذا العالم الآن لأري المسلمين الحاليين تعاون الأمم المسيحية الآن على رفع منار العلم وكيف كان هذا العالم قد نفع فرنسا وزاد ثروتها بعلمه بحيث يقوم مقام مئات الألوف من الأغنياء.

(١) أرسل له أستاذه «ديماس الكيماوي» الشهير، وتوسل إليه توسلاً أن يبحث في أسباب «ضربة دود القز» التي فشت في فرنسا سنة ١٨٥٣، لأن «ديماس» كان ساكناً في المكان الذي اشتدت فيه الضربة وفعلت فعلها الذريع، ولم يكن «باستور» رأى دود الحرير قط، فاعتذر إليه بعدم اختباره في ذلك وطلب منه أن يعفيه، فجاءه الجواب من ديماس يقول فيه: إني لواثق بك وبقدرتك على إجابة طلبي رحمة لبلادي المسكينة، فإن الرزء يفوق التصوّر، وكانت ظواهر هذا الداء نقطاً سوداء تعلو جسم الدود فيتأخر نموّه وتختلف أقداره وتبطؤ حركته. وهكذا فعمل تجارب نجح فيها نجاحاً باهراً.

(٢) ثم بحث مباحث أخرى مثل مبحث الاختمار، فأثبت بعد تجارب لا محل لذكرها أن الأجسام الذائبة إذا عرضت للهواء امتلأت من الذرات الحية التي فيه، ومتى ماتت الجراثيم التي في تلك السوائل ولم تدخلها جراثيم أخرى من الهواء لم يتولد فيها شيء.

(٣) وهكذا بحث أمراض الدجاج والغنم والبقر وتوصل إلى ذلك، ومنع تلك الأمراض بإضعاف الجراثيم المعدية وتطعيم المواشي بها. ولقد كان قبل ذلك يموت في فرنسا وحدها من المواشي ما يقدر ثمنه بعشرين ألف ألف فرنك سنوياً. ولقد أثنى عليه المسيو «بولي» في اجتماع المجامع الخمسة السنوي، فقال: انظروا كيف أن الطبيعة قد كاشفته دفعة واحدة بسرّ من أغمض أسرارها «سر العدوى» وكيف أن العلم قد خوله تحويل مسبب الموت إلى دافع الموت. الخ. وقال الأستاذ «هكسلي»: إن ما كشفه «باستور» يساوي المليارات الخمسة التي أعطتها دولة فرنسا للدولة ألمانيا غرامة.

(٤) وقد قلده مجمع إنكلترا الملكي نشان «رمفرد» سنة ١٨٥٦ وهكذا وزير الزراعة في التمسا أجازه بعشرة آلاف «فلورين» على كشفه علة مرض دود القز. فانظر كيف تعاونت أوروبا على نصر العلم فحفظت أموالهم ومواشيهم بنفس العلم. وكيف تعاون معاصروهم من الأمم الإسلامية للجهل فطرد الفرس جمال الدين الأفغاني، ولما جاء مصر طردوه منها فالتجأ إلى الأستانة وكان معه نديم الكاتب المصري فاحتال في قتلهما بمكروب السرطان السلطان عبد الحميد. هذا ولما حاربت ألمانيا فرنسا وكان «باستور» من متخرجي مدارس ألمانيا ورأى ظلماً لقومه أرسل شهادة الدكتورية الألمانية إلى ألمانيا قائلاً: إنه لا يقبل إكراماً من أمة تحارب بلاده فأراد أهل بلاده أن يقلدوه نشاناً ويقيموا له احتفالاً فأبى فعظم مقامه. اهـ.

هذه حياة «باستور» وأنا لم أكتب باستور في تفسير القرآن رمية من غير رام. كلا، وإنّما كتبت هذا لأريك أن أستاذه «ديماس» يقول له: إني واثق بك وبقدرتك على إجابة طلبي رحمة ببلادي المسكينة، فاعجب لعالم يخاطب عالماً كلاهما عالم بالكيمياء يقول له: رحمة ببلادي المسكينة. ما أحسن هذا العلم وما أحسن هؤلاء العلماء. عالم يرجوا عالماً أن يرحم البلاد من ضربة دود القز لأجل صنع الحرير. فمتى نسمع أن علماء الإسلام بالمعاهد الدينية يفقهون أن الأمة تحت إشرافهم وهم قوامون عليها على هذا النحو.

فانظر كيف عبر بالرحمة. وانظر كيف كان نشر العلم في الشرق والغرب جاء بعد البعثة المحمدية والله يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٢]، فالرحمة التي جاءت لدود القز وللغنم وللبقر بعض الرحمة التي أرسل لها صلى الله عليه وسلم وهي الإيقاظ للعلم. إياك أيها الذكي أن تظن بي التعصب الديني فهذه حقيقة ظاهرة لا تحتاج إلى دليل أو برهان.

إن الهداية ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: هداية الأنبياء وهي هداية عامة لا تتعدى الإرشاد بدون دخول في العلوم الجزئية والتفصيل.

المرتبة الثانية: مرتبة الحكماء والهداة في الأمم، ينزل الله في كتاب سماوي على نبي فيقول له ادعني أن أزيدك علماً فيتبعه بعض العلماء وهم حكماء الأمة فيفهمون قوله فيقرؤون هذا التفسير وأمثاله. فماذا يقولون؟ يقولون: إن هذا كلام الله الموجز ولكن نحن لا نقتصر على خطاب الناس بهذه الآية، بل نخاطب الناس بما يعلمون ونشوّقهم للعلم بما يألفون ونوضح لهم فيعقلون ونذكرهم فيذكرون.

المرتبة الثالثة : هم العلماء المختصون الذين يختصون بعلوم أو صناعات فيتقنونها فينفعون الناس بعلمهم كأمثال « باستور » المذكور ، فهؤلاء قد شوقهم للعلم الحكماء ، والحكماء في الإسلام شوقهم للعلم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . فإذا قلت لك أيها الذكي « باستور » قد أفاد فرنسا مالاً قدر الذي بذلته لألمانيا في الغرامة ، وأفاد جميع أوروبا وأفاد المسلمين ، لأن دوابنا قد حفظت ونفوسنا من الطاعون بالاحتياطات الصحية .

فليس معنى هذا أن هذا أرقى ما يصل إليه العلماء في الإسلام بعدنا ، كلا . بل إن قراء هذا التفسير وأمثاله سيؤلف بعضهم وينشر كتباً تشوق المسلمين للعلم على نحو ما كتبناه أو أحسن أو أقل . فهذا التشويق يحدث شوقاً في بعض النفوس ، فيتخرج علماء في مدارس ومدارس وينفعون الأمم لا المسلمين وحدهم في علوم وصناعات مختلفات كما فعل « باستور » وغيره . إذن حكماء الإسلام الذين يسوقون العلماء لحوز علوم الكيمياء والطبيعة والفلك أفضل ألف مرة من العلماء الذين تأثروا بأقوالهم ، وهؤلاء الحكماء ما هم إلاّ جنود الأنبياء ، فالأنبياء شموس والحكماء كالأقمار والعلماء كالنجوم ، وهؤلاء العلماء أشبه بباستور المذكور ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أصحابي كالنجوم » فهذا معناه .

أما الحكماء فكالأقمار وهو صلى الله عليه وسلم شمس ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب : ٤٥-٤٦] . انتهى يوم الجمعة ١٣ يوليو سنة ١٩٢٨ .

تذكرة للأمم الإسلامية في تعاليم أوروبا

قضى الله عز وجل أن يكون الخير مقروناً بالشر والمرض يتبع الصحة . قال الشاعر :

ودعوت ربي بالسلام جاهداً ليصحني فإذا السلام داء

وقال آخر :

والخير والشر مقرونان في قرن فالخير متبع والشر محذور

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[فصلت : ١٧] ، وفي آية أخرى : ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً ﴾[الجاثية : ٢٣] الخ . وفي الآثار : « اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ومن علم لا ينفع » الخ . أقول هذا بمناسبة ذكر « باستور » العالم الفرنسي وتحريض الأمة الإسلامية على علوم أوروبا ، فإن هذا القول إذا أطلق على علاته أدى إلى ترك الديار بلاقع . فما جنى الناس الورد إلا من خلال الشوك ، ولا أكلوا لحماً إلا وجدوا معه عظماً ، ولا سمكاً إلا اجتهدوا في اجتناب شوكاته والابتعاد عن مضراته ، فهذا العلم الأوروبي خير كثير يحيط به شر مستطير . أما كونه خيراً كثيراً فهو الذي أعتق تركيا وإيران والأفغان واليابان والصين من ظلم أوروبا . فهؤلاء كلهم استقلوا ولبسوا لأوروبا ثوب النمر وقاوموها مقاومة الأباة الفوارس . كل ذلك كان لما قابل القوم عتوهم بنظيره وسلاحهم بسلاح مثله فتكافأ الشرقي والغربي ورجع الظالمون الغربيون بخفي حنين . ذلك لأن حاملي العلم غير مغلوبين على أمرهم . أما أمتنا المصرية وأمثالها فإنهم تعلموا ولكن احتلال الأجنبي أغرق العلم في بحر من المفاسد والفسوق

والخلاعة ، فما رأيت ذكياً من الأذكياء إلا انقلب على عقبيه وضل سواء السبيل في زمن الشباب ، ولا مجدًّا جميل الصورة إلا استحوذ عليه الرجال والنساء ففتنوه وأنزلوه عن منازل الأشراف إلى دركات الزعانف والسوقة الجاهلين . وأكثر من تراه من المتوسطين في العلم والذكاء من يمسي ويصبح ولا هم له إلا المقام على وظيفته والمحافظة على سمعته وبزته ، فأما العلم فإنّما هو مطلب المكاسب سلم المعاش . فمتى وصل الشاب بهذا السلم إلى معاشه رضي بحاله ولم يزدد علماً بل رجع فيه القهقرى ، وإذا مات فسوف يرى .

سألت ناظر مدرسة من المدارس المصرية وكان من تلاميذي بالمدرسة الخديوية ، فقلت له : إن المتقدمين من أمم الإسلام كانت لهم في العلم طريقة شيقة وحب عجيب ، وذكرت له بالطويل أسلوب موفق الدين عبد اللطيف البغدادي وكيف كان يحفظ الكتب في أيام معدودات على ما مرّ بك ، ولم يذر علماً إلا قرأه ولا حكمة إلا درسها ، فقال ـ وهو مخلص في خطابه ـ : نحن الآن في قبضة الإنجليز والمدار عندنا أن تكون بزتنا وهيئتنا منمقة وننطق بالإنجليزية كما ينطقون ، بهذا نرتقي . فأما العلوم فإن الناس عنها معرضون فلو أن الوسط الذي نعيش فيه والبيئة التي تجمعنا كانت مغرمة بالتحصيل مداومة على العلم معمورة بمجالس الأدباء ومسامرة الحكماء لكنا أسرع الناس إلى المزاحمة في المعارف ، وأقربهم زلفى إلى التنافس في العلوم ، وأشدهم رغبة فيه ، فالمرء إذن موقوف على الرغبة العامة وعلى حال الوسط فالناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم . فقلت له : قد صدقت وقلت قولاً سديداً .

كل ذلك لنشر المفاسد في البلاد وعدم قدرة الفضلاء على تغيير المنكر لشدة شيوعه ومساعدة المحتلين وامتيازات الأجانب في البلاد ، فلتحذر الأمم الإسلامية أن يتعاطوا السم في الدسم كما تعاطينا نحن المصريين . فهاك ما جاء يوم الاثنين ١٦ يوليو سنة ١٩٢٨ و٢٧ محرم سنة ١٣٤٧ منشوراً في جرائدنا المصرية تحت عنوان :

القديم والجديد

عقدت إحدى صحف لندن فصلاً في موضوع القديم والجديد قالت فيه ما يأتي : بينما تظهر مصر في عيون الغربيين غريبة أو بالأحرى روائية لما يحيط بها من هالة الشفق التاريخي ؛ نرى المصريين يطمحون إلى أن يكونوا من أبناء العصر ، بل أن يبلغوا أسباباً فوق العصرية ، ونسمع اليوم من كل حدب وصوب عن التقديم في مصر ، تقدم العلوم والمعارف ، تقدم النهضة الفكرية ، تقدم الأفكار الجديدة ، تقدم اقتباس الآراء الغربية ونبذ كل شيء قديم ورجعي . هذه صورة حقيقية ولكن إلى حد معلوم ونقطة معينة . نعم إن أموراً جسيمة تحدث في مصر اليوم ، ولكن هناك ناحية أخرى تظهر فيها حاشية الرتق ، تلك الناحية الخافية التي تؤثر في حياة الناشئة المصرية وتحط من شأن السجايا والطباع . فكم من الأحداث والشبان يجد ما يأخذه بيده ويهوي به إلى أسفل الدركات في تلك البدع التي يسمونها المدينة الغربية ، كأشرطة السينما القذرة المخلة بالآداب التي يرونها يوماً بعد يوم في دور السينما ، والمؤلفات البذيئة التي يطالعونها ، والمعاشرة الرديئة التي يلاقونها ، فلا يتخرج الطالب من المدرسة إلا وهو عبد لعادات وشهوات شنيعة يظل أسيراً لها بقية أيام حياته ، وتكون عبئاً ثقيلاً يرزح تحته ، ومذلة تذله وتضع أنفه في الرغام وتسمه بوصمة عار لا تمحى ما زال حياً .

هذه حالة البنين، أما حالة البنات فأنكد وأضل سبيلاً، فإن زوبعة الحمية التي هبت على مصر والاندفاع الشديد في تعليم الإناث وتحرير المرأة واقتباس الملابس والأزياء الأوروبية ومعظم ضروب الرياضة البدنية والألعاب والرقص وما إلى ذلك؛ قد أوجدت طفرة في البلاد كان لها أشد مساس بالآداب وعبث بالفضيلة.

فإذا أرادت مصر أن تصل إلى مصاف الأمم الراقية فعليها أن تحرص على الحياة الأدبية ولا سيما بين الناشئة والأحداث، وأن تحسن تربية البنين والبنات، وتغرس في قلوبهم التقوى ومخافة الله والحشمة والنزاهة ومبادئ الشرف والأمانة، وخير التربية هي التي يوضع أساسها في البيت ويشاد صرحها في المدارس. اهـ.

تذكرة: إن ظهور هذا التفسير اليوم في بلاد الإسلام موافق لحركة الإصلاح فيها، فقد ألهم الله رجال الإصلاح أن يضعوا بذوره ليتخرج رجال في المعاهد الدينية على مشرب هذا التفسير. فانظر إلى ما قدمه صاحبنا الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر الحالي في ١٩ صفر سنة ١٣٤٧ الموافق ٦ أغسطس سنة ١٩٢٨ لحكومتنا المصرية وهذا نصه:

إصلاح الأزهر الشريف

مذكرة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر

أوجب الدين الإسلامي على أهله أن تختص طائفة منهم بحمله وتبليغه إلى الناس ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١١٨]، وأوجب الله على نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس إلى السبيل الموصلة إليه ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١١٩].

وقواعد العلماء كلها متفقة على وجوب السعي إلى نشر الدين وإقناع العباد بصحته وعلى وجوب حمايته من نزعات الإلحاد وشبه المضلين. وفي الكتاب الكريم آيات كثيرة تحثّ على النظر في الكون وعلى فهم ما فيه من جمال ودقة صنع. ولقد لفت النظر إلى ما في العالم الشمسي من جمال باهر وصنع محكم ولفت النظر إلى ما في الحيوانات من غرائز تدفعها إلى الصنع الدقيق والأعمال التي لها غايات محدودة، وأشار إلى سير الأولين وحث القرآن على العلم، وفاضل بين العلماء والجهال وأعمال السلف الصالح، وسير العلماء لا تدع شبهة في أن الدين الإسلامي يطلب من أهله السعي إلى معرفة كل شيء في الحياة. وقد تولى سلف علماء الأمة القيام بهذه المهمة على أحسن وجه وأكمله، فخلفوا تلك الثروة العظيمة من المؤلفات في جميع فروع العلم ودرسوا أصول المذاهب في العالم ودرسوا الديانات ودرسوا الفلسفة على ما كان معروفاً في زمنهم، وكتبوا المقالات في الرد على جميع الفرق. وكانت للعقل عندهم حرمته وله حريته التامة في البحث، وكان الاجتهاد غاية يسعى إليها كل مشتغل بالعلم متفرغ له. ولكن العلماء في القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة وظنوا أنه لا مطمع لهم في الاجتهاد، فأقفلوا بابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم، وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث، وجهلوا ما جدّ في الحياة من علم وما جدّ فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم ونقموا

هم على الناس فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له، وأصبح الإسلام بلا حملة وبلا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين. في الدين الإسلامي عبادات وعقائد وأخلاق وفقه في نظام الأسرة وفقه في المعاملات مثل البيع والرهن وفقه في الجنايات.

وقد عرض الدين الإسلامي لغيره من الأديان وعرض لعقائد لم تكن لأهل الأديان «كذا» وأشار على بعض الأمور الكونية في النظام الشمسي والمواليد الثلاثة من جماد ونبات وحيوان.

وقد هوجم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السابقة. هوجم من أتباع الأديان السابقة وهوجم من ناحية العلم وهوجم من أهل القانون، لهذا كانت مهمة العلماء شاقة جداً تتطلب معلومات كثيرة تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها، ومعرفة ما في الأديان السابقة، ومعرفة ما يجدّ في الحياة من معرف وآراء، ومعرفة طرق البحث النظري وطرق الإقناع، وتتطلب فهم الإسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهماً صحيحاً، وتتطلب معرفة اللغة وفقهها وآدابها، وتتطلب معرفة التاريخ العام وتاريخ الأديان والمذاهب وتاريخ التشريع وأطواره، وتتطلب العلم بقواعد الاجتماع.

والأمة المصرية أمة دينها الإسلام فيجب عليها وهي تجاهر بذلك أن ترقى تعليمه ليرقى حملته ويكونوا حفاظاً ومرشدين يدعون الناس إليه، ولا يوجد دواء أنجع من الدين لإصلاح أخلاق الجماهير، فإن العامة تتلقى أحكام الدين والأخلاق الدينية بسهولة لا تحتاج إلى أكثر من واعظ هاد حسن الأسلوب جذاب إلى الفضيلة بعمله ويحسن بصره في تصريف القول في مواضعه. ولذلك كان الدعاة إلى الفضيلة قديماً وحديثاً يلجؤون إلى الأديان يتخذونها وسائل للإصلاح، بل إن كل دعاة المذاهب السياسية وحملة السيوف لم يجدوا بداً من الرجوع إلى الأديان وصبغ دعواتهم بها. كل ذلك لأن حياة المجتمعات لا تدين لنوع من أنواع الإصلاح إلا إذا صبغ بصبغة دينية يكون قوامها الإيمان.

والأمة المصرية بل والأمم الشرقية جمعاء تدهورت أخلاقها فضعفت لديها ملكات الصدق والوفاء بالوعد والشجاعة والصبر والإقدام والحزم وضبط النفس عن الشهوات، وضعفت الروابط بين الجماعات فلم يعد الفرد يشعر بآلام الآخرين ومصائبهم، وقد أثرت الحياة الفردية في حياة الجماعة أثرها الضار فانحطت منزلة الأمم ورضيت من المكانة بأصغر المنازل.

إلى أن قال: يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة وأن تدرس السنة الشريفة دراسة جيدة، وأن يفهمها على وفق ما تتطلبه اللغة العربية فقهها وآدابها من المعاني وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة وأن يبتعد في تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة العربية.

يجب أن تذهب العقائد والعبادات وتنقى مما جدّ فيها وابتدع وتهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق والعقل وقواعد الإسلام الصحيحة.

يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما يفعل السلف من الفقهاء.

يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود في الدين الإسلامي ليظهر للناس بسره وقدسه وامتيازه من غيره في مواطن الاختلاف، ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها وأسباب التفرق وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها.

يجب أن تدرس أصول المذاهب في العالم قديمها وحديثها وكل المسائل العلمية في النظام الشمس والمواليد الثلاثة مما يتوقف عليه فهم القرآن في الآيات التي أشارت إلى ذلك.

يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف وأن يضاف إلى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث في بحث اللغات وآدابها.

يجب أن توجد كتب قيمة في جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة في عصور الإسلام الزاهرة والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية.

وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين وكل ما هو قطعي فيه محافظة تامة، وأن تهذب الأساليب ويهذب كل ما حدث بالاجتهاد بحيث لا يبقى منه إلا ما هو صحيح من جهة الدليل وكل ما هو موافق لمصلحة العباد.

يجب أن يفعل هذا لإعداد رجال الدين لأن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة ودينه عام ويجب أن يطبق بحيث يلائم العصور المختلفة والأمكنة المختلفة، وإن لم يفعل هذا فإنه يكون عرضة للنفور منه والابتعاد عنه كما فعلت بعض الأمم الإسلامية وكما حصل في الأمة المصرية نفسها إذ تركت الفقه الإسلامي لأنها وجدته بحالته التي أوصله إليها العلماء غير ملائم، ولو أن الأمة المصرية وجدت من الفقهاء من جارى أحوال الزمان وتبدل العرف والعادة وراعى الضرورات والحرج لما تركته إلى غيره لأنه يرتكن إلى الدين الذي هو عزيز عليها.

ثم قال بعد كلام: وقد بدل الله هذه الأحوال وأصبح قانون الأزهر مشتملاً على ضعفي العلوم التي كانت تدرس من قبل، وأصبح يدرس في الأزهر التاريخ الطبيعي وتدرس فيه الطبيعة والكيمياء ويدرس فيه الجبر والهندسة، وقبل الأزهر في قسم تخصص القضاء الشرعي دروساً في وظائف الأعداء ودروساً في التشريح. قبل الأزهريون كل جديد وأعدوا أنفسهم له وزالت كل العقبات التي كانت من قبل ولم يبق إلا إصلاح طرق التعليم وإيجاد المتعلمين الأكفاء وتوزيع العلوم على الأقسام توزيعاً صحيحاً.

وإذا كانت هناك بقية تعترض الجديد فلم يبق لها من الشأن ما تستطيع معه أن تكون عقبة في طريق الإصلاح. انتهى.

هذا ما أردت نقله من ذلك التقرير المرفوع من صاحبنا شيخ الإسلام الحالي الذي هو موافق لروح هذا التفسير، كتبته هنا لتعلم أيها الذكي مبلغ ما أجبرتك عنه في هذا التفسير مراراً وفي كل سورة من أن لهذا التفسير وأمثاله أثراً محموداً إن شاء الله في الإسلام، وأن الأمة قد استعدت له ولأمثاله. ولقد نشأت في الأزهر وعاهدت الله على أنه إذا علمني بعض حقائق هذا الدين التي كنت أجهلها بالأزهر نشرتها بين المسلمين لئلا يقع أذكياؤهم في حيرة مثل ما اتفق لي.

ثم إن ما كتبه شيخ الجامع الأزهر في هذا التقرير الذي رفع للحكومة المصرية قد خطا خطوات واسعة فيما يطلبه الأزهر والمسلمون.

لقد طلب أن يكون التعليم فيه على قسمين: قسم لا يحدد عدده ولا ترتب درجات التعليم فيه ولا يكون له شيء من الحقوق في أعمال الدولة، وإنما يراد منه التفقه في الدين. وقسم يحدد عدد تلاميذه وترتب درجات التعليم فيه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول مدته خمس سنوات وهكذا الثاني والثالث. فالأول والثانوي تدرس فيهما العلوم كالمدارس المصرية ما عدا اللغات الأجنبية وكذا علوم الأزهر الأصلية. والقسم العالي يدرسون فيه المنطق والتوحيد والأخلاق والفلسفة قديمها وحديثها وآداب اللغة والقرآن وعلم التربية وبعض اللغات وتاريخ التشريع الإسلامي وما يلزم للقاضي والمحامي من نظم القضاء والإدارة وقوانين المرافعات وهكذا، وهؤلاء يكون منهم علماء اللغة العربية وعلماء الفقه وعلماء الإرشاد والدعوة وموظفون في الوظائف المناسبة لهم.

هذا ملخص ما في التقرير. ثم اعلم أيها الذكي أن هذه خطوة تتبعها خطوات. فمتى تم ذلك تلتها خطوة أخرى، فسيقوم فريق من هؤلاء العلماء بعدنا ويقولون: لا تقف عند هذا الحد، وأي فرق بين اللغة العربية وبين الطب والكيمياء والطبيعة وعلم النبات والحيوان؟ فلم لا يكون منا السياسي المحنك الماهر والطبيب النطاسي والمهندس الذكي وعالم الكيمياء والنبات والحيوان؟ وهذا ما سيكون بعد حين، وإذن يكون الأزهر والمعاهد الإسلامية قد سارت على منهج قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٣٣]، فيخصص كل طالب لما استعد له، والله هو الولي الحميد.

العلم علمان علم ضائع وعلم نافع

أما العلم الضائع فهو ما لا يفيد الأمم في حياتها ولا في أخلاقها ولا سموّ نظامها. لقد تقدم في سورة «الكهف» ما نقلته عن علماء أممنا الإسلامية أنهم كانوا يعمدون إلى ما في القرآن من الآيات ويحسبونها بالجمل ويستنتجون منها نتائج. وهذا الحساب يرونه سراً مصوناً وجوهراً مكنوناً، ويقوي ذلك اطلاعهم على علوم الحساب والهندسة والجبر وأمثالها فينوعون فيه ويشغلون الحياة به، فهذا فيه فائدة ولكن مضاره لا حصر لها.

أما فائدته فإن المسلم حين يطلع عليه تذعن نفسه للدين ولا يشك فيه لأنه يرى أن هذه العجائب وبدائع الحساب قد حواها دينه فيتمسك به، وفي الوقت نفسه يقف عقله عند هذه ولا يتخطاها. فهذه العلوم أشبه ببعض شيوخ الصوفية الذين ليسوا كاملين. فهؤلاء يكون اعتقاد تلاميذهم فيهم سبباً لوقوفهم في العلم عند حد خاص لا يتعدونه.

وأذكر أني في أيام شبابي كنت أقرأ ذلك في بعض الكتب فكنت أدهش من ذلك الحساب وعجائبه مثل أن جمل محمد اللفظي بحيث تكون الميم حرفين يساوي ١٣٢، وحروف الفاتحة اللفظية عددها يساوي ١٣٢ أيضاً، فلما قرأت هذا أخذت أعد الحروف اللفظية فكانت تقرب من هذا العدد أو تتحد به، فكان هذا عندي دليلاً على صدق القرآن. وقد تقدم أن هذا وأمثاله يقبل المعارضة وليس فيه من العلم ولا الحقائق شيء وكنت أنظر في الأوفاق وأعدادها ونظامها وأدهش وأقول: يا عجباً.

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

لماذا لا يجعل الله في الطبيعة نظاماً كنظام الأوفاق كهذا المثلث؟ وأقول: يا الله إننا نرى هذا المثلث كل ضلع من أضلاعه ١٥ سواء أكان أفقياً أم رأسياً. وإذا كان هذا النظام جميلاً فلماذا لم نجد الله فعل في الطبيعة مثله؟ هذا كان غرامي وأنا شاب بمثل هذا. وسبب ذلك وقوع أمثال تلك الكتب في يدي. فجلّ الله وجلّ العلم. غلب عليّ الحساب وغلب على عقلي حب نظام الأعداد وصارت هذه طبيعتي، وليس الآن لي متسع أن أفيض القول فيما عرفته بعد ذلك لا في مدرسة دار العلوم ولا في الأزهر قبله، بل في كتب الغربيين، وستراه مسطوراً في سورة « العنكبوت ». إن العلماء في زماننا لما رتبوا العناصر بعقولهم وجدوا بينها نظاماً مدهشاً يعتبر في جانبه علم الأوفاق نسياً منسياً، وأن النظام هناك والخواص وتناسبها أمر يفوق الحصر كمالاً وجمالاً، حتى إن الأوفاق العددية لا قيمة لها في النظام إلا كقيمة الشمعة في ضوء الشمس.

هذا هو الذي كان يخطر لي وأنا شاب وأقول: يا رب لمَ لمْ نر نظام الأوفاق في عالم الطبيعة؟ هذه هي النتائج التي علمتها في حياتي. وإياك أن يصدك هذا عن أصل الموضوع، فإننا نتكلم في العلم الذي لا ينفع، وقد قلنا: إن هذا العلم لا ينفع لأنه وإن أفاد بعض فائدة يضيع على المسلمين فوائد لا حصر لها، وأنه إن أفاد اطمئنان بعض صغار العلم فإنه يصد عنه ويحجب العقول عن التفكير.

وسبب ذلك أن الذين يقرؤون تلك الكتب لا يعرفون العلوم التي اشتقت منها هذه الأمور، فيظنون أن ذلك سر القرآن وسر الأولياء، فيرون أنه من طبقة فوق متناولهم، ومن عقول فوق عقولهم فيذلون ويخضعون ويموتون ولا هم يذكرون. ستقول لي أيها الذكي: أسمع جعجعة ولا أرى طحناً فاضرب لنا مثلاً حتى نعرف به ما تقول. أقول لك: انظر المثلث السابق فقد جعلوه من أسرار « طه » وهذا هو السبب في ذكري له هنا. المثلث السابق كل ضلع من أضلاعه عدده ١٥ كما تقدم ومجموعها كله ٤٥، ويقولون: إن هذا لسر عظيم من أسرار القرآن. ألا ترى أن ٤٥ هي جمل آدم؟ إذن هذا المثلث هو سر آدم أبينا، وإذا كان ٤٥ حاصل ضرب ٩ في ٥ فله ضلعان: ضلع ٩ وضلع ٥، و٩ أكبر من ٥ فيكون آدم وهو ٤٥ ضلعه الأكبر ـ الضلع أحد المضروبين ـ ٩ لأنه آخر الأعداد البسيطة التي هي أمهات الأعداد كلها، وآدم آخر المكونات وهي التسعة: العقل، النفس، الفلك، الكوكب، العنصر، المعدن، النبات، الحيوان، الإنسان. وضلعه الآخر ٥ فالأكبر نسميه أيمن والأصغر نسميه أيسر، فإذن آدم له ضلع أيمن وضلع أيسر، وحوّاء خلقت من الأيسر، ولا شك أن حواء في الجمل ١٥، وهي مخلوقة من ضرب ٥ في ٣، وحواء تلد إنساناً تاماً، كما أن ٥ بضربها في نفسها تأتي بمربع ٢٥، ومربع ٢٥ يكون ظاهراً في جميع مضروباتها مثل ١٢٥ وما بعدها إلى ما لا يتناهى، فالخمسة هذا شأنها وحواء هذا شأنها كل منهما قد تم ما تولد منه.

وإذا كانت « طه » مركبة من ٩ ومن ٥ فيكون معناها هكذا ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾[طه: ١-٢] يعني يا آدم ويا حوّاء، يعني أيها النوع الإنساني ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[طه: ٢] أي: ما جعلناك جامعاً لجميع مراتب الوجود لتشقى، بل لتسعد بمطالعة حقائق الموجودات بسبب وجود نموذجها فيك، وهذا المعنى على أن القرآن هو القرآن التكويني أي هذا العالم ونظامه وإن أريد به الوحي فيقال ما أنزلنا عليك القرآن بالوحي إلا لتسعد بالعمل بما فيه الخ.

أنا أيها الذكي نقلت لك عبارة القوم وأنا أعلم أن أكثر من يقرؤها يتعب في فهمها إذ يرى أن مسألة عدد ٥ عدد كروي مثلاً وأن هناك ضلعاً أصغر وضلعاً أكبر وألفاظاً من علوم مختلفة، فأمثال هذا كان يقرؤه المتعلمون في الإسلام، فيظنون أن هذا من علم أعلى، وتقف العقول وتحصر الأفكار. ذلك لأن مسألة العدد الكروي وهو ٥ وأن ٢٥ ظاهرة في كل مضروباتها.

هذا من علم الأرتماطيقي « خواص الأعداد » الذي ذكرته في كتاب « بهجة العلوم في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية »، وإذا رأى ذلك متفقاً مع حديث خلق حواء من الضلع الأيسر ويدخل على الأذكياء لفظ ضلع مع أنها أحد المضروبين في العدد وآدم ليس له ضلعان اثنان أيمن وأيسر. كلا. بل له ٣٤ ضلعاً لا ضلعان، ولكن القارئ الذي يفهم هذا في كتب القوم يظنّ أن هذه حقائق ذات قيمة فتهلع نفسه وينخلع قلبه ويرى أن هذه العلوم عالية جداً، فيعيش في تلك الكتب ويقف عقله فيكون أشبه بالذباب إذا وقع في العسل، وهذه حال أكثر الأذكياء من رجال العلم والصوفية في الأمم المتأخرة الإسلامية.

أتدري من أين نقلت لك هذا؟ نقلته من « سفينة الراغب »، نقلاً عن شرح العلامة الشيخ إبراهيم المصري الحلبي على لغز اسم كتاب « الزبدة » لبهاء الدين العاملي سنة ١١٦٥، فهذه كانوا يعدونها أسراراً للقرآن وما هي بأسرار، كلا، بل هذا التمحل يضل العقول ويضيع عليها الوقت ويخرجها إلى عالم الخيال ويجنبها عالم الحقائق، هذا هو العلم الضائع.

العلم النافع

إن من قرأ هذا التفسير وأمثاله رأى أن هذه السورة مشحونة بعجائب الخلق وذكر عجائب السماوات والأرض وما عليها من نبات وأنعام ويقول الله: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠]، وهذه الآية مثلاً مفسرة بالعلوم التي أحاطت بنا من كل جانب وبها سعادتنا وسعادة الأمم حولنا، بل فوق ذلك جعل في هذا التفسير أن « الطاء » و« الهاء » يشيران لنفس هذه الجملة، وقد فسرت بما ذرأه الله في عالم الحيوان مشروحاً شارحاً للصدور. فما نتيجة ذلك الحساب الذي جعلوه سراً إلا أن يقال: إنك أيها النوع الإنساني جامع للحقائق تطالعها في نفسك، فهل هذا هو السر؟ اللهم لا سر هنا ولا معنى، فهذا المعنى جزء ضئيل من المعنى المخبوء في آية واحدة من السورة، فإن قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠] شملت الإنسان ولم تقتصر عليه بل جمعت كل حيوان وكل نبات وكل فلك وكل جماد. فما هذا السر إذن ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[النجم: ٢٣]، فأمثال هذا الحساب قد أوقف العقول في الأمم الإسلامية دهراً طويلاً.

فلعمري أين هؤلاء العلماء ممن يعدّهم الله الآن للأمم الإسلامية ليرشدوهم ويعلموهم. إن الله أعد للمسلمين عقب ظهور هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات علماء زماننا رجالاً في ظهور آبائهم وآخرين في بطون أمهاتهم، سيدرسون هذه الدنيا على حقائقها ويقولون: إنّما مثل هذه التي سميت أسراراً إنّما هي أشبه بتدريب الأطفال في المدارس تدريباً عضلياً جسمياً لتقوية العضلات في ساحات المدارس، وهذا فائدته لتقوية الجسم وحده ولا ينتج فائدة مادية أخرى.

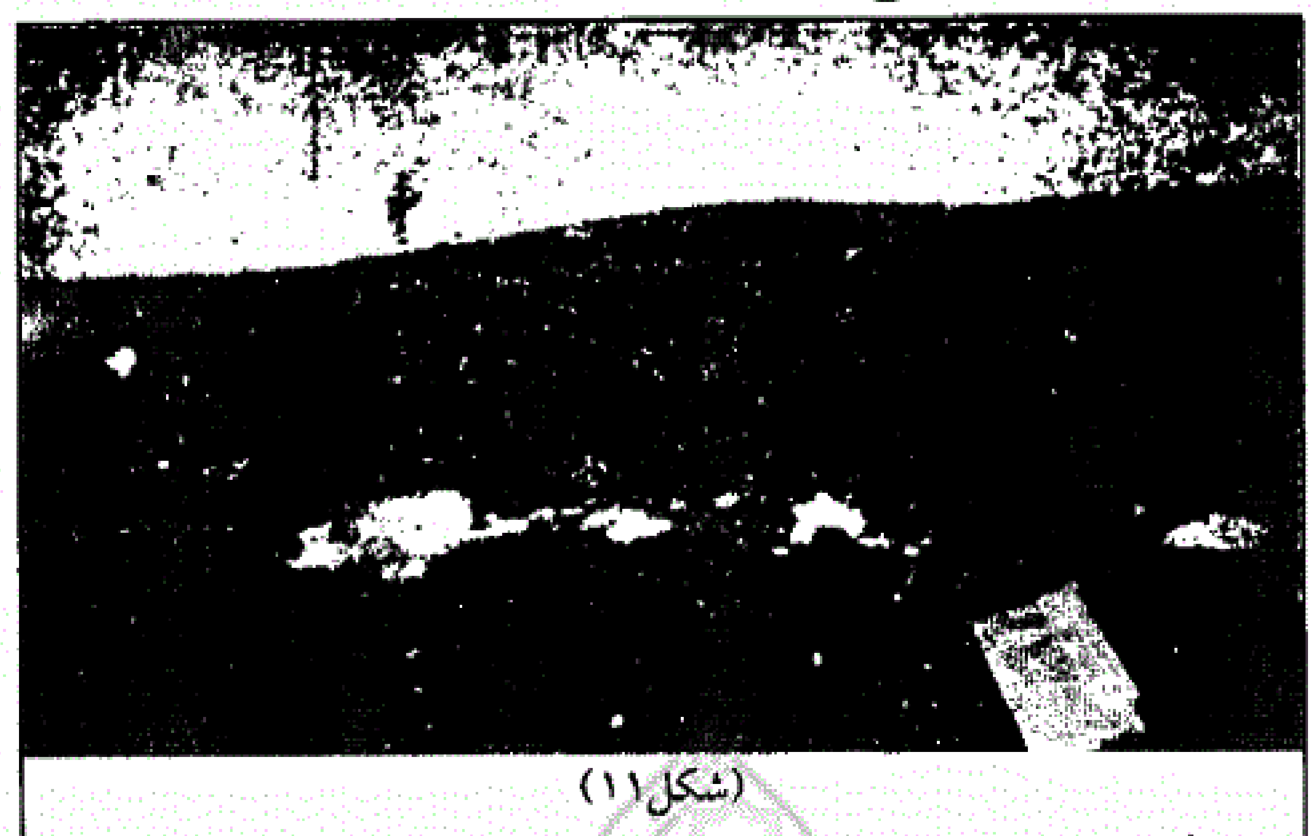
أما العمل في الحقوق وفي الصناعات الذي سنه الله لخلقه فإنه يفيد الأمرين: يفيد قوة البدن ويفيد نموّ العمران وارتقاء الأمم وينتج الأغذية والملابس وسائر الصناعات. فنحن إذا وجدنا السابقين من متأخري المسلمين أضاع بعضهم وقته في هذه التي سموها أسراراً وقد مرنت عقولهم عليه ولكن ما نفعت أممهم، فعلينا نحن أن نمرّن عقولنا على ما يكسبنا أمرين: رقي عقولنا ورقي أحوالنا المعاشية والمعادية. فإننا إذا فعلنا كما كانت أوائلنا أيام الدولة العباسية وكما تفعل الفرنجة بجدهم من تحويل أرضنا من حال إلى حال، وإحداث ما لم يكن موجوداً من المزارع، واستخراج ما لم يستخرج من المعادن وأنواع السوائل المخزونة في الأرض، نلنا الأمرين: رقي عقولنا بعجائب هذه المخلوقات وارتقاء مدنيتنا بالمنافع العامة. ففي عجائب تلك المخلوقات من النظام والجمال والبدائع ما يدهش العقول ألف مرة، بخلاف ذلك الوهم الذي لا يعجب به إلا المبتدئون في العلم، ثم يقولون: أمر الله نبينا صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله أن يزيده علماً. ولا جرم أن العلم الذي لا فائدة منه لا يطلبه نبينا صلى الله عليه وسلم، ويقولون: إن العالم الذي يكون على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يستخرج منافع هذه الدنيا ويكون كالنجم به يهتدى، ومستحيل أن يكون كالنجم إلا إذا عمّ نفعه. ويقولون: يقول الله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]، فجعل الله التفكر في الدنيا قبل الآخرة. ثم يقولون: فلنبتدئ بالفكر في الدنيا ونقرأ آيات الصدقات. يقول الله: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [البلد: ١١-١٦] فيفكرون إذن ويقولون: إنّ إطعام المسكين والفقير له منزلة سامية، وإذا كان آلاف آلاف من الأغنياء أطعموا ملايين من الفقراء وأغنوهم فهؤلاء لهم أجر عظيم، ولكن ربما ظهر عالم في الأمة فأبدع ما شاء الله أن يبدع في هندسة الأرض بأن بنى قناطر حفظت الماء فسقت آلاف الفدادين جمع فدان. فهذا بعلمه نفع أمماً لا أشخاصاً فقط وهو وحده أفضل من هؤلاء الأغنياء كلهم، وهكذا إذا ظهر من اقتحم العقبات العلمية ودرس طبائع الأرض وفهم خواصها فأدرك بعلمه ما فيها من معادن ومنافع كالنفط والقار التي ببلاد العراق، فإن من يتأمل فيها يجد الألمان والإنكليز لهم الحظ الأوفر في استخراج ما بها من النفط والقار ويقطرونه، وكان المسلمون أحق بتلك العلوم والمعارف، لأن الله يأمرنا بالازدياد من العلم. الله أكبر ما أجمل العلم وما أبدع الحكمة. يا الله أدهشت عقولنا وأنرت بصائرنا بحكمتك في أرضك. يا الله أريتنا أرضك جنة واسعة، وكيف لا تكون جنة وقد رأيناها عروساً زينت للناظرين. عروساً قد حليت بأنواع الحلي:

فلا تدوم على حال تكون به كما تلون في أثوابها الغول

كيف لا؟ وقد رأينا عيوناً تنبع من الأرض بالماء البارد تارة والحار أخرى، كما مرّ مصور في سورة «الكهف»، وهكذا قد أخرجت عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقار وهو في حال الغليان، وهناك يجتمع أشبه بالصلصال على الأرض أسود أملس صقيلاً رطباً عطر الرائحة وذلك على بعد أربعة وأربعين ميلاً إلى الجنوب من بلاد الموصل على الجانب الغربي من دجلة في مكان يسمى بـ«القيارة».

وهناك بالعراق أيضاً آبار يستخرج منها النفط كما يستخرج الماء من الآبار. ولقد فتحت بئر هناك في زماننا فقذفت في الجو ألوفاً من القناطير من النفط في مدينة «كركوك» التي تبعد عن بغداد

بنحو ٢٠٠ ميل إلى الشرق. وهناك مكان يقال له « بابا قرقر » يخرج منه غاز يتقد ناراً متى لامس الهواء، فإذا نكثت بأصبعك أو بعود رأيت اللهب يخرج من الأرض، وإذا حاولت سده بالتراب خرجت النار من مكان آخر وأرض النار هذه أربعة أمتار مربعة فيها بضعة عشر ثقباً يخرج من كل واحد منها نار ملتهبة كلهيب المصباح في لونها. انظر شكل ١١.



(شكل ١١)
رسم أطمة في كركوك وهي عين من النار يقال لها بابا قرقر يظن أنها أتون النار المتقدة التي ألقي فيها الفتية الثلاثة على ما جاء في سفر دانيال

ويقال إن المجوس عبدوها لما رأوها تخرج على هذه الحال في « باكو » وهو قول لم يحقق، ولقد انفجرت بئر في سنة ١٩٢١ بالقرب من « بابا قرقر » فجأة وارتفع في الجو بضع مئات من الأمتار وكان يقذف النفط في اليوم الواحد ٣٥٠,٠٠٠ صفيحة من الصفائح المعروفة وذلك في شهر أكتوبر من تلك السنة، وجرى نهر من النفط وصار بحيرة وخشي على كركوك من الغرق، وانهزم المهندسون والعمال ثم عادوا فردموا البئر ومات منهم ثلاثة خنقاً بالغاز أحدهم مهندس أمريكي والآخران عراقيان. وبالجملة إن النفط والقار في العراق كله. انظر شكل ١٢ وشكل ١٣.



(شكل ١٢) رسم بحيرة من النفط حيث تفجرت البئر قرب بابا قرقر في كركوك ولعلّ البحيرة التي رآها الإسكندر كانت هناك



(شكل ١٣) رسم صورة أخرى لآبار النفط على مقربة من كركوك حيث تفجرت بئر واندفعت فجرى النفط نهراً واشتعل بعضه كما في الصورة

خبرني أيها الذكي هلا تخرّج من بلاد الإسلام علماء يخصصون لذلك بالتعليم في الأقطار الأوروبية، ويشرحون الطريقة التي بها تستخرج تلك المواد من الأرض وننتفع بها، فهؤلاء لم يكن عملهم قاصراً على نفع مئات الألوف من الناس، كلا بل العالم منهم ينفع أهل الأرض كلهم، لأن ذلك القار أو النفط ينتقل بالتجارة إلى أقطار الأرض كلها، فهو إذن قد نفع جميع الناس. فإذن العالم أفضل ألف ألف ألف ألف مرة من الغني وإنفاقه من علمه أفضل ألف ألف ألف ألف مرة من إنفاق الغني من ماله. هذا هو سر قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]. انتهى يوم الجمعة ٣ صفر ١٣٤٧ و٢٠ يوليو سنة ١٩٢٨.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ ﴾[الآية: ١١٥] إلى قوله: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[الآية: ١٢٧]

هذه الآيات ذكر الله فيها آدم ونسيانه وأنه ليس له عهد، وذكر الجوع والعري والظمأ الخ ووسوسة الشيطان والأكل من الشجرة وظهور عورتيهما لهما.

اعلم أن هذه القصة أنزلها الله ليجعلها مرآة لبني آدم، فإذا تأملها الناس عرفوا أن ما جاء فيها منطبق عليهم تمام الانطباق، وفي المثل: «أسر حسواً في ارتغاء»، وأنت لك القصد والقرآن لا يواجه الناس بحقائق أحوالهم، بل يكني لهم ويرمز ليكون أدعى إلى التفكر وأقرب إلى التأمل، ولو أن الحقائق التي تضمنتها هذه القصة وفحواها صرح بها القرآن ليئس بنو آدم من الرقي واليأس يمنع الرقي إلى الكمال. إن بني آدم يعيشون في هذه الأرض وقد أحاطت بهم المثلات واستبانت الحقائق. فهذه الطيور والبهائم تعيش لا طبخ ولا عجن ولا خبز ولا إسراف في مأكل ولا مشرب، ولا يقرب الذكر أنثاه إلا عند الحاجة إلى الحمل، ثم لا يقربها إلى أجل مسمى. فالطبيعة المحيطة ببني آدم قد برزت مكتوبة بخط جميل ظاهر.

إن السعادة والهناء والسلامة والصحة في القناعة والرضا وعدم الإسراف. فماذا فعل هذا الإنسان؟ طغى وبغى وتعدى حده في مأكله ومشربه وملبسه، وهذه كلها مذكورات في هذه الآيات وجهل ما خطه الله على لوح الطبيعة من النظام.

هذا الإنسان خلق له الجوع والعطش والتألم من الحرّ والبرد، فأمد بكل غذاء للجوع وبالماء للعطش، وبالملابس لمنع آلام الجوّ، ولكنه لما تناول الغذاء جهل أصل المقصد منه فتفنن في ضروبه وألوانه. ولما تعاطى الماء ظهر جهله فيه فتفنن في ضروب اللذات فأصبح صريع شهوته قتيل جهالته. ولما استعمل اللباس لم يقف عند الحاجة، بل أخذ يتزين به، ونسي كمال نفسه، فأصبح بنو آدم بهذا عبيد العصا وأدخلوا في جهنم دار المذلة والهوان، وقد نسوا نسياناً تاماً سعادة الطير وقناعته بريشه واكتفاءه بالحب يلتقطه وهو مغرد طرب. وهكذا الأنعام لها جلودها وأشعارها وأوبارها لم ترد زيادة عنها.

وهكذا الماء تشربه فراحاً لا تمزجه بحلوى ولا تجعله خمراً. فهذه المحن التي وقع فيها بنو آدم هي المضاهية لما قيل في آدم إن الشيطان وسوس له وأنه أكل من الشجرة وأن السوءة بدت لهما وأنهما أخذا يخصفان من ورقة الجنة. فذكر الأكل وذكر الخصف راجع للجوع وللعري، والأكل يتبعه

الشرب، ثم ذكر العداوة والإسراف ونسيان العهد، ولا جرم أن الانهماك في هذه المطالب إسراف وهو يورث العداوة.

إن النسيان المذكور في الآية قد عمّ هذه الكرة الأرضية، كلنا نجهل أصل المقصود من الجوع ومن العطش الخ. ولقد ذكرت نبذة في هذا الموضوع في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ ﴾[الآية: ٥٨] الخ، وفي سورة «الأعراف» عند قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ [الآية: ٣١]، وفي سورة «الحجر» عند ذكر آدم في أول السورة، وفي هذه المقامات الثلاث ذكرت أهم الشروط الصحية في الملبس والمأكل والمشرب، وأن الأمم والأفراد الذين انهمكوا فيها ذلوا في الدنيا بالضعف والذل ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾[طه: ١٢٧].

وهاأنا ذا الآن أقرأ في كتاب الصحة تأليف زعيم الهندوس الأكبر «مهاتما غاندي» الذي ترجمه الأستاذ الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي، فعجبت كل العجب أن يكون هو قد اصطفى من الطب الحديث ما يقوي ما ذكرته سابقاً في هذه المواضيع الثلاثة ولكنه هو زاد أمراً عجباً، ذلك أنني كنت أتوخى فيما أكتبه أن أبين المآكل الضارة مثل الدقيق المنخول والسكر، وكذلك ما يشرب مثل القهوة والشاي والخمر.

وهكذا قد أبنت المضار الناجمة من ترك الرياضة البدنية التي جهلها كثير من المسلمين، فضعفت أبدانهم ورقت عظامهم وقصرت آجالهم. أما هو فقد أطنب في ذلك وأبدع فيه، ثم أتبعه بما كنت أود أن أعرفه أنا ويعرفه قراء هذا التفسير. ذلك أني كنت أقرأ في المادة الطبية للطبيب المصري وهو الشيخ الرشيدي بعض أعمال طبية عجيبة تداوي من أكثر الأمراض بلا استعمال دواء، وذلك هو الاستحمام بالماء البارد أو الحار.

وهكذا قرأت في كتب أخرى أن الهواء وضوء الشمس والطين؛ كل هذه تقوم مقام الأدوية، وهكذا كنت أقرأ في الكتب القديمة والحديثة أن استعمال الأدوية التي ملئت به الصيدليات في زماننا ما دخلت معدة أو منزلاً إلا كانت سبباً في تسلسل الأمراض، كما قدمته في سورة «البقرة» مفصلاً، ولكنني كنت أتمنى أن أرى طرق المداواة بهذه الموادّ ممهدة سهلة بحيث لا يحتاج الإنسان فيها إلى مرشد سوى الكتاب.

فلما اطلعت على هذا الكتاب ألفيت المؤلف قد أوضح طرق العلاج إيضاحاً تاماً، وذكر أنه قد جربها فعلمت أن الله عز وجل قد أذن لذوي الجد من قراء هذا التفسير أن يستغنوا عن الأطباء غالباً متى قرؤوا ما سأنقله عنه من تلك الكيفيات الصحية التي شملت الأمراض الظاهرة والباطنة اللهم إلا قليلاً. فهاأنا ذا أنقل من ذلك الكتاب القسم الأول منه وهو ما يحفظ الصحة هنا، وأرجئ قسم المداواة إلى سورة «الشعراء» فأكتبه عند قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾[الشعراء: ٦١]، فإن حفظ الصحة بمقامنا هنا أليق والمداواة بآية «الشعراء» أنسب، وسأنقل من الكتاب في المقامين عيون كلامه وأهم ما يناسب التفسير، وليس هذا خارجاً عن التفسير بل هو من صميمه.

وإذا كانت في سورة «آل عمران» أذكر نبذة جميلة من علم التشريح بمناسبة قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾[الآية: ٦]؛ وأذكر عند قصة إبراهيم الخليل في سورة

« الأنعام » أجمل ما في علم الفلك ؛ وأذكر عند قوله تعالى في سورة « المائدة » : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [الآية : ١١٦] الخ ، خلاصة ما جاء في الكشف الحديث من ظهور حقائق جديرة بالاعتبار بها ؛ عرف الناس أن كثيراً من عبارات الأناجيل منقولة بالحرف من كتب الهنود.

وهكذا ترى أيها الذكي أن الآية قد يكتب عليها نحو عشرين ورقة أو أكثر أو أقل ، ثم ذلك كله فوائد علمية تشوق للعلم ، فما بالك بما يقوّم صحة الأبدان ويزيح عللها ويجعل المرء قوي البدن صحيح الجسم قوي العقل والذاكرة ، ليربح السعادة في الدنيا ويعمّ نفعه أهل بلاده وأهل دينه . لا جرم أن هذا أحق بالعناية ، وكل علم رسم في ذهن سقيم يسقم تبعاً للعالم به والسقم يتبعه الموت . وفي المثل : « العقل السليم في البدن السليم » .

ولنبدأ الآن بذكر قسم حفظ الصحة هنا ملخصاً أجمل ما ذكره لتستيقن بما كتبته سابقاً لأنه ما كتب ذلك إلا بعد التجربة وقراءة كتب الطب الغربية العصرية المطولات . ولنذكر ما جاء فيه على ترتيب ما في الآية ، فقد جاء فيها الجوع والعري والظمأ ، فلنذكر الكلام على الغذاء ثم اللباس ثم الماء ثم الهواء تبع ترتيب الآية فنقول :

قد ذم إكثار الأكل الذي يوجب تعاطي المسهلات والحبوب الهاضمة ، وذكر أنه هو قد كان وقع في ذلك إذ كان يشرب الشاي صباحاً ثم يفطر بعد ساعتين ، ثم يتغذى الساعة الواحدة ثم يشرب الشاي ثانية ، ثم يجلس للعشاء بين الساعة السادسة والسابعة . قال : فلا تسأل عن تعاستي وسوء حالتي في تلك الأيام ، فكان حشو جسمي الكثير من الشحم يوجب أن يكون عندي قوارير للأدوية تلازمني . قال : وكانت مقدرتي العقلية ونشاطي ثلث ما أحس به اليوم ، مع أني كنت في عنفوان الشباب . ثم أخذ يذكر الطيور وقناعتها وهكذا جميع الحيوانات ، وتعجب كيف نعد أنفسنا أفضل المخلوقات وقد سبقنا الحيوان إلى هذه السعادة . ثم بين أن الغش والسرقة وغيرها من الذنوب مبنية على هذه الشراهة والطمع ، وأخذ يضحك من هذا النوع الإنسان المسرف في لذة الأعراس والأفراح والأعياد ، ولا يخجل الناس من هذه الفضائح لشحن بطونهم . قال : وهذا إثم كثير انقلب مفخرة فبدل أن الناس في الأعراس حين يقتلون أنفسهم بالبطنة يلومون أنفسهم ؛ نراهم يفتخرون بهذه المذبحة والمهلكة والموت الزؤام ، فأصبح ما يوجب الخجل والخزي باباً من أبواب الفخر والشرف وكأنه بهذا يعبر عن قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

أقول : الحمد لله قد أصبح علم الطب في العصر الحاضر كتفسير للقرآن . ذلك أن الله علم أن الأمم سيزداد عددهم على الأرض فسيتبحر العمران ويزدحم السكان ويكثر الطاعون والوباء ، فذم في القرآن الإسراف أولاً ، وعمم الأطباء في العالم الإنساني ثانياً ، وزاد الطب رقياً على مقدار ازدياد الأمراض انتشاراً . ثم أفاد أن هذا النوع الإنساني يكره اللصوص والغشاشين ، ولكنه لا يعد البطنة ذنباً مع أنها إثم كبير وأصحابها أهل للمقت والسخط ، وذكر ما يتبع ذلك من الخمر والحشيش والأفيون وأخذ يقبح التبغ وعادة تعاطيه ، كما قدمت الكلام على ذلك كله في سورة « البقرة » عند آية الخمر ، وفي سورة « الأعراف » ، وأخذ يقول : إن الناس لا يعلمون الدسائس المتنوعة التي يستعملها صناع

السجاير، إذ يرشون التبغ بحامض الأفيون وغيره من الحوامض المعطرة لكيلا نقدر على تحرير أنفسنا من قبضته إذا أردنا ذلك. ثم قال: والمدخن يصبح عبداً خاضعاً للتبغ إلى درجة يفقد فيها كل شعور للحياء والخجل، وهؤلاء إذا لم ينالوا التبغ يرتكبون الجنايات للحصول عليه. وحكى حكاية «ليون تولوستوي» الروسي إذ قال: أراد رجل لسبب ما قتل زوجته فاستلّ مديته وهمّ بالجناية، ولكنه أحس حالاً بالندامة فأعرض وأخذ يدخن، فلم يلبث أن غشى على مشاعره تأثير التبغ فقام من فوره وقتل المرأة. قال: فاستدلّ الحكيم بهذه الحكمة على أن الدخان أشد تأثيراً على المخ من الخمر وأكبر خطراً منها. ثم أبان أن التدخين يوجب انحطاطاً كبيراً في قوة الهضم، لأن المدخن لا يشعر بالميل إلى الغذاء، ولذلك يستعمل المربيات والبهارات واللعوقات بكثرة، ونفسه يتعفن ويظهر في بعض الحالات على وجهه البثور والنفاطات وتسود الأسنان واللثة، وقد يقع بعضهم في أمراض خطرة، والدخان «التبغ» يعفن الهواء ويفسده وبهذا تستضر الصحة العامة ضرراً كبيراً. وقال: مثل ذلك في الشاي وأشدّ وهكذا القهوة والكاكاو. وأبان أن هذه المنبهات مضرة.

وأنا أقول: فأنا أحمد الله إذ نقل عن الأطباء واصطفى من أقوالهم ما اصطفيته سابقاً في المقالات التي ذكرتها لك قريباً، وقال: إنها تحتوي على نوع من السم، ثم كرر القول وأكده أن القهوة والشاي والكاكاو كلها رديئة لاحتوائها على مواد كلها مضيعة لقوى الهضم، ومن تعود على شيء منها لم يقدر على تركه إلا بقسر. وذكر أن شاعراً هندياً وصف القهوة بأنها تزيل البلغم والنفاخ، ولكنها تضعف قوة الرجولية وترقق الدم وترقق المني. ثم قال: وقد صدق فيما قال، فالأضرار الثلاثة حق ولكن البلغم والنفاخ يمكن الاستغناء عنها بسائل الزنجبيل فهو أنفع فيها لهذا الغرض. ثم قال: إن إثم القهوة أكبر من نفعها. فإذا كان شيء يفسد المادة المنوية ويسمم الدم أفلا يجب اجتنابه؟ وقال: إن الكاكاو فيه مادة تضعف إحساس الجلد وفيه مضار كالشاي وكالقهوة.

ثم اخترع قهوة تقوم مقام الشاي والكاكاو ولكنها قهوة صحية نافعة، ويجد الذين يشربون القهوة فيه طعماً لا يفرقون بينه وبين طعم القهوة. وذلك أن يوضع قمح جيد منقى في مرجل فوق النار فيقلى حتى يحمر ويضرب إلى السواد ثم يسحق كالبن ثم تأخذ من المسحوق ملعقة وتضعها في فنجال وتصب فوقها ماء فاتراً، وإن وضعتها على النار نحو دقيقة فهو أحسن، وتضع عليه اللبن والسكر إن شئت فهذا شراب لذيذ أرخص وأصح من القهوة. ثم ذكر أن الأغذية إما لحم لأهل المناطق الباردة كالإسكيمو، وإما نبات لأمم كثيرة، وإما مخلوط فيهما لأقوام.

ثم أثبت بالبحث أن الجسم الإنساني أقرب إلى مناسبة الغذاء بالفاكهة. ذلك لأنه ليس كجسم البقر والجاموس مثلاً، فتلك لها أربع معدات كما تراه مرسوماً بالشكل في سورة «النحل». أما الإنسان فله معدة واحدة. إذن ليس طعامه كطعامها فهي تأكل النبات. نعم الإنسان أقرب إليها من الآساد والنمور آكلات اللحوم، ولكن تركيب المعدة مخالف، ولكن الإنسان أقرب إلى الحيوانات آكلات الثمار كالقرد مثلاً فهو يشبهه في شكله وتركيب بنيته. فإذن الإنسان أبعد عن نحو الأسد جداً وعن نحو البقر نوعاً، ولكنه أقرب إلى القرد آكل الثمر كالموز والبرتقال والتمر والعنب والتفاح واللوز والجوز والفول السوداني والجوز الهندي، ونقل عن الأطباء أن الإنسان لا ينبغي له أن يعالج الطعام

بالطبخ فهو يقدر أن يعيش على ما تنضجه الشمس بحرارتها كالحيوان ، وأيضاً إن أكثر المواد الغذائية تضيع بالطبخ . فأما التي لا تؤكل نيئة فإنها لم تخلق لغذائنا . وبعد أن ذكر هذه الآراء قال : إن قراء الكتاب سيسخرون من هذا الرأي ولكن عليّ أن أقول المثل الأعلى لهم وما جربته بنفسي وأنا واثق أنه لا أحد من القراء يعمل به ، ولكن عليّ أن أظهر لهم حقيقة العلم ، ومن أراد ذلك فليسر فيه بالتدريج . هذا كلامه هو ثم قال : إن كثيراً من الناس في إنكلترا اقتصروا على الفواكه ودوّنوا نتائج تجاريبهم . قال : وقد ألف الدكتور الألماني « جست » كتاباً ضخماً في الموضوع أثبت فيه قيمة غذاء الثمار بكثير من الدلائل والشهادات ، وهكذا عالج كثيراً من الأمراض بوصف هذا الغذاء مصحوباً بالمعيشة في الهواء الطلق . قال : وقد توسع حتى قال إن أهالي كل قطر يقدرون أن يستغنوا بثمار بلادهم .

ثم قال المؤلف نفسه : إنه جرب الثمار وحدها ستة أشهر فاقتصر على الموز والفول السوداني والتمر وزيت الزيتون معه بعض الفواكه الحامضة كالليمون . قال : وقد نجحت تماماً . قال : ولقد بقيت صحيحاً وغيري قد مرضوا ، وقواي العقلية والجسمية أقوى الآن بكثير ، وأنا أكثر فيه ثباتاً وعقلاً وحزماً . وهكذا جربت غذاء الثمار في كثير من المرضى . وبالجملة أقول : إن تجربتي الشخصية وقراءتي لكتب الطب زادتني رسوخاً في الاعتقاد بأن غذاء الثمار أحسن غذاء للإنسان . وبعد أن فرغ من هذا قال : إن غذاء النبات أحسن غذاء بعد غذاء الثمار . والمراد بالنبات ما يشمل أنواع الخضراوات والحبوب ويلحق بها اللبن ، ولكن النباتات تغذيتها أقل من الثمار لأنها تفقد جزءاً من قوتها أثناء الطبخ ولا بد منه لأنه يتعذر أكلها نيئة ، وهاهنا ذكر أحسن النبات ، فقال : القمح أحسن أنواع الحبوب ويمكن أن يعيش الإنسان عليه وحده ففيه جميع المواد المغذية . وقد تقدم هذا في سورة « الحجر » موضحاً ، وأقل منه الدخن والذرة . وهاهنا أخذ يذم الدقيق والخبز في السوق ، وأنا أكتفي من هذا بما تقدم في سورة « الحجر » فإنه هناك واضح كل الإيضاح . وهنا استحسن في القمح أن يجرش ثم يطبخ ويخلط معه اللبن والسكر فيكون طعاماً لذيذاً .

أقول : وأنا أخالف في أمر السكر لأنه مضر بالصحة وأخالفه في اللبن لأني سأنقل عنه أن تركه أفضل من تعاطيه ، ثم ذم غذاء الأرز وقد تقدم هذا في سورة « الحجر » .

ومن العجيب أنه أخذ يذم البقول ويقول : إنها وإن كانت تساعد في تنظيف الدم فهي عسرة الهضم جداً ، فيجب الاعتدال فيها . وذم العدس واستشهد بكلام الدكتور الإنجليزي « بق » والقاف تنطق أشبه بالكاف ، إذ قال : إن العدس يجلب الشيخوخة قبل أوانها . وقال : فالأحسن لمن لا يقدر على ترك البقول والعدس أن يقتصر منهما على القليل . ثم أخذ يذم البهارات مرة أخرى والتوابل ، وذكر أن السودانيين حقروها ومتى أكلوها أفسدت معداتهم وظهرت بثور على وجوههم ، ثم كرر القول : إن البهارات والتوابل لا يقصد الناس منها إلا أنها تهضم طعامهم لكنها لا تحدث لهم إلا جوعاً كاذباً وينتهي لهم ذلك بفقر الدم وبالإسهال . قال : وقد مات رجل إنجليزي بسبب أكل الفلفل الأحمر ، ثم زاد على ذلك أن الملح أيضاً ملحق بالبهارات ومن ترك الملح نظف دمه حتى لا يؤثر فيه لدغ الثعبان ، والمصاب بالبواسير وضيق النفس يشفى إذا ترك الملح . قال : ولما تركت الملح استفدت فوائد منها عدم كثرة شرب الماء . ومن يترك الملح لا بد أن يترك معه النبات والعدس ، إن الخضراوات

والعدس لا يمكن هضمها بدون الملح . قال : والذي يترك الملح بتاتاً يشعر في أول الأمر بفتور واسترخاء ولكنه إذا ثبت على ذلك استفاد فائدة تامة . ثم أخذ يذم اللبن ولما ذمه كرر القول : إنه واثق أن قراءه لا يوافقونه ولكن عليه أن يقول الحقيقة والمثل الأعلى ، ذلك لأن العجل يرضع لبن أنه فإذا كبر استغنى بالحشائش . ومعنى هذا أن الكبير منا لا يصلح له اللبن كما فعل الثور تماماً ، لأن هذا هو درس الطبيعة المشاهدة ، واستدل بقول الأطباء : إن اللبن يورث نوعاً من الحمى ، وإن هناك في الجو جراثيم تسقط على اللبن فتسممه ، وفوق ذلك ما يعلمه الناس أن المرأة المريضة لبنها يمرض ولدها هكذا البقرة المريضة يفعل معها كذلك .

أين لنا البهيمة السليمة والأطباء يعطون الدواء للأم ليصح رضيعها . فإذا كان هذا شأن اللبن فلنستعض بدله بزيت الزيتون . واللوز الحلو بدل قوي جيد للبن ، فيوضع في الماء الساخن ويزال قشره ثم يسحق جيداً ويمرس ويمزج مزجاً فهو يهيئ شراباً محتوياً على جميع مزايا اللبن وسالماً من جميع مضاره . ثم قال : إذا كان العجل عند ظهور أسنانه يكتفي بالحشائش ويترك اللبن فهذا معناه أننا نحن إذا جاوزنا سني الطفولة نعيش على الموز والتفاح واللوز وهكذا سائر الثمار أو على خبز القمح . قال : وبترك اللبن نجني فوائد اقتصادية . قال : وعرق الليمون الحامض بدل جيد للبن الحامض وأما السمن فألوف مؤلفة من اليهود يستعملون بدله الزيت ، ثم عقد فصلاً للحم فقال : قد ثبت بالفحص أنه ليس غذاء طبيعياً للإنسان ، والدكتور « بق » المتقدم ذكره والدكتور « كنجز فورد » أظهر بكل وضاحة مضاره في أجسامنا ، وأثبتا أن الحمض الذي يولد العدس يولده اللحم ، واللحم يولد الأمراض في الأسنان والروماتيزم في الجسم ويحرك الأميال الرديئة كالغضب . وما الغضب وسائر الشرور إلا صور من صور الأمراض . قال : وقد أخذ بعض آكلي اللحوم يهجرونها ويرجعون إلى الغذاء النباتي .

ثم أبان أن المقتصرين على اللحم حالتهم رديئة ، ثم أتى بهذه النتيجة أن الذين يعيشون على الثمار قليل ويسهل أن يعيش الإنسان على الثمار مع القمح وزيت الزيتون . فهذا غذاء يساعد مساعدة كبيرة في تقوية الصحة ، ثم رتب الفواكه هكذا : الموز وبعده التمر والعنب والبرقوق والبرتقال وأمثالها . قال : ويمكن تناولها مع الخبز . ثم قال : إن الخبز لا يفسد طعمه إذا بل بزيت الزيتون . قال : وهذا الغذاء لا يحتاج فيه إلى الملح والفلفل واللبن والسكر ، وتحضيره سهل ورخيص ، ثم قال : إن أكل السكر وحده حماقة والإكثار من الحلويات يضعف الأسنان ويضر بالصحة والمأكولات المصنوعة من البر والثمار جامعة بين الصحة واللذة .

مقدار الغذاء

ذكر أن الأطباء يسلمون بأن تسعين في المائة من الناس يأكلون أكثر من حاجتهم ، وهنا أطال في أمر مضغ الطعام وجعل له المقام الأول ، ونقل عن الأطباء أن مضغ الطعام جيداً يفيد مواد غذائية كثيرة من طعام قليل ، حتى بالغ كاتب خبير فقال : لو مضغنا الطعام جيداً لم نحتج إلا إلى أوقيتين أو أربع أوقيات من الغذاء . قال الدكتور هذا القول بعد أن جرب تجارب لا تحصى ، وقد بيعت نسخ كتابه ألوفاً مؤلفة . وبراز الذي يأكل طعاماً نافعاً غير كثير يكون قليل المقدار متماسكاً بعضه ببعض ولينا ذا لون قاتم وخالياً من كل رائحة خبيثة .

ومن يرى أن برازه ليس كذلك فليعلم أنه يأكل طعاماً كثيراً غير نافع ولا يمضغ جيداً، وهكذا من يشكو الأرق أو ينام نوماً متقطعاً مقلقاً بالأحلام أو يجد صباحاً على لسانه اللعاب متجمداً فهو مكثر من الأكل، والعفونة في نفس الأسنان تدل على أن طعامه لم ينهضم تماماً، وظهور البثور في الوجه وفي داخل الأنف وتولد الريح في البطن كل ذلك من كثرة الأكل.

وبالاختصار يقول: إن أصل المصائب أننا جعلنا بطوننا مزابل. وهنا أخذ يحسن فرض الصيام وأوجب أن يصوم الإنسان كل أسبوعين يوماً على الأقل لأجل الصحة. قال: وقد تأسست في إنكلترا وأمريكا جمعيات تحضّ على الاقتصار على الأكل مرتين في اليوم فلا يفطرون صباحاً ولا يأكلون إلا بعد ثلاث ساعات من استيقاظهم، وهناك دكتور اسمه «ديوي» ألف كتاباً جليلاً في الصوم وأثبت فوائد ترك الفطور. قال: وأنا جربت في مدة ثمان سنين أني قد اكتفيت بمرتين في اليوم وهذا خير لمن جاوز سني الشباب.

الرياضة

قال: إنها ضرورية في الهواء الطلق كضرورة الماء والهواء والغذاء. ومن لا يواظب عليها لا يكون صحيحاً، وأفضل الرياضة العمل في البساتين والحقول ساعات في النهار، فهذه رياضة جسمية وعقلية معاً، ويليها رياضة المشي، وهي إن كانت أقل من العمل في الحقول والرياض قد سميت «ملكة الرياضات»، وأنا أقول: إنني أثناء تأليف هذا التفسير كنت لا أكتب مطلقاً إلا بعد المشي على قدمي نحو ستة كيلومترات كل يوم، وأنا أعتقد أن هذا قليل ولكنه نفعني والحمد لله، وأنا الآن أواظب على الرياضة غالباً. ولكن ممارسة الكتب العلمية تزيد الإنسان رغبة في العمل. ثم ذكر المؤلف ما كتبه الكاتب الأمريكي الكبير «تورو» الذي أطنب في فوائد الرياضة، ثم قال ما نصه: إن كتابة أولئك الذين يعيشون في البيوت ولا يخرجون منها أبداً في الهواء الطلق تكون ضعيفة كأجسامهم، وإن أحسن مؤلفاتي كلها هي التي ألفتها في الزمن الذي كنت أمشي فيه كثيراً. وقد كان يمشي أربع أو خمس ساعات كل يوم، ثم قال: إن المشي ميلاً أو ميلين ليس بمشي لأن مشي عشرة أو اثني عشر ميلاً ضروري للرياضة، فإن لم يكن كل يوم فليكن يوماً في الأسبوع. ثم ذم لاعبي كرة القدم والصولجان فقال: إنهم لا يملكون قوى عقلية تامة.

اللباس

أما اللباس فقد حدثتك عنه في سورة «الأعراف» وكذلك الماء هناك موضحاً وسأزيدهما هنا إيضاحاً من كلامه وأزيد عليهما الماء فأقول:

يقول: إن الإنسان خلق في الأصل عارياً مكشوف الجسد فكان متيناً قوياً يتحمل حمارّة القيظ وصبارّة الشتاء ووابل المطر، ونحن لا نتنفس بفمنا فحسب بل بجلدنا كذلك فتغطية الجلد تمنعه عن أداء وظيفته، فلما شاعت عادة اللبس أخذ أهل البلاد الباردة يغطون أجسادهم لأنهم لا يتحملون البرد، ثم صار اللباس للزينة ثم صار عنواناً على الوطن والجنس ونحوهما. والحق أن جلدنا خلق كسوة لنا، وتوهم الناس أن جسمنا العاري غير جميل توهم باطل، ثم قال: إن الجسم العاري أجمل من اللابس وأخذ يذم الحلي، فقال: إن منها ما يكون سبباً في تراكم الأوساخ كزينتي الأنف والأذن.

وذم الملابس الإفرنجية في غير البلاد الباردة فيجب أن يكون واسعاً في غيرها، وقال: إن اللباس الأسود يكون أحر من الشمس بخلاف الأبيض، لأول الأول يشرب الحرارة ويجمعها والثاني ينبذها ولا يقبلها. وسمى الرجلين سماسرة الأمراض لأنها تتوسخ وتعرق وتتعفن تعفناً شديداً فيجب تغطية باطن الأقدام دون ظواهرها واختار هو لذلك القبقاب، وذلك كما فعل قدماء المصريين من لبس نعال أهل الحجاز ولم يقتصر على ذلك حتى أمر الناس أن يمشوا حفاة.

الزواج

ولقد منع الإسراف في هذه الشهوة وبالغ حتى حرم أكثر تمتع الناس بها، لأن حفظها يقوي عقولنا ويحفظها إذا كبرنا فننفع الناس بعقولنا، ولا نموت إلا وقد أدينا ما علينا للناس. إذن يكون موتنا سعادة لأننا أرضينا ربنا بمنفعة عباده، ولا نقدر على ذلك إلا إذا صحت عقولنا وأجسامنا، وهما لا صحة لهما إلا بحفظ هذه الشهوة وعدم خطورها بالبال. وإذا كان لا بد منها فليكن ذلك لطلب النسل لا غير. أقول: وذلك كما يفعل الحيوان سواء بسواء. ثم إنه بعد ذلك يقول: إن هذا القول لن يقبله أحد من الناس، ولكن أنا ألفت الكتاب لإشراف نوع الإنسان النافعين للأمم أولئك هم المتقون ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣]. ويقول: من غلبته الشهوة من هذه الطائفة فليستحم بالماء البارد. وقال: إني وقعت في الإسراف في هذه الشهوة عشرين سنة وهاأنا ذا الآن أحمد الله إذ أحافظ عليها وأحفظ عقلي وجسمي مدة الحياة. هذا ما قاله في الغذاء والغذاء لا بد له من الرياضة ويتبعهما أمر الشهوة ثم مجمل ما ذكره في اللباس.

وقد وعدت أن أذكر الغذاء لأجل ذكر الجوع في الآية، ثم اللباس، وأتبع ذلك بالماء مراعاة لنظام الآية هنا، إذ يقول تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا ﴾ [طه: ١١٨-١١٩] الخ، فلأختم القول بالماء وأتبعه بالهواء.

الماء

أما الماء فقد وضح في سورة «الأعراف» أي وضوح كما ذكرته هنا، فلنذكر شذرة مما قاله هنا يقول: إن الماء يفسد بسببين: سبب المكان الذي هو فيه، وسبب أنفسنا. فالماء الذي في مكان قذر نحذر منه عادة، ولكن ماء الأنهار والمجاري النظيفة نلقي فيها القاذورات نحن ثم نشرب منها، فليحذر الناس من شرب الماء من الأنهار التي فيها القذر، فلتخصص الجهة العليا من النهر للشرب والسفلى للاغتسال وغسل الأشياء مثل الملابس والأواني، وهناك بلاد تعودوا أن يحفروا بجانب النهر حفرة في الرمل ويأخذوا منها الماء لشربهم، وهذا الماء يكون نظيفاً جداً لأنه مصفى بالرمال، ومنع شرب ماء الآبار إن لم تكن مبنية بناء محكماً حتى لا يقطر الماء الوسخ فيه وسقوط الطيور والهوام وتعفنها فيه واتخاذ الطيور أوكارها فيه. كل ذلك يفسد الماء وكثيراً ما يتسرب إليها الماء الوسخ من باطن الأرض فليحترس من شرب ماء الآبار.

وهكذا من خزن المياه في الحوض المكشوف فليغط ولينظف حيناً بعد حين. ثم قال: وقليل من الناس من يراعون الأحواض والآبار، فلا يصح الاغتسال في النهر ولا غسل الملابس في موارده العامة للشرب خاصة أو قضاء الحاجة والبول على شواطئ الأنهار، فالماء الصافي نادر. لذلك هيأ الأطباء الماء

المقطر لمرضاهم. فمن شكا الإمساك يشفى غالباً بشرب الماء المقطر. وفي كتاب حديث في هذا الشأن مبالغة عظيمة في الماء المقطر أن استعماله بطرق خاصة يمنع جميع الأمراض وهذه مبالغة ولكن تدل على فائدته.

الهواء

ثم ذكر أن الإنسان لا يعيش بدون الهواء خمس دقائق. نحن نعرف الماء القذر فنتجنبه ولكننا نتنفس في الهواء الفاسد وكأننا نتعاطى القيء ولا نحس به. فإذا تنفس الناس في حجرة فقد أصبح هواؤها كالقيء ولكننا لا نعرف ذلك. وأخذ يتعجب ممن ينامون أو يجلسون طويلاً في حجرة مغلقة.

ثم قال: إن الهواء الفاسد قد قضى على صحة ٩٩ في المائة من الناس، فالسل وحمى الدق وسائر الأمراض العفنة سببها الهواء. وقال: إن المراحيض إذا لم تبن على طريق صحي أفسدت الهواء. والسنانير تدفن البراز في التراب وكذلك الكلاب. يجب أن ننظف المراحيض بأيدينا ولا نخجل ونمنع البصق في الطرق لأنه يعدي الناس إذا كان صاحبه مريضاً ونمنع التنفس بالفم وهكذا. وأفاد أن ينام الإنسان ليلاً تحت ضوء القمر في ساحة طلقة الهواء ويكون في النهار في مكان طلق بقدر الإمكان. وإذا نام الإنسان في حجرة فليترك بابها مفتوحاً واستنشاق الهواء البارد لا يحدث الزكام. نعم يحدث عند الذين أفسدوا رئاتهم بالنوم في الحجرات المقفلة وغيروا عاداتهم فجأة، ولكن لا ينبغي لهم أن يخافوا من البرد لأنه إن أصابهم لا يلبث أن يزول قريباً، وكشف الوجه في أثناء النوم ضروري وإلا تنفس الإنسان في الهواء الذي قذفه وهكذا يقول في النور لا بد منه. قال: وقد شفي كثير من المرضى على يد علماء أوروبا بالاستحمام الهوائي والاستحمام الشمسي بدلاً من الأدوية. وقد شفي ألوف من المرضى بتعرضهم للهواء وللشمس ولم يستعملوا أي دواء. فعلينا إذن أن نترك جميع أبواب بيوتنا ونوافذها مفتوحة ليدخل فيها النور والهواء بكثرة. هذا ما أردت أن أذكره من قسم المحافظة على الصحة من ذلك الكتاب، ولقد لخصه لك تلخيصاً لا يضيع عليك وقتك مع الإيضاح وأرجأت كيفية المداواة لجميع الأمراض غالباً بدون شرب دواء إلى سورة « الشعراء » كما ذكرت سابقاً.

وهنا اعتراض، فربّ قائل يقول لي: إنك في هذا التفسير قد أتيت بالمتناقضات لأنك في سورة « الأعراف » قد جمعت بين أنواع اللحم وأنواع الخضراوات وجعلتها مرتبة في طرق استعمالها وهضمها، وهنا نقلت أن اللحم والخضراوات لا لزوم لها. وفي سورة « البقرة » أيضاً منعت اللحم. فإذن أنت إنّما تنقل الكلام على عواهنه والقارئ لا يعرف لك رأياً وهذا أمر لا يقبله العقلاء. أقول: هذا حصل فعلاً ولكن الأطباء عند المرض وظيفتهم كوظيفة الوعاظ والمصلحين للعقول، فالطبيب عادة يجد الناس يأكلون كل شيء فعليه هو تنظيم ما يأكلون. وهكذا المصلحون ينظمون أحوال الناس وعاداتهم، وليس في استطاعة هؤلاء ولا هؤلاء أن يغيروا العادات تغييراً تاماً. فما ذكرته في سورة « الأعراف » هو الطب المعتاد بين الأمم. وما ذكرته هنا لطبقة تترفع به عن طبقات الناس وتحظى بسعادة وصحة غير ما عرفه الناس من السعادات، ثم إن ما ذكرته أنا في سورة « الأعراف » مناسب لها لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾[الأعراف: ٣١]، فوجب تنظيم الأكل هناك. أما هنا فالله يقول قولاً آخر، يقصّ علينا قصة أبينا آدم ومن هذه القصة نرجع إلى تاريخ حياتنا نحن.

نحن كنا نعيش في الغابات ونـأكل مـن الثمرات فـهذه جنتنـا الصحيـة كجنـة آدم نبيـا . ثـم إننـا قلنا : لا بد من لذات وزينة ، فانتقلنا إلى ما نحن فيـه الآن فعاقبنـا الله بـالخروج عـن سـنن الطبيعـة . فـإذا كان آدم نسي عهد الله وأكل من الشجرة ؛ فنحن خرجنا عن سنن الطبيعة فأكلنا فوق طاقتنا ، ولم نفعل فعل الحيوان في أمر الشهوة البهيمية فلم نجعلها مثله لأجل الذرية . لهذا عوقب الناس بالمرض من سائر وجوهه كما عوقب آدم بالخروج من الجنة . وإذا قال الله في آدم إنه لما أكل هو وحواء مـن الشـجرة أخـذا يخصفان عليهما من ورق الجنة ؛ هكذا لما خرجنا عن سنن الطبيعة أخذنا نجدّ في طلـب اللـذات والزينة في القوت واللباس . وإذا قال الله لهما : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾[الأعراف : ٢٢] الخ ؛ فـهاهو ذا النداء في كل وقت نسمعه بلسان الدين والطب يقرع أسماعنا كل يوم : اتركوا الشهوات لتصحوا .

هذا قول الدين وقول الطب والعلـم معاً لتصح العقـول والأجسـام . وإذا أجاب أبوانـا ربـهما بأنهما ظلما أنفسهما ؛ فهانحن أولاء نكتب جميعاً في الشـرق والغـرب ونعـترف علـى رؤوس الأشـهاد بأننا معاشر بني آدم تنزلنا عن الحيوان في أكلنا وشربنا وهوائنـا وشـهواتنا التناسـلية ، فكـل كـاتب يقـول ذلك عن نفسه وعن نوع الإنسان ، فهذا الإقرار يقرر كل يوم كإقرار أبوينا . وإذا أجابهما الله بـأن يـهبطا بعضهم لبعض عدو ؛ فهاهو ذا نوع الإنسان بعضه لبعض عدو . وإذا قال الله لهما : إن من اتبع هداي لا يضل ، ومن أعـرض عـن ذكري يكـون في معيشـة ضنكـى ؛ فـهاهو ذا تذكـير الله لنـا بـالكتب السـماوية والكتب العلمية كل يوم فمن اتبع فاز ومن ضل هلك في صحته إن خالف المثل الأعلى وفي عقله أيضـاً بترك الصحة أو بترك التقوى . ثم إن هذه الآراء التي تكتب هنا وأمثالها تذكر قواد الأمم بـالرجوع إلى حال الصحة التامة ليكونوا قادة للنوع الإنساني ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ : ١٣] .

اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً إذ وفقتني لكتابة هذا ، وتفسير الآية بـه . كتبت هـذا يـوم الاثنين ١٨ يونيو سنة ١٩٢٨ .

زيارتي لمتحف فؤاد الصحي بمصر

أقول : لما اطلع على ما كتبت أحد الفضلاء قال : إن في هذا القول لمبالغة وشدة وتضييقـاً وليـس لهذا إلا أن يكون من المذكرات للعقلاء ، بل إن المؤلف نفسه قد قال ذلك . فهل لـك أن تسـير معـي إلى جهة عابدين لأريك ما حدث بالقاهرة على كثب منك أنت . هذا كلام « غاندي » ولكن بعـض القـراء يقولون : إن « غاندي » رجل أشبه برجال التصوف والزهاد . وهذه الطائفة مشددون فإذا أردفت كـلام هذا العالم بما شيد في مصر بعـابدين وهـو المتحـف المذكـور ثـم تثبـت مـا تـراه هنـاك ومـا أعـدّ لمشـاهدة الجمهور كان ذلك أحسن وقعاً وأدق صنعاً وأقرب إلى العقول فهماً لأنهم يعلمون أن هذا المتحـف قـد أنشئ في مصر على منـوال مـا صنعـه أهـل أوروبـا الذيـن روى الفسـاق مـن أبنـاء الشـرق عـن فسـاقهم أحاديث الخلاعة والشهوات القاتلات مسلسـلة مصححـة فاتبعوهـا بأمانـة وإخـلاص ، فعسـى بـهم إذا سمعوا أحاديث الطب المروية عنهم يتبعون أحسنها ويهديهم الله ويجعلهم من أولي الألباب .

فقلت : إن ما ذكرته عن « غاندي » منقول عن أوروبا ، فقال : ولكنه مقرون بعفته هو فيظن فيـه التشديد والمبالغة ، فتوجهت معه إلى متحف فؤاد الصحي فأول ما فاجـأني فيـه بـهو متسـع وفيـه تمـاثيل وصور شتى تمثل أنواع الأعضاء الجسمية .

(أ) ـ فهناك صورة تمثل المصارع وقوته تحريضاً على الرياضة البدنية .

(ب) ـ وهيئة آلة كالمسواك موضوعة على الأسنان تري الداخل أن الأسنان يكون التنظيف فيها طولاً وعرضاً .

(ج) ـ وصورة الرأس متصلة بالرقبة وبيان عملي أن لها حركتين : حركة تنثني بها إلى الأمام والخلف ، وحركة جانبية .

(د) ـ صورة فقرة من فقرات العنق مكبرة وفيها النخاع الشوكي والأعصاب واضحة فيها .

(هـ) ـ صورة تبين قوة عظام الفك .

(و) ـ وبيان أن وزن جسم الإنسان إذا كان ٧٠ كيلو جراماً فإن الماء فيها يكون ٤٥ منها ، والمواد الصلبة ٢٥ ، وهذه منها موادّ زلالية ٤ ، ومواد دهنية ٧ ، وأملاح غير عضوية ٣,٥، ومواد نشوية٠,٧ك ج .

(ز) ـ وصورة العمود الفقري الخ .

وبالجملة يرى في هذا البهو العظام والألياف العضلية مفصلات ، وهناك في ذلك الدور الأرضي يتفرع من هذا البهو ثلاث حجرات :

الحجرة الأولى : فيها : (١) جهاز الدورة الدموية . (٢) وجهاز الأوعية اللمفاوية . (٣) وجهاز التنفس . (٤) والغدد ذوات الإفراز الداخلي . وقد كتب فيها هذه النصائح : (أ) ابتعد عن الخمور والتدخين . (ب) وحاذر من عدوى الزهري تسلم من كثير من أمراض القلب والأوعية الدموية .

الحجرة الثانية : فيها : (١) الجهاز العصبي . (٢) صورة الإنسان قبل التاريخ وهيكله العظمي نفسه . (٣) نفس الأدوات التي استعملها الإنسان قبل التاريخ . (٤) الجلد الإنساني .

وفيها ألواح مكتوب في أحدها ما يأتي : (أ) النظافة من الإيمان . (ب) الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى . (ج) لو تسنى لك رؤية ما يتراكم تحت أظافرك من القاذورات بالمجهر « الميكرسكوب » لبذلت عناية كبرى في قصها ونظافتها .

وقد كتب في لوحة ثانية ما نصه : (أ) العقل السليم في الجسم الصحيح . (ب) بعض أنواع الجنون وراثية فيجب العناية بانتقاء الأزواج . (ج) المخدرات كالكوكايين والمورفين والخمر من أهم أسباب الجنون . (د) « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » ، وكتب تحته هكذا : « حديث شريف » .

(هـ) حجم مخ الإنسان منسوباً إلى وزن جسمه يفوق مخ أي حيوان آخر . (و) الأمراض الطفيلية المزمنة في الأطفال تؤخر نمو عقولهم .

الحجرة الثالثة : في الدور الأرضي المفرعة من هذا البهو فيها : (١) الجهاز الهضمي . (٢) المأكولات ومصدرها وطرق استعمالها . (٣) الجهاز البولي . (٤) الأمراض التي تنشأ عن نقص في بعض مواد الغذاء . (٥) الأذن .

وفيها لوحة كتب عليها ما يأتي : المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء .

ولوحة أخرى كتب عليها ما يأتي : (أ) « الجاهل يعيش ليأكل ، والعاقل يأكل ليعيش » . (ب) اشرب كثيراً من الماء القراح فإنه ينقي الدم ويساعد على إفراز البول . (ج) لا تركن إلا الأدوية الملينة لمعالجة الإمساك إلا بإرشاد الطبيب . (د) التدخين يسبب مرض القلب والأوعية وفقد الشهوة وضعف الإبصار ،

ولوحة ثالثة كتب عليها ما يأتي: (أ) «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع» وكتب تحتها حديث شريف. (ب) رب أكلة حرمت أكلات. (ج) سوء التغذية يودي بحياة آلاف من الأطفال. (د) لبن الأم هو الغذاء الطبيعي للطفل حتى الشهر التاسع. (هـ) لا تدخل الطعام على الطعام.

وبعد أن اطلعت على الدور الأرضي صعدت إلى السلم المؤدي إلى الدور الذي فوقه فرأيت أمراً عجباً. رأيت صور وجوه مزعجة وأعضاء محزنة مشوهة تشويهاً فظيعاً لأقوام أصيبوا بالزهري وزهقت أرواحهم ضحيته، وقد كتب تحت هذه الصور المشوهة ألواح فيها نصائح مثل قولهم: (١) إن التعود على العادات الصحية في الصغر أمر مهم. أما قراءة علم الصحة بلا تعوّد فلا فائدة منه. (٢) ومثل: إني لا أبصق على الأرض. (٣) إني أمضغ طعامي جيداً. (٤) إني أغرف لنفسي الطعام بملعقة خاصة ولا أستعمل لذلك ملعقتي الخاصة بي. (٥) إني أذهب إلى المرحاض في ساعة معينة كل يوم. (٦) إني لا أعود المرضى إلا إذا كنت مضطراً لتمريضهم لأن كثيراً من الأمراض سهلة الانتقال. (٧) أنا أنام عشر ساعات كل ليلة ونوافذ غرفتي مفتوحة. (٨) إني أغسل يدي بالماء والصابون وأنظف أظافري قبل أن ألمس الطعام. (٩) إني أنظف أسناني مرتين كل يوم على الأقل مرة في الصباح ومرة في المساء. (١٠) إن أستحم استحماماً كاملاً مرة على الأقل كل أسبوع. (١١) إني أضع منديلي أمام أنفي إذا سعلت أو عطست.

وقد كتب أيضاً أن هذه اللوحات مستحضرة من بلاد الصين. ثم إن هذه النصائح المجملة قد فصلت في ألواح أخرى وشرحت.

ففي لوحة كتب ما يأتي: الأطعمة المعروضة في الأسواق بلا وقاية من الأتربة والذباب خطر تناولها. كذلك الطبيخ الذي يمسكه البائع بيده القذرة. الخ.

وفي لوحة أخرى كتب ما يأتي: لا تأكل الخضراوات إلا بعد طبخها أو غسلها جيداً مثل الفجل والكراث والخس، لأنها قد تكون مصابة من ماء البرك بالمكروب.

هذا ما قرأته وأنا صاعد في السلم على اللوحات المعلقة على الحائط، فلما دخلت الدور العلوي وجدت فيه ثلاث حجرات أيضاً.

فأما الحجرة الأولى ففيها الأعضاء المشوهة من مرض الزهري بهيئة تقشعر منها الأبدان بحيث لو اطلع عليها شاب لا يسمح لنفسه بالزنا مرة واحدة في حياته، فكأن الأعضاء المشوهة بالسلم مقدمات لهذه الحجرة. وهذه الحجرة قد كتب على بابها في لوحة ما نصه:

الأمراض السرية: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٣٢] والحق أن ما يشاهده الإنسان في هذه الحجرة لا يدع سبيلاً للشك في إهلاك الزنا للنفوس البشرية. وجوه كالحة وأنوف مائلة ورقاب ذابلة وقروح دامية وشفاه سائلة وآذان حائلة وعيون جاحظة وسوءات مفتتة وعورات مخرقة وفروج منقطة أو مقطعة وهيئات جهنمية وعظام ألوانها بنية ـ بتشديد النون والياء ـ في أجسام بلية، منظر مهول ومظهر كالغول ووصف أعجز القول فليس لي بوصفه حول ولا طول.

لذلك أنتقل من هذا إلى باب بقية الحجرات في هذا الدور العلوي فأقول: هناك على باب بقية الحجرات لوحة قد كتب عليها: إن الذي في البهو هي: الأمومة الطفل. الإسعافات الأولية.

عرفة نمرة (١) الأمراض المعدية. الأمراض الطفيلية.

غرفة نمرة (٢) أمراض العيون، الأدوات الصحية، السرطان، الحياة التناسلية.

إذن دخلت البهو، وهناك فيه رسمت الزهرة ولها أعضاء تذكير عددها خمسة صفراء اللون محيطة بخمسة أخرى داخلها وهي أعضاء تأنيث خضراء وكلها مجسمة واضحة. وهناك شاهدت أطوار النطفة من أول يوم إلى تمام كمال الجنين في الشهر الأول وليس واضحاً. أما في الشهر الثاني والثالث فإنه يرى مخلقاً بعض الخلق. أما في الشهر الرابع فإنه يرى تام الخلقة دائماً على ظهره، ولكنه في الثاني والثالث يرى نائماً على جنبه الأيسر، وفي الشهر الخامس يكون أكبر وهو نائم على جنبه الأيمن. وفي السابع يكون نائماً على ظهره وهكذا إلى الثامن. أما في التاسع فإنه يكون نائماً على جنبه الأيسر كالشهر الثالث. وفي الأيام الأولى يرى تكوينه مبتدئاً بجعل النطفة قسمين ثم أقساماً ثم يظهر شكل العلقة ثم يكون له ما يشبه الذيل، ثم يرى أن هذا الذيل قد زال وأصبح أشبه بحيوان لا ذيل له.

فلأدخل إذن الحجرة الأولى نمرة (١) هناك ثلاثة أنواع من الألواح: ألواح كتب عليها نصائح للرجال، وألواح كتب عليها نصائح للشبان، وألواح كتب عليها نصائح للبنات.

نصائح الرجال

ألواح نصائح الرجال كثيرة فمنها جندي مدجج بالسلاح مكتوب تحته: إذا أردت أن تكون جندياً شجاعاً فيجب أن تكون مخلصاً مطيعاً سليم البنية. وقد أمر أن ينظر في اللوحات التي بعده مثل: بيان كيف يمكن كبح جماح الشهوة البهيمية، وذلك بعدم قراءة النوادر ورؤية الصور المبتذلة وكل ما يوقظ الشهوة، وينصح أيضاً بالابتعاد عن النساء المبتذلات وعن شرب المشروبات الروحية، ويؤمر بضبط النفس وبالاهتمام بالأعمال الخاصة وبالألعاب الرياضية ونحوها. ثم هناك بيان كيفية إصابة الزهري، وبيان ما يطلب من الرجل ومن المرأة من العفة والشرف وشرح المرض التناسلي وضرره.

فكأن هذا شرح لما في الحجرة الأولى التي يدخلها الإنسان قبل دخول البهو المملوءة صوراً محزنة. فهذا شرح لها، وهناك لوحة كتب عليها ما نصه:

هل الجماع ضروري؟ ليس الجماع ضرورياً لحفظ الصحة، لأن الطبيعة ـ يريد رب الطبيعة ـ تتصرف في السوائل التي تفرزها الغدد التناسلية أثناء النوم. لا تصدّق من يقول لك: إن الاستحلام مضرّ ويجب معالجته بالجماع. فهذا ليس حقيقياً، فإن المدربين الرياضيين يمنعون المصارعين من الجماع قبل المسابقة لأنهم يريدون أن يكونوا في أحسن صحة ممكنة، القبطان سكوت وجماعته في ارتيادهم القطب الجنوبي وجماعات كثيرة غيرهم أمضوا وقتاً طويلاً حيث لا توجد امرأة ولا ينكر أحد أنهم كانوا رجالاً أشداء. هذا ما أردت ذكره من لوحات نصائح الرجال.

لوحات نصائح الشبان

كتب فيها ما يأتي: المحافظة على الصحة. نصائح للرجال والأولاد نشرتها مصلحة الصحة بالولايات المتحدة باتحاد الجمعية الأمريكية للصحة الاجتماعية. وهذه صورتها: (١) هل أنت صحيح؟ (٢) هل يمكنك أن تمشي عشرين ميلاً في اليوم؟ (٣) هل يمكنك أن تشتغل في الحقل ثمان ساعات في اليوم؟ (٤) هل يمكنك أن تجري ١٠٠ ياردة في ١٢ ثانية؟.

مستلزمات الصحة : (١) القوة العضلية . (٢) الإجهاد . (٣) النشاط . (٤) قوة الإرادة . (٥) الشجاعة . (٦) ضبط النفس .

ما هي حدود مدّة التمرين البدني

وهنا أمر بالمحافظة على قوانين الرياضة البدنية ، فقال : حافظ على صحتك لتقوم بالألعاب الرياضية ، أو لتعلم العلم ، أو الأشغال التجاري ، أو لأي عمل في ميدان الحياة ، باتباع القوانين الآتية : (١) تريض والعب بلا إفراط . (٢) تناول الأطعمة الصالحة . (٣) استنشق الهواء الطلق كلما أمكن ذلك . (٤) نم وقتاً كافياً . (٥) اعتن بنظافة جسمك وثيابك .

ثم بعدها لوحة كتب عليها ما يأتي : تشرب بالروح الرياضية : (١) السباحة . (٢) كرة القدم . (٣) كرة المضرب . (٤) ركوب الخيل . (٥) المشي في الهواء الطلق والصحاري . كل هذه أنواع الرياضة الشيقة .

وفي لوحة أخرى أيضاً ما يأتي : ريض بدنك بعمل نافع . الاشتغال في الحديقة والتجارة . أنواع الرياضة المنزلية النافعة . تريض عند اليقظة من النوم . تريض أمام نافذة مفتوحة وأتبع ذلك بحمام ودلك جسمك بنشاط بمنشفة خشنة . قف معتدلاً واجلس وامش معتدلاً . الوضع الطبيعي للجسم يلفت النظر لجماله ويدعو إلى الاحترام والثقة بالنفس ويساعد على الهضم . أحن رقبتك إلى الخلف حتى تمس طوق الرقبة . أكثر من الاستحمام . كيفية الاستحمام : الماء الدافئ والصابون لمدة ثلاث دقائق ، ويعقب ذلك شعور بارتياح وحرارة في الجسم ونشاط إن كان إنسان صحيح البدن . الاستحمام يومياً والإكثار من غسل الوجه بالماء والصابون والتجفيف بمنشفة نظيفة يساعد على منع الدمامل ولكن لا يشفيها فإذا أصبت بالدمل فاستشر طبيباً . انتهى ما أردته من نصائح هذه الدار .

ظهور آثار ما تقدم من علم الطب في الأمم ، وبيان بعض السر في قوله تعالى :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[طه : ١٢١]

اللهم إنك خلقتنا في هذه الأرض وأودعت أرواحنا في هذه الأجسام الأرضية وحكمت عليها أن تتبع في صحتها ومرضها وذكائها وبلادتها طبيعة الأغذية والأهوية التي تتناولها وتستنشقها .

خلقت يا الله في الإنسان شهوة وجعلت له عقلاً ومكنته في الأرض فجعلته خليفة ، وقلت له : ﴿ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾[الزمر : ١٦] ، فزلت قدم هذا الإنسان بما سولت له الشهوة البهيمية فأخطأ في تقدير الطعام والشراب واللذات ، ونسي أصل المقصود من الحياة واتبع اللذة ، وما هي إلا وسيلة للحياة والصحة فعكف على الوسيلة ونسي الغاية . نسي الغاية لأنه ظلوم جهول ، قال تعالى : ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[التوبة : ٦٧] ، ومن نسيان الله نسيان حكمته في بريته ونظامه في خليقته .

يقول العلامة ابن خلدون في مقدمته ما ملخصه : إن الأقاليم المعتدلة ليست كلها على وتيرة واحدة في الخصب والعمران . فمنها ما يكون لأهلها خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لوفور العمران ، ومنها ما لا تنبت زرعاً ولا عشباً وسكانها في شظف العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن . ومثل المسلمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان ، فإن هؤلاء يفقدون الحبوب والأدم جملة ولا يتغذون إلا من الألبان واللحوم .

وهكذا العرب الجائلون في القفار وهم لا ينالون إلا النزر اليسير من الحبوب والأدم ، وعماد أغذيتهم الألبان القائمة مقام الحنطة . فهؤلاء الفاقدون للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم وأبعد عن الانحراف ، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات . ثم أبان السبب قائلاً : إن كثرة الأغذية ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها عدم انتظام أقطار الجسم في نسبة الخلق وانكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم وتغطي الرطوبات على الأذهان بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة ، فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة . ثم وازن ما بين الناس وبين الحيوان ، وأن الغزال والنعام والمهر والزرافة والحمر الوحشية والبقر إذا وازناها مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعي الخصبة وجدنا البون شاسعاً في شفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب أعضائها وحدّة مداركها . فالغزال أخو العنز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينهما ما عرفت ؛ فالحيوانات الأهلية في أبدانها رطوبات وفضلات رديئة وأخلاق فاسدة ظهرت آثارها على أبدانها وفي إدراكها ، والجوع لحيوان القفر حسن في خلقه وأشكاله . هكذا في الآدميين . فأهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم ، وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة ، فهم أحسن حالاً في عقولهم وجسومهم مثل المصامدة وأهل عمارة والسوس . ووزان هنا ما بين أهل بلاد المغرب المنغمسين في الأدم والبر مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرة . فالآخرون أذكياء العقول خفيفو الأجسام يقبلون التعليم والأولون أقل منهم في ذلك . ثم ذكر أن المعوّدين على الجوع من أهل البادية لا فضلات في جسومهم غليظة ولا لطيفة . ثم إن أثر الخصب وأحواله يظهر في حال الدين والعبادة ، فإن المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة الذين يتجافون عن الملاذّ أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة من أهل الترف والخصب ، بل أهل الدين قليلون في الأمصار لما يعمها من الإكثار من اللحوم والأدم ولباب البر . وهكذا إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع الهلاك إلى أصحاب الملاذ والترف والانغماس في طيبات المآكل والمشارب مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر . فأما أهل القفر والصحراء وبلاد النخل الذين يعيشون على التمر وهكذا أهل أفريقيا في عهد ابن خلدون الذين غالب عيشهم الشعير والزيت وأهل الأندلس في زمانه الذين غالب عيشهم الذرة والزيت ؛ فإن هؤلاء لا تأخذهم السنون والمجاعات فلا يكثر فيهم الهلاك . قال : بل ولا يندر ، قال : لأن المنغمس في النعم والملاذ كسبت أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الأصلية ، فإذا حيل بينها وبين ما ألفته أسرع إليها اليبس وتبعه الهلاك . فالهالكون في المجاعات إنّما قتلهم الشبع السابق لا الجوع اللاحق فالمدار إذن على العادة .

هذا ملخص ما ذكره ابن خلدون في مقدّمته . فهذا هو العجب العجاب . أنزل الله في القرآن قصة آدم وأكله من الشجرة وكررها في القرآن . كررها ليلفت إليها أذهاننا نحن أبناء الإسلام . نحن الذين نزحنا من جزيرة العرب إلى شمال أفريقيا والأندلس والعراق وغيرها ، وقال الله لنا : إن آباكم آدم أغراه إبليس فأكل من الشجرة فكشفت عورته فأخذ يخصف من ورق الجنة ليواري تلك العورة .

وهانحن أولاء الآن قد نهانا الله عن الإسراف في المآكل والمشارب، وحذرنا فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾[الأحقاف: ٢٠]، فلما تفرقنا في أقطار الأرض وملكنا نسينا عهد الله لنا كما فعل آدم سواء بسواء، ولكن آدم تاب فتاب الله عليه. أما نحن أبناء العرب ومن معنا من أمم الإسلام فأكثرنا ناسون لعهد الله، فأخذنا في البطنة وسوء التدبير واستكثرنا من تلك اللذات، وقد علمت أن اللذات والبطنة والاستكثار منها قد أورثت الناس قلة الجمال في أجسامهم، والخفة في أرواحهم، وفقد الصحة في أبدانهم، وذهاب الذكاء في عقولهم، وفقد الحمية في شرفهم، وتعرضهم للموت إذا حل الوباء، وقلة العبادة والعلم وحب الله. فهذه سبع خصال تقدم البرهان عليها من تاريخ ابن خلدون. وبضدها تتميز الأشياء.

إنك يا الله حشرتنا في هذه الأرض وأريتنا طريقي الشهوات والعفة فاتبع أكثر الناس الأولى، وذلك لما أكثرت لهم الخيرات والمنافع وفتوح البلدان التي خاف منها رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا إذ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم» الخ. والحديث تقدم في سورة «الأنفال» وغيرها. والذي خافه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحقق فعلاً وصار المال الذي فتح الله به على الناس سبباً في ضرر الأجسام والعقول وضياع الدول والأنساب والشرف. أفليس من العجب أيها الذكي أن يتفق الحديث الآن وما جاء في التاريخ. أفليس من أجمل النعم الإلهية أن نرى ما يقوله أطباء العصر الحاضر الذي عقله أمثال «غاندي» الزعيم الهندي وعمل به وزهد ورأى في نفسه خفة وذكاء وعقلاً بعد أن كان كثير البطنة قليل الذكاء هو عين ما يقوله ابن خلدون سواء بسواء.

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم وعلى نعمة التوفيق وأسألك أن توفقني فيما بقي من أيام حياتي أن أعمل صالحاً وأقتدي بالصالحين. اللهم إني أحمدك إذ استبانت الحقيقة لي ولإخواني قراء هذا التفسير إذ يرون الحقائق ناصعة جميلة المحيّا بهجة المنظر وأن ما قرّره ابن خلدون عملاً في زمانه من اختلاف الأجسام والعقول باختلاف المآكل عفة وشهوة هو عينه الذي يقوله علماء زماننا حرفاً بحرف ثم يظهر في الهند عالم فيقرر هذا في نفسه. فحال «غاندي» المتقدمة قبل الهداية للقناعة هي حال أهل الأمصار التي ذكرها ابن خلدون، وحال «غاندي» بعد القناعة هي حال أهل القفر الذين لا يكثرون من الأغذية المورثة عفونة في أجسامهم.

هذا بعض أسرار قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[طه: ١١٥]، وقوله: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾[طه: ١١٧]، وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾[طه: ١٢٠-١٢١]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه: ١٢٤] إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾[طه: ١٢٧]. والحمد لله رب العالمين. انتهى صبيحة يوم الخميس ٢ أغسطس سنة ١٩٢٨.

فصل في إيضاح ما تقدم

تبين مما تقدم في هذا المقام أن الإنسان اليوم تنطبق عليه قصة آدم بحذافيرها إلا قليلاً. وهنا لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي العالم المفكر واطلع عليه، فقال: ما هذا الفصل الذي تريد شرحه

الآن ولقد أطلت المقال والشرح، أفما كان يكفي ما تقدم في هذه القصة؟ قلت: إن الإطالة في أمثال هذا إيضاح لأولي الأبصار وتبصرة لهم، ولئن أطلنا في هذا لنكونن أهدى ممن يطيل في مقدمات بلا نتائج. فقال: ما معنى مقدمات بلا نتائج؟ فقلت: إن المسلمين اليوم محتاجون إلى الإفصاح عن الحقائق الدينية والعلمية. وأكثر الكتب المشتهرة فيما بينهم كانت الإطالة فيها في الآلات المعدة للاستنتاج، ولكننا اليوم في زمان يجب علينا فيه أن نشرح الحقائق ونختصر المقدمات ونطيل في النتائج والمقاصد. وأكثر ما في هذا التفسير مقاصد وموارد يردها المسلمون فيصدرون عنها وقد انشرحت صدورهم إذ قرؤوا في التفسير ما كانوا يشتاقون إلى معرفته من نظام هذه الحياة الدنيا وما بعدها. فقال: لقد ذكرت ملخص ما قاله «غاندي» وما رأيته أنت مكتوباً في المتحف الصحي وما ذكره ابن خلدون في المقدمة، ففي هذا المقام اجتمعت موارد النصائح الطبية من تجاريب الأمم في المتحف الصحي وخلاصة تجارب الأطباء في كلام «غاندي» ونتائج ذلك كله قديماً في أحوال الأمم أيام ابن خلدون المؤرخ، فماذا تبتغي بعد ذلك؟ قلت: أريد أن أوفي المقام حقه. فقال: من أي ناحية؟ قلت: من ناحية استعداد الإنسان. قال: إذن تريد مقالاً عاماً ينطبق على جميع ما تقدم. قلت: نعم. قال: فما هو؟ قلت: اللهم إنك خلقتنا على هذه الأرض ومنحتنا غرائز بها قوام حياتنا وعقلاً به نظام هذه الغرائز، فأبى أكثر الناس على الأرض إلا اتباع خطوات اللذات وعصيان نصائح العقل والحكمة حتى قلت فينا: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧]، فوالله لقد ظهر القتل في نوع الإنسان أيام حياته. كيف لا وقد جعل سطوة الحكومات مناسبة لمشارب الأمم، وظلم الملوك على مقدار جهل الرعية، واحتدام وطيس الحروب بين الدول على مقدار ما في نفوسهم من الجشع وما في قلوبهم من الطمع، وهكذا إهلاك الأطباء للمرضى مقدر بمقدار انهماكهم في لذاتهم وحبهم لما اعتادوه. فقال صاحبي: أنا لم أفهم معنى قولك إن الأطباء يهلكون المرضى. إن الأطباء يشفونهم لا أنهم يقتلونهم، فقلت: نعم الطبيب أعد للشفاء، ولكن لما رأى أن المرضى يميلون إلى شهواتهم نوع الدواء على مقتضى دواعي نفوسهم، فأصبح الدواء من مسببات أمراض جديدة وأوصاب حادثة. ألم تر رعاك الله أن علماء الطب اليوم قد نصوا على أن خير الدواء ما كان أبعد عن العقاقير وأقرب إلى الأغذية والهواء والماء وهكذا.

ألم تر إلى ما ذكره «غاندي» المتقدم ذكره مما سأذكره إن شاء الله في سورة «الشعراء» عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: ٨٠] من القسم العملي في الطب الذي لا يعول إلا على البسائط. قال: فهل جربت شيئاً من ذلك؟ فقلت: نعم. فقال: وما هو؟ فقلت: قد جربت مسألتين اثنتين: الأولى: أنني بعد ما قرأت كتاب «غاندي» في الصفحة اعتراني ليلة أرق، فرأيت فيه أن الأرق يزول بالاستحمام بالماء الحار ثم البارد ثم أن ينام الإنسان في الهواء الطلق ففعلت ذلك، ولكن لما أردت النوم في الهواء الطلق تدثرت بالدثار نحو دقيقة فلم أحسّ بهجوم النوم فكشفت الغطاء وجعلت جسمي ملاقياً للهواء فأسرع النوم إلى عيني في لمح البصر. المسألة الثانية: إنني في يوم من الأيام اعتراني مرض معدي وهو المسمى بـ«الزحير» وهو أن تستعصي الطبيعة عند قضاء الحاجة وتكون الفضلات مخاطية ملوثة بمادة دموية، وقد كان هذا المرض يعتورني منذ سنين وكنت أتعاطى له أدوية وعقاقير فيبرأ بالتدريج. فلما اعتراني هذا المرض مرة أخرى رجعت إلى الكتاب المذكور فرأيت

فيه ما ملخصه: إن المريض عليه ألا يتعاطى الطعام ٣٧ ساعة وأن يشرب في أثنائها الماء الدافئ مع الليمون، ويؤمر المريض أن يمشي ساعتين في اليوم ويستحم الاستحمام الخاص بالماء البارد ويدلك البطن بخرقة وهكذا يضع لبخة الطين على معدته ليلاً وهكذا، فما قرأت ذلك حتى تركت الطعام وتعاطيت الماء الدافئ مع الليمون ومشيت مدة في الهواء الطلق. فمن عجب أن المرض وقف وانقطع.

وإني أذكر هذا في التفسير شكراً للنعمة وتذكرة لأولي الألباب. إن هذا النوع الإنساني كله في جهل مركب وأنا أعجب من نوع الإنسان، هذا النوع الذي اتفق فيه العالم والجاهل والطبيب والمريض، اتفقوا جميعاً ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾[هود: ١١٩] على انتهاج اللذات واتباع الشهوات. إن الطبيب المعتاد لا يمكنه أن يداوي المريض بما تداويت به. ويمنعه من ذلك سببان:

السبب الأول: أن المريض لو أمره الطبيب بالمشي ساعتين ليشفى من هذا المرض وبأن يجوع ٣٧ ساعة لم يتسنّ للمريض اتباع مشورة الطبيب، لأن المشي عمل شاقّ والجوع صعب على النفس.

والسبب الثاني: أن المريض لا يعطي الطبيب أجراً إلا إذا أعطاه دواء، لأنه يجهل أن الشفاء قد يحصل بالمشي وبالجوع.

إذن يضطر الطبيب أن يجاري المريض، لذلك عمرت الصيدليات وفتكت بنوع الإنسان فتكاً ذريعاً. ذلك لأن هذا الإنسان في الأرض يتبع الشهوات والعادات. هو حيوان مقلد ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام: ١١٦] عصى آدم ربه فغوى ولكن آدم تاب الله عليه. أما بنوه فهم عصوا بداعي شهواتهم وتقليدهم وقلة تبصرهم. وهاهو القرآن يذكرهم والأمراض توقظهم ويقول الله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[طه: ١٢٤] الخ.

أنا سطرت هذا ليفكر أهل العلم في الإسلام أن الله عز وجل ما أنزل بلاء لأهل الأرض إلا كان سببه الجهل، فلولا الجهل ما أضعت في الأيام الماضية أياماً وليالي في مداواة هذا المرض، بل كنت أقطعه بما قطعته به هذه المرة. إن المانع للإنسان من الرقي هو الجهل. إن المانع للأمم عن الرقي هو الجهل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[البقرة: ٢٤٣].

اللهم إن العذاب مقدر على مقدار الذنوب، والذنوب هنا أن بني آدم يقدمون لذاتهم في مرضهم على صحتهم وسعادتهم فيعاقبون بازدياد المرض. ألا ترى رعاك الله أن الأطباء في زماننا إذا رأوا مريضاً بهذا المرض في الشرق أو في الغرب فإن الطبيب يقول له إن أفضل علاج أن أحقنك بالحقن وهنالك يدخل الإبرة في جلده ويدخل العقاقير فتجري من الدم ويقول له: إن هذه العقاقير تقتل الحيوانات الصغيرة المنتشرة في الجسم المؤدية إلى استقصاء الطبيعة، ولا يزال المريض يواظب على إدخال تلك الإبر في جسمه ولا يزال هو ناعماً هادئاً ساكناً ظاناً أن هذا آخر علاج ويتغذى بالأغذية التي يصفها له الطبيب، أما العلاج بالجوع وبالمشي وبالليمون الذي لم أعرفه ولم أعمل به أنا إلا في مرضي الأخير للزحير فقطع المرض حالاً فإن الطبيب لا يصفه لأحد حتى لنفسه ولا لأخيه ولا لأمه ولا لأبيه ولا لصاحبته ولا لبنيه، لأنه هو نفسه مسوق بالعادة وأكثر الناس عبيد العصا مسوقون بالغرائز والعادات، ويعاقب المريض على ذلك بطول مدة الشقاء وبحدوث أمراض خفية في جسمه

بسبب تلك العقاقير التي أدخلها الطبيب في جسمه كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [الشورى: ٤٠]، فهو استحلى الراحة ووافقه طبيبه بالعادة فلم يستعمل الحمية، وتعاطى الدواء فأدخل لها بذور الأمراض الخفية تفعل فعلها ويظهر مرض جديد بعد حين، إذن الآلام المرضية التي تنتاب الإنسان مقدرة بمقدار اللذات التي وضعت في غير موضعها، وإذن صدق قوله الله: ﴿ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ ﴾[الأحقاف: ٢٠]، وهذا القول وإن كان في الآخرة فآثاره في الدنيا واضحة، إذا علمت هذا فانتظر ما ستقرؤه في سورة « الشعراء » من الأدوية التي لا عقاقير فيها وانصح للمسلمين وقل لهم حافظوا على الصحة وتداووا بالبسائط لا المركبات. اهـ.

اللطيفة الرابعة

اعلم أن ملخص ما في هذه السورة يرجع لمقامين:

الأول: توحيد الله مع اشتغال القلب به.

الثاني: أن جميع الآيات الخارقة للعادة لا تصلح لإقامة الأمة بل لا بد معها من العلم لأن عالم المادة متشابه والضلال مختلط بالحق، وهذا المقامان جمعهما الله في آخر السورة هنا كملخص لها، فإذا قال في أول السورة: إنه خلق السماوات والأرض واستوى على العرش وطلب من موسى الصلاة لذكره فقد قال هنا: ﴿ وَأۡمُرۡ ﴾ يا محمد ﴿ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ ﴾[طه: ١٣٢]، وإذا ذكر معجزات موسى من العصا واليد وأن عجل السامري قد غطى على المعجزة عند الجهلة وأن العلوم العقلية هي المقصودة، قال هنا ملخصاً لذلك: ﴿ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾[طه: ١٢٦].

انتهت اللطيفة الرابعة وبها تمّ تفسير سورة « طه »، والحمد لله رب العالمين.

سورة الأنبياء مكية

وهي مائتا واثنتا عشرة آية

اقرأ مناسبتها لما قبلها في اللطيفة الأولى.

وهي قسمان:

القسم الأول: في حقيقة النبوة وفي البعث ودقة الحساب وفي الاستدلال على الله بالعوالم المشاهدة من السماوات والأرض وما بينهما وذكر عباد الملائكة ودوامها، من أول السورة إلى قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الآية:٤٧].

القسم الثاني: من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[الآية:٤٨] إلى آخر السورة، وفيه ذكر (١٤) قديساً؛ وهم الأنبياء المشهورون للاتعاظ بأحوالهم والاقتداء بسيرهم، أولهم موسى ويليه إبراهيم فإسحاق فيعقوب فلوط فداود فسليمان فأيوب فإسماعيل فإدريس فذو الكفل فذو النون فزكريا فيحيى، وأتبعها بذكر مريم وهي أم نبي.

ثم أكمل السورة بذكر الوعيد على الكافرين وأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين فهو قائم مقام هؤلاء جميعاً في آخر الزمان. هذا ملخص السورة.

القسم الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾

قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾
وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن
لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ
مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا
يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ
يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾
لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا
ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن
قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ
سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ
مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾
۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ
يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ
أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ
يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ
أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا
تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ
ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي
فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾
بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ
مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ
وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ
لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ
طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلۡ

إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ أصله اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ أي: عن الحساب ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن التفكر، وهما خبران للضمير، والجملة حال ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ يوقظهم من سنن الغفلة ﴿ مِّن رَّبِّهِم ﴾ صفة لـ « ذكر » ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ يستهزئون به ويسخرون، والجملة حال من الواو. وقوله: ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ حال أخرى، فهم يستمعون الذكر وقد جمعوا بين الاستهزاء والتلهي ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أي: بالغوا في إخفاء التناجي، و« الذين ظلموا » بدل من الواو في ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ﴾، وقوله: ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ هذا كله بدل من « النجوى » يقول الله أسروا المناجاة وهي هذا الحديث، وقوله: ﴿ تُبْصِرُونَ ﴾ أي: تعلمون أنه سحر ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ هما قراءتان « قال » أي: محمد صلى الله عليه وسلم في جوابهم، وقل يا محمد الخ، ﴿ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ سره وجهره في كل مكان ومنه مناجاتكم ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لها ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما في نفوسكم فهو يحاسبكم على ما أسررتم من هذه الأكاذيب ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ ثم أضربوا عن قولهم سحر وقالوا إنها تخاليط أحلام رآها في نومه فتوهمها حقيقة ووحياً، ثم أضربوا عن هذا أيضاً إلى أنه افتراه من عنده قصداً وهو عالم بافترائه، ثم أضربوا عن هذا أيضاً إلى أنه شاعر كأولئك الذين ينمقون القصائد ويختلقون فيها ضروباً من الخيالات كما في المعلقات السبع وغيرها، وهي مشهورة عند العرب، فليكن هذا مثلهم على أنه إن كان صادقاً في دعواه ولم يكن كما ذكرنا ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ ﴾ بمعجزة تبهرنا كما أتى موسى وعيسى وكما اقترحنا عليه أن يزيل جبال مكة عنا ويجري أنهاراً فيها ﴿ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ وفعلوا ذلك كإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى وكالعصا وما أشبه ذلك. فقال لهم الله رداً عليهم: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ ﴾ من أهل قرية ﴿ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ صفة لقرية ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ لو جئتم بها. كلا لا يؤمنون كما تقرر في سورة « طه » ووضح هناك، وإذا قلتم: هل هذا إلا بشر مثلكم، فالأنبياء لم نرسلهم للناس إلا من جنسهم فتجعلهم من جنس الرجال، هكذا أرسلنا من قبله من الرسل لقومهم. فالرسل ليسوا من الملائكة إذ الملائكة لا يمشون مطمئنين على الأرض بل هم عالم روحاني غريب النزعة عنكم لا يستقر بينكم، فالنبي إذن يكون من الرجال ويأكل الطعام كما تأكلون ويموت كما تموتون ولا يكون خالداً، وذلك ليشعر بما تشعرون به ويحس بما تحسون به فيلائم طباعكم فيعلمكم، وهذا قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ أهل التوراة والإنجيل فإنهم

وإن أنكروا نبوة محمد لا يستطيعون أن يقولوا إن أنبياءهم كانوا ملائكة ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ حتى تنكروا أن يأكل كما تأكلون ويمشي في الأسواق كما تمشون ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ في الدنيا بل يموتون كما تموتون، ولكن هؤلاء رجال ميزناهم بصفات استحقوا بها أن يوحى إليهم ووعدناهم بالنصر ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي: في الوعد كقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾[الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ من الهلاك إنجازاً لوعدنا وتصديقاً لوحينا ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾ وهم الذين آمنوا بهم ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ الذين جاوزوا الحد فكفروا بهم.

هذه هي قضية الأنبياء كلهم وقصتهم فهم بشر لهم ما للبشر وعليهم ما عليهم وعدناهم فصدقناهم في الوعد، وإذا كان هذا فعلنا معهم فهكذا فعلنا مع محمد. إن محمداً أنزلنا له قرآناً فيه صيتكم وذكركم بين الأمم فيعرفكم به أهل الشرق الأقصى من الصين واليابان وجزائر الهند الشرقية وأهل أوروبا وأمريكا. كل من هذه الأمم يعرفون أمة العرب وأن لها ديناً وقرآناً ويدرسه المستشرقون منهم ويسلم من هؤلاء كثير بعد أن كنتم لا أنتم في العير ولا في النفير ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾[الأنفال: ٢٦]، وكذلك في هذا الكتاب ما يعلي صيتكم وشأنكم بمكارم الأخلاق التي يتحلى بها ذوو الشهامة والمروءة منكم، وهذا هو قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أيغيب عليكم ذلك ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فضلتكم به على غيركم فتؤمنون وكان من حقكم أن تكونوا أسرع الناس إليه لما فيه من مزايا الشرف الدنيوي فوق ما هو موضوع له من الكمال الأخروي، فإن أبيتم إلا التمادي في الضلال فإننا نهلك الأمم الظالمة ولا نبقي في الوجود إلا ما هو نافع وندع ما ليس بصالح له ولا دافع عاراً ولا مور ناراً ولا نافع جاراً، فإن لم تنتهوا أهلكناكم وأنشأنا غيركم فإن العالم في قبضتنا ولا نخلق إلا لمنفعة ومصلحة واضحة جلية عندنا، فإن لم تقبلوا هذا الدين أقصيناكم وأحللنا غيركم محلكم، وهذا قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي أهلكنا ﴿مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: من أهل قرية كانت ظالمة بكفر أو بغيره ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ بعد إهلاك أهلها ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ مكانهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أي: عذابنا أي: أدركوه إدراك المشاهد المحسوس ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين راكضين دوابهم أو كالراكضين لها فيقال لهم ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ لا تهربوا ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: تنعمتم فيه من العيش ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أي: تقصدون للسؤال والتشاور في المهام والنوازل فيسألكم عبيدكم وأنتم على الأرائك في خفض من العيش، يقولون: بم تأمرون؟ ويسألكم الناس في مجالسكم لتعاونوهم وتفد عليكم الوفود وأنتم في أبهتكم يستمطرون سحائب أكفكم وأنتم في بحبوحة العز وسعة الجاه وغنى عظيم، أي: يقال لهم ذلك استهزاء بهم كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان: ٤٩]، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فاعترفوا بأنهم فرطوا أيام مجدهم وكفروا بالنعمة حيث لا يفيد الاعتراف بعد فوات الفرصة ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ أي قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾[الأنبياء: ١٤] الخ ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ دعاءهم، وهي خبر «زال» و«تلك» اسمها، وإنّما سميت دعوى لأن المولول كأنه يدعو الويل ويناديه ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ

حَصِيدًا ﴾ مثل الحصيد كما يحصد الزرع أي المحصود، وهو يستوي فيه المفرد والجمع ﴿ خَٰمِدِينَ ﴾ ميتين، من: خمدت النار، وهذه الحال هي حال الأمم الشرقية الآن من المسلمين، فإنك تسمع في كل وقت قول أهل الهند وأهل مصر وسوريا وأهل شمال أفريقيا يدعون بالويل، ويقولون: فرطنا فلا علم عقلنا ولا دين اتبعنا ولا مجد أسسنا فنزل بنا الفرنجة فاحتلوا بلادنا يا ويلنا إنا كنا ظالمين، وإن شاء الله لا يحل بهم العذاب لأن هذا القرآن أنزل لذكرهم وعزهم، فسيعرفون العلوم ولا يكونون خامدين فإن هذا القول وإن صدق على أمم مضت فلا يصدق على هذه الأمم لأنهم نزل القرآن لإعلاء شأنهم فكيف يكونون حصيدا خامدين.

ومن عجب أني أكتب هذا التفسير وقد استقل أهل الأناضول من الترك وأمة الأفغان وأمة الفرس وهم قوم مسلمون وليسوا من العرب. أما أبناء العرب أي الذين نزل القرآن بلغتهم فهم الآن بين براثن الآساد الأوروبية وهم يريدون نهش عظام أبناء العرب وسواهم من الأمم الإسلامية الأخرى غير الذين استقلوا، ولكن الله يقول لأمة العرب أيضاً: لستم خامدين لأن القرآن أنزل لذكركم ولصيتكم فليرجعن مجدكم قريباً ومجد أمم الإسلام، فإن القرآن نزل بلغتكم وأنذرنا الأمم به كما أنذرناكم وحذرناكم. وكيف نترك الناس بلا تحذير ولا نرسل فيهم منذرين ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ ما خلقنا هذا الجمال للعب واللهو، وإنّما خلقناه لحكمة وأبدعناه لمنفعة وزوقناه لنربي نفوساً ونطلعها على عجائبنا ويدركون جمال الوجود ويكون ذلك لهم جناحاً يطيرون به إلى العالم الأعلى ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ من عندنا، أي: من العوالم المجردة من المادة كالملائكة ولا تتنزل لملابسة ما هو من شأنكم المادي كالزوجة والولد، ولم نخلقكم لنتلهى بكم كما تتلهون أنتم بالصور المادية الأرضية، بل يكون اللهو بمن عندنا من العوالم المجردة. على أن ذلك أيضاً لا يليق بنا لأن هذا خارج عن نظام حكمتنا وقوانين نظامنا ورفعة قدرنا ﴿ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ ما كنا فاعلين ذلك، فلا نلهو بالصور الجسمية ولا بالنفوس الروحانية، بل نحن خلقناكم لحكمة وقدرناكم وصورناكم وجعلنا لكم السمع والأبصار لغايات قدرناها لكم لا للهونا ولعبنا، وعلى ذلك نحن لا نترككم سدى بل نحاسبكم ونؤاخذكم لأن الجد مطلبنا واللهو اللعب شأن العبيد المخلوقين لا رب العالمين، فإذن ليس اللهو شأننا ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ بل أمرنا فوق ذلك فإننا من شأننا أن نرمي الحق الذي من جملته الجدّ على الباطل الذي منه اللعب فيكسر دماغه بحيث يشق غشاءه المؤدي إلى زهوق الروح فإذا هو هالك، وقد شبه بإنسان كسر دماغه. هذا هو شأننا فكيف نترككم بلا إنذار كأننا خلقناكم لنلهو بكم. كلا. وإذا كنا نغلب الجد على اللهو وننصره عليه فنحن أولى أن لا نتخذ ما حقرناه وأقصيناه صفة لنا. ثم إن نتيجة هذا كله أن الناس ينذرون ويحاسبون لأن الله خلقهم لحكمة ولغاية. فهذه الأرواح الإنسانية سيصير قوم منها في العالم العلوي مع الملأ الأعلى ويلحقون بهم في الجنة ويسلمون عليهم ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[هود: ١١٩]. فالله إذن يربي الإنسان في الأرض ليلحق بالعالم الأعلى ولم يخلق للهو واللعب. ولذلك أعقبه بذلك فقال: ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ يعني الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾

لا يتكبرون ولا يتعظمون عنها ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ولا يعيون وليس كنوع الإنسان الذي يربى ليلحق بهم ، فإن هذا الإنسان منه من تكبر عنها وهم الكافرون ، ومنهم من يعبد ويحيا وهم المؤمنون . أما الملائكة فهم دائماً في العبادة ، فهم أشبه بالقلب الإنساني ، فإنه دائماً يعمل ويدفع الدم في الشرايين الجسمية دائباً ليلاً ونهاراً نام الإنسان أو استيقظ . وكالكواكب الدائرة ليلاً ونهاراً . وكالنمو النباتي والحيواني ليلاً ونهاراً . هكذا سيكون هناك قوم من هؤلاء المؤمنين يرون الله ويرتقون عن أهل الجنة أو يكونون فيها وهم مع الملائكة أو يصيرون أشبه بهم .

ثم وصف هؤلاء الملائكة فقال : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ أي : ينزهون الله دائماً لا يضعفون ، والجملة حال من الواو في ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ . هذه أوصاف الألوهية ، وهي أن يكون الإله عظيماً يعبده أهل الأرض والملائكة المبرؤون من المادة ، لا كتلك الآلهة المزيفة المكذوبة التي اتخذوها في الأرض ، وهذا قوله : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ﴾ أي : بل اتخذوا ﴿ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ صفة لـ « آلهة » ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أي : يحيون الموتى ، فإن الإله من لوازمه أي يحيي الموتى ، فإذن هؤلاء الآلهة المكذوبة يحيون الموتى . وليس الأمر كذلك فإنهم هم أنفسهم أموات فكيف يحيون الأموات؟ على أنه ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ غير الله فـ « إلا » وصف لـ « آلهة » ، وليس يجوز أن يقال : إنه بدل مرفوع ، لأنه لا يمكن إلا إذا كان الكلام غير موجب ، ولا يجوز نصبه على الاستثناء لأن النكرة في الإثبات لا عموم لها ، فإذن لم يدخل فيه المستثنى ، فكيف تخرجه « إلا » وهو لم يدخل فيما قبلها و« لو » بمنزلة « إن » فلا نفي هنا . يقول : لو كان في السماوات والأرض آلهة مغايرون لله ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ لخربتا وهلك من فيهما ، أي : لو كان فيهما جنس الآلهة غير الله ، أي : أي إله غيره لاختلفا أو اتفقا ، فاختلافهما يستلزم أن يصح العدم والوجود على شيء اختلفا فيه وهو محال ، واتفاقهما يوجب توارد خلقين على مخلوق واحد وهو مستحيل ، فيكون وجود الإلهين محالاً . على أن هذا البرهان إذا سلمنا جدلاً أنهم آلهة ، ولكن الإله كما قلنا يسبح له من في السماوات والأرض والملائكة ، فكيف تجعل هناك موازنة بينه وبين الأحجار والصور الأرضية ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ ﴾ المحيطة بجميع الأجسام والملائكة حافون حوله يسبحون بحمد ربهم ، فلا معنى للتنزل والموازنة المذكورة لأنه أجل وأعلى ، وهو منزه ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الشركاء ونحوها . وكيف يقارن بتلك الآلهة وهو ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ فأين العظيم الذي يجل عن السؤال والضعيف المعرض للسؤال ، ثم أعاد الكرة للإنكار مرة أخرى بعد هذه الحجج فقال : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ بعدما ظهر الدليل ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ فقد ثبت الإله الواحد عندنا وعندكم وقد اتفقنا عليه . فأما الزيادة عن الواحد فنحن ننكره وأنتم أثبتموه فعليكم البرهان ولا دليل على الزائد ﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ من الكتب السماوية فهي كلها متطابقة على التوحيد متباعدة عن الشرك ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ لا يميزون بينه وبين الباطل ﴿ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ عن التوحيد لغباوتهم .

ثم بين ذكر من قبله فقال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ أي : فوحدون .

ولما كان الولد نقصاً كالشريك لأنهما معاً في صفات المحدثين قال: ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ تنزيهاً له عن الولد، وهؤلاء خزاعة قالوا: الملائكة بنات الله، ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ مقربون ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ لا يقولون شيئاً حتى يقوله، لأنهم يدبرون أمر العالم كما يلهمهم لا أنهم عصاة مثل هؤلاء الذين جعلوهم أبناء الله ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ لا يعلمون إلا ما يأمرهم به ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ما قدموا وما أخروا ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ أن يشفع لهم مهابة منه ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ ﴾ عظمته ومهابته ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ مرتعدون، إن العالم كجسم الإنسان وقد جعل الله روحنا وتصريفها لأجسامنا تمثيلاً لتصرفه في العالم، فإذا كانت روحنا واحدة فهو واحد. وإذا كانت لنا حواس مختلفة فله ملائكة مختلفة. وإذا كان في الحواس أعلى وأدنى كالعين وكاللمس ففي الملائكة كذلك سكان عالم السماوات وسكان عالم الأرض. كل له درجة. وإذا كانت حواسنا تطيع إرادتنا فملائكة الله مطيعون إرادة الله. ولما سأل العلماء الأرواح التي حضروها وصفت الله والعالم هكذا ثم قالت: إن أرواح الناس كلما ارتقت بعد الموت تضامت مع الأرواح العالية وصارت معها رأياً واحداً، لأنها كلما ارتقت في المقامات العالية وطهرت ماتت الفوارق بينها، فيصبح الفكر واحداً والخلاف يسقط، لأن الصفاء يجمعهم والفكر متحد، وكأن أهل الأرض إذا ارتقوا إلى عالم آخر يكونون وحدة متلائمة الأطراف ذات درجات مختلفة. هذا في قسم الصالحين.

أما الطالحون فهم نوع آخر ويكون القسمان أشبه بالعالم المحسوس بعضه نار وبعضه جنات كالأرض. ففي داخلها نار وفي خارجها جنات على سطحها. وهؤلاء الملائكة المقربون لا تصل بهم الجرأة أن يدّعوا الألوهية فإنهم من خشيته مشفقون ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ كإبليس إذ دعا إلى نفسه. أما الملائكة فلم يدعوا هذه الدعوى، ودخوله معهم فيه تجوّز ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الذين وضعوا الألوهية والعبادة في غير موضعهما متبعين في ذلك وسوسة إبليس.

فصل: في نبذة من علم الفلك وعلم طبقات الأرض

للاستدلال على الوحدانية في هذه الآيات وذلك من وجهين: الوجه الأول جهة الأحكام وحسن التصوير والتقدير. الوجه الثاني: من جهة القرآن إذ أخبر بأمور لم تعلم إلا في القرن التاسع عشر.

يقول الله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ أي: أولم يعلموا ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ ذواتي رتق أو مرتوقتين، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: ملتحمتين متصلتين ﴿ فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ ففصلناهما وأزلنا اتحادهما. كما ثبت عن أهل أوروبا في هذه العصور إذ هم الذين قرروا هذا العلم وقالوا: إن الشمس كانت كرة أشبه بالنار دائرة ملايين من السنين والأرض والسيارات وتوابعها كانت معها. ثم إن أرضنا انفصلت كما انفصل غيرها من السيارات انفصلن جميعاً من خط الاستواء الشمسي أثناء سرعة سير الشمس وجريها حول نفسها فتباعدت أرضنا والأرضون الأخرى، وهي السيارات فإن شمسنا والسيارات الأخرى كلها سيارات وكلها أرضون، وهكذا كل الشموس التي نراها كأنها كواكب ثابتة على هذه الحال لها سيارات. وقد اشتقت منها، وقد قدروا على سبيل الظن

أن الأرضين في العوالم كلها لا تنقص عن ثلاثمائة مليون أرض مسكونة. ويقولون: ليست جميع السيارات حول شمسنا يظن أنها مسكونة، بل المسكون منها أرضنا وربما كان المريخ وسيار آخر الخ.

فثبت أن أرضنا مشتقة من الشمس، والشمس أيضاً من شمس أكبر منها، وتلك من شمس أكبر منها وهكذا، وكل شمس من هذه دائرة حول ما اشتقت منه إلى ما يقف عنده الفكر ويدهش العقل. هذه قصة العالم الذي نسكنه. وهذا هو القول المشهور الآن في العالم الأوروبي الكافر بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جهلاً به. فقوله تعالى على سبيل الاستفهام التقديري: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ من المعجزات، لأن هذا العلم لم يعرف عند العرب ولا عند الأمم المعاصرين لهم، وإنما عرف في عصرنا الحاضر، فعلي أن أعلن المسلمين به وأقول لهم: إن هذه معجزة واضحة في القرآن، فإن الله قد استدل بحسن صنعه وإتقانه على تفرده بالقدرة والحكمة، إذ جعل الحرارة سبباً في حركات تلك العوالم التي كانت ناراً محترقة ثم بواسطة هذه الدورات أزماناً برد ظاهر الشمس فانفصلت منه الأرض وغيرها من السيارات وأرضنا منها، وكان هذا الحساب المدهش في سيرها والخلق البديع على ظهرها وإتقان كل شيء عليها. هكذا كان ذكره في القرآن مع جهل المسلمين وغير المسلمين من فرس وروم وأمم أخرى بهذه النظرية التي لم تكن إلا حديثاً معجزة مدهشة، فإن أهل أوروبا وهم الكافرون بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم عرفوا هذا الرأي، فالله تعالى يوبخ الأمم الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ويوبخنا أيضاً لجهلنا. يقول: أولم يعلم هؤلاء الكافرون بعقلوهم أن العالم الأرضي قد فصل من العالم السماوي؟ أي أن العقل البشري مستعد لمعرفة هذا من اتباع الأسباب ومن قراءة الكتب ومن درس العجائب، فكيف لا يؤمن الناس بإله واحد؟ وسيأتي إيضاحه قريباً لأن هذه المعجزة مهمة جداً ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ أي: وخلقنا من الماء كل حيوان، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾[النور: ٤٥] وكذا كل نبات لأنه يحيا به.

ويقول أيضاً علماء العصر الحاضر: إن كل حيوان خلق أولاً في البحر، وأصل جميع الطيور والزواحف وحيوانات البر من البحر قد تطبعت بطباع حيوان البر على مدى الأزمان وتنوعت ولهم في ذلك كلام كثير. فتكون هذه أيضاً في حكم ما رآه الذين كفروا ويعتبر معجزة للقرآن وسنوضحه قريباً. ثم قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ مع ظهور الآيات، ثم أتى بمعجزة ثالثة فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ أي: جبالاً ثوابت كراهة ﴿ أَن تَمِيدَ ﴾ أي: تميل ﴿ بِهِمْ ﴾ وتضطرب، فإنك سترى أن الأرض لها ستة أدوار تقدم ذكرها في سورة «هود» وهذه الأدوار الستة مقسمة إلى ٢٦ طبقة، والدور الأول منها كان عبارة عن الزمن الذي كون فيه على الكرة الأرضية النارية قشرة صوانية صلبة، قدر زمنها بنحو ثلاثمائة مليون سنة. ومعلوم أن الأرض كانت ناراً ملتهبة فبردت قشرتها وصارت صوانية وهي الغلاف الحقيقي لتلك الكرة النارية، ولا تزال الأرض تخرج لنا من أنفاسها المتضايقة ونارها المتقدة في جوفها كل وقت ناراً بالبراكين التي شرحناها سابقاً في هذا التفسير في سورة «آل عمران»، فهذه البراكين أشبه بأفواه تتنفس بها الأرض لتخرج بعض النار من باطنها، ثم يخرب ذلك البركان

وينفتح بركان آخر. وهذه البراكين تخرج ناراً ومواد ذائبة تدلنا على أصل أرضنا وما كانت عليه قبل الدهر. فهذه القشرة الصلبة لولاها لتفجرت ينابيع النار من سائر أطرافها كما كانت بعد ما انفصلت من الشمس كثيرة الثروات والفوران، وهذه القشرة الصوانية البعيدة المغلفة للكرة النارية هي التي ثبتت منها هذه الجبال التي نراها فوق أرضنا كما يقوله علماء طبقات الأرض. فمن هنا ظهر أن هذه الجبال جعلت لحفظها من أن تميل، لأن الطبقة الصوانية هي الحافظة لكرة النار التي تحتها، والكرة الصوانية هذه نبتت لها أسنان طالت وامتدت حتى ارتفعت فوق الأرض فلو زالت هذه الجبال لبقي ما تحتها مفتوحاً، وإذ ذاك تثور البراكين آلافاً مؤلفة وتضطرب الأرض اضطراباً عظيماً وتزلزل زلزالاً شديداً، لأن البراكين وثورانها زلزلة، فما بالك إذا كانت الجبال كلها لم تكن وخلت أماكنها، ثم إن هذه الجبال قطعة من نفس القشرة، غاية الأمر أنها ارتفعت فما هي إذن إلا حافظة للكرة النارية التي لو تركت وشأنها لاضطربت في أقرب من لمح البصر فأهلكت الحرث والنسل. هذه هي المعجزة الأخرى للقرآن لأن السابقين ومن عاصروهم كانوا يؤمنون به فقط فظهور ذلك اليوم من المعجزات القرآنية.

ولقد أجمع العلماء قديماً وحديثاً أن الجبال على الأرض لا قيمة لها بالنسبة للكرة الأرضية، فلو فرضنا أن هذه الكرة الأرضية كرة قطرها ذراع لم تكن الجبال فوقها إلا كنحو نصف سبع شعيرة فوقها. ولو أن الأرض كرة قطرها متر واحد لم تزد الجبال عليها ملليمتراً واحداً ونصفه فقط، فما هذا الجزء الحقير بالنسبة لتلك الكرة حتى إنه يمنع ميلها وسقوطها فكأن الناس يؤمنون بهذه الآية، وقد ظهرت هذه النبوة فعلاً في العلم الحديث ولم تظهر إلا على يد من كفروا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمون لا يعلمون إلا من الفرنجة، وأنا أكتب عنهم ومن كتبهم فصدق الله وجاءت المعجزات تترى في هذا التفسير.

فالله هو الذي فصل الأرض من الشمس وكانتا ملتحمتين، والله هو الذي خلق الدواب في البحر، ثم ارتقت إلى أن ارتفعت في الهواء، وإن كان هذا المعنى فيه نظر إن حملنا الآية عليه، والله هو الذي جعل الجبال حافظة للكرة الأرضية أن تهتز وتضطرب، لأنها نار والجبال متصلة بالطبقة الصوانية المحيطة بالنار، فالله هو الحافظ لها. كل ذلك دال على وحدته. ولكن الأهم من ذلك أن القرآن ورد به ولم يعرفه الناس، بل لم يفسر به القرآن على وجه علمي برهاني إلا في هذا العصر، وإنّما كان يفسر قديماً بمجرد الإيمان، فهذه هي المعجزة الثالثة.

واعلم أن الكرة الأرضية بعد أن تمت أدوارها الستة المذكورة في سورة «هود» وفي سورة «الأنعام» ومضى دور الطوفان العام ثم الدور الحالي ونظمت الأحوال على ما هي عليه الآن؛ ظهرت فيها الفجاج وهي المسالك الواسعة، وكما نظمها الله وأخرج زرعها ونوّع حيوانها حتى وصل النبات الآن على ما يقول «اسبنسر» ٣٢٠ ألف نبات، والحيوان أيضاً مليوني نوع، وخلق الإنسان وأبدع كل شيء فيها، هكذا نظم السماء وجعلها سقفاً محفوظاً فحفظ الشموس في مداراتها بحيث لا تختلط ولا تختبط، بل حفظها سالمة في أماكنها الخاصة بها وبقوة الجاذبية بالاصطلاح العلمي، فالقمر والشمس والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لا تخرج عنها وإلا لاختلّ هذا العالم، وبهذا الحفظ

ونظام الدوران كان الليل والنهار الحادثان من جري الأرض حول الشمس. وقوله: ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس: ٤٠] راجع للأرض والشمس والقمر، وهذا هو قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ وهو بدل من «فجاجاً» ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى مصالحهم، وقوله: ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ أي: غير متفكرين، وقوله: ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾[يس: ٤٠] أي: يسرعون في المدارات المخصصة لها، أجراها مجرى العقلاء فهي تسبح كما يسبح السمك في الماء، وهذا هو الرأي الحديث، وهو أن الأرض تجري، وأن هذه كلها تجري في عالم الأثير المالئ لهذا الفضاء. فهنا معجزات:

(١) الأرض كانت ملتحمة مع السماء.

(٢) الأحياء خلقوا أولاً من الماء.

(٣) الجبال قد ثبت أنه لولاها لتشققت الأرض بالنار.

(٤) الأرض تسبح لا ساكنة.

(٥) جريها وجري الكواكب كسبح السمك في الماء.

كل هذا هو العلم الحديث وهذا أمر عجب. هذا هو النظر العام في السماوات والأرض. فالشمس تجري والأرض تجري وهما تسبحان، والقمر معها، وبينهما المخلوقات الحية، فما هذه العوالم إلا كآلة طابعة والمخلوقات كلماتها وسطورها، أو كدار صناعة تخرج كل يوم أدوات وآلات ومصنوعات مختلفة الأشكال، فهي كل يوم تأتي بأشكال حديثة بعد هلاك القديمة. فلما فرغ من الكلام على دار الصناعة أخذ يصف ما صور فيها من الصور والأشكال التي أعدت لأن تخرج إلى عالم أرقى من هذا العالم متى تمّ كمالها، وأعلى هذه المخلوقات الإنسان. فأخذ يصف الصنعة بعد وصف آلتها فأبان أن البشر لا بقاء لهم في الدنيا، فأنت وهم مبنون على قاعدة التحليل والتركيب الذي اقتضاه نظامنا في هذه الدار العظيمة الصناعية، فإذا تربصوا بك ريب المنون فالمنون ليس خاصاً بك، بل هم خاضعون لقانونه، فكلكم تذوقون الموت وإنّما خلقناكم على هذا النظام لنعاملكم معاملة المختبرين ونرقيكم في عالم الجمال والكمال، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ مصدر مؤكد لـ «نبلوكم» من غير لفظه، ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على مقتضى شكركم وصبركم.

فصل: في استبعاد هذه العلوم وأمثالها والاستهزاء بها وَوعد الله للناس بأنه سيريها للناس في زماننا هذا كما اتضح لك تكميلاً للمعجزة للقرآن في آخر الزمان

اعلم أن الله تعالى أشار للأول بقوله: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ أي: ما يتخذونك ﴿ إِلَّا هُزُوًا ﴾ سخرياً قائلاً بعضهم لبعض: ﴿ أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ أي: منكرون فهم أحق بالاستهزاء. وأشار للثاني بقوله: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ لأنه يكثر منه، والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم: خلق من الكرم، ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد واستبعاد ما جاء في هذه الآيات من الأمور العلمية التي أوضحها علماء

العصر الحاضر. فهو يستبعدها طبعاً لأنه لا يعقلها، فقال الله: لا تستبعدوا أيها الناس ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ والآيات أمور عامة منها العلوم الطبيعية المثبتة لما تقدم وعلم طبقات الأرض وغيرها، فإذا لم يفهمها أمم سابقة فإني سألقيها على قوم بعدهم. وقد ورد في قول النبي صلى الله عليه وسلم: « رب مبلغ أوعى من سامع » وذلك في حجة الوداع، ورفع طرفه إلى السماء وقال: « ألا هل بلغت. اللهم اشهد ». ومن العلوم التي غيبت عن الناس واستعجلوها أمر القيامة حين تشقق الأرض وتظهر النار التي في داخلها التي هي إحدى نيران جهنم. وقد كشفت في العصر الحاضر، وهذا هو قوله: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي: بحيث لا يقدرون على دفعها ما استعجلوا العذاب، ولكنهم لجهلهم يستهزئون ويظنون أن هذا لا حقيقة له، مع أنهم لو حفروا تحت أرجلهم لوجدوا أن الحرارة ترتفع درجة واحدة في كل ثلاثين متراً من العمق. ففي عمق ثلاثمائة متر عشر درجات، وفي عمق ثلاثة آلاف متر مائة درجة وهي درجة الماء المغلي، وفي عمق ثلاثين ألف كيلو متر ألف درجة، وفي عمق مائة ألف كيلو متر أكثر من ثلاثة آلاف وثلاثمائة درجة. وهذه حرارة تذوب فيها كل الجوامد والمواد المعروفة. وقطر الأرض نحو ثلاثة عشر ألف كيلو متر. فالأرض ما هي إلا نار متأججة وليس عليها إلا قشرة جامدة يبلغ سمكها مائة كيلو متر، فنسبتها إلى الأرض كنسبة قشرة التفاحة الرقيقة للتفاحة نفسها. إن الأرض كانت في أول أمرها ناراً متأججة مشتقة من الشمس فبردت شيئاً فشيئاً وكان كل شيء نراه الآن فيها سائلاً، فلا حجر ولا شجر ولا غيرهما، وهي الآن على ما هي عليه كما جاءت من الشمس، ونحن على تلك القشرة الرقيقة. فإذا انشقت الأرض انشقاقاً عظيماً أكثر من انشقاقها منذ بضع سنين حوالي سنة ١٩٢٣ في بلاد اليابان إذ زلزلت زلزلة شديدة وطفحت بنار من باطنها فأهلكت خمسمائة ألف إنسان وأهلكت قرى كثيرة. أقول: فلو أنها شققت أكثر من هذا لانهدمت هذه القشرة كلها إذا كان الانشقاق في كل مكان، وحينئذ يسقط الناس في النار فعلاً، وليست ناراً وهمية بل هي نار حقيقة يحترق الناس بها فعلاً. هكذا فلتكن المعجزات. وهكذا فليكن الصدق وهذا على الرأي المشهور الآن وإن كان ظنياً. نبي أمي يأتي منذ ألف وثلاثمائة سنة ويأتي العلم الحديث بما يقوله بحذافيره. ثم يقول الله: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ أي: النار حينما تهدم قشرة الأرض بانفجار عام أشبه بانفجار اليابان المتقدم ذكره ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة، وهو مصدر ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ فتغلبهم كما شوهد غلبتها لليابان ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أي صرفها ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يمهلون للتوبة والمعذرة، فكيف ساغ لهم أن يستهزئوا بك يا محمد وهذه العلوم غائبة عنهم سيعرفها من بعدهم، لأنهم ليسوا أهلاً لها فكان يجب عليهم التصديق بها إيماناً، وينقلون هذا العلم إلى أبنائهم من بعدهم وخلفهم، ويكون التصديق بك لما شاهدوا من الآيات العجيبة التي تناسبهم. وقد ادخرنا هذه الأمور لأمم ستأتي لتكون لهم آية علمية على صدقك، فتكون الآيات دائماً متجددة فتسلّ على استهزائهم بما حصل للرسل قبلك ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ كما استهزأ بك قومك ﴿ فَحَاقَ ﴾ فنزل ﴿ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: عقوبة استهزائهم.

هكذا سيحيق بهؤلاء ذلك وقد تم ذلك فعلاً يوم بدر وغيره. على أن العذاب الذي أعد لهؤلاء ليس قاصراً على يوم القيامة، بل الناس على سطح هذه الأرض معرضون لخطر في قيامهم وقعودهم تحيط بهم حوادث مزعجة قد منعناها عنهم برحمتنا وهم لا يشعرون بذلك. فنحن الذين لم نسلط عليهم الحيات مثلاً فتلدغهم وهم نائمون، ولم نسلط عليهم الحر الشديد ولا البرد الشديد فيموتوا. وهاهم أولاء يرون الآفات العارضة لزرعهم فلو أنا أكثرناها لم يبق لهم زرعهم. فالناس أينما حلوا أو ارتحلوا يرون أصنافاً من المهلكات، ولكنا نحن نمنعها عنهم، فالعذاب محيط بالناس الآن وهم غافلون. وإنّما نحن لما متعناهم ومتعنا آباءهم ومنعنا عنهم جميع الآفات المحيطة بهم حتى طال عليهم العمر ظنوا أنهم يفلتون من عذابنا دائماً، مع أنهم لو فطنوا لكرتهم الأرضية وتأملوا سطحها لوجدوا أنها قد انكمشت من جهة القطبين بسبب دورانها أيام كانت سائلة فهذا دليل على أن أرضهم نار ملتهبة، وكل ما فوقها سريع الذهاب والتقلب، فلا أمان للتقلب عليها. وهاهم أولاء يرون الأقوام تخطف من حولهم والأمم تؤخذ بذنوبهم من جيرانهم. فهلا اعتبروا بنقص أطراف الأرض وبنقص الأمم حولهم وأخذهم بحرب وضرب وتنكيل كما حصل في زمن النبوة بعد هذه السورة ونزولها، لأنها نزلت بمكة فسلط الله المسلمين على أطراف البلاد، وكما يجري الآن من تسلط الفرنجة على أطراف بلاد الإسلام، فكل هذه آيات للناس ليستيقظوا ولا يقفوا ويفكروا في أمر دنياهم وآخرتهم.

أقول: وإنّما لم ينصر المسلمين في الأزمان القريبة لأن الأخلاق معطلة، ألا ترى أن أهل أمريكا يبلغون نحو مائة مليون وهم من أمم شتى وقد كونوا مملكة واحدة. أما المسلمون فإن العنصر العربي منهم الذي يقطن جزيرة العرب لا يزيد عن عشرة ملايين وفيه بضع ممالك، وقد منعهم الحسد والجهل وسوء التربية وسوء الخلق والشره وقلة الدين أن يكونوا مملكة واحدة، فكل منهم يحذر الآخر. فأدبهم الله بالفرنجة وسلطهم عليهم فأذلوهم، وسيكون لهذا الأمر آخر وسيهديهم الله ويصلح بالهم ويؤدبهم ويسعدهم ويعلمهم الاتحاد إن شاء الله تعالى، فهؤلاء يقول لهم الله: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ وأمم الفرنجة تقص البلاد من حولكم قصاً.

فكيف جهلتم هذا ولم تتحدوا كما يأمركم دينكم، إنكم إذن جاهلون صم بكم لا تعقلون وهذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ يحفظكم ﴿ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ من بأسه، وعبر بالرحمة لما عرفت أن العذاب يكون بالآفات وهو يمنعه دائماً، ولما عرفت أن قشرة الأرض رقيقة ونحن عليها، فبرحمته حفظها من الفرقعة ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ لا يخطرونه ببالهم ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ أي: بل ألهم آلهة تمنعهم من العذاب ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: لا يقدرون على نصر أنفسهم فكيف ينصرون عبادهم ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي: ينصرون ويجارون ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ في الدنيا وأمهلناهم ﴿ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ أي: امتد بهم الزمان ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أي هؤلاء المشركون وغيرهم ممن يغترون بالسلامة ﴿ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ وهذا في الحقيقة من اقتراب العذاب لهم، فكيف لا يعتبرون بنقص الأمم حولهم وبغير ذلك ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ إنّما الغلبة لله ولرسوله وللقائمين بالحق ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ

إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴾ أصابهم شيء قليل ﴿ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ وأصل النفح: هبوب رائحة الشيء ﴿ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي لدعوا بالويل على أنفسهم واعترفوا عليها بالظلم كما تقدم في أول السورة، ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ أي: ونحضر الموازين ذوات العدل توزن بها صحائف الأعمال، و« القسط » مصدر يصح الوصف به مبالغة، وهذا تمثيل لحال العدل ﴿ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي: لجزاء يوم القيامة ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ من حقها أو من الظلم ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي: وإن كان العمل مقدار حبة منه ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أحضرناها ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ أي: عالمين حافظين. انتهى تفسير القسم الأول من السورة. وفيه لطائف:

اللطيفة الأولى: في مناسبة السورة لما قبلها، وفي قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الآية: ١] الخ، مع قوله: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[الآية: ٤٧] إلى قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الآية: ٤٧].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ [الآية: ٣٠] الخ.

اللطيفة الأولى في فائدتين

الفائدة الأولى في مناسبة هذه السورة لما قبلها

لقد علمت أن الدائرة العلمية في علم الطبيعة قد جاء ذكرها في « الحجر » وفي « النحل » مرتين ثم ذكرت قصة موسى وقومه مجزأة في « الإسراء » وما بعدها إلى « طه »، وجاء في هذه الأخيرة يؤيد العلوم العقلية بحيث انتهينا من عجل السامري وعبادة القوم له وتفضيله على عصا موسى جهلاً وغباوة، وأن ذلك داع حثيث إلى الرجوع إلى العلوم العقلية والطبيعية والفلكية، وأن الأمم لا تقوم إلا بها، كما أن العقائد لا تصح إلا بالتكمل بها، وظهر من هذا التقرير أن معرفة الله ليست مسألة ذات حلّ واحد، بل هي مسألة كثيرة الحلول كهيئة المعنى ونحوها. فكما أن الناس مختلفون أخلاقاً وغنى وقوى وفضلاً وجمالاً وألواناً لا عد لها، بل كل امرئ له مرتبة ليست للآخر، هكذا هنا معرفة الله هي أن يتكمل الإنسان بالعلوم العقلية والأخلاق بقدر طاقته. والجاهل من اكتفى بقشور العلوم وظواهر الديانات. فالقرآن جاء لهدم نظريات جميع الديانات وتأسيس أساس آخر وهو أن الناس يجب عليهم التكمل بالعلوم العقلية بقدر طاقتهم، أي: يكونوا ناهجين نهج الحكماء والفلاسفة، هذا هو المقصود من السور التي سبقت هذه السورة. ولعمرك لقد أوضحت هذا المقام إيضاحاً تاماً في هذا القول وما قبله وعليه. فكما أن الدين أمرنا أن نصلي الصلوات الخمس للتذكر ولن يكتف منا بصلاة يوم واحد أو بشهادة أن لا إله إلا الله، هكذا طلبت منا أن نزداد علماً دائماً. فبالعبادة نتذكر وبالعلم تثبت العقائد ويكمل نظام الأمم، وكما قال الله لرسوله: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[المزمل: ٢] قال له: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]، ومن عجب أن تذكر هذه الآية في سورة « طه » بعد الكلام على أن الإيمان لا يتم إلاّ بالعلم، فكأنه يقول: يا محمد هاأنت ذا رأيت أن خوارق العادات لم تؤثر إلا زمناً قليلاً في بني إسرائيل، فاطلب من ربك ازدياد العلم تعليماً لأمتك، فقل لهم يزدادوا علماً أزدهم هدى وعمران بلاد وأجعلهم خلفائي في خلقي، وقد قلت لهم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]

فبهذا تكونون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠] كما وعدكم ربكم. وقد تبين بهذا أن معرفة الله ليست مسألة حسابية أو جبرية أو فلكية وإنّما هي غذاء للنفوس، فكلما غذينا النفوس علماً ازدادت بصيرة بربها. وبعبارة أصرح وأوضح: إن الله يطلب منا أن نلمّ بالعلوم الطبيعية التي لا تكون إلا بالرياضة، وهذه العلوم يتبعها معرفة الله، ومعنى معرفته الانتقال بالتدريج من النقص العلمي إلى الكمال العلمي، وذلك درجات كدرجات الغنى والقوة الجسمية والقوة العقلية وقوة الحرارة وما أشبه ذلك. هذا ما يفهم من القرآن وما ظهر في سورة « طه » وما قبلها.

إذا علمت هذا فاعلم أن سورة « الأنبياء » أكملت ما تقدم. فإذا كانت السور قبلها قد كررت ذكر العلوم النباتية والحيوانية وسلسلة المواليد؛ فهذه السورة قد أتت بنظام الأرض نفسها، ومن أين اشتقت وأشارت إلى أنها فصلت من الشمس كما أوضحناه. فالسور قبلها علمت علم المواليد، وهذه أشارت إلى اشتقاق السماوات والأرض وتبطيط القطبين، وأن الجبال متصلة بالطبقة الصلبة حافظة للكرة الأرضية النارية أن تميد فيهلك من عليها وهكذا. هذه هي المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها فهي تتمة لها. وقد أظهرت أيضاً أن العلوم ستجدد في الأزمان المقبلة، أي: كزماننا هذا، وأن الناس سيعلمون غوامض علوم القرآن، كما تبين لك إيضاحه هنا إجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤] في آخر سورة « طه »، وازدياد علم أمته تبع له، وازدياد علمنا يكون بتجدد العلوم على مدى الأزمان كما سيحصل لأمة الإسلام المستقبلة. انتهت الفائدة الأولى.

الفائدة الثانية: من اللطيفة الأولى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾

اعلم أني لما وصلت إلى هذا المقام جاءني ذلك الفاضل وأخذ يحاجني فقال: إن اقتراب الساعة أمر مشكل، إن هذا القول قيل لآدم وإدريس ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم. كل هؤلاء يقال لهم: اقتربت الساعة، ولم تقترب ولم تقم، فأين الساعة؟ وإني أقول لك بصريح العبارة: إن القيامة بعيدة علينا كما بعدت على من قبلنا. فإذا مضى علينا الآن ألف وثلاثمائة وسبع وأربعون سنة بعد نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولم تأت القيامة، وقد كان الصوفية في الألف الأولى يحسبون حساب القيامة وأنها آتية في زمانهم، وهكذا من قبلهم ومن بعدهم ولا قيامة إلى الآن. وهكذا الأمم قبلنا كانوا يحسبون، وإلى الآن لم تقم القيامة، فما هذا الوعد إذن؟ فيظهر أن هذه القيامة طويلة المدى بعيدة جداً، وهذا البعد يورث التراخي، والعاقل الحازم لا يضيع يومه للمستقبل البعيد. فماذا ترى؟ قلت: إن القيامة الكبرى لا تكون إلا عند تفكك الكرات الأرضية والشمسية، أي أن النظام الشمسي كله يحترق ويذهب. ثم يرجع إلى المصنع الكبير السماوي ويصنع مرة أخرى ونذهب نحن في عالم آخر.

هذا هو عالم القيامة الكبرى، ولكن ليس العذاب قاصراً على القيامة الكبرى، فإن الدين الإسلامي جعله عند النزول في القبر. وورد في الشريعة أن النار يعرضون عليها غدواً وعشياً، وهناك أحاديث كثيرة. فقال: وضح مسألة الحساب في القبر. فقلت له: إن الشريعة أتت بها مبهمة لأنها أمور تأتي في عالم ألطف من عالمنا، فذكر الشرع عذاباً ونعيماً مجملين، وأبان أن الحجاب يكشف ويطلع الإنسان على أخلاقه وأعماله بعد الموت، وأن الملائكة يسلمون والشياطين يقرنون كل بما يناسبه،

وذكر ناراً ونعيماً وهكذا. قال: فهل أتى العلم الحديث من هذا بشيء في علم الأرواح؟ قلت: اقرأ كتاب «الأرواح» الذي ألفته في هذا، واقرأ كتب إخواننا الذين كتبوا في هذا. قال: فاذكر لي قولاً مجملاً فيما قالته الأرواح مع العلم بأن كلامها لم يقم عليه دليل، فاذكر بعض ما قرأته من المجلات عن أحوال الأموات مما ذكرته الأرواح والمسلمون فيما بعد يحضرونها ويبحثون الموضوع. فقلت: إن الأرواح تقول إننا بعد الموت نعيش على ما كنا عليه، بحيث يبقى الإنسان بأخلاقه ومعه جميع مواهبه الأخلاقية والعلمية، ويوضع في مركزه المعدّ له في الآخرة، ويعيش مع من هو مناسب لهم في الأطوار والأحوال، ويجد الإنسان جميع أعماله حاضرة عنده فيعذب بها أو ينعم. والمرء له ثلاث حالات: حال وطنية، وحال منزلية، وحال شخصية، فقد يكون كاملاً فيها جميعها فيرتقي، وقد يكون ناقصاً في الأخلاق الشخصية فاضلاً في الوطنية والمنزلية وبالعكس، فبعد الموت يؤمر أن يكفر عن ذنوبه بأن يعيش مع من ظلمه ويؤدي له كل ما عليه ويكون تحت أمره في أعمال يرضاها، وهذه الأمور لا ندركها الآن. وقد يكون صالحاً في نفسه نافعاً لأهله ولكنه يظلم هو وأمته قوماً آخرين، فبعد الموت يعيش عيشة فردية لا ظلم فيها، وهكذا حياته مع عشيرته، ولكنه هو ومن معه من المشركين يلزمون بأعمال يقهرون عليها لمن ظلموهم. ثم إن الأرواح تقول: إن القصاص عندنا عدل لا عوج فيه وهو من هذا القبيل. وعندهم أن البخيل معذب بماله، والحريص مقطع القلب على أعماله، وهكذا.

فقال صاحبي: هذا كلام لست أدري أحق أم باطل، فقد يكون هذا من الأرواح أشبه بنصائح اخترعوها لأجل هدايتنا بما يناسب عقولنا في العصر الحاضر. وربما كنت أنت لما نقلتها تركت أشياء تراها غير موافقة لعقائدنا فأعرضت عنها وخاطبتنا بما نفهمه. وإذن المسألة كلها المخاطبة على مقتضى الأفهام سواء أكان المؤلفون أم الأرواح أم الديانات. فقلت له: قل ما تشاء فلا ضرر وأن حرص الأرواح التي تكلم الناس وحرص الأنبياء وحرص الحكماء دليل على أن هناك عالماً غير عالمنا نعيش فيه بعد الموت ونجازى. قال: فهل تذكر لي شيئاً مما نقلته في كتاب «الأرواح» مما تقوله نفس الأرواح مع الاختصار، حتى إن المسلمين يحققونه في المستقبل وينظرونه بأنفسهم؟. قلت: نعم أذكر لك من صفحة ١٠٥ من كتاب «الأرواح» الطبعة الثانية وهاهو ذا:

الحديث الحادي عشر
مع حذف كثير من الأسئلة الخارجة عن موضوعنا

روت المجلة الروحانية في عدد شهر آب سنة ١٨٦٠ خبر حوادث مزعجة جرت في مدينة باريس شارع «نويه»، والأجوبة التي أعطاها الروح محدثها عندما استحضرته إحدى الجماعات الروحانية ما تعريبه:

س ـ إلى الروح الموكول إليه حراسة الجمعية. هل من صحة للحوادث التي تمت في شارع «نويه»؟.

ج ـ نعم، وقد عظمتها مخيلة البعض إما من باب الخوف وإما من باب السخرية. أما محدثها فهو روح طائش يقصد اللهو وإرعاب سكان الناحية.

س ـ أللأرواح تعلق بالأشخاص فقط أم بها وبالأشياء أيضاً؟.

ج ـ هذا منوط بدرجة ارتقائهم فلبعض الأرواح السفلية تعلق شديد بالأشياء الأرضية كالبخيل مثلاً الذي لم يتجرد بعد من الماديات، فإنه يلازم الكنز الذي خبأه تحت الأرض ويحافظ عليه.

س ـ هل للأرواح التائهة أماكن تسرّ بالإقامة بها؟.

ج ـ المبدأ واحد، أي أن الروح الذي تجرد من الأرضيات يذهب حيثما تجذبه المحبة. وأما بعض الأرواح السفلية فتستحب أحياناً الإقامة بمكان تسر به لداع من الدواعي.

س ـ هل تألف الأرواح القبور المدفونة فيها أجسادها؟.

ج ـ إن الجسد كساء مؤقت فلا تكترث الروح به أكثر من اكتراث السجين بسلاسله، إنّما الشيء الوحيد الذي يميل الروح له هو ذكر أحبائه له.

س ـ ألا تسرهم الصلاة التي تقام على لحودهم؟.

ج ـ إن الصلاة استحضار يجذب روح الميت. وكلما كانت الصلاة حارة نقية ازداد سروره بها فمشهد القبر يزيد المصلي خشوعاً وهيبة كما يحفظ أثراً للميت يحرك فيه الذكر والمحبة. وعليه فالفكر هو الذي يفعل بالروح لا الأشياء المادية، وتأثير هذا عائد على الحي أكثر مما على الميت.

س ـ فعلى هذا المبدأ قد يمكن لبعض الأرواح أن يميلوا بزيادة إلى بعض الأماكن؟.

ج ـ نعم وقد يدوم مكثهم فيه طالما دواعي الاجتذاب عاملة فيهم.

س ـ ما تكون هذه الدواعي؟.

ج ـ أخصها محبتهم لبعض الأشخاص المترددين إلى تلك الأماكن ورغبتهم في مناجاتهم. وإن كان الروح شريراً يقصد الانتقام من عدوّ له مقيم بتلك النواحي ويكون أحياناً مكثه في مكان مخصوص اضطرارياً حكم عليه به قصاصاً عن جرم اقترفه في ذاك المكان نفسه حتى تكون خطيئته دائماً نصب عينيه فيحصل له من ذلك عذاب لا يطاق.

س ـ كثير من أهل الصلاح يكونون مع هذا عرضة لإزعاجات الأرواح الشريرة. فما الداعي لذلك؟.

ج ـ إن كان هؤلاء حقاً صالحين يكون لهم ذلك من باب التجربة لترويض صبرهم وحثهم على القدم في الصلاح، ولكن لا تثقوا كثيراً بظاهر الفضيلة، ولا تظنوا أن من يكثر من ذكرها هو صاحبها، فإن من يملكها حقاً ويحملها لا يتكلم عنها.

س ـ هل تستطيع أن نحضر الروح المسبب الجلبة في شارع «نويه»؟.

ج ـ يمكنكم ذلك. إنّما هذا روح طائش لا تأتيكم أجوبته بفائدة. وإليك الأجوبة التي أعطاها الروح المذكور وقت إحضاره: قال: ما تقصدون من إحضاري؟. هل تشتهون أن أقذفكم ببعض الحجارة لأشهد هزيمتكم رغماً مما تبدونه من مظاهر البسالة؟.

س ـ حجارتك لا تفزعنا بل نسألك إن كنت حقاً تقوى على قذفها.

ج ـ ربما لا أجسر على ذلك لأن هاهنا حارساً جليلاً متيقظاً عليكم.

س ـ هل وجدت في شارع «نويه» شخصاً تستعين به على الأعمال المكربة التي أقلقت بها سكان المنزل؟.

ج ـ نعم وجدت آلة نفيسة، وصفا لي الجو بعدم وجود روح قدير يصدني عن عملي. إني كثير البسط والانشراح وأحب أحياناً أن أتسلى.

س ـ من هي الآلة التي استعنت بها في عملك؟.

ج ـ هي خادمة. وبعد أسئلة كثيرة سألوه الأسئلة الآتية:

س ـ كم لك من الزمان وأنت ميت؟.

ج ـ خمسون سنة.

س ـ ماذا كنت في حياتك؟

ج ـ خرقياً لا نفع به أجول في هذه النواحي والناس يهزؤون بي لتعلقي بشراب أبينا نوح الأحمر.

س ـ ماذا تعمل الآن وهل تسعى في أمر مستقبلك؟.

ج ـ كلا. أنا تائه الآن لأنه ليس من يفكر بي على الأرض ولا من يصلي لأجلي.

س ـ ماذا كان اسمك في حياتك؟.

ج ـ حنين.

س ـ إننا مستعدون لإسعافك بالصلاة. فقل لنا يا حنين: هل سررت بإحضارنا لك؟.

ج ـ نعم أنتم قوم صلحاء محبو الزهد وقد سررت جداً باستماعكم لي. استودعتكم الله.

قال شير محمد: ماذا ترى في هذه الحادثة من العجائب العلمية؟ قلت: يا شير محمد تذكرت بقول الروح أن الأرواح تألف الأمكنة التي يناجيهم فيها من يحبونهم ما قرأته في كتاب «المضنون به على غير أهله» للإمام الغزالي قال: ومن أقبل في الدنيا بهمته وكليته على إنسان في دار الدنيا فإن ذلك الإنسان يحس بإقبال ذلك المقبل عليه ويخبره بذلك. فمن لم يكن في هذا العالم فهو أولى بالتنبيه وهو مهيأ لذلك التنبه، فإن اطلاع من هو خارج عن أحوال العالم على بعض أحوال العالم ممكن كما يطلع في المنام على أحوال من هو في الآخرة أهو مثاب أم معاقب، فإن النوم صنو الموت وأخوه، فبسبب الموت صرنا مستعدين لمعرفة أحوال لم نكن مستعدين لها في حال اليقظة، فكذلك من وصل إلى الدار الآخرة ومات موتاً حقيقياً كان بالاطلاع على هذا العالم أولى وأحرى. فأما كلية أحوال هذا العالم في جميع الأوقات فلم تكن مندرجة في سلك معرفتهم، كما لم تكن أحوال الماضين حاضرة في معرفتنا في منامنا عند الرؤيا. ولآحاد المعارف معينات ومخصصات منها همة صاحب الحاجة وهي استيلاء صاحب تلك الروح على صاحب الحاجة، وكما تؤثر مشاهدة صورة الحي في حضوره وخطور نفسه بالبال فذلك تؤثر مشاهدة أثر ذلك الميت ومشاهدة تربته التي هي حجاب قالبه، فإن أثر ذلك الميت في النفس عند غيبته مشهده ليس كأثره في حال حضوره ومشاهدة قالبه ومشهده. ومن ظن أنه قادر على أن يحضر في نفس ذلك الميت عند غيبة مشهده كما يحضر عند مشاهدة مشهده فذلك ظن خطأ فإن للمشاهدة أثراً بيناً ليس للغيبة مثله. انتهى المقصود منه بالحرف الواحد.

وإنما ذكرت لك ذلك لأريك العجب في توافق أقوال علمائنا لما نطقت به الأرواح على اختلاف مشاربها ومنازعها واختلاف أقطار إحضارها في مشارق الأرض ومغاربها في الروسيا وأمريكا وإنجلترا وفرنسا وأسبانيا حتى أصبح ذلك متواتراً. فانظر كيف وافق قول الإمام الغزالي المذكور قول الروح.

فمشهد القبر يزيد المصلي خشوعاً وهيبة كما حفظ أثراً للميت يحرك فيه الذكر والمحبة. وعليه فالفكر هو الذي يفعل بالروح لا الأشياء المادية، وتأثير هذا عائد على الحي أكثر مما على الميت.

وقولها أيضاً أخص دواعي ميل الأرواح إلى الأماكن محبتهم لبعض الأشخاص المترددين على تلك الأماكن ورغبتهم في مناجاتهم وإن كان الروح شريراً قصد الانتقام من عدو له مقيم بتلك النواحي فتأمل وتعجب.

فلما أتممت هذا المقال قال صاحبي: قد فهمت أن العقول والديانات متضافرة مع علم الأرواح على أننا سنجازى بعد الموت فعلاً. وأصبح الآن عندي أشبه بالمحقق، ولكني أقول أيضاً: إن هذا العقاب أيضاً بعيد، وكيف لا يكون بعيداً ونحن نرى أن الناس يعاقبون على ذنوبهم في محاكمهم بعد الجرم، وإننا نجد الحكومات تسامح من غاب عن الوطن مدة معينة إذا كانت عقوبته على جريمة متوسطة. فإذا كان الناس في محاكم الشرق والغرب يراعون اقتراب الذنب من الجريمة فإذن تأخير العقاب إلى ما بعد الموت غير كاف في تهذيب النفوس البشرية فقل ما تشاء. إن عذاب القبر وما بعده لا يردع النفوس البشرية كل الردع، بل لا يرتدع به إلا أوساط الناس، وعذاب الآخرة البعيد يرتدع به الجهال والنساء والأطفال. فأما أرقى الطبقات المتعلمة فليس شيء من ذلك بمقنع لها. ولذلك ترى أكثر الظلم إنّما يكون من عظماء الأمم والملوك والذين بيدهم الحل والعقد والمجالس النيابية في جميع الأمم.

قلت: إن العذاب كما جاء في الدين ليس قاصراً على الآخرة والقبر. إن العذاب يحل بالأفراد والأمم من وقت وقوع الجريمة، ولكن الناس في الدنيا مساكين لا يشعرون وبعضهم يشعر به. قال: فاضرب لي مثلاً على شريطة أن تؤيده بالقرآن. فقلت له: آتيك بأمثلة وبآيات.

مثال ذلك من ظلم الناس أموالهم وأصبح مثرياً غنياً يشار إليه بالبنان وقد أخذها بسرقة أو بنهب فإن هذا أولاً: يجد في قلبه حزناً وهو يكتمه وألماً، لأن النفوس الإنسانية لها شعور بما كسبت ولها ميل للعدل، فوخز الضمير ملازم لها ولكن يختفي ذلك كثيراً. قال أفلاطون: إن الظالم معذب بضميره كعذاب المظلوم الذي سلب ماله.

وثانياً: يرى في الحرص عليه وحقد القلوب وكراهة الناس آلاماً.

وثالثاً: النوائب التي تحل بالمال الحرام وبالمال الحلال كلها عذاب لصاحب المال، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[التوبة: ٥٥]، فانظر كيف ذكر العذاب في الحياة الدنيا. ناهيك ما ترى من خبر خراب الأمم وزوالها في القرآن، فكل هذا عذاب دنيوي. إن الإنسان يعذب بالتفريط في أي قوة من قواه الجسمية والعقلية في هذه الدنيا.

إن الإنسان في الدنيا يرى أنه بتقصيره في كسب المعالي ينزل درجات عن غيره وهو في الدنيا إنه يحس بألم في القلب إذا وجد غيره عالماً بمسألة هو يجهلها. إنه متى أكرم امرأ وجد المحبة له جزاء، ومتى أهان آخر وجد الكراهة له جزاء. وما ترك وقتاً بلا عمل وهو قادر إلا أحس بندامة. إنه إذا أكل فوق طاقته تجرع غصص الأمراض. وإذا ترك الطعام فلم يأكل أحس بألم الجوع. وإذا ترك التزوج مثلاً أحس بألم الشبق. وإذا ترك التداوي ازداد به المرض. وإذا لم يحسن المعاشرة انصرفت القلوب عنه.

إن الميزان منصوب في الدنيا ومنصوب في الآخرة والله هو الممسك بالميزان، ونحن الآن توزن أعمالنا صباح مساء ونحن غافلون، ونحس ببعض العذاب وبعض الثواب وسنشعر بالباقي بعد فراق هذه الدار. فلما سمع صاحبي ذلك أشرق وجهه واستبشر وقال: حقاً لقد أزلت الحجاب ونطقت بالصواب، وأفهمتني قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الأنبياء: ٤٧]. وإني لا أقول: آمنت، بل أقول: أيقنت أن الحساب واقع الآن ولكنه مغطى علينا، وأن ذلك الحساب مستمر بعد الموت ملازماً لنا ملازمة الظل للشبح. وأيقنت أنه لا فرق بين قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[الأنبياء: ٤٧] وبين قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر: ١٩]، وقوله: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]. والحساب الآن موجود ولكن نحس منه ببعض الآثار فإذا متنا نطلع على ذلك واضحاً جلياً ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤]. وإذا كنا نجد أن الماء مركب من ذرات الأكسوجين وذرات الأدروجين بنسب لا خطأ فيها، وأن أقل ذرة توضع في الماء من أحدهما خارجة عن الوزن لا يقبلها الماء ولا تدخل فيه، فهذا الميزان المشاهد أمامنا أثره ونقرؤه في علم الكيمياء هو بعينه الذي يطلعنا الله عليه بعد الموت، وهو الذي نصبه الآن وبعد الآن لوزن أعمالنا فيما حولنا وفيما بعد الموت والحمد لله على هذا العلم الصحيح. انتهى الكلام على اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾

هاأنت ذا قد اطلعت على ما أبرزه القرآن قبل مئات السنين من أن السماوات والأرض أي الشمس والكواكب وما هي فيه من العوالم كانت ملتحمة ففصلها الله تعالى. وقلنا: إن هذه معجزة لأن هذا العلم لم يعرفه الناس إلا في هذه العصور. ألا ترى أن كثيراً من المفسرين قالوا: إن الكفار في ذلك الوقت ليس لديهم هذا العلم. فكان جوابهم على ذلك أنهم أخبروا به في نفس هذه الآية، فكأن الآية تستدل عليهم بنفس ما نزلت به وذلك أن هذه الأمور لم تخلق. وقد أخذ العلماء يؤولون تأويلات شتى لفرط ذكائهم وحرصهم رحمهم الله. وهانحن أولاء نجد هذه العلوم المكنونة المخزونة قد أبرزها الله على أيدي الفرنجة كما نطق القرآن هنا كأنه يقول: سيرى الذين كفروا أن السماوات والأرض كانت مرتوقة ففصلنا بينهما، فهو وإن ذكرها بلفظ الماضي فقد قصد منه المستقبل كقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾[النحل: ١]، وهذه معجزة تامة للقرآن وعجيبة من أعجب ما يسمعه الناس في هذه الحياة الدنيا. ولذلك تجد نفس هذه المسألة أصبحت عقيدة في جميع المدارس شرقاً وغرباً فإنهم يقولون للتلميذ: إن الأرض جزء من الشمس انفصلت منها وهي تدور حولها.

هذه العلوم أصبحت عقائد للذين كفروا وللذين آمنوا. هاهو ذا ربنا يقول لنا: لقد فهم الذين كفروا علوماً فهلا آمنوا بي، لأن هذه العلوم تدل على عظمتي وحكمتي وإبداعي وجمالي وإحكامي في عملي، لأني هكذا خلقت الكائنات وربيتها طبقاً عن طبق باعترافهم، وجعلت الماء لحياة الحيوان والجبال لحفظ الأرض من التموج والضياع في الخلاء الذي لا يتناهى.

خطاب لعلماء الإسلام

أيها العلماء : لا عطر بعد عروس ولا مخبأ بعد بوس . قد أعذر من أنذر . هل بعدما تبين لكم الحق ورأيتم كيف رضي الله العلوم متى كانت موافقة للعقل وحض الناس عليها؟ هل بعد هذا تتجافون عن النظر لعجائب ربكم . كفى يا أمة الإسلام . أيها الذكي القارئ لهذا التفسير ، اسمع مني وتأمل ما أقول :

قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[آل عمران : ١٨٧] فقال صلى الله عليه وسلم : « ما علم الله عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على الأنبياء لتبيننه للناس ولا تكتمونه » اهـ . هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « أخذ علينا العهد كما أخذ على الأنبياء » . إن الأنبياء اليوم عند ربهم ونحن سكان الأرض الآن مأخوذة علينا العهود ، والعهد تابع لنفس العلم . فأنت أيها الذكي مسؤول عن هذه الأمة وعمن حولك على مقدار طاقتك . هل في شرعة الإنصاف أن تكون أمة هذا كتابها أجهل الأمم به وبالعلوم التي أنزلها الله ؟هل من جادة الحق وطريق الصواب أن الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[الأعراف : ١٠] ويصبح المخاطبون بهذا القول أجهل الأمم بهذه الأرض وبما فيها؟ .

يقول الله : إن الأرض التي جعلت لكم فيها معايش محل شكركم وأنتم لا تشكرون إلا قليلاً ولا يكون الشكر إلا بالتذكر والتفكر أولاً ، والعمل باليد واللسان ثانياً . هاأنت ذا عرفت وأنت مسؤول بين يدي الله فلتكن أنت العامل لأمتك الإسلامية . إنها في حاجة إلى النصير والمعين فأذع هذا القول وأمثاله مما يفتح به عليك ما دمت من الصادقين الموقنين .

اعتراض على المؤلف وسؤال وتبصرة

حينئذ قال لي ذلك العالم صديقي : إذن أنت تريد أن تصورنا نحن العلماء بصورة المقصرين .

فقلت له : إن التقصير على مقدار العلم وما دام الناس لا يعلمون فماذا يفعلون ولا يعلم إلا إذا تعلم . فأنا أطلب من العلماء أن يقرؤوا العلوم ويفهموا الشبان أن الله خلق الأرض والسماء لدراستهم ، لأنه كما جعلها معايش جعلها دروساً ، أي : محل دراسة ، فهي كتاب مسطور ، فإنه قال في هذه السورة : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء : ٢٥] فجعلها آيات كما جعل في القرآن آيات . وآيات القرآن تطلب منا آيات العوالم المحيطة بنا .

قال : هاأنت ذا ذكرت عقاب الله للناس على الأرض ، فماذا عوقب به المسلمون اليوم؟ قلت : المسلمون عوقبوا بإذلال الفرنجة لهم . فقال : وبماذا أفاد العقاب؟ قلت : أفاد كثيراً ونجح نجاحاً باهراً . ألم تر إلى أمم الترك كيف استقلت وصلح حالها وأمة الأفغان كذلك . وترى الأمم التركية تتجاذب وتتحد وهكذا . أما أمة العرب فإنها إلى الآن تذوق العذاب . قال : أوضح المقام . قلت : انظر غلى أمريكا وهي من أمم مختلفة أصبحت أمة واحدة تربو على مائة مليون وهي مكونة من عشرات الممالك . انظر إلى ألمانيا بلغت نحو ٧٠ مليوناً وهي ممالك مختلفة صارت مملكة واحدة ، انظر إلى إنكلترا كذلك انظر إلى غيرها وغيرها ، ثم انظر إلى أمة العرب كمصر وتونس والجزائر ومراكش وبلاد

الشام والعراق وبلاد الحجاز هؤلاء كلهم عرب؛ فانظر ماذا أصابهم؟ فتحوا البلاد قديماً ثم عاشوا فيها وخضعوا لأمم غيرهم، فأصبح الشامي لا يفهم المصري إلا قليلاً، والعراقي لا يفهم المغربي في تونس إلا قليلاً، ولا يمكنهم أن يجعلوا لهم وحدة. هكذا ترى الأقطار الحجازية واليمنية في جزيرة العرب التي هي منشأ العلم والدين لم تتحد ممالكها، بل هم أعداء مع أنهم لا يبلغون عشر الممالك المتحدة.

الحق والحق أقول إن الله لا يأذن ببقاء أمم في الأرض ضالة جاهلة. إن الله أذن بارتقاء الإنسان فمن ارتقى أبقاه ومن لم يرتق أقصاه. إن الله أعطى الترك نصيباً من العقل فعملوا بهذه النصيحة، أما العرب فإنهم لا يزالون جاهلين خامدين وستعلمهم الحوادث في المستقبل الاتحاد وتنشأ سكة حديد من مراكش إلى الجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشام والعراق مخترقة الحجاز، ويكونون دولة بينها وبين الأفغان والترك معاهدة ومع الفرس. هذا هو اليوم الذي يقال فيه: إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قامت بما عليها. هذا هو اليوم الموعود للمسلمين. أما هذه الحياة فحياة الغباوة والكسل والجهالة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١]، فليعرف كل قوم وطنهم ثم جنسيتهم ثم الجامعة العامة، ولكن أبناء مصر الآن وأبناء العرب لا يعلمون شيئاً من هذا، فإن الأمير عبد الكريم القائم الآن في مراكش يدافع عن بلاده ضد أسبانيا لم يساعده إخوانه في مصر من العرب ولم يجيبوا نداءه بالمساعدة المالية فضلاً عن الطبية والحربية. فالجهل مخيم ولكن الله يريد إزالته ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[ص: ٨٨]. إن الله لا يبقي إلا الأصلح في هذا الوجود، والله هو الولي الحميد.

وكيف يدخل الناس الجنة، ويقال: إنهم على سرر متقابلين، أو ينزع ما في صدورهم من غل وهم لم يحوموا حول هذا في الدنيا، لكل عمل في الآخرة أس في الدنيا فأين الأس هنا.

إن كل عمل يعمله المرء يرصد له في حسابه حتى الحركة والخطوة والكلمة. وهذا يسجل له في أعضائه وحركاته المستقبلة ويكون كل عمل مبدأ لما بعده ويصبح سجية راسخة صالحة أو طالحة، فهذا نوع من الجزاء للفرد بحيث لا يعمل عملاً صغيراً أو كبيراً ولا يفكر فكراً كذلك إلا كان له أثر في أعماله في الحياة الدنيا شاء أم أبى.

هكذا الأمم فكل جهل وكسل في الأمة يضعف أعمالها وأملها ويؤخرها وتصبح فريسة لغيرها. فأين الاتحاد في الإسلام. ولم اتحد أهل أوروبا وهم لا يتحدون. أفلا يقرؤون ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾[الحجر: ٣٢] في الآخرة، ولا بد من مقدمة ذلك في الدنيا، أفلا يقرؤون ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[الحجرات: ١٣] فأين التعارف وقد تعارف الألمان والطليان والأمريكيين.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الآية: ٢٥] مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[الآية: ٥١] إلى قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾[الآية: ٥٨]، وتبيان التماثيل التي عكفوا عليها وكسرها الخليل عليه السلام

اعلم أن هذه الآية أيضاً من المعجزات القرآنية. ذلك لأن الكشف الحديث أظهر أن كل دين كان في أصله دين توحيد.

وأذكرك بما تقدم في سورة « آل عمران » من أن كتاب « الفيدا » الذي هو أصل دين البراهمة قال بالتوحيد، وهكذا دين « خريستا » قبل المسيح بنحو ٤٨٠٠ سنة، وبوذا بعده سنة ٦٠٠ ق. م، ودين قدماء المصريين، وبيان رؤيا « هرمس » التي صرح فيها بالتوحيد تصريحاً واضحاً، وهكذا دين « بو » الكبير بالصين، ودين « ليونسو » بعده بالصين أيضاً. هذه هي الديانات المنتشرة اليوم في الأرض وأصلها التوحيد. وقد تقدم أيضاً نحو هذا في سورة « إبراهيم » في المجلد السابع من أن علماء الهند ومصر وحدوا سراً وأشركوا جهراً لإضلال العامة ولتبقى لهم السيادة عليهم، والتثليث عند هذه الأمم جاء بعد التوحيد، هذا هو ما تقدم، ولكني الآن أريد أن أضيف إلى ذلك جمالاً في العلم وحكمة ونوراً أشرق على أهل الأرض بالكشف الحديث. ذلك الكشف الذي أيد هذه المسألة تأييداً أتم:

(١) فأوسع القول الآن في دين قدماء المصريين لفوائد لم تكن ذكرت من قبل.

(٢) وأذكر دين الفرس القدماء وأبين أن أصل هذا أيضاً التوحيد.

(٣) وأن الإسلام جاء لإيضاح الحقيقة التي غطاها المضلون من أهل الديانات. فهي ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في دين قدماء المصريين

قد أظهر الكشف الذي ذكره « وولكنصن » البحاثة الإنجليزي ثلاثة وسبعين إلهاً وإلهة، وقال إنهم لم يبيتوا عداهم، وورد في كتابه مصرية لرعمسيس الثاني العبارة الآتية وهي: الآلهة الألف أي الآلهة والإلهات الذين في مصر. وجعلها هيرودوتس ثلاث رتب ٨ منها في المرتبة الأولى و١٢ في الثانية والباقية في الثالثة. ومن عجب أن هذه الأمة كانت تجمع بين المتناقضين: العقل الكبير والسخافة، ففيهم انحطاط وارتفاع في الأمور العقلية معاً. فأما السخافة فهي الظاهرة العامة. وأما سموّ الفكر فهي عند الخاصة الذين كانوا يعتقدون إلهاً واحداً.

ثم إنه يؤخذ مما يقوله « برتش » دليل المتحف المصري ومن كتاب « موقع مصر » لبنصن المجلد الخامس ومن كتاب « مصر في الأزمنة القديمة » لبرتش و« وولكنصن » و« رولنصن » قد أخذ من مجموع كلامهم ما يأتي:

إنهم يقولون: الخالق الحق للسماوات والأرض لم يخلقه أحد، الواجب الوجود لنفسه الكائن منذ الأزل الروح الطاهر الكامل في جميع أوصافه، الكلي الحكمة والقدرة والقداسة. وهذا الإله لم يصنعوا له رسماً ولم يكن له اسم عندهم ولا يبيحون التلفظ باسمه. ويقولون: إن كل ما سواه من الآلهة ليس إلا صفة له أو قسماً من الطبيعة التي خلقها، وكانوا يقولون: إن العبادة للآلهة الصغيرة هي لله أي: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣] وإذا كان الله لا يجوز التلفظ باسمه فوجب أن نقدم للآلهة الصغيرة لأن الله أكبر من أن نعبده نحن.

أقول: إن ذلك أشبه بما يصنعه الناس اليوم إذ يخاطبون الوزير أو الأمير بقولهم: حضرتك وسعادتك وجلالة الملك وعظمة السلطان، وهذا من التعالي في العظمة. فإذا كان الإنسان اعتاد التغالي في عظمة المخلوق فهاهو بالأولى لم يعرف بأي طريق يعظم الله إلا بترك اسمه ونسيانه وعبادة مخلوقاته. ولما كانت الآلهة الصغيرة المعروفة عند العامة ليست مقصودة لذاتها بل هي رمز لخالقها. أجازوا أن يسمى الواحد من هذه الآلهة باسم الإله الآخر منها، لأنها مرجعها كلها إلى الإله الأول.

هذا في العقيدة القلبية . أما اليوم الآخر فقد كان معروفاً عند العامة والخاصة ، كانوا يعتقدون بخلود النفس ومتى فارقت الجسد دخلت دار الحق وحوكمت في حضرة « أوسيريس » والاثنين والأربعين قاضياً الذين معه ، فيأتي « أنويس » بن « أوسيريس » بميزان يضع في ناحية منه تمثال الحق وفي الكفة الأخرى إناء فيه حسنات الميت ، فإذا رجحت الحسنات على التمثال أبيح للنفس أن تدخل قارب الشمس وقادتها الأرواح الصالحة إلى الفردوس ومساكن الأبرار ، وإن لم ترجح حكم عليها أن تتقمص في أجساد الحيوانات ، كما تقدم في أقوال « طيماوس » في محاوراته مع « سقراط » في سورة « النحل » ، فهناك يقول بهذا فقوله نفسه كما تقول الهنود . إذن هذه عقيدة أهل الهند ومصر واليونان الدنسة ، والمدة التي تقضيها في تلك التقمصات تتوقف على مقدار اجتهادها في التطهير فإن لم تتطهر في تقمصها حكم عليها بالإعدام . فأما النفس الصالحة فتظهر من سيئاتها بالنار المطهرة وتقيم مع « أوسيريس » ثلاثة آلاف سنة ثم تعود إلى الأرض وتدخل الجسد الذي خرجت منه فيقوم من الأموات ويعيش كما عاش أولاً وينكر عليه البعث والموت حتى يبلغ السعادة العظمى ، إذ ترجع نفسه إلى النور الإلهي الذي صدر منه وهناك كمال السعادة . انتهى .

هذه هي الديانة القديمة عند قدماء المصريين . هذا الدين كان في أول أمره حقاً كالإسلام ، ولكن هذه الخرافات التي جاءت لهم من دين البراهمة بالهند قبل المسيح بأربعة آلاف وثمانمائة سنة هي التي أوقعتهم في خرافات أشد من غيرهم ، فهم ظنوا أن الروح ترجع إلى هذا الجسم فحنطوه وأبقوه لهذه العقيدة . فأما القضاة وأسماء الآلهة ونحوها فهي كلها ضرب أمثال للعامة .

الفصل الثاني : في ذكر دين الفرس القدماء

اعلم أن الآريين كانوا يسكنون قديماً أواسط آسيا شرقي بحر قزوين والجزء الشمالي من « هندكوش » ، وقد تفرع من هذا الأصل « السلتيون » فرحلوا إلى أوروبا من طريق بلاد العجم وآسيا الصغرى . وارتحل بعدهم أسلاف إيطاليا واليونانيون والتوتونيون ، فبعض هؤلاء رحلوا إلى أوروبا في الطريق بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وما بقي من ذلك الأصل ذهب منهم قسم إلى بلاد الهند جنوباً وقسم ذهب إلى بلخ وسمرقند وقسم ذهب إلى بلاد الفرس ، فهؤلاء هم قدماء الفرس . فهم إذن فرع من ذلك الأصل الآري وهم إخوة أهل الهند وأوروبا ، فقد كانت أصولهم جميعاً تتكلم بلغة واحدة وتدين بدين واحد ، وليس منهم الترك والمجر وأهل فنلندة ولابلاندة ، فهؤلاء القدماء لما استقر قرارهم بجهات إيران تفرقت عقائدهم وآلهتهم أسباب عارضة ، فصار ذلك التفريق في العقائد باباً يجر إلى الحرب والضرب والعداوات والشحناء ، فظهر بينهم رجل عظيم يسمى « زردشت » .

وقال أبو القاسم منصور بن فخر الدين أحمد الفردوسي الطوسي الشاعر المولود بقرب طوس حوالي سنة ٣٢٠ للهجرة في كتابه « الشاه نامة » الذي يبلغ ستين ألف بيت ، وقد ألفه في مدة ٣٠ سنة ، وقد فضله المتأخرون على كل تاريخ منظوم ، إنه ظهر ببلخ في عهد الملك « كاي مستشب » رجل طاهر اسمه « زردشت » بيده إناء فيه نار بلا دخان ولا وقود ولا بخور ، وقال للملك : إنني نبي مرسل إليك لأريك سبيل الله ، وهذه النار التي بيدي من الفردوس أعطانيها الله نفسه ، وقال لي : خذها فإن فيها صورة السماء والأرض . خذ مني الآن الدين الحق واستتر به وازدر بالدنيا ، وكان مع النبي كتب قال

إن الله كتبها وهي « الأوستاوزند » . ولقد ولد « زردشت » بالري على مقربة من طهران كما تقدمت الإشارة إليه في سورة « طه » عند قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] بمناسبة تكاثر الذرية في الحيوان الضار هناك في المائة السادسة قبل المسيح كما يقوله الفرس الآن ، أو في جوار بلخ في المائة الثانية عشرة قبل المسيخ على أقوال المحققين من الفرنجة ، أي : قبل وصول قدماء الفرس إلى إيران . ولقد قبل الفرس دعوته فانتفعوا بها ولمت شعثهم ، وبقيت تلك الديانة قائمة إلى انقضاء أسرة بني « ساسان » في خلافة عمر رضي الله عنه سنة ٦٥١م ، ودخل القوم دين الإسلام إلا شرذمة قليلة حافظت على ذلك الدين إلى الآن ، وهم قليل جداً ببلاد الفرس ونحو سبعين ألفاً ببلاد الهند .

ولقد قلنا في سورة « طه » أيضاً : إن الله عز وجل عنده قانونان لا بد منهما : الموت والحياة ، والشر والخير ، كما في القرآن سواء بسواء . ولقد حرم القوم عبادة الأصنام وأيقنوا بالخير وبالشر أنهما من الله وأن كلاً منهما يلزم الآخر من نور وظلمة وغنى وفقر وحق وباطل وهكذا ، والأول « أهورامزدا » ثم صار « هرمزد » ، والثاني « أنغرومابنيوس » ، ثم صار « اهرمان » . فهذه التعاليم أعطيت للقوم قبل رحيلهم إلى إيران ، ولما حلوا ساحة إيران وخالطوا المجوس أصحاب البلاد اقتبسوا كثيراً من دينهم وعوائدهم . فبعد أن كان « أهرمان » و« هرمزد » عملين من أعمال الله جعلوهما إلهين مستقلين بينهما حروب ونضال . فهذا يرسل القحط والجوع وهذا يعانده فيأتي بالخصب والشبع ، ولكل منهما أنصار ، وأنصار « هرمزد » ست : (١) العقل التام . (٢) الاستقامة . (٣) الحكم التام . (٤) العبادة والطهارة . (٥) الصحة . (٦) الخلود .

وهم يعتقدون أن الإنسان من مخلوقات « هرمزد » إله الخير ، وإذن عليه أن يعصي إله الشرّ وإذن يتصف بأربع فضائل : التقوى . الطهارة . الاجتهاد . الصدق . فالأول الاعتراف بأن « هرمزد » الإله الحق وإكرام الملائكة بالصلوات والتسبيحات والطهارة المداومة على الفرائض الدينية والتنزه في الفكر والقول والفعل ، لأن « هرمزد » طاهر ورب الطهارة فليكن أتباعه طاهرين . والاجتهاد يرجع إلى حرث الأرض واستئصال الشوك منها . والصدق أهم الفضائل عندهم .

وروى « هيرودوتسي » أن صبيان الفرس يمرنون على ركوب الخيل وأن يوتروا القوس وأن يتكلموا الصدق ، والكذب عندهم شر الرذائل وأسوؤها . وكانوا يعتقدون الخلود كالمصريين فيما سبق واليونانيين وأهل الهند . ويقولون : إن نفوس الصالحين والطالحين تمر بعد الموت على الصراط وهو جسر ضيق في طريق الجنة وهو من فوق جهنم ، فأما نفوس الأحياء فإنها تعبر عليه سالمة وتعينها الملائكة لا سيما رئيسها « سروش » ، والدعوات التي يدعوها أصحابها الذين على الأرض .

فأما نفوس الأشرار فإنها تسقط في الهاوية ، ومتى وصلت نفس الصالح إلى الفردوس حياها العقل الصالح والملائكة يقولون : طوبى لك أيتها النفس المقبلة ، فلك الخلود ، ونفوس الأشرار تقيم في جهنم ، وهم يعتقدون إلى الآن بيوم القيامة وحشر الأجساد ، وكل ذلك بقي في الدين بعد امتزاج الزردشتية بالديانة المجوسية ، والمجوس أصحاب البلاد الذين اختلط بهم الفرس كانوا يكرمون النار والهواء والماء والتراب ويحرسون النار المقدسة على مذابحهم معتقدين أن أصلها من السماء

وأنهم يجب عليهم أن يحرصوا عليها حتى لا تنطفئ. أقول: من العجب أن هذا القول في حقيقته رمز للعلوم والدين. فالدين من السماء وهو النار والنور الحالّ في القلوب فتجب المحافظة عليه فلعل ذلك رمز للمعاني العلمية فيبقى ما بقيت الرسوم الظاهرة، وهناك مناسبة بين الحقيقة والمجاز إذ العلم نور والنور يصاحب النار أو الحرارة. ولا يجرؤون على تدنيس الأبهار ولو بغسل الأيدي.

وهذه العقائد دخلت تدريجاً في دين «زردشت» حتى إن الفرس بعد ذلك كانوا يطعمون موتاهم لطير السماء ووحش القفار كالمجوس، لئلا يدنسوا النار إذا أحرقوهم بها والأرض إذا واروهم فيها والماء إذا طرحوهم فيه والهواء إذا وضعوهم في تابوت فصعدت رائحتهم إليه.

وهاك نبذتين: نبذة من كتاب «الأستاوزند» المذكور أي: المتن والشرح، وباللغات الإفرنجية «الزندافستا» وهو فيه ألف ألف بيت من الشعر نظمه «زردشت» وشرحه من خلفه وفقد أكثره أيام الإسكندر، ثم جمع ما بقي منه الأكاسرة بنو ساسان. ونبذة في قانون الإيمان بالله.

النبذة الأولى: أقدم التحيات لسيدي ومولاي العظيم «أهورمزدا» وأسألك أيها السيد العظيم أن تغفر لي خطيئتي يوم الدين، وتقدرني على أن أقوم بشعائر الدين. إن في الوجود روحين روحاً شريرة وروحاً فاضلة، وللأولى الشرور وللثانية الفضائل والخيرات. فاخترت أنت يا قدوس الخير ونبذت الشر وأهل الشر قد اتفقوا عليه فكنت أنت غالبهم، فلئن أتت الأرض بالشوك والحسك بسبب شرهم تأتي أنت بالنعم في الأرض، وسوف يأتي يوم الحساب ويجازى كل بما عمل.

النبذة الثانية: قانون الإيمان بالله، نؤمن بإله واحد خالق السماوات والأرض والملائكة والشمس والقمر والنجوم والنار والماء وكل شيء. إياه نعبد وله نسجد وبه نستعين. إلهنا لا وجه له ولا شكل ولا له مكان محدود، ولا نستطيع وصف مجده ولا تدرك عقولنا كنهه. له ألف اسم واسم ولكن اسمه الأول «هرمزد» أي: الروح الحكيم، ومتى عبدنا نلتفت إلى بعض خلائقه كالشمس والنار والماء والقمر. وقد علمنا نبينا «زردشت» أن الله واحد وهو نبيه، وأن نؤمن بـ«الاوستا» وبجود الله وأن نسلم لمشيئته ونطيع أوامره ونعمل الأعمال الصالحة ونقول الأقوال الحسنة ونفكر الأفكار الطاهرة ونصلي خمساً كل يوم ونؤمن بالحساب وبأنه يكون في اليوم الرابع بعد الموت ونرجو السماء ونخاف جهنم ونؤمن بيوم القيامة. انتهى.

هاأنت ذا أيها اللبيب الذكي قد قرأت دين قدماء المصريين ودين المجوس ودين الفرس، فكانت هذه الديانات الثلاث مثل غيرها مما ذكرناه في سورة «إبراهيم» و«آل عمران» كما قدمنا؛ جميعها ناطقات بلسان واحد أنه لا إله إلا الله، وإنّما ذكرت لك ذلك بنصوصه وأطلت فيه بعض الإطالة لغرضين شريفين: الغرض الأول أن تطلع على ديانات الأمم فيحصل لك اليقين بالإسلام من طريق الديانات، لأنها كالإسلام من حيث وحدانية الله والخلود بعد الموت والجنة والنار، ولا عبرة ببعض التطرف في تلك الديانات. الغرض الثاني: أن تفهم الآية التي نحن بصددها. فالله يقول فيها: إن الرسل الذين أرسلوا قبلك يا محمد لم يدعوا إلا إلى إله واحد. أليس ذلك معجزة وأي معجزة؟ ثم إن تطابق الأقوال واتخاذها في جميع الديانات طريقاً واحداً يعد إجماعاً من أكثر الأمم، وهذا مما يزيد اليقين ويقوي العقائد ويقلل الزيغ عند الذين لا بصيرة لديهم ولا قوة بها يدركون الحق.

واعلم أن مثل هذا الإنسان على الأرض في دينه كمثله في أمر طعامه. فكما أن في الطعام أنواعاً وأجناساً هكذا في الديانات والأمور العقلية ألوان وأجناس، وكما أن الإنسان قديماً وحديثاً قد غش في الأطعمة كما شرحته لك في سورة «الحجر» عند ذكر الملائكة وآدم هكذا غش في الديانات. فترى هناك ما نقلته عن الأطباء في مصر وفي أوروبا فقد جاهروا بأن الناس غشوا في الدقيق والخبز والبن الأخضر والبن المطحون واللبن وكل سائل كالزيت وكالزجاجات المقفلات بالمياه الغازية. فكل هذه دخلها الغش. فلا زيت ولا سمن ولا بن ولا خبز إلا فيها غش. فالبن يدخلون فيه الطين، واللبن يدخلون فيه ماء قذراً فيأتي بالأمراض العفنة.

أقول. فكما غش الناس في طعامهم غشوا في دينهم وفي علمهم كما علمت في دين قدماء المصريين وفي دين «زردشت» الذي دخله التعدد في الله بعد الوحدانية. وترى الناس على الأرض هذا دأبهم وهذا كله من ضعف استعداد سكان هذا الكوكب الأرضي، فإن الكمال قليل فيه ولا يكاد دين ينزل إلى الأرض حتى يختلط بطينها ووحلها ويصبح أشبه بآراء أهلها الخاطئة ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام: ١١٦]، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن الجهل شديد.

إن هذا الإنسان يريد تعظيم الإله. فماذا يفعل؟ يتجاوز الحد فيقول أنا لا أذكر اسمه تعظيماً له فيقع في عبادة المخلوقات كما عرفت في ديانة الفرس وديانة قدماء المصريين، والشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، والمسلمون لما طال عليهم الأمد أرادوا تعظيم الله تعظيماً تاماً فتقربوا إليه سبحانه بترك العلوم الطبيعية وعدوها كفراً، وهذا من شدة عنايتهم بتعظيم الله، فهم لشغفهم بتعظيمه نهوا عن النظر في صنعته كما تقدم عن الأمم السابقة، إذ لا يذكرون اسمه إعظاماً له، بل يذكرون اسم مخلوقاته كما نسمع أن أهل اليابان كانوا يعظمون «الميكادو» فلا يرون وجهه، وكما نسمع عن بعض أتباع شيخ عظيم من المسلمين بشمال أفريقيا. فأهل البلاد محرم عليهم النظر إلى وجهه ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم: ٣٤]، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢].

فلما سمع صاحبي ذلك قال: إن في معرفة آراء الأمم السابقة لحكمة ونوراً وهدى، وإن ذلك يفيدنا معنى الآية التي نحن بصددها. حقاً إن المسلمين عليهم أن يقرؤوا علوم الأمم وتاريخهم. يقول الله في الآية: إن كل الأنبياء كانوا يقولون بإله واحد، وهذا أمر سمعي، ولا يكون السمعي بالعقل إلا بالاطلاع وهذا هو اليقين، واليقين أفضل من الإيمان. ولا جرم أن ازدياد العلم به تزداد المدنية وترقى الأمم. فبينما هم يحققون في أمر آية أو عقيدة إذا هم ارتقوا في أمورهم المادية والمعنوية. ثم قال: وإذا كان الأمر كذلك فإني أقول لقد ذكرت أن في الهند كتاب «الفيدا» ثم كان «خريستا العظيم» ثم «بوذا»، وفي الصين كان أولاً «بو الكبير» ثم «لبونسو» بعده، وأن دين الجميع التوحيد، فأرجو أن تذكر آخر دين بالصين لأن ديانات أهل الهند قد شرحت سابقاً في هذا التفسير وكذلك دين أهل بابل.

فقلت: أما آخر دين في الصين فهو دين «كنفوشيوس» هو فيلسوف الصين صاحب المؤلفات الكثيرة يقر بفضله أهل الصين كلهم. ولد سنة ٥٥٠ قبل الميلاد وزمانه كان يقرب من زمان «بوذا» بالهند. وكان والده من أسرة شريفة حاكماً على بلده وتوفي وابنه صغير وتعلم علوم بلاده وعين معاوناً في

وزارة المالية وسنه ١٧ سنة، ثم ترك الحكومة ثم رجع قاضياً فوزيراً ثم ترك المنصب إذ وجد أن الشعب لا يرتقي إلا بالتعليم، فأخذ يجوب البلاد ويعلم الجاهل ويرشد الضال والناس ما بين مهين له ومكرم، وهو يقول: لا أهتم بإيذاء الناس ما دمت أسعى في رقيهم. وكتب في الفلسفة واللغة الصينية والعلوم القديمة وتاريخ بلاده وتقاطرت إليه الناس من كل حدب ينسلون. وقد كانت البلاد تحت حكام ظلمة مرتشين يلقون بين الناس العداوة والبغضاء ليبقى لهم السلطان عليهم، فأخذ يذم فعلهم تارة وينصحهم أخرى فأصلح حال أكثرهم. ويقال: إنه لولا مؤلفاته لم يعرف الناس عن تاريخ بلاده شيئاً، ومات سنة ٤٦٨ ق. م. وكان تلاميذه ثلاثة آلاف تلميذ أشهرهم ٧٢ اشتهروا بحبه العظيم له، ويعتبر الصينيون اليوم علومه وآراءه واسمه. ولا يرتقي الرجل عندهم إن لم يكن أتقن تعاليمه واشتهر بها. وذريته اليوم الذين يعدون أشراف بلادهم، وكان في تعاليمه يضرب الأمثال بما حوله كما كان يضربها المسيح. فمن أقواله أنه مر بساقية فقال لأصحابها: الماء كحكمة الناس فأفيضوا من علمكم على الناس كما يفيض هذا الماء فيعود عليكم بالنفع وينقي سيرتكم كما يتقي الماء ولا يفنى. ورأى صائداً معه طيور فقال له: ما لي لا أرى معك طيوراً كبيرة؟ فأجابه: إن الكبيرة تعرف الشرك فتنجو منه أما الصغيرة وما يتبعها من الكبار فإنها تقع فيه، فقال لتلاميذه: هكذا الناس فمن اتبع نصيحة الشيوخ نجا ومن اتبع الجهال وصغار الأحلام والشبان هلك. انتهى.

أما دين بابل الذي سألت عنه فاعلم أن الآثار التي عثر الناس عليها اليوم قد أبانت ديانة هؤلاء أكثر مما أبان التوراة، فكان رأس آلهة الآشوريين «آشور» ورأس آلهة البابليين «إل» وبه سميت مدينتهم فهي «باب إل» أو «باب الإله». إذن دين الآشوريين التوحيد ودين البابليين التوحيد، لأنهم مهما نصبوا من التماثيل والأصنام فقد عبد كل منهما إلهاً واحداً وهو الرئيس، كما عبد «كونفشيوس» في الصين إلهاً واحداً، كما عبده النبيان قبله بها، فهم كأهل الهند عندهم إله واحد، ولكن عند العامة أظهروا التعدد، وهكذا قدماء المصريين. إذن الأمم القديمة كلها متشابهة توحد وتعدد في آن واحد. ويعد الإله «آشور» الذي هو رئيس الآلهة عند الآشوريين ثلاثة آلهة وهم: «انو» و«بل» و«ايا» وهذا مثلث الآشوريين. ويعد هذا المثلث مثلث آخر وهو «الإله سن القمر» و«الإله شمس الشمس» و«الإله أفا» أو «فل» أو «يم»، أي إله الهواء، وهكذا آلهة وراء آلهة. ولهم اعتقاد بالآخرة مثل بقية الأمم.

وهكذا كان المصريون يعتقدون تثليث الإله فكل جماعة كانوا يعبدون مثلثاً غير الآخرين. فالتوحيد والتثليث إذن في الهند وبابل ومصر على حد سواء. وأذكرك أيها الذكي بما مر في آخر سورة «المائدة» إذ نقلت لك هناك صفحات كلها منقولة من نفس علوم أهل الهند، أي: إن عشرات الآيات من الأناجيل الأربعة نقلت بنصها وفصها مما كتب على «بوذا» وما كتب على «خريستا»، انظره هناك فإن الأمر عجب، وأعجب من هذه الإنسانية المخرفة المحرفة الطفلة، فما على الإنسان إلا أن يأتي بضلالة فتنزرع في الأرض فلا يخرجها علم ولا حكمة ولا صدق ولا دين بل تبقى ثابتة ما دام لها أنصار يأكلون منها الخبز. بهذا تعلم أن تثليث المسيحيين لا فرق بينه وبين تثليث المصريين والبابليين وأهل الهند.

وأذكرك بما تقدم في سورة «مريم الآية : ٣٧» عند قوله تعالى : ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ فقد ذكرت هناك الرواية التي تشبه الرواية المنقولة عن المسيح حرفاً بحرف، نقلتها هناك من كتاب «اللورد هيدلي» رئيس الجمعية البريطانية الإسلامية. فهناك ما كتب في اللوحين البابليين التابعين لمجموعة السجلات المكتوبة بالخط الآشوري التي كشفت بواسطة الحفارين الألمانيين سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩٠٤ في «كاله سيرجات» قاعدة الآشوريين القدماء وهما يتبعان مكتبة الآشوريين التي أنشئت في القرن التاسع قبل الميلاد وقبل ذلك، وهما مع ذلك صورتان طبق الأصل. ففي تلك الرواية ترى رواية الأناجيل نفسها كما ترى روايات دين الهنود.

وملخص ما مضى أن هذا النوع الإنساني فيه طبعان ثابتان: الأول: أنه كله متدين معتقد بإله وآخرة وموحد. والثاني: أنه لا يصبر على التوحيد بل يثلث ويكثر الآلهة التي قد تصل إلى ألف أو ألوف. هذان طبعان في الإنسان لا يفترقان ما دام على هذه الأرض، فهو متدين بالطبع مشرك بالعادة وهذا نفسه برهان على الله واليوم الآخر، لأن ما كان ملازماً للطبيعة فهو حق كالغذاء وعموم حب التزوج وهكذا ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦]، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٨م.

بعد أن أتممت هذا المثال حضر ذلك الصديق العالم وقال لي: إن هذا المقام جليل جميل ولكن يحتاج إلى الإيضاح. فقلت له: توضيح الواضحات من المشكلات. قال: لست أريد أن ما مضى ليس واضحاً، بل أريد أن نزجّ في بحر النور العلمي ونقتبس من هذه الآثار والأخبار التي وردت عن الأمم السابقة ما ينفعنا في عصرنا. فقلت: سل ما تشاء. فقال: أرجو إيضاح هذا التثليث عند القوم، فلئن عرفنا أن هناك مثلثاً عند الآشوريين والبابليين وهم الآلهة العظام عندهم ومثلثاً أقل منه للقمر والشمس والهواء؛ لم نعرف أهؤلاء الآلهة عندهم زوجات أم لا؟ فقلت: لهؤلاء الآلهة الست ست إلهات زوجات للمثلثين، ولكن «آشور» و«إل» لم يتزوجا. فقال: وهل من آلهة بعد ذلك مشهورين؟ فقلت: خمسة: زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد. فهؤلاء خمسة آلهة ولكل درجة عندهم وهذه أوصافهم:

(١) زحل الجبار المحارب الظافر قاهر العصاة الرب القدير قاهر الخارجين وهو معظم عند الآشوريين وأكثر البابليين، وله صورة ثور ورأس إنسان وجناحا طائر.

(٢) المشتري معظم عند البابليين، وهو عندهم الرب العظيم والملك وملك الآلهة والإله المجيد والقاضي القديم وقاضي الآلهة وبكر السماء ورب الحروب وملك السماء ورب الأبدية العظيم ورب الكائنات ورئيس الآلهة وإله الآلهة.

(٣) المريخ إله الحرب والصيد الرجل العظيم البطل القدير ملك الحرب المهلك جبار الآلهة وله صورة أسد ورأس إنسان وجناحا طائر.

(٤) الزهرة ملكة الحب والجمال، وكانوا يعبدونها عبادة خاصة فاحشة كما كانت تعبد عند الفينيقيين واليونان والرومان، ويجعلها هؤلاء أيضاً آلهة الحرب ويقرنونها مع آشور ورئيسة السماء وملكة الآلهة والآلهات.

(٥) عطارد إله الحكمة والفهم والتعليم ورسول الآلهة وتارة يقولون رب الأرباب الذي لا مثيل له في القدرة حارس السماوات والأرض الذي يسلم الملوك صولجان الملك.

ثم إنهم يصنعون أصناماً من الحجارة والمعادن فيكون البدن بدن حيوان له رأس إنسان وجناحا طائر ويعبدونها في معابد خاصة وينشدون الأناشيد ويذبحون الذبائح ويقربون القرابين. ومما يتبع ذلك أنهم يقولون: أيتها النار الربة العظيمة المتعالية فوق كل شيء. أنت سابكة النحاس والرصاص. أنت محصة الذهب والفضة. وكان كل يوم من أيام السنة عيد الإله أو أكثر من آلهتهم، ويعتقدون اليوم الآخر ويصلون على موتاهم. هذا ملخص ما عند القوم. فقال: كيف يقع العقلاء في هذه الجهالة الظاهرة البطلان؟ وكيف يكون المريخ والمشتري وأمثالها آلهة؟ ثم ما هذه المبالغات؟ وإذا كانت الأمم القديمة كلها على هذا المنوال مخرفين ضالين فكيف كانوا منبع الحكمة؟. إن الحكمة ظهرت عند جميع هذه الأمم فكيف تجتمع الخرافات والحكمة؟. وإذا كان دين الإسلام قد خلا من هذه الشوائب فلماذا لم نر فيه حكماء أشبه بمن مضوا في الأمم فهل الخرافات تكون سبباً في الحكمة والقول الحق يتبعه قوم يقل الحكماء بينهم. إن هذا لعجب عجاب. فقلت: هوّن عليك يا صاح.

اعلم أن الله عز وجل مشرق نوره على جميع الأمم قديمها وحديثها، وهو القائل: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[فاطر: ٢٤]، والقائل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾[النحل: ٣٦]، فهو سبحانه لم يذر أمة من الأمم السابقة إلا وأرسل لها هداة. وهذا المقام يحتاج إلى مقدمة فأقول:

إن الله عز وجل هو الذي بث الحيوانات في البحر والتراب وفوق الأرض وفي الهواء وهو الذي نظم تلك الممالك وأودع فيها غرائز، فهي بذلك حافظات لنظامها قائمات بأمر ذريتها ما دام الفرقدان وطلع النيران، ولكن انظر ماذا فعل. أعطى كل نوع من أنواع الحيوان فطراً وغرائز تخالف بقية الحيوان. فهل فطرة النمر كفطرة الغزال؟ قال: لا. قلت: فهذه فطر مختلفات. مثلاً ترى أصواتها لا تشابه بينها. فكل نوع صوته ونغمته تخالف النوع الآخر، والنوع الواحد من الشرق لا يخالف في صوته ما عاش منه في الغرب، فصوت الغربان والكراكي وأبي قردان في الشرق هو صوت الغربان الكراكي وأبي قردان في الغرب لا اختلاف بينها.

أما هذا الإنسان فأمره عجب. أعطي عقلاً وأعطي حرية يتصرف في الكلام كما يشاء، فلما استقل عقله قدر على التصرف. فماذا فعل؟. سار على ناموس الوجود. ومعنى هذا أن هذا الوجود فطر على الاختلاف والتنويع. فكما نوع الله أصوات الحيوان باختلاف الأنواع أخذ هذا الإنسان ينوع أصواته، كما فعل الله في حيوانه فجعل الإنسان نفسه كأنه أنواع لا نوع واحد، فترى اللغات الأصلية الثلاثة وهي: الآرية والطورانية والسامية تختلف عن بعضها اختلافاً بيناً وكل لغة لها فروع كثيرة، فإذا رأيت الآريين يتكلمون بالسنسكريتية وبالفارسية وبكثير من لغات أوروبا ترى الطورانيين يتكلمون باللغة التركية والقازانية وغيرهما وترى الساميين يتكلمون بالعربية والعبرية والحبشية وما شاكلها. فإذن أصبح التركي والفارسي والعربي في لغاتهم أشبه بالكركي والبازي والسنور، مختلفي الأصوات مختلفي اللغات، ذلك أن الله من عادته أن لا يكرر في الخلق، أي أنه دائماً ينوع مخلوقاته.

هكذا الإنسان لما أعطي قوة وتلك القوة من عند المبدع الحكيم نوع كما نوع المعطي القادر . فكما نوع الله في أصوات الحيوان نوع الإنسان الذي هو خليفته في صوت نفسه فحدثت اللغات ولكل لغة لهجات . وكما نوع الله في الغرائز الحيوانية نوع الإنسان في الديانات .

فهذا المثل ضربته لك أيها الفاضل لتقيس عليه . وقد قلنا : إن الله لم يذر أمة إلا أرسل لها رسولاً ، والمجددون في كل دين هم قائمون مقام الرسل . فهذه الديانات تنوعت على حسب ما طبع عليه الإنسان من التنويع في عاداته وأطواره . ثم إن كل دين ينزل لأهل الأرض كما قدمنا يكون بالتوحيد ، وهذا التوحيد سار في جميع الكائنات والله لم يره أحد فإذا فكر العقلاء لم يجدوا إلا جمال هذا الوجود فيتفننون وصف جمال العوالم ويعشقون الصانع بنظرهم إلى الصنعة ، والدين إذا لم يكن مستنداً إلى هذا العوالم الطبيعية لم يدم .

إن الله لم يره الناس ولكنهم رأوا جمالاً باهراً وحسناً ظاهراً وبهجة وكمالاً ، فهذا الجمال يسوقهم إلى أن تهرع عقولهم إلى مبدع العالم .

ولا جرم أن زحل والمشتري وأمثالها ذات جمال باهر وحسن ظاهر ، فهذه السيارات وكذلك الشمس والقمر والنجوم الثوابت هي المزرعة العلمية التي بها يعشق الناس خالقهم ويرتقون في صناعاتهم الدنيوية . ومتى مضت الأيام والسنون أصبح ما كان بهجة الجمال وباباً للعلم وسلماً للمعرفة حجاباً على العقول ومانعاً يمنع من الوصول وذلك بالإطناب في مدح هذه الدلائل والتغالي في وصفها جيلاً بعد جيل ، فيتنزل هذا الدين إلى السفاسف ويجعل الناس هذه الكواكب كأنها آلهة صغرى تقرب إلى الإله الأكبر ، ثم إذا تمادى الزمان انحطوا إلى عبادة التماثيل التي تمثل هؤلاء المعبودين من الكواكب . والدليل على ذلك أن الأوصاف المتقدمة تخوّل لكل كوكب فيها أنه رئيس الآلهة ، فتراهم يقولون في أكثرها : إنه رب الآلهة ، وهذا مبالغة كمبالغة الشعراء في كل عصر إذ يصفون وصفاً كاذباً من كثرة المبالغة . وقصارى الأمر وحماداه أن هؤلاء الصابئين كانوا أولاً يعبدون الله ، ولله ملائكة ، والملائكة موكلون بالكواكب ، فالله هو المعبود والملائكة يعملون بأمره والكواكب كأنها أجسام تلك الأرواح ، فعبادة الملك يتقربون بها إلى الله ، والكوكب حجابه أو جسمه أو نحو ذلك فهو رمزه ، والتماثيل في الأرض مذكرات بالكواكب إذا غابت عنهم . إذن العبادة في نظرهم كلها راجعات إلى الله كما قال تعالى : ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾[الزمر: ٣] فإذا عبدوا زحلاً أو المشتري فقد أرادوا بذلك أنهما ملكان ، ثم اعتبروا الكوكبين ثم التماثيل .

ضرب مثل

وما مثل الديانات إلا كمثل الناس على الأرض . يكون المرء طفلاً فصبياً فمراهقاً ففتى وشاباً فبالغاً أشده فكهلاً فشيخاً فهرماً فميتاً . هكذا الدين يكون أولاً قولاً على لسان رسول فيبلغه فينشر في الأمم فيرتقون به ، ثم يأخذ في الاضمحلال شيئاً فشيئاً حتى لا يصلح للأمم فيزول من الوجود أو ينكمش في جماعته محقورين ، وجل الله أن يبقي في الأرض ما لا فائدة فيه ، فهذه الديانات وهي قائمة في الأرض كان يتبعها علوم وحكم وأخلاق ومواعظ . كل هذه تغلب على الخرافات فلا يكون لها أثر ولكن بتمادي الزمان تزداد الخرافات فتغلب على جوهر الدين فلا يبقى صالحاً لحياة الأمم فيزول من

الوجود . وتلك الديانات لم تزل من الأمم إلا حين ضاعت ثمرتها وذهبت جدتها وفارقت الصواب .
واعلم أن أهل كل دين يظنون أنهم على الحق وسواهم على ضلال ، ونحن المسلمين اليوم نظن أن تلك الأمم لم يكن لهم من الهدى نصيب ، وهذا حق من وجه ، ولكن من وجه آخر باطل لأنهم لو جردوا من كل حكمة في الدين ما بقي ذلك الدين ، فكانت لهم شرائع وقوانين وعلوم تربو على تلك الخرافات فيعيش بالدين الناس بسلام .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : الحمد لله ديننا بريء مما وقعت فيه الأمم السابقة . فقلت : إن ديننا وقع فيما وقعت في الأمم السابقة حذو القذة بالقذة ، كما روي : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » . فقال : وكيف ذلك . قلت : ما الذي ضر الناس من عبادة الكواكب؟ قال : تفرق الوجهة فلا يدري الناس من المعبود ، وحينئذ يضيع الوقت سدى ويتفرق الناس شيعاً ويذوق بعضهم بأس بعض وتنحل الرابطة . فقلت : هذا وإن لم يحصل بنفسه قد حصل نظيره في بلاد الإسلام ، وذلك في رجال العلم ورجال التصوف والكتب الموروثة عن المتقدمين .
أما رجال العلم والكتب فإنك ترى أتباع الحنفي والشافعي وابن حنبل والإمام زيد وهكذا الشيعة وجميع الفرق المبتدعة في أمم الإسلام ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾[البقرة : ١٤٨] ، فهؤلاء جميعاً يقرؤون العلم الموروث عن الشافعي وأبي حنيفة الخ ، ولكن لا يجوز لهم أن ينظروا في كتاب الله ولا سير الصحابة ولا التابعين إلا نظراً تابعاً لأولئك الأئمة . وإيضاح المقام أن الله أنزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم فقام به الصحابة والتابعون ، ثم قام الأئمة واجتهدوا ، ثم المجتهد منهم له أتباع ، وهؤلاء الأتباع ألفوا كتباً وبعدهم مؤلفون وراء مؤلفين . فالطالب في زماننا يقرأ في مذهب الشافعي مثلاً الكتب المقررة في الأزهر كالمنهج ولا يزيد عليه ، مع أن المنهج من المنهاج والمنهاج مشتق من كتاب من كتب الإمام الغزالي في مذهب الشافعي ، فكل متأخر لا يجرؤ أن يقرأ كتب أحد إلا الطبقة القريبة منه ويفهمه شيوخه أنه ليس أهلاً للطبقة العليا ، فإذا لم يكن أهلاً لكتب الغزالي كالوسيط والبسيط والوجيز فمن باب أولى ليس أهلاً لكتاب الأم للشافعي ، ومن باب أولى ليس أهلاً للترجيح في أحاديث البخاري ، ومن باب أولى ليس من رجال فهم كلام الله تعالى لأنه مفروض أن قوته حكم عليها ألا تتطاول إلى ذلك .

وبناء عليه تنازل العلم وانحصر في علوم المتأخرين مع تعظيم المتقدمين ؛ فالقرآن معظم والحديث محترم والشافعي وأصحاب الشافعي والإمام النووي والرملي وابن حجر ، ولكن كتب هؤلاء أكبر من أن يدرسها الإنسان ، وهذا كله حاصل عند المتعلمين في أكثر ديار الإسلام ، وقد فرض الناس أن الدين كله فيها مع أن هذه المذاهب ليس فيها إلا أحوال عارضة للإنسانية ، وليست كل الدين بل هي حاشية من حواشيه أو سياج لروضته . فعلم الفقه الذي أسمعتك وصفه وأن الطالب في زماننا ليس أهلاً إلا لقراءة كتب المتأخرين من المؤلفين فيه ليس له حظ من الدين إلا أنه سياج له ، والدين روضة ذات أشجار وثمار ، والأشجار هي المعارف العلوية والسفلية ، والثمار هي الأخلاق والمودات والمحبات ورقي الأمم ، وكل ذلك لا يتم إلا بالسياج الذي سميناه فقهاً . فإذا كانت هذه حال دين الإسلام وأن أصوله تركت وهي الأخلاق والعلوم التي ملأت الدنيا ، وأن سياج الدين أيضاً لم يأخذ

الناس منه إلا بشذرات وحرموا من الأصل؛ أقول: إذا كان هذا شأن دين الإسلام أفلسنا نقول إن هذا تنزّل وسقوط في هاوية كسقوط الآشوريين والبابليين في أصول الدين؟ إذ عبدوا الكواكب والتماثيل ونسوا الأصل فلكل منا ومن تلك الأمم وجهة هو موليها، فهم سقطوا من جهة الأصول ونحن هوينا من جهة الفروع. والفرق بيننا وبينهم أن سقوطنا يمكن تداركه أما سقوطهم فلا، وعلى ذلك حل الإسلام محل أديان تلك الأمم، وديننا ليس يعوزه شيء إلا أن نوقظ الأمة إلى القرآن ونقول لهم ما قلناه في هذا التفسير الذي رجع بالأمة إلى ما كان عليه الصدر الأول، ولكن بطريق يناسب العصر الحاضر، فهذا فرق ما بيننا وبينهم. القرآن باق ولولا القرآن لاضمحل الدين ولم تقم له قائمة. فهذا القرآن فيه إصلاح الأمة وإصلاحها بالعلم والعلم هو ملاك الأمر. هذا ما نقوله في رجال العلم. أما رجال التصوف فحدّث عنهم ولا حرج، فقد اتخذ كل منهم له طريقة تخالف الآخر ليتميز أصحابه عن غيرهم، ثم يرى أتباعه أنه خير من غيره مع احترام الباقين، ويجعل لهم ذكراً خاصاً وأوراداً وآيات من القرآن ويصرفهم عن بقية الدين وعن فهم القرآن وعن سائر العلوم. وإني أعلم أن بعض رجال الصوفية في زماننا قد أمروا تلاميذهم أن يذكروا اسمه مائة ألف كما يذكرون الله، ولقد تغالى أهل كل طريق في شيوخهم وبالغوا في تعظيمهم، بل إن بعضهم قد حرم على أتباعه أن يروا وجهه، ويذكرون في مناقبهم مآثر وخوارق، كما نسمع من أصحاب الدسوقي والرفاعي والسيد أحمد البدوي. فهؤلاء الشيوخ كانوا قوماً صالحين ولكن أتباعهم أسندوا إليهم من الأعمال الصالحة ما لا يسند إلا إلى الله أو إلى الأنبياء فتاهت العقول وضلت. أفلا ترى أن أولئك الشيوخ فعل معهم أتباعهم ما فعله الصابئة مع الكواكب التي هي مقام الملائكة ومقرّهم ثم التماثيل.

الله أكبر. لقد وصف كل من زحل والمشتري والزهرة الخ بما وصف به الله، فكل من تلك الكواكب وصف بأنه رب الأرباب وقاهر وهكذا. وقال الجهلة من المسلمين في شيوخهم من التعظيم ما يضاهي وصف الله القدير، كأن يقولوا: هو يحيي الموتى بدعوته ونحو ذلك، وهذا مشهور معلوم. فكيف يرجع للقرآن هؤلاء وكيف يعرفون أوصاف النبي، ذلك النبي الذي لم يحيي ميتاً، أما شيخه فقد كان على هذا المقام العظيم. إن المسلمين تفرقوا بتفرق قلوبهم، وتفرق قلوبهم ناجم من جهلهم، وجهلهم بسقوط الهمم في التعليم وجهل الأصول والأخذ بأذناب الدين وترك رأس الأمور، والغش والتدليس من المتصوفة. فنحن وإن لم يكن عملنا كفراً في الإسلام فهو مسقط لهمم الأمم مؤدّ للنتيجة التي أدى إليها تنزّل الآشوريين والبابليين في عباداتهم، والباب الذي ولجناه لارتقاء الأمم الإسلامية اليوم أصبح والحمد لله مفتوحاً على مصراعيه وذلك بأمثال هذا التفسير، انظر ما تقدم في «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الآية: ٢٣] الخ، فهذا المقام هناك موضح غاية الإيضاح. ففيه ذكر المغرورين من أمة الإسلام وما نتيجة الغرور وأنواعه وما السبيل إلى رقي الأمم الإسلامية.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: حيا الله العلم، فوالله ما كان ليهجس بخاطري أن تكون هناك موازنة بين عبادة الكواكب وبين التغالي في الشيوخ. فقلت: إن الأمر فوق ذلك. فقال: زدني إذن. فقلت: إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقرؤون القرآن لغرض ويتعلمون العلم لغرض والغرضان

شريفان. قرؤوا القرآن لينظموا أرض الله ويرقوا الشعوب. وتعلموا العلم وأخذوا عن الشيوخ ليكونوا قادة وسادة وعمالاً نافعين لنوع الإنسان. أما الأمم الإسلامية المتأخرة فإن بعض حفاظ القرآن لا يقصدون منه إلا أمرين: الأول: أن يكون حرفة يعيش بها الناس. الثاني: أن يقرأ القرآن لأجل لفظه لا لأجل معناه. وقد رسخ في عقول الكافة أن القرآن بدون معنى كاف، قد زاد في الطين بلة قوم نقلوا علوم الصابئة ومزجوها بالقرآن وصار هذا الكتاب يقصد لجلب الرزق ودفع الأذى ومنع الأعداء وهكذا. وكما يقصدون من القرآن يقصدون من الشيوخ.

فإذا كان المتقدمون يتعلمون من الشيوخ العلم لذات العلم صار المتأخرون لا سيما تلاميذ الصوفية يعتقدون فيهم أنهم هم الذين يقربونهم إلى ربهم بهممهم، مع أن القرآن لمعناه والعمل به، والشيوخ ليسوا مقصودين لشفاعتهم عند الله بل لترقية العقول وحث التلاميذ على الاجتهاد والعمل ومساعدة الناس، وهذا وحده هو الذي يرقي المرء في الدنيا والآخرة ويجعل المرء مستعداً لشفاعة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ فكما كان الصابئة في بلاد بابل وآشور يعبدون أولاً إلهاً واحداً وهو الذي سموه رئيس الآلهة فيما بعد، أخذوا بعد ذلك في عبادة مخلوقاته من الكواكب وغيرها. فبعد أن كان المقصد من الكوكب أن يعرف جمال الله به وحكمته وعظمته صار نفس الكوكب إلهاً صغيراً متصرفاً، وبمثل هذا يقال في الشيوخ وفي الأوراد وفي قراءة القرآن، فبعد أن كان هؤلاء جميعاً لارتقاء الإنسانية انحطت القوى فصارت قراءة القرآن والأحزاب واتباع شيوخ الصوفية بقصد منه عند صغار العقول طلب الدنيا أو الاتكال على ما ذكرناه في النجاة يوم القيامة، وما نجاة الإنسان إلا بعمله هو في الحياة الدنيا علماً وعملاً وأخلاقاً.

فقال: إن قولك إن المسلمين مزجوا دين الصابئة الإسلام لم أفهم مرادك منه. فقلت: إن أكثر أهل العلم في بلاد الإسلام تقع في أيديهم كتب جعلت لجلب الرزق والمنافع الدنيوية، وقد جعل القرآن فيها وسيلة لسعادة الحياة الدنيا، ولكن بطريق تخالف طريق الصحابة، فالصحابة والتابعون اتبعوا سنن الله في تحصيل الرزق بالعمل في الأرض أو بالتجارة أو بالجهاد. أما المتأخرون فبعضهم جعل قراءة القرآن وحدها سبباً لجلب الرزق لا العمل بمعناه في أمور الحياة، فترى كتاب البوني المسمى «شمس المعارف الكبرى» يطبع منه ما لا يطبع من هذا التفسير وغيره آلافاً وآلافاً، ويباع وفيه فوائد تكتب إما بأرقام عددية وأوفاق وإما برياضة وبخور، وتقرأ الآيات مع ذلك على طهارة، وإما بتعيين ساعات للكوكب كزحل والمشتري والمريخ إلى آخره، وكل ذلك منقول حرفياً عن الصابئين أهل بابل الذين جعلوا هم والمصريون وأهل الهند للكواكب أوفاقاً وأعداداً خاصة منظمة ترجع في أصولها إلى علم الارتماطيقي الذي ذكرته سابقاً في هذا التفسير، وألف فيه أستاذنا المرحوم علي باشا مبارك بعنوان «خواصّ الأعداد»، فهذا العلم الذي هو أصل علم الحساب ظهرت فيه عند تلك الأمم عجائب لا محل لذكرها تأخذ باللب.

فهذه العجائب استعملها البابليون والآشوريون إلى آخره لجلب الرزق والتقرب من الكوكب، إذ لكل كوكب مربع خاص، فإذا كان الله له عدد (١) فالمادة لها عدد (٢) ومربعه (٤)، أما مربع (١) فهو الواحد إشارة إلى أن وحدة الله عندهم مقدسة، ولزحل (٣) مضروباً في (٣) يساوي (٩)،

وللمشتري المربع (٤ في ٤) يساوي (١٦)، وللمريخ (٥ في ٥) يساوي (٢٥) مربعاً، وللشمس (٦ في ٦) يساوي (٣٦)، وللزهرة (٧ في ٧) يساوي (٤٩)، ولعطارد (٨ في ٨) يساوي (٦٤)، ولكوكب القمر (٩ في ٩) يساوي (٨١).

ومعنى هذا أنهم يرسمون مربعات إما ٩ للأول، وإما ١٦ للثاني، وإما ٢٥ للثالث وهكذا، ولولا خيفة التطويل والخروج عن المقصد لرسمت هذه المربعات وأريتك حسابها فتعرف كيف تكون الأعداد في هذه المربعات من (١) إلى (٩) في الأول، ومن (١) إلى (١٦) في الثاني، ومن (١) إلى (٢٥) في الثالث بهيئة منظمة، فتتعجب غاية التعجب، ومتى وقع هذا الوفق في يد الطالب أيقن أن فيه سراً عجيباً، وإذن يتقرب به إلى الكوكب الخاص به لأجل ما فيه من سحر النفس ودهشتها به وبدقة حسابه. هذا فعل الأمم القديمة الذين جعلوا فن خواص الأعداد المقصود به استخراج علوم الأعداد المتفرعة عليه كلها، كما قدمناه في آية الميراث في سورة «النساء» باباً لجلب الرزق بالتقرب للكوكب، وقلدهم في ذلك المسلمون المتأخرون فجعلوا نفس هذه الأوفاق مع جهلهم حسابها ونظامها باباً لجلب الرزق بالآيات القرآنية بدل الكواكب السبعة، بل منهم من أدخل الكواكب مع القرآن والرياضات والخلوة وهكذا، وساعات الأيام الخاصة بالكواكب.

فقال: في أي كتب قرأت هذا وهل تسمعني نقلاً عن عالم إسلامي؟ قال هذا حتى يكون لهذا القول أثره في أمم الإسلام بعدنا، لأن هذا التفسير من الكتب التي تناولتها الأيدي في بلاد الإسلام، فإذا وفيت المقام بمثل ما طلبته منك الآن كان ذلك خيراً وأبقى. فقلت: إن العلامة ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان «علوم السحر والطلسمات» قد أوضح الفرق بين السحر والطلسمات، وأن هذه العلوم مهجورة عند الشرائع، وأنها كانت علوم النبط والكلدانيين والمصريين وأهل بابل والسريانيين، وأن الذي ترجم لنا من تلك الأمم قليل مثل «الفلاحة النبطية» من أوضاع أهل بابل، ومثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب «طمطم» الهندي في صور الدرج والكواكب. ثم قال: إن جابر بن حيان من كبير السحرة المسلمين ألف في هذا وجاء بعده مسلمة بن أحمد المجريطي إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحر، وأطال في ذلك بما يخرج بنا عن موضوعنا لو كتبناه، إلى أن ذكر تحت عنوان «أسرار الحروف» ما ملخصه:

إن الذين يذكرون أسماء الله لأجل المنافع الدنيوية يمزجون قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب، فيعين ذكر الأسماء الحسنى أو ما يرسم من أوفاقها. وهكذا لسائر الأسماء أوقاتاً تكون من حظوظ الكوكب الذي يناسب ذلك الاسم، كما فعل البوني في كتابه الذي سماه «الأنماط».

وذكر أيضاً أنهم قسموا الكواكب على هذه العوالم من جواهر وأعراض، وهكذا الحروف والأسماء أيضاً مقسمة عليها الكواكب كما قسمت على عوالم المادة. قال: ويبنون على ذلك مباني غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن وآية على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطي في الغاية، والظاهر من حال البوني في أنماطه أنه اعتبر طريقتهم، فإن تلك الأنماط إذا تصفحتها وتصفحت الدعوات التي تضمنتها وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية وتصفحت قيامات الكواكب التي فيها وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب يسمونها «قيامات الكواكب» أي: الدعوة التي

يقام لها بها. إذا فعلت ذلك عرفت أحد أمرين: إما أنه من مادتها، وإما أن ذلك أمر أوجبه التناسب الذي كان في أصل الإبداع وبرزخ العلم. انتهى بتصرف يسير جداً للفهم.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: يا عجباً كل العجب. إذن تنزل المسلمين وسقوطهم إلى الهاوية كان مسبوقاً بالأمم التي هوت مثلنا. إذن تلك الأمم استعملت أمثال الحساب الذي خلق لرقي الأمم باباً وسلماً للاستجداء من الكوكب، وقد قلدهم المسلمون في ذلك وصاروا كالصابئة ومزجوا القرآن بعلم الصابئين، والذي تبين لي من هذا القول أن سقوط الأمم وانحطاط أخلاقها جار على سنن واحد قديماً وحديثاً. فهذه الآيات القرآنية لرقي المسلمين، وتلك الكواكب عند الصابئين لمعرفة حسابها والانتفاع به في أمور الحياة ولمعرفة جمال الله والغرام به، فانحطت تلك الأمم انحطاطاً أنقذهم منه الإسلام وصاروا يبتهلون إلى نفس الكوكب. فهكذا نحن جاء القرآن لرقي العقول والأعمال والمدن والأمم فصار يقرأ للتضرع، وتركت المواهب العقلية والجسمية كما فعل الصابئون حذو القذة بالقذة وهذا انحطاط وموت عاجل، وهذا داء قد فشا في الأمم الإسلامية. وأرى من مجموع مذكراتنا في هذا المقام وغيره أن الذي يخرج المسلمين من هذه الدرجة المنحطة أمرين: الأول: دراسة أمثال هذا التفسير وتأليف كتب مثله مختلفة ليتعقل المسلمون. الثاني: أن يجدّ كل قطر من أقطار الإسلام في تقليل الفقر المدقع عن الأمة، وذلك بأن يحصوا جميع أفراد الشعب ويعرفوا صناعة كل منهم، فلا يتركون قادراً على العمل إلا ألزموه به وأتوا له بعمل. فهذا العمل للفقراء يغنيهم ويلهيهم عن الاستعانة بهذه الكتب المنتشرة في أقطار الإسلام، ويصبح هؤلاء العاطلون نافعين للمسلمين. فقلت: أنا أوافق عليه وأزيد أن الزكاة الواجبة شرعاً يعطى منها للعاطلين الذين لا يقدرون على العمل ما يسد حاجتهم والباقي يجعل لشراء آلات للعمل أو تمهيد أرض لأصحاب الأعمال الذين لا يجدون وسيلة لعمل يعيشون به.

فقال: الحمد لله إن هذا المقام قد استوفينا القول فيه، ولكنني أرى أن حساب الأوفاق المتقدم ذكره يقرؤه القارئ فلا يعقله. وإذا كان الإمام الغزالي في بعض كتبه وهو يردّ على علماء الباطنية في زمانه وقد أنكر بعضهم فائدة الصلاة يحتج عليهم بالوفق المثلث الذي ذكرته أنت أنه لزحل ويقول: أنتم تعتقدون في هذا الوفق الذي ترون أنه إذا وضع على هيئة خاصة يؤثر في تسهيل الوضع للحامل، فكيف لا تعتقدون أن يكون بين الصلاة وبين الثواب في الآخرة مناسبة كالمناسبة التي بين الوفق المثلث وتسهيل الوضع.

أقول: إن الإمام الغزالي كما قال: هذا رسم الوفق المثلث لكي يفهمه القارئ، فأرى أن ترسم لنا وفقاً آخر حتى يعرف القارئ كيف كانت الأوفاق عند البابليين وجميع الأمم الوثنية، وكيف انحطوا بها وكيف قلدهم المسلمون وكيف انحطوا كمن سبقهم من الأمم. فقلت: إن سؤالك هذا فتح لي باباً ما كان ليخطر لي. ذلك أنك ذكرت الباطنية في زمان الغزالي وذكرت الوفق المثلث، وهذا يذكرني أن هؤلاء الباطنية في زمانه نقوا علوم تلك الأمم وأدخلوها في الإسلام كما ذكره ابن خلدون فيما تقدم آنفاً، وأما الوفق الذي طلبته فأنا أثبت لك أحد الأوفاق ليهدأ خاطرك وتعلم أن علم الارتماطيقي أو علم خواصّ الأعداد؛ قد استعملته الأمم المسلمة وغير المسلمة في غير ما وضع له،

١١	٢٤	٧	٢٠	٣
٤	١٢	٢٥	٨	١٦
١٧	٥	١٣	٢١	٠٩
١٠	١٨	١	١٤	٢٢
٢٣	٦	١٩	٢	١٥

وتنزلوا به عن المعالي ، فلأذكر لك الشكل المخمس مما ذكرته في كتابي « فِي الفلسفة » نقلاً عن كتاب أستاذي المرحوم علي باشا مبارك ، وهذا صورته :

فالصف الأفقي والصف الرأسي والقطران كلها متساويات إذا جمعناها . فكل صف منها (٦٥) وهكذا القطران . فهنا حصل التساوي في (١٢) صف كل واحد منها (٦٥) .

هذا هو الوفق المخمس من الأوفاق التي كانت في علم خواص الأعداد الذي هو أصل العلوم الرياضية ، والعلوم الرياضية بها تحل مشكلات العلوم الطبيعية وترتقي المدنية ، فجعلوه هو وأمثاله للاستجداء من الكواكب أو بآيات القرآن ، فصار الدين باباً للذلة والمسكنة والجهالة . وقد اتضح هذا المقام ، والحمد لله رب العالمين .

جوهرة في قوله تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الخ

اعلم أن الخير مقرون بالشر ، وليس لأهل الأرض علم بعواقب الأمور . فربّ شر في نظرهم كان خيراً كثيراً ، فهاهنا حروب كثيرة وزلازل وجدب وما أشبه ذلك في الأرض . يعيش الناس ويموتون وأكثرهم لا يعلمون ذلك . فلأضرب لك مثلاً واحداً لشرّ في نظر جميع الأمم ، ولكنه في الحقيقة خير . هاك مسألة القطن : نحن في مصر نزرعه ويزرعه كثير من أهل الأرض وأهمهم أهل الممالك المتحدة . ولعمري ليس القطن من فائدة إلا الزيت والملابس والزينة .

إن قطن بلادنا يخرج نوعاً يسمى « السيكلاريدس » يستخرج الإنجليز في معاملهم منه ما يشبه الحرير ويبيعونه بأغلى الأثمان . فالقطن في الحقيقة ليس من ضروريات هذه الدنيا ، بل هو أشبه بالحاجيات أو بالزينة . ففي الأرض جلود الأنعام وصوف الغنم ووبر الجمال ، ولذلك تجد عرب البادية يكتفون غالباً بالأصواف عن القطن ، إذن الناس محتاجون إلى القطن لا أنه ضروري كالغذاء والماء والهواء . إذن يكون ظهور القطن في أرضنا بقدر ، فليس يجب أن يكون عاماً كعموم القمح . فتعجب من صنع الله الذي أرانا حكمته في ذلك . وبيانه أنه قد جاء في كتاب « الجغرافية الحديثة » ما ملخصه أن مساحة الأرض التي تزرع قطناً في الولايات المتحدة ٧٠٠ ألف ميل مربع ، وهي تنتج ٧٨ مليون قنطار فيصنع منها $\frac{٢}{٣}$ في مغازل « نيو انجلند » ، وتجري الآن تجارب لإنماء القطن الملون وتكاد تنجح . فهم يطعمون القطن الأمريكي بالمصري فينتج « تسكاني » وبالبيروتي فينتج أحمر قانياً ، وبالصيني فينتج أصفر ، وبالهندي فينتج أزرق ، وبالكاروليني فينتج أخضر ، وتطعيم الأمريكي الجنوبي بالمكسيكي ينتج أسود ، ولا بد أن تحدث هذه التجارب انقلاباً عظيماً في الصناعة .

هذا هو الخير المنتظر من القطن في الولايات المتحدة . أما الشر المنتظر منه فهو أن هناك إقليم القطن الواقع جنوب خط ٣٨ درجة من خطوط العرض وشرق خط ١١٠ درجة من خطوط الطول الغربية الذي يشمل جزءاً كبيراً من ولايات المحيط الأطلانطيكي الجنوبية . فهذا الإقليم فيه أراض واسعة لزراعة القطن ، وأهل البلاد يبيعونه ويشترون بثمنه ما يحتاجون إليه ، وقد استعملوا السماد

لإغاء القطن. ولقد ضعفت الأرض كثيراً مع هذا التسميد المتكرر بتكرر زراعة القطن وكثرة الحيل المستنبطة لتقوية الأرض. هنالك عرفت الحكومة أنه لا بد من تنوع الزراعة في البلاد، وقام الخطباء ونصحوا الفلاحين، ولكن لم يجد نصح الحكومة ولا خطب الخطباء، ذلك لأن غير القطن من الغلات كالخنازير والفول والشوفان لا يسهل بيعه أو رهنه بخلاف القطن. أتدري ماذا حصل بعد ذلك؟ أرسل الله لهم خطباء من عنده فعلموهم كيف يزرعون، أولئك الخطباء هم دود القطن. ذلك دود اللوز الذي هجم بجموعه على القطن في إقليم «تكساس» سنة ١٨٩٢، وظل الدود يفتك وينتشر ثلاث سنين، ولم يقدر العلماء على صده أو تقليل ضرره، وإلى الآن لم يجد الناس سبيلاً لإبادة هذه الجنود المجندة.

فماذا حصل بعد ذلك؟ حصل المقصود، وهو أن القوم قللوا زراعة القطن فزرعوا الشوفان والبطاطس والبطاطة وربوا المواشي والخنازير وزيدت الخضر وصدّرت للأسواق الشمالية وزاد ذلك أثناء الحرب الأوروبية. إذن الدودة أحدثت انقلاباً زراعياً فاق ما أحدثته فصاحة الخطباء والحرب الأهلية من قبل ذلك، تلك الحرب التي منعت استعباد السود الذين كانوا وحدهم يقومون بزرعه، وبعد الحرب ما زالوا يزرعون القطن بطريق الإيجار. فتحرير الرقيق لم يقلل زراعة القطن وهكذا الخطباء.

وإنّما الذي أتى بالفرج والعلم هي الدودة التي علمتهم. ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾[الروم: ١٧]. نسبحك يا الله لأنك تفعل معنا ما فعلته مع الولايات المتحدة. نجهل كل شيء فترسل الشر ليكون الخير. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾[الأنبياء: ٣٥]. انتهى القسم الأول.

القسم الثاني

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا

هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾
أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن
كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا
فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾
وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ
بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ
سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ
فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي
ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا
ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ
عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ
ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾
۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ
فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ
أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ
وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ
ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ
يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ
فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ
أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾
فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ

عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

التفسير اللفظي

ذكر سيدنا موسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فهذه ثلاثة أوصاف للتوراة يفرق بين الحق والباطل ويستضاء به في المشكلات وهو تذكرة وموعظة، ثم وصف المتقين فقال: ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ حال ﴿ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ القرآن ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ كثير خيره ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾ على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ استفهام توبيخ.

ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ الاهتداء والصلاح ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل موسى وهارون ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ بأنه أهل لذلك آتيناه ذلك ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ نمرود ابن كنعان وأصحابه ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴾ على صورة السباع والطيور والإنسان، وفي هذا تجاهل لها تحقيراً مع علمه بتعظيمهم لها ﴿ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أي: لأجل عبادتها مقيمون، فعجزوا عن إقامة الدليل على صحة ألوهيتها واستحقاق عبادتها، و﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ فقلدناهم ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فالمقلدون والمقلدون معاً منخرطون في

سلك ضلال ظاهر ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ بالجد ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ أي : أجادّ أنت فيما تقول أم لاعب ، فأضرب عن قولهم قائلاً إنه جاد و﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ خلقهن . يقول الخليل : كيف قلدتم الآباء وتركتم عقولكم والعقول بنظرها الثاقب فيما خلق الله من السماوات والأرض تعرف صانعها ، فالله نقش وصور وزوّق صوراً في السماوات والأرض لا تعدّ ، وما أصنامكم إلا تماثيل صنعتموها ، وهذه الحجة على النظام الذي جاء في قصة موسى وقد تقدم في سورة « طه » ، وأن ما عدا دلائل العقل ملغى ، فالتقليد هنا والدلائل التي تقام بخوارق العادات لا حجة تقام بها إلا زمناً قليلاً ، ولذلك ابتدأ بذكر قصة موسى تنبيهاً على الحجة العقلية التي استنتجت من قصته ، وأتبعها بهذه القصة وفيها نفس حجة العقل ، وأن النظر في السماوات والأرض هو المسعد للأمم ، فلا تقليد ولا خوارق عادات ولا نحوها ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾ المذكور من التوحيد المبني على التعقل والنظر في العوالم العلوية والسفلية ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ من المتحققين والمبرهنين ، فإني نظرت الكوكب والقمر والشمس واحداً بعد الآخر فوجدتها لا تصلح للعبادة ، ثم عرفت أن العبادة لا تصح للأصنام لأنها أقل من الأجرام العلوية ، ولا لهذه الكواكب كلها ، فرجعت إلى الله كما في سورة « الأنعام » : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الآية : ٧٩] الخ ، فهذه أيضاً مما يدعو المسلمين أن يترفعوا عن الجهالة وينظروا في العوالم العلوية والسفلية ويتعلموا علومها فقد غلبتهم الفرنجة .

وقد قدمنا أن الإيمان ليس مسألة معينة بل هو كالغنى وكالقوة وكالماء قليله ماء وكثيره ماء . فالاغتراف من بحر العلوم العلوية والسفلية أوسع نطاقاً ، فتكون القلوب أوسع حكمة وأوفى وأعلى وأبهج إشراقاً وأصح مدنية وأكثر غنى وثروة وقوة .

ولما كان الأنبياء قد أخذ عليهم الميثاق أن يعلموا أممهم ويرشدوهم قال : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ أي : لأجتهدن في كسرها ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ ﴾ عنها ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ إلى عيدكم ، وكان ذلك القول في سرّه ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ بضم الجيم وكسرها جمع جذاذة ، كزجاجة وزجاج على الأول ، أي : قطعاً ، وجمع جذيذ كخفيف وخفاف على الثاني ، وجذيذ فعيل بمعنى مفعول ، أي : مقطوع ، ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ للأصنام فكسرها كلها بالفأس في يده إلا كبيرها فعلق الفأس في عنقه ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴾ إلى الكبير ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ فيسألونه عن كاسرها فيتبين لهم عجزه ﴿ قَالُواْ ﴾ أي : الكفار حين رجعوا من عيدهم ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : لشديد الظلم لجراءته على الآلهة المعظمة عندنا ﴿ قَالُواْ ﴾ قال رجل منهم : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ بالعيب والسب ويعد بالكسر ﴿ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ أي : هو إبراهيم ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي : جيئوا به ظاهراً بمرأى من الناس وإنما قاله نمرود ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ عليه بأنه الذي فعل ذلك لأنهم يكرهون أن يحكموا عليه بغير بينة ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ له ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ لأنه غضب إذ تعبدون معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرها وذلك ليقيم الحجة عليهم ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ حتى يخبروا بمن فعل ذلك بهم .

وفي حديث البخاري ومسلم وغيرهما ملخصاً: « إن إبراهيم كذب ثلاث كذبات منها اثنتان في ذات الله قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[الصافات: ٨٩]، وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾، وقوله لسارة: هذه أختي». وقد قال العلماء في قوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ قيل على سبيل التبكيت والاستهزاء، فهو نفي للفعل بطريق ينفي إلهيته بما هو أبلغ. وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[الصافات: ٨٩] أي: إن قلبي مغتم بكفركم أو إني سأسقم. وقوله في سارة: هذه أختي، أي: في الدين، فهذه أشبه بالمعاريض، والمعاريض صورتها صورة الكذب وباطنها حقائق، وسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبات بحسب ظاهرها.

وفي حديث الشفاعة أن إبراهيم أشفق منها بمؤاخذته بها، وهذا من المبالغة في محاذرة الأنبياء من الكذب فأشفقوا مما يشبهه تعليماً لنا أن نكون صادقين، لأن الكاذب لا يصدقه الناس فكيف يعلمهم وكيف يثقون به فلا شفاعة لعالم كاذب لأنه لا يسمع علمه في الدنيا ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ وراجعوا عقولهم ﴿ فَقَالُوٓاْ ﴾ فقال بعضهم لبعض: ﴿ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ بعبادة من لا ينطق. ومن عادة المقلدين أنهم يعلمون ثم تغلب عليهم العادة بالتقليد ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾ انقلبوا إلى المجادلة. يقال: نكسته قلبته فجعلت أعلاه أسفله، فهؤلاء استقاموا حين أقروا بأنهم ظالمون ثم انقلبوا عن تلك الحالة رأساً على عقب مكابرين وقالوا: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ فكيف تأمر بسؤالها، والجملة سدت مسد مفعولي « علمت »، ﴿ قَالَ ﴾ محتجاً ﴿ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا ﴾ أي: شيئاً من النفع ﴿ وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ ﴾ « أف » صوت يدل على التضجر، أي: قبحاً ونتناً، و« اللام » للتبيين ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ قبح صنعكم ﴿ قَالُواْ ﴾ لما عجزوا عن الحجة ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ ﴾ بالانتقام لها ﴿ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ ناصرين لها نصراً مؤزراً. والذي أشار بإحراقه نمروذ أو رجل آخر من أكراد فارس فحبسوا إبراهيم ثم بنوا بيتاً وجمعوا خشباً وأشعلوه ناراً كاد طير الجو أن يحترق من لهبها ثم وضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً فرموا به وهو يقول: « حسبي الله ونعم الوكيل »، وقال له جبريل: هل لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. قال: فسل ربك. قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. وما أحرقت النار إلا وثاقه، وجعل الله الحظيرة روضة، فاطلع عليه نمرود من الصرح فذبح أربعة آلاف بقرة تقرباً إلى إله إبراهيم، وكف عن إبراهيم وأذاه. وهناك رأي آخر وهو أن النار كانت باقية على حالها ولكن لم تؤثر في إبراهيم، وهذا قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ ذات برد وسلام، أي: ابردي برداً غير ضار ﴿ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا ﴾ مكراً في إضراره ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ أخسر من كل خاسر ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي: من العراق إلى الشام المباركة بالشجر والأثمار الكثيرة والأنهار والأنبياء وهكذا ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾ أي: زيادة، لأنه سأل الله إسحاق فأعطاه إسحاق وزاده يعقوب ﴿ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴾ أي كلاً من الأربعة وفقناه للصلاح ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ ﴾ يقتدى بهم ﴿ يَهۡدُونَ ﴾ الناس إلى الحق ﴿ بِأَمۡرِنَا ﴾ لهم بذلك ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ العمل بالشرائع ﴿ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المحافظة عليها ﴿ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾

الواجبة والصلاة لتعظيم الله والزكاة للشفقة على الخلق، وهما إشارة للصلة بين العبد وربه وبينه وبين خلقه فيكون الإنسان إذ ذاك خليفة له ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ موحدين مخلصين. هذه هي قصة إبراهيم ومعه إسحاق ويعقوب من ذريته. أما لوط فسيأتي الكلام عليه. وفي هذه لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

اعلم أن هذا الدرس هو الذي ألقاه موسى على فرعون إذ قال له رداً على طلب معرفة الله تعالى: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾[طه: ٥٠] الخ، أن الله ما أنزل هذا في القرآن لمجرد المحادثة معنا، وكرر ذلك واتحد الأنبياء في التعليم بحيث ترى موسى وترى إبراهيم اتفقا على تعليم واحد. فموسى يقول: انظروا الأرض والماء والنبات. وإبراهيم يقول كذلك؛ وهذا لم ينزل في القرآن لأحد إلا لنا الآن، ولا ينطق به إلا لأجلنا فإذا متنا خوطب به من بعدنا.

فيا حسرة على العلماء إذا لم يوقظوا الشعوب الإسلامية. ويا حسرة على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ نامت عيونها وظهرت عيوبها. أجيبوا داعي الله أيها المسلمون. انظروا دعاكم الله على لسان موسى وعلى لسان إبراهيم لتفكروا في العالم. إن دين الإسلام هو هذا. دين الإسلام هو الذي يدعو إلى العلوم العقلية والفكرية وإلا فلماذا يكرر هذا. ولماذا نرى إبراهيم ينظر في النجم والقمر والشمس ثم يوجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض ثم يقول: ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

إن دروس إبراهيم الخليل ترجع إلى دروس العلوم الطبيعية والرياضية ثم الانتهاء إلى ما وراء الطبيعة لأنه درس الكواكب من أدناها إلى أعلاها. وهذا هو علم الفلك ولا يكون إلا بالرياضيات ومن درس النجوم فلا بد أن يعرف الطبيعة لأنها مركبة من عناصر تعرف بالطبيعة وبالكيمياء وبتقصير المسلمين في ذلك أذلتهم أوروبا. ومتى قرؤوا فكروا. ومتى فكروا ارتقوا وطردوا أوروبا من الشرق. يا رب ألهم أمتنا الحكمة والعلم وارزقهم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[آل عمران: ٣٥].

أليس من عجب أن المسلم في كل صلاة من صلواته يبتدئ قائلاً: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾[الأنعام: ٧٩]، وذلك اتباع للخليل عليه السلام. ثم نراه لا يفكر في علوم السماوات والأرض حتى لا في علم التوحيد، يمر عليها كأنها ليست من دينه، وبذلك وحده سبقتنا أوروبا، فإن العلم يورث حب الطبيعة وحب الأمة وحب النظام وحب العشيرة وحب الوطن. ومتى انفتح باب الحب فحدّث ولا حرج. ولكن المسلم الغافل أقفل أمامه باب الحب فلا يعشق العلوم ولا يحب الله. انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية

جاء في حديث البخاري عن ابن عباس أن قوله تعالى: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في آية: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وهذا يفيدنا أن الذين ينقذون الأمم من الهلاك يكونون متوكلين على الله تعالى،

وهذا التوكل أحد قسمين. القسم الأول: التوكل بالقلب مع القيام بالأسباب. الثاني: أنه إذا وقع فيما لا يقدر على دفعه فليسلم أمره لله تسليماً تاماً. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة

إن إبراهيم كسر الأصنام وهكذا سيدنا صلى الله عليه وسلم وهذان قدوتنا. فعلى علماء الإسلام وعليك أيها الذكي أن تكسر بقلمك وبلسانك كل ما تراه معطلاً لرقي الأمة الإسلامية. أليس من العار علينا أن نذر الأمة جاهلة فلا نرشدها. ليسمع الناس قولك أيها الذكي. قل لهم في مشارق الأرض ومغاربها: إلى متى تنامون.

إن عبادة الأصنام تحصر الفكر فيها فتصده عن جمال السماوات والأرض. إن عباد الأصنام لم يقولوا شيئاً سوى أنهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، ولكن هذه الأصنام حجاب بينهم وبين جمال الله في الأرض وفي السماء. فليفهم المسلمون أن انحصار عقولهم في علوم خاصة وحجابها عن السماوات والأرض سيئة من سيئات التعطيل.

إن هذه ظلمة من الظلمات التي حجبت شمس الإسلام. حرام أن ينام المسلمون عن جمال الله ومعرفة كماله، حرام أن يقف المسلمون مكتوفي الأيدي وأوروبا برعت فيما قاله الخليل: ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾[الأنبياء: ٥٦]، ثم أخذ يكسر الأصنام التي عاقت القوم على هذه العوالم. فأف لأمة تقعد عن دراسة العلوم الشرقية والعلوم الغربية من جميع الأنواع. يا قوم إن الوقت جد وقد ﴿ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾[النجم: ٥٧-٥٨]. انتهت اللطيفة الثالثة.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

هذه من خوارق العادات وقد جاءت بعد قصة موسى سابقاً، وقصة موسى قد شرح فيها خوارق العادات شرحاً وافياً. إن خوارق العادات استبدلت في القرآن بالعلوم العقلية كما رأيت في سورة «طه».

ولتعلم أن المسلم إذا عمل عملاً صالحاً ولأجل تلك الطاعة ألقي في النار فإن النار لن تكون برداً وسلاماً عليه بل يحرق بها. ففرق بين المسلم الذي جاء القرآن لتذكيره وبين إبراهيم. فإبراهيم صارت النار عليه برداً ونحن لا تكون علينا برداً ولكن أنزلها الله لترينا عجباً. ترينا أن الآلام في طريق المحامد وضياع العمر وإزهاق الروح إذا كان ذلك لإقامة مجد الأمة وإسعادها هي كل السعادات. إبراهيم عليه السلام جاهد لنشر الدين فلنجاهد نحن. فإذا متنا أو قتلنا أو نصرنا فالمعنى واحد، بل نحن ننال إحدى الحسنيين: إما الحياة أعزاء وإما الموت أعزاء، فنحن في الدارين بالفضيلة والجهاد أعزاء فيكون كل ما يصيبنا في سبيل المجد عزاً وشرفاً. فنحن إذن تكون النار التي يسببها الألم برداً وسلاماً علينا. وقد وعد الله المجاهدين فوزاً والفوز بموتهم كالفوز بنصرهم، والله لا معنى لحياتنا إلا رفع شأن أممنا والقيام بما خلقنا له. ثم إن القائم بالخير يجد في نفسه سلوى عند المصائب تخففها ويأمل في نفسه آمالاً ترفع نفسه، والمصائب في سبيل الواجب ترفع النفس. انتهت اللطيفة الرابعة.

الكلام على قصة لوط عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ آيتنا ﴿ لُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا ﴾ حكمة ونبوة وفصلاً بين الخصوم ﴿ وَعِلْمًا ﴾ بما ينبغي أن يعلمه الأنبياء ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ سدوم ﴿ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ أي: اللواط ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ هذا تعليل ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾ في أهل رحمتنا ﴿ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

لطيفة: هذا القصة ترينا أن الصبر دائماً يتبعه النصر والفوز. صبر إبراهيم فصارت النار عليه برداً وسلاماً، وصبر لوط فنجاه الله من القرية الفاسقة لأنه من الصالحين فجعل النجاة والإدخال في الرحمة لصلاحه. وهذا معقول لأن الله يميز الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض والطيب بعضه على بعض.

قصة نوح عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ إذ دعا الله على قومه بالهلاك من قبل المذكورين ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ دعاءه ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ من الطوفان أو أذى قومه، والكرب هو الغم الشديد ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وإنّما كانوا قوم سوء لأمرين: التكذيب بالحق، والانهماك في الشر.

لطيفة: هذه القصة قدوة لنا. إن الإنسان إذا عمل ما قدر عليه وأخذ بالأسباب ولم يظلم غيره وإنّما قصد النفع العام بعقل ثم رأى أنه يهان ودعا الله فإن الله يستجيب له. وهذه المسائل لا تصبح يقيناً عندك إلا إذا جربتها، أما أنا فأني جربت منها كثيراً لا سيما في أثناء تأليف هذا التفسير فقد رأيت عجائب وغرائب لا محل لذكرها.

قصة داود وسليمان عليهما السلام

(١) جاء في بعض الأحاديث عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنّما ذهب بابنك وقالت الأخرى: إنّما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه، فقال: ائتوني بسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى». أخرجاه في الصحيحين.

(٢) وورد أيضاً: «أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع: إن غنم هذا دخلت زرعي ليلاً فوقعت فيه فأفسدته فلم تبق منه شيئاً، فأعطاه رقاب الغنم بالزرع، فخرجا فمرا على سليمان، فقال: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه، فقال سليمان: لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا ـ أو قال: غير هذا ـ أرفق بالفريقين، فأخبر بذلك داود فدعاه وقال: كيف تقضي؟ قال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه. فقال داود: القضاء ما قضيت وحكم بذلك». وكان سليمان ابن إحدى عشرة سنة، وحكم داود وسليمان كان باجتهاد.

حكم الإسلام في هذه المسألة: أما مذهب الشافعي فإنه يوجب ضمان المتلف بالليل في هذه المسألة، إذ المعتاد ضبط الدواب ليلاً. وهكذا قضى النبي صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطاً وأفسدته فقال: «على أهل الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل».

وأما مذهب أبي حنيفة فإنه يقول: لا ضمان إلا أن يكون مع الدابة صاحبها ليلاً كان أو نهاراً مستدلاً بقوله صلى الله عليه وسلم: «جرح العجماء جبار».

فصل: في حكم الاجتهاد

في حديث البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر». فالمجتهد مصيباً كان أو مخطئاً له أجر.

وجه نظر داود وسليمان عليهما السلام

إن داود قدر الضرر في الحرث فكان مساوياً لقيمة الغنم، وكان الواجب قيمة مثل الحرث فسلم الغنم إلى المجني عليه. وسليمان عليه السلام أوجب مقابلة الأصول بالأصول والزوائد بالزوائد، وربما كانت منافع الغنم تلك السنة موازية لمنافع الحرث فحكم بها، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ ﴾ في الزرع، ويقال: إنه كرم تدلت عناقيده ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ رعته ليلاً ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ ﴾ لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما ﴿ شَٰهِدِينَ ﴾ عالمين ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا ﴾ أي: الحكومة ﴿ سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ﴾ أي: داود وسليمان ﴿ ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾. واستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب، وهذا قول أصحاب الرأي. وقال آخرون: ليس كل مجتهد مصيباً فالحق مع واحد لا بعينه وأجر المخطئ ليس على خطئه ولكن على اجتهاده.

ولما وصف داود وسليمان في طريق حكمهما أخذ يصفهما فيما أنعم عليهما بغير ذلك، فذكر سبحانه أن داود أنعم عليه بنعمتين: تسبيح الجبال والطيور معه أنى سار، وتعليمه صنعة الدروع لتكون صيانة للناس في الحرب. فأما سليمان فسخر له ألطف الأجسام الطبيعية في مقابلة التسبيح هناك وأخبثها وهي شياطين الجن والإنس في مقابلة الدروع التي تقي من الأعداء.

نعم الله على داود عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ يقدسن الله بلسان الحال بحيث تتمثل له مسبحة فتكون أملك لوجدانه وجميع مشاعره فيستغرق في التسبيح ﴿ وَٱلطَّيْرَ ﴾ عطف على «الجبال» أو مفعول معه ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ لأمثال ذلك، فليس ببدع منا ذلك وإن كنتم أنتم منه تعجبون، فإن المستغرقين في التسبيح والتقديس يحصل لهم من الأنس بالله ما يجعل العالم في نظرهم مسبحاً، وكأن العوالم تنطق لهم به بلسان أفصح من لسان المقال، وليس يدرك هذا أحد إلا بوجدانه ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ ﴾ عمل الدروع وقد كانت صفائح فجعلها حلقاً وسردها، وقوله ﴿ لَّكُمْ ﴾ صفة لـ ﴿ لَبُوسٍ ﴾، ثم أبدل منه قوله: ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ أي: ليحصنكم داود من حرب عدوكم أو لتحصنكم اللبوس على تأويل الدرع ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ أمر في صورة استفهام للمبالغة في التقريع.

نعم الله على سليمان عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ سخرنا ﴿ لِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ ﴾ حال كونها ﴿ عَاصِفَةً ﴾ شديدة الهبوب، وفي آية أخرى: ﴿ رُخَآءً ﴾[ص:٣٦] أي: لينة، فكانت كما يريد عاصفة أو رخاء ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ ﴾يعني إلى الشام، وكانت تجري بسليمان وأصحابه رواحاً بعدما سارت منه بكرة ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ أي: بصحة التدبير فيه فنجزيه على ما تقتضيه الحكمة، وإنا نعلم أن سليمان سيعرف نعمتنا ويشكرنا عليها ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي: وسخرنا منهم ﴿ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴾ في البحار ويستخرجون الدرّ والمرجان وما يكون فيها ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: دون الغوص كبناء المحاريب والتماثيل والقصور والقدور والجفان ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ أن يزيغوا عن أمره.

لطيفة

سؤال: قال لي فاضل: ما فائدة هذه القصص في كتاب الله تعالى وقد خول الله سليمان ملكاً لا يبلغه أحد من العالمين؟ . وإذا كان قصص الأنبياء للاقتدار فأين الاقتداء هنا ونحن نسمع أن الشياطين تغوص في البحر وتصنع المحاريب والتماثيل ونسمع تسخير الحديد كتسخير الهواء ونحن لا قدرة لنا على هذا.

الجواب: اعلم أن الله قد أعطى داود خصلتين:

الأولى حب وشوق وإخلاص لله وذكر يجعل ما حوله كأنه يسبح ويرى الطير والجبال تسبح بلسان حالها، ويرى في حفيف الأشجار وهبوب الرياح وطنين الذباب وحركات الماء أصواتاً تكاد تسحره وتشجيه وتهز أعصابه، وكأنما الأطيار على الأشجار مغردات فرحات في النسمات، وكأن هاتيك المغردات خطباء على منابر القلوب أو أوتار تحرك النفوس وتثير الوجدان وتبعث في القلب أثراً وفي العقل حكماً وفي الفؤاد بهراً. فإذ ذاك يرى الذاكر أو المفكر المعتبر الدارس للعلوم كأن الجوّ كله خطرات أفكار وحركات أسرار ومجالس أنس وحبور وذكر وسرور.

الخصلة الثانية: إنه أعطي صنعة الدروع لتقي المجاهدين مصارع المقاتلين ومقاتل المحاربين. فعلى هذا صار داود روحانياً جسمانياً وسماوياً أرضياً فلم يصده ذكر الله عن نظام الحروب ودفع الأعداء، ولا الانهماك في الحرب عن ذكر الله وتسبيح الطير والجبال. هاتان الخصلتان يجب أن يزدان بها المسلمون.

فعلى طلاب العلم أن يقوموا بالصلاة خاشعين وبالتسبيح مخبتين، وأن يكونوا على علم بنظام الحروب والضرب والكر والفر. إن علماء الدين يجب عليهم أن يكونوا قد تعلموا الصناعة الحربية وليكن منهم قوّاد ماهرون، وأي فرق بين قائد الجيش وقاضي النفقات النسائية بل قائد الجيش أعلى وأوفق لحفظ الأمة. والأمة قد تركت الجهاد.

حرام أن ينام المسلمون وأن يقتصروا على عبادة المساجد، فهناك عبادة السيوف والرماح والمدافع والعقاقير السامة والمعمية والقاتلة فليعرفوها وليدرسوها. ومن عجب أن يقول الله: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾[الأنبياء:٨٠].

طلب منا الله شكر النعمة، وكيف نشكر نعمة يا الله فقدناها وما عرفناها بل عرفتها ألمانيا واليابان وإنكلترا وفرنسا، أما نحن فإنا بها جاهلون. ألا فليشكر الله المسلمون بتعلم علوم الحرب كلها من طيارات وأساطيل وليقوموا بحفظ ديارهم. هذا هو الشكر الحقيقي للنعمة. أما التفرج على أساطيل الأمم والتلهي بحفظ آيات القرآن فذلك لا يبدي ولا يعيد ولا ينفع شروى نقير.

مواهب سليمان عليه السلام

أما سليمان عليه السلام فإن الله تعالى وهبه أن يسخر الشياطين لبناء المحاريب وأمثالها. وهبه الريح فكانت تسير به مسيرة شهر في الروحة وشهر في الغدوة. وهل كان سليمان وجيشه على خشب منظم يجلس عليه هو وجنده فتدخل الريح تحت الخشب فتحتمله. أم ذلك كان بساطاً وهو فرسخ في فرسخ منسوجاً من ذهب وحرير وله في وسطه منبر وحوله منابر من ذهب وفضة وغيرها، والناس عليها بحسب مراتبهم ويكون هو وجيشه عليه، ويغدو إلى بابل أو إلى أرض الترك وأرض الصين وأنه سار إلى أرض السند ومكران وفارس كل ذلك لا علم للناس به، وإنّما رواه الرواة عن بني إسرائيل، والقرآن ليس فيه إلا ما سمعت فلا تثق بشيء ليس متواتراً. فكل ما في الأمر أنه سخرت له الريح على ما رسمه الله من القرآن وسخرت له الشياطين تصنع العجائب.

انظر الذي يهمنا من هذا

يهمنا من هذا أن الله يقول للمسلمين: انظروا نبيي سليمان سخرت له الريح ولا أسخرها لأحد من بعده بطريق المعجزة، لأن هذا خاص بسليمان وحرمته على من بعده، وإنّما حرمته لأني قدمت لكم في سورة « طه » أن خوارق العادات لا ترقي الأمم ولا تثبت إيمانهم، فأنا إنّما أرقى الأمم بأعمالها لا بظهور الخوارق فيها، فآياتي في الكون هي هذا النظام العجيب. فإذا كان ذلك عملي في أرضي وقد قلت لكم: إن الريح سخرت لسليمان، فكل ما يسخر ممكن الوقوع، لأن المستحيل لا وجود له، وإذا أمكن الحصول أمكن التحصيل، فالعقول الإنسانية يجب عليها البحث. فليبحث أبناء آدم في الهواء هل يمكن تسخيره بعقولهم وصناعاتهم بحيث لا يكون معجزة بل علماً وصناعة. أما ألمانيا وأوروبا فقد عرفوا بعضه واستخرجوا من الهواء النترات، فأصبحت ذات عمل كبير في الحرب العامة، ولما انتهت حولوا المصانع الحربية التي قوامها على المواد المستخرجة من الهواء إلى مواد آزوتية نافعة في تسميد الزرع، وهناك نحو سبع مصانع في ألمانيا كل مصنع فيه ٣٦٠ تليفوناً لمخابرة الناس وبيع هذا السماء العجيب.

وهكذا سخر الهواء لحمل الطيارات للتجارات وللحرب وللسفر وللبريد. فالناس بهذا فتح الله لهم في القرآن باب الرزق من الهواء بطريق الصناعة لا بطريق المعجزة الخاصة بالأنبياء فنام المسلمون، وقام بهذا العمل أهل أوروبا وهم لم يستنتجوها إلا من عقولهم وآرائهم واجتهادهم.

تنظيم الدولة

وأما تسخير الشياطين في عمل المحاريب فإن هذا فرع مما قدمناه في سورة « البقرة »، إذ وضح هناك أن الأمة عليها أن تقسم العمل على أفراد الشعب، والأعمال جميعها فرض كفاية، ويعطى لذوي العقول الضعيفة والأجسام الغليظة الأعمال المذكورة من غوص البحار وبناء القصور.

عجائب هذا المقام

فبهذا يأمر الله المسلمين أن ينظروا في ألطف أجزاء الطبيعة كالهواء وإلى أصلبها كالحديد وإلى أشق الأعمال الجسمية كعمل المحاريب وإلى ألطفها وأشرفها كأعمال الملوك.

المباني العظيمة في الدول

وللمباني العظيمة في الدولة فوائد تنوير الأذهان وتعليم الأطفال وإيجاد أشكال عجيبة تكون ماثلة أمام المتعلمين ترفع من أقدارهم وتريهم الجمال والبهجة، وهذه إحدى طرق ارتقاء العقول.

الجوهر والدّر والعسل والحرير

وقد ذكر الغواصين المستخرجين الدّر والمرجان. يذكر المسلمين بما يجب عليهم فهذه من إحدى الصناعات الواجبة وجوباً كفائياً. إذا ترك الناس ما خلق الله لهم وأعرضوا عما في البر من العجائب وما في البحر من الدرّ والمرجان أعرض الله عنهم وسلط عليهم من يأخذ الأرض منهم ويستولي عليها لأن الله خلق الدرّ والمرجان لينتفع بهما عباده، وخلق ما في الأرض وسخره لهم فإذا أعرضوا عنه عاقبهم بأن يستحوذ على أرضهم غيرهم. هكذا فعل سبحانه ببعض المسلمين وسينجلي الإفرنج عنهم حينما يستيقظون. وإن أمثال الدرّ والمرجان بهجة وجمال تولى العقول بهجة وتصقلها إذا تأملتها وتفكرت فيها.

إن الله خلق ألذّ المطعومات من حشرة وأنعم وأشرف الملبوسات من دودة وأجل الحلي وأجملها من الصدفة. فالأولى النحلة والثانية دودة الحرير والثالثة الصدفة التي تكونت فيها الدراري في البحار. وهذا تقدم في سورة «الكهف» موضحاً عند ذكر الحرير.

ذكر قصة أيوب عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ أي: دعا بأني مسني الضر، بالضم: الضرر في النفس، وبالفتح: الضر في كل شيء ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وصف نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فكأنه يقول: أنا أهل أن أرحم وأنت أهل الرحمة والإحسان. يقال: إنه إنّما شكا تلذذاً بالنجوى ولم يشك تضرراً بالشكوى منه، فالشكاية إليه غاية القرب والشكاية منه غاية البعد، وهذا الأسلوب من الطلب ألطف ما يكون في السؤال. يقال: إن أباه كان من أولاد عيص بن إسحاق وأمه من ولد لوط بن هاران وقد اصطفاه الله للنبوة، وكان له في أرض خوارزم مع أرض الشام وما بينهما مال كثير وولد، فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم بيته عليهم وذهاب أمواله والمرض في بدنه مدة، والاختلاف فيها عظيم من ٧ ساعات إلى ١٨ سنة فلا طائل في ذكره. روي أن امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف قالت له يوماً: لو دعوت الله. فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة. فقال: أستحي من الله أن أدعوه ما بلغت مدة بلائي مدة رخائي. ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ أجبنا دعاءه ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ فكشفنا ضره ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ بأن ولد له ضعف ما كان. ويقال: إنه أحيى له أبناؤه وهؤلاء رزقوا مثلهم. فأما كشف الضر فذلك أنه قال له تعالى: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ [ص: ٤٢] فركض برجله فنبعت عين ماء فأمره أن يغتسل منها ففعل، فذهب كل داء كان بظاهره، ثم أمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى

ففعل، فنبعث عين ماء بارد فأمره أن يشرب منها فشرب، فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح مما كان. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ مفعول لأجله، أي: رحمة لأيوب ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: تذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كصبره فيثابوا كثوابه. اهـ.

لطيفة

انظر في ترتيب القرآن ولطفه كيف ذكر قصة أيوب التي فيها الصبر على البلاء عقب قصة سليمان التي هي شكر على النعماء. فداود وسليمان شاكران للنعم المترادفة وأيوب صابر للنقم النازلة فأزيلت عنه. قصتان ذكرهما الله إحداهما للشكر والثانية للصبر. إن الإنسان لا يخلو من صبر ومن شكر فصبر على مكروه وشكر على محبوب، فالمحبوب ذكرنا به داود وسليمان، والمكروه ذكرنا به أيوب، وترى الله يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[إبراهيم: ٥] فهذا هو الصبار وهذا هو الشكور. ما أعجب هذا الترتيب. إن الله ينزل البلاء وينزل النعماء للتربية. ألا أذكرك بما ذكرته لك في سورة «البقرة» من «لغز قابس» والآيات التي جاءت في هذا المعنى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٦] الخ.

ألا تعجب معي كيف يذكر القول هناك تصريحاً وهنا تلويحاً. إن الأمم لا ترقى بالنعماء وحدها. كتب أرسطاطاليس الفيلسوف لتلميذه إسكندر المقدوني لما ملك بلاد فارس واستحكم أمره واستشاره ماذا يفعل بالملك وكيف يسوس الرعية فقال: لا تدع الرعية في لهو ولعب ولا تسلط عليهم النعمة وحدها فيهلكوا، إن الأمم تقدر على تحمل المشاق والمتاعب كالحروب والأعمال العظيمة والشغل الشاغل، ولكنها قط لا تتحمل النعم وترادف العطايا، فما أهلك الأمم إلا رخاؤهم ولا أبقى ملكهم إلا حذرهم وبلاؤهم. اهـ.

ويقال: إذا رأيت أمة خامدة فسلط عليها ضروب الرزايا والمحن، فإنها تستيقظ من غفلتها وتقوم من رقدتها. إن الأمم أيام حربها تعتريها حال تستخرج علم العليم وكرم الكريم وموهبة الذكي، وتحدث في النفوس حالاً عجيبة كأنها استخرجت بالكهرباء أو دلكت بالمغناطيس إذا حمي الوطيس، وهذا من بدائع القرآن وعجائب الفرقان. ثم إذا قرأت الشعر العربي رأيت هذه المعاني كثيرة فيه، قال أبو تمام.

قال أبو تمام:

ملك يرى تعب المكارم راحة ويعد راحات الفراغ متاعبا

فيا أيها الذكي اعلم أنك إذا كنت ساعياً في الأعمال النافعة مخلصاً لأمتك ولربك فإن الله يخلصك من كل شدة ولا تعرف هذا إلا بالتجربة، فجرب أمثال هذه القصص وبها تعرف كيف يكون الإيمان.

ويلحق بأيوب إسماعيل وإدريس وذو الكفل

قال تعالى: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ سمي به لأنه ذو الحظ من الله، والكفل: الحظ ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. أما إسماعيل فقد صبر على الذبح. وأما إدريس وهو أخنوخ فإنه كان خياطاً؛ وهو أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وكانوا من قبل

يلبسون الجلود، وهو أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار. وقد تقدم أنه هو الذي كان يعظمه المصريون انظره في سورة «مريم»، وهو نفس «أزوريس». وأما ذو الكفل الذي اختلف العلماء من هو، فقد تكفل أنه يصلي الليل ولا يفتر ويصوم النهار ولا يفطر ويقضي بين الناس ولا يغضب، فشكر الله له ونبأه فسمي ذا الكفل وهذا صبر عظيم. فهؤلاء الثلاثة صبروا على مشاق التكاليف وشدائد العبادة كما صبر أيوب على البلاء. فهاهو ذا ذكر النعمة بداود وسليمان، والصبر على البلاء بأيوب، وعلى التكاليف والعبادة بالثلاثة بعده ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾ نعمة الآخرة ﴿ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الكاملين في الصلاح.

قصة ذي النون

بعد أن ذكر الله الشاكرين ثم الصابرين بجميع أنواع الصبر أتبعهم بذكر ذي النون الذي لم يصبر كصبر هؤلاء على ما ابتلي فقال: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ وصاحب الحوت يونس بن متى، أي: اذكره ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ لقومه ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بفراقه، وفعل «غاضب» للمغالبة مبالغة في أنه أغضبهم بالمهاجرة من ديارهم. ذلك أنهم لما تمادوا في تكذيبه وعدهم بالعذاب فلم يأتهم العذاب لأنهم تابوا، فكره أن يكون بين ظهراني قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستحيا منهم، ولم يعلم السبب الذي رفع العذاب عنهم به، فكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وأنه يسمى كذاباً لا كراهية لحكم الله ويحث عنه قومه فلم يجدوه، لأنه نزل إلى سفينة في البحر هارباً فأخرجه الله من أولي العزم. وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨]. ذلك أن ذا النون انطلق إلى السفينة فثقلت بمن فيها وأشرفت على الغرق فعمل أهلها قرعة فخرجت على يونس ليرمى في البحر لتخفيف الحمل فقذف بنفسه في البحر فالتقمه الحوت مدة اختلف فيها من أربع ساعات إلى ٧ أيام.

يقول الله: إنه ذهب مغضباً قومه لأنهم خافوا لحوق العذاب بهم حين تركهم ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي: لن نقضي عليه بالعقوبة، مأخوذ من القدر. وقرئ «نقدر» مثقلاً بمعناه، أي: لن نضيق عليه ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ الثلاث: بطن الحوت والبحر والليل ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ أي: بأنه لا إله إلا أنت ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ من أن يعجزك شيء ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لنفسي بالمبادرة إلى المهاجرة. وفي الحديث: «ما من مكروب يدعو بهذا إلا استجيب له»، ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان في بطنه فيها، وقيل: ثلاثة أيام، وقيل: سبعة. والغم غم الالتقام وغم الخطيئة ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إذا دعونا لتفريج غمومهم وذلك لا تعرفه إلا إذا جربته بنفسك.

لطيفة

انظر كيف كان هذا الترتيب العجيب: ذكر أهل الشكر. فأهل الصبر. فالذي ليس بصابر.

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ اذكر يا محمد ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ دعاه فقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا ﴾ لا تتركني وحيداً بلا معين ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي به ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا

لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ ﴾ أي: أصلحناها للولادة بعد عقرها، وهكذا كانت حردة على زكريا فأصلحنا أخلاقها له لتحسن عشرته.

ثم علل ما تقدم كله من إكرام هؤلاء الأنبياء المذكورين بهذه السورة. فقال: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ يبادرون إلى الطاعات ومنهم زكريا ويحيى ﴿ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ فهم مع طاعتهم يفزعون إلى الله رغبة في ثوابه ورهبة من عقوبته. ويخشعون له، أي: يخافون خوفاً ملازماً للقلوب فلا ينبسطون في الأمور حذراً من الوقوع في الإثم. فهؤلاء الأنبياء عليهم السلام بطاعتهم وفزعهم في حالي الرغبة والرهبة إلى الله وخشوعهم له. كل ذلك جعلهم أهلاً للعطايا التي تقدمت.

قصة السيدة مريم وابنها عيسى عليهما السلام

قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ اذكر يا محمد ﴿ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ﴾ من الحلال والحرام يعني مريم ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ أي: أمرنا جبريل فنفخ في جيب درعها فخلقنا المسيح في بطنها بذلك النفخ. ويصح أن يقال أجرينا فيها روح المسيح وأضافه إليه تشريفاً فإن الروح من أمر الله ﴿ وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ﴾ أي: قصتهما أو حالهما ﴿ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فإن المتأمل لقصتهما يتحقق بها كمال قدرة الله تعالى.

ثم إن نتيجة السير المتقدمة في هذه السورة هي مما يأتي:

(١) التذكير بالعلوم العقلية في قصة إبراهيم وموسى وأن المعوّل عليها.

(٢) إزالة الضلالات العائقة عنها وذلك كتكسير الأصنام المذكور ويناسبه تكسير قيود الجهل في أمة الإسلام.

(٣) قيام الأمم بالأعمال العظيمة المشيدة واستخدام قوى الطبيعة من أصلب الأشياء كالحديد إلى ألطفها كالهواء وقيام الأمة كلها بالأعمال من أعلاها كالأنبياء إلى أدناها كالجهال وشياطين الإنس والجن وأن لا يمنع الصلاح القلبي العمل الجسمي.

(٤) وأن تتحلى الأمة بالصبر اقتداء بأيوب عليه السلام حتى يتموا أمورهم ولا يكونوا غير صابرين كذي النون عليه السلام.

(٥) وأن تكون الأمة واثقة بالفرج خاشعة لله راجية منه بما قدمت من الأعمال الصالحة كزكريا ومريم.

(٦) وأن يكون في عامتها وخاصتها العفة والوقوف في الشهوات عند حد لأن العفة ممدوحة كما مدحت مريم.

هذا هو المقصود من ذكر هذه القصص: علم وصبر وشكر على النعمة - أي: قولاً وعملاً - وعفة وإخلاص، واستخدام جميع ما خلقه الله في الأرض للمنافع العامة. وهنا سؤال قال لي قائل: لقد اقتنعنا أن نشغل أمتنا كلها في الأعمال النافعة في العلم وفي الصناعات ونجتهد في بلوغ المآرب وجميع أعمال الحياة لإصلاح الأحوال، فمن أين لنا استخدام الجن كسليمان؟. فقلت له: نظير الجن أي: النفوس الشريرة عندنا صغار العقول، وأهل الشر من النوع الإنساني هم الذين نتخذهم عوناً على

الأعمال العظيمة وذلك في كل الأمم . أما الجن وهم النفوس الشريرة فاعلم أنه قد جاء في علم الأرواح أن الأرواح الكبيرة في هذه الأيام تستخدم الأرواح التي ماتت وهي لا تزال متعلقة بعالمنا الأرضي في أعمال صغيرة لا تقدر تلك الأرواح العالية على مزاولتها ، كما نستعمل نحن العتالين والشيالين للأعمال التي يعجز عنها المفكرون منا . فإذا طلب من تلك الأرواح العالية شيء من الأعمال التي هي أقرب إلى المادية قهرت تلك الأرواح العالية تلك الأرواح المادية على عملها . فهذا من علم الأرواح الذي ملأ أوروبا كما قدمنا في هذا التفسير . عجيب جداً .

وكيف يجيء في القرآن أن سليمان سخر الجن ويجيء العلم الحديث فيقول بهذا المعنى لكن على هيئة أخرى وبطريق غير ما ذكر لسليمان ، مما يدلنا أن العالم سلسلة واحدة متحدة منتظمة ، وأن ما هناك من هنا وأن الآخرة والأولى أمران متتابعان متشابهان ، فقال : من أين لنا صدق الأرواح وعلمها؟ .

قلت : المقام ليس في صدقها وكذبها إنّما أنت أتيت بشبهة على الدين ، وإن ما جاء فيه لا تجد له مساغاً . أقول لك : كما أن العلم الحديث أرنا كيف استخدم الناس الهواء لحمل أثقالهم ولصنع الأسمدة وإجادة الآلات الحربية ، أرانا من جهة أخرى أن الأرواح الشريرة تستخدمها من هي أعلى منها ، ويكون ذكر هذا لسليمان فتحاً لباب البحث . فعلى المسلمين أن يدرسوا هذا العلم لأن الدين يطلبه . يا قادة الأمة لا مفر من دراسة العلوم كلها شرقيها وغربيها لا مفر منها ، هاهو ذا ديننا هاهو ذا . انظروا كيف ذكر في سورة « طه » الوجه والسبب في كون خوارق العادات لا ترقي أمة ولا تكون سبباً في بقاء الإيمان . وملخص ذلك أن تهرع الناس إلى العلوم العقلية ثم جاء في سورة « الأنبياء » فأتم العلوم الطبيعية بذكر منابعها وأصولها وهي السماوات والأرض وأنهما صارا متميزين بعد الاتحاد ، ثم تعالى فوق ذلك بذكر قصص الأنبياء ليرينا العلم بقصة إبراهيم والملك بقصة داود وسليمان والصبر بالأنبياء بعده والعفة بذكر مريم وابنها .

والقصص مرتبة ترتيباً عجيباً . فموسى لتبيان ما جاء في خوارق العادات وعدم الاتكال عليه وإبراهيم للعلوم وتقوية القوة العقلية فالملك فالصبر وختم ذلك بالعفة . فالقوة العقلية مقدمة ثم انتهى ذلك بالعفة التي هي إصلاح للقوة الشهوية . فالقوة العقلية تحتها القوة الغضبية والشجاعة التي أشار لها بتكسير الأصنام ثم العفة الخ . فتعجب من ترتيب في ديننا لترقية عقولنا . قوموا أيها العقلاء ويا أيها الأمراء لترقية الشعب وأفهموه كل علم وكل صناعة . إن المسلمين مطالبون بالعلم الذي أنزل على الأنبياء وانتهاج خطة الكمال .

نتائج القصص المذكورة لأمة الإسلام

قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ يقول الله : إن هذه الملة الإسلامية ملتكم حال كونها متوحدة غير متفرقة . وإذا كانت هذه ملتكم فعليكم أن لا تنحرفوا عنها وهي في حال يشار إليها فيها بأنها ملة واحدة غير مختلفة ولا متفرقة . وملخص ذلك طلب الاتحاد من أمة الإسلام ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ ﴾ لا إله غيري ﴿ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ لا غير ، أي : فليكن اتحاد في النظام العام للأمة واتحاد في عبادتي .

يقول الله : هاأنتم أولاء أيها المسلمون قرأتم قصص الأنبياء وعلومهم ورأيتم مشاربهم ودروسهم . وقد شرحتها لكم لكيما تنهجوا جميع المناهج التي نهجوها فتعلمون علوم الطبيعة والفلك كما أشار لذلك إبراهيم ، ولا تركنوا إلى خوارق العادات كما يدل عليه قصص موسى ، ولا تدعوا نظام الدولة كما كان داود وسليمان ، ولا تذروا الصبر في جميع الأعمال وفي ترك المعاصي كأيوب ومن بعده ، وأن تكونوا أعفاء . وهذه مزايا الأنبياء متفرقة جمعتها لكم في هذه السورة وجعلتكم أمة واحدة فإياكم أن تتفرقوا ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أي : وتقطعتم ، التفت عن الخطاب إلى الغيبة كأنه ينقل عن الأمة الإسلامية ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء المسلمون من الإثم . انظروا كيف غفلوا عن اتحاد هذه الملة وتفرقوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض وجعلوا الدين قطعاً فيما بينهم كما تتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه ، فيصير لهذا نصيب ولذاك نصيب ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ فنجازيهم على تفرقهم . وهذا إخبار بالغيب لما سيحصل في هذه الأمة الإسلامية وقد حصل فعلاً وافترقت سياسة واجتماعات وفرق بينها بعض رؤساء الدين ، وقد أعرض الله عن هؤلاء المختلفين وقطعهم بين الأمم كما قطعوا أمرهم بينهم واقتسموه ، فقوم نظروا إلى العبادات وقوم إلى الصبر وقوم إلى العفة وقوم أنكروا ذلك بقلوبهم .

يقول الله هنا : كلا . خذوا علوم هذه السورة كلها واعملوا بها . فلتكونوا على دين إبراهيم علوماً ومعارف وإزالة للمنكر ، وعلى دين داود وسليمان صناعات وملكاً ، وعلى دين أيوب ومن معه صبراً . فأما أخذكم أيها المسلمون ببعض الدين علماً أو عملاً فهذا تقطيع لما جمعناه في هذه السورة ولذلك أعرض عنهم فلم يخاطبهم وقال : ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾[الأنبياء : ٩٣] .

هذا هو الحاصل الآن في أمة الإسلام . أعرضت عن العلوم الطبيعية والفلكية وقد أحبها إبراهيم ، وأعرضت عن نظام الممالك وقد أحبها سليمان ، وأعرضت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد أحبها إبراهيم وغيره ، لذلك أعرض الله عنهم ولم يخاطبهم ووبخنا ، ولذلك قطعنا بين الأمم كما قطعنا ديننا قطعاً لكل جماعة منا قطعة .

يقول الله : أموا الدين كله على حسب ما في هذه السورة وإلا أهلكتكم بتوزيعكم بين الأمم كما قطعتم ديني ، وقد ذكر « قطع » بلفظ الماضي لبيان أنه محقق ، وقد تم هذا ، وهذه من إحدى معجزات الإسلام .

نظرة

يا أمة الإسلام ، هل من مدكر؟ هل من متفكر؟ انظروا كيف يعبر بلفظ « قطعنا » وهي فعل ماض تدل على التحقق في المستقبل من باب المجاز بالاستعارة كقوله : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾[النحل : ١] . انظروا كيف تم هذا . انظروا كيف عبر بـ ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾[الأنبياء : ٩٣] ، أي : اقتسموه بحيث أخذ كل جماعة منه بشيء . انظروا كيف تم ذلك فعلاً .

انظروا كيف تقطعتنا الأمم واقتسمتنا كما اقتسمنا العلوم والمعارف بيننا ، فكل أخذ ببعض وترك بعضاً . انظروا كيف كان هذا إشارة منه تعالى إلى أن هذا التقطيع يلزمه تقطيعنا وتقسيمنا بين الدول . نعم القرآن لم يذكره ولكنه يفهم ضمناً لأنه فيما سيأتي يقول : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ

بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[الأنبياء: ١٠٥] وسترى تفسيرهما. فالله يقول لنا: تقطعتم وتوزعتم واقتسمتم الدين، فكل أخذ بقطعة ومن أخذ ببعض القطع فهو ناقص، والناقص ليس صالحاً لعمارة الأرض.

فإذن لا بد أن أرسل أمماً أخرى تشارككم لتكمل النقص، فإن كنتم جهالاً بالعلم جاؤوا هم وعمروا أرضكم وشاركوكم، وإن كنتم ناقصين في إزالة المنكر أرسلتهم ليدربوكم. فإذن هذه الآية قد ذكرت استعمار أوروبا لبلاد الإسلام بانضمام الآية الآتية إليها، وذكر التقطيع إشارة إلى تقطيع دولنا بين دول أوروبا وتقسيمها لنا، وكأن الله سبحانه وتعالى أبقى ممالكنا تحت أيديهم حتى تظهر معجزة هذه الآيات، وينشر هذا التفسير وأمثاله وتظهر المعجزة الدينية ثم يخرج المسلمين من ضيقهم، وتبقى هذه الذكرى ماثلة عند الأجيال المقبلة، وتصبح الأمم الإسلامية المستقبلة رشيدة بالاختبارات التي حصلت عليها ويكون تمامها إن شاء الله معرفة الناس هذه العلوم، وتحصل حركة كبرى لا مرد لها، وسيراها المسلمون جميعاً بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله، وستكون أمة لا نظير لها في الأمم كما سيأتي في آخر السورة شرحه.

افتراق الأمة الإسلامية فرقاً تبلغ نيفاً وسبعين فرقة

قد ذكر المفسرون في هذا المقام قوله صلى الله عليه وسلم: «تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة، فهلك سبعون وخلصت فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، فيهلك إحدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة. قالوا: يا رسول الله من تلك الفرقة الناجية؟ قال: الجماعة الجماعة». والمراد بالجماعة هم المتمسكون بعلوم هذه السورة فيحفظون كيان دولتهم ويكونون علماء بجميع الفنون والصناعات ويقتسمون جميع أعمال الحياة بينهم ملكاً وعلماً وصناعة كما تقدم. وقد طعن قوم في صحة هذا الخبر لأن الأمة لم تفرق في أصول الدين بهذا المقدار.

وقد روي ضد هذا أيضاً: وهو أنها كلها ناجية إلا فرقة واحدة، وعلى كل حال الآية باقية وعلمها قد اتضح الآن، وأن أمة الإسلام التي اختلفت في أعمالها لا سعادة لها إلا إذا بذلت الجهد في الارتقاء كرة أخرى، وإلا فبالله كيف يقول الله لنا: إنه علم داود صنعة الدروع، لعلنا نشكره، فأين شكر الله الآن ونحن أجهل الأمم بعلوم الحرب وإتقانها وقد سبقتنا أوروبا بها. رحماك يا الله، أمة دينها يحرم عليها الحرب تنبغ فيه وهم أمم النصارى، وأمة ينص دينها على أن الله مشكور على تعليمهم الحرب فتجهل أسبابه. رحماك اللهم. أمة الإسلام نامت ونامت فعلمها اللهم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[البقرة: ١٢٧].

فتح باب الرجاء لأمة الإسلام

لما ذكر الله افتراق الأمة وأنه واقع لا محالة وأن تعاليم الأنبياء السابقة سيقصرون فيها وأنه يلزم ذلك أن تقتسمهم الأمم، أردفه بفتح باب الرجاء، فقال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ أي: فلا تضيع لسعيه وإنا لسعيه مثبتون في صحيفة عمله لا نضيعه بوجه ما فيقبل الله توبة الأفراد وتوبة الأمم، فأمة الإسلام متسع أمامها باب الفرج فلا ييأس من رحمة الله.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾، **إلى قوله:** ﴿ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴾

اعلم أن أرضنا التي نسكن عليها تبين اليوم في علم الفلك أنها كالعدم، وبيانه أنهم أثبتوا حديثاً أن الفضاء فيه أجرام عظيمة هي الكواكب والمجرات، فكل مجرة مركبة من مئات الملايين من الكواكب، ومجرتنا التي منها شمسنا فيها نجوم نسبة شمسنا إليها ضئيلة جداً. حتى إن الجوزاء حجمها أكبر من حجم الشمس ٢٥ مليون مرة. قالوا: ولو أن أرضنا صغرناها حتى صار حجمها كحجم الجوهر الفرد ومعلوم أنه لا يرى لصار حجم الكون الذي يرى بالتلسكوب مثل حجم الأرض الحالي، ولصار حجم الكون كله على ما يقضي به مذهب «أينشتين» ألف مليون أرض منتشرة حولها في الفضاء. إذن أرضنا على مقتضى تقريب هؤلاء العلماء عالم لا قيمة له صغير جداً، وعلى قدر صغره يكون قدر سكانه وأخلاقهم. وأشار الله لذلك بقوله: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[المائدة ١٧].

فانظر لجهل هذا الإنسان الذي أظهره العلم الحديث وأشار له القرآن، واعجب لنظام الآية في سورة «المائدة»، حكم الله بكفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، لماذا كفروه؟ لأن الأرض ومن عليها لا قيمة لهم بالنسبة لمخلوقاتنا، فأنا قادر أن أهلك هذا الإله الذي ادعيتموه وأهلك أمه وأهلك من في الأرض جميعاً، فيقال: ولماذا هذا؟ فيقول: وكيف أبالي بهؤلاء وأرضكم بالنسبة لمخلوقاتي أشبه بالمعدوم، فكيف أتخذ ولداً لي في عالم لا قيمة له؟ ألم تروا أني أملك السماوات والأرض وأنا على كل شيء قدير. فإذا كانت أرضكم أصبحت بالنسبة للعوالم أشبه بالجوهر الفرد بالنسبة لألف مليون أرض، فقد انقلب الوضع، فبعد أن كان أهل الأرض مغترين بأرضهم ظانين هذه الكواكب كلها ما هي إلاَّ سرج وضعت في السماوات لتضيء لأهل الأرض أصبحت الأرض اليوم ملحقة بالعدم وسكانها أضعف منها وأقل حيلة. إذن سكان هذه الأرض قد اغتروا بأنفسهم حين جعلوا لله ولداً في أرضهم الفانية الضعيفة المعدومة في جانب مخلوقاتي. هذا كله يفهم من قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[آل عمران: ١٨٩] الخ.

يقول الله هنا: إن المسيح ابن مريم وأمه جعلناهما آية للعالمين لا أنه إله، ومن هي أمه ومن هم أهل الأرض حتى يكون لي ابن فيهم. ولما كانت قصة مريم وموسى آخر أنباء الأنبياء في هذه السورة خاطب الله جميع الأمم شرقاً وغرباً، فقال: أيها الناس إن هذه الملة واحدة، فإن جميع الأنبياء إنَّما جاؤوا بالتوحيد فلم تتفرّقون؟ ثم أتبعه بما يدل على حقارة الأرض ومن عليها كما جاء في حكاية عيسى سواء بسواء، فهناك يقول إنه لا أحد يقدر أن يدفع الإهلاك عن الأرض ومن عليها، وهنا يقول: أيها الناس أمتكم واحدة فلم اختلفتم؟.

إن محمداً وموسى وعيسى ومن قبلهم من أنبياء جميع الأمم كلمتهم واحدة نزلوا لاجتماع الكلمة فتفرقتم أنتم، وإنَّما تفرق الناس لأن عالم الأرض عالم متأخر. فاستعداد أهل الأرض ضعيف

لا يقوى على الاتحاد من أول وهلة، فقد استبان ضعف أهل الأرض التي نسكنها بقراءة علم الفلك الحديث. وبه استبان علماً لماذا لا يبالي الله بإهلاكهم جميعاً. واستبان أيضاً لماذا تفرّقوا مع أن الدين واحد فالأنبياء كلهم جاؤوا لمقصد واحد وهو اتحاد الأمم، ولكن الناس لجهلهم قلبوا الوضع فجعلوا ما هو سبب الاتحاد سبباً في الخلاف. ثم هددهم بقوله: ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾[الأنبياء: ٩٣].

الله عز وجل نادى جميع الأمم على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قائلاً لهم: إن أمتكم واحدة. وفي هذا النداء رائحة اتحاد الأمم، وربما يتم هذا أو ما يقرب منه، فإن لم يتحدوا على دين واحد فليتحدوا على المسالمة، والمسالمة العامة من مطالب الإسلام بل أهم مطالبه. ولقد ألفت لذلك كتاب «أين الإنسان» الذي ذكرته كثيراً هذا التفسير، ولخصه أهل أوروبا، وستقرأ ذلك التلخيص في الأجزاء الأخيرة من هذا التفسير. ومقتضاه أن كل أمة تعلم الرجال والنساء على حد سواء وتستخرج ما كمن في الأرض، ومن عندهم أرض لا عامل فيها يجب عليهم أن يقبلوا في أرضهم من يعمل فيها ويكون هذا فرضاً لازماً على الأمم وهكذا مما ستقرؤه. وهذه الأمنية تدور على الألسنة في كل زمان ومكان، ومنها ما جاء في الأخبار العامة يوم الأربعاء ٨ أغسطس سنة ١٩٢٨ وهذا نصه:

افتتح المؤتمر الاشتراكي الأممي أمس الأول في بروكسل بحضور ستمائة مندوب يمثلون ٣٢ أمة من الأمم الغربية والشرقية. وإذا عرفنا أن الأحزاب الاشتراكية بلغت من القوة درجة استطاعت معها أن تتولى زمام الحكم في بعض الدول كألمانيا واسكنديناڤيا، وأن تؤلف معارضة قوية في البعض الآخر كفرنسا وإنجلترا، أدركنا ما سيكون لمقررات المؤتمر الذي تعقده الآن في عاصمة البلجيك من التأثير العظيم في سياسة العالم.

ويؤخذ من خطبة الافتتاح التي ألقاها السير «أرثور هندرسون» أن الاشتراكية الدولية عيل صبرها من تردد جمعية الأمم وتذبذبها وأنها تنوي إحراج مركزها في اجتماعها المقبل وحملها على تحديد خطتها تحديداً صريحاً يعزز الآمال المعقودة عليها أو يفقدها الثقة التي وضعها البشر فيها. ولا ريب في أن مندوبي معظم شعوب العالم ولا سيما الشعوب الصغيرة في هذه الجمعية غير مرتاحين إلى أعمالها يتذمرون في سرّهم من ضعفها واستكانتها ومن سيطرة المجلس عليها سيطرة جعلتها آلة في يد الدول العظمى. وقد بدأ هذا التذمر يظهر منذ الاجتماع السابق ولا يبعد أن يتحول إلى انفجار شديد في الاجتماع المقبل خصوصاً إذا اتخذ المؤتمر الحالي قرارات حاسمة في الموضوع.

ومما قاله المسيو «فندرفلد» الوزير البلجيكي السابق في أول جلسة عقدها هذا المؤتمر: إن الاشتراكية الدولية يجب أن توجه أنظارها الآن إلى آسيا وإفريقية حيث يعمل الرأسماليون على استنزاف دم الوطنيين، وهي كلمة خطيرة لا يسع حكومات الاستعمار إهمالها أو سد الآذان عن سماعها لأنها صدى ذلك الصوت الهائل الصادر من أعماق الشرق منذراً العالم بسوء المصير.

وقد كان أحرار الغرب وفي مقدمتهم الاشتراكيون أول من أدرك خطورة الحالة وسعى إلى معالجتها ودرء أخطارها. ولكن الجشع الاستعماري الذي أصبح طبيعة ثانية للشعوب القوية حال دون نجاحهم في الماضي. أما الآن وقد لمس الغرب الحقيقة بيديه ورآها بعيني رأسه سواء في تركيا وإيران أو في الصين وبلاد الأفغان فلم يبق له مناص من الإذعان لصوت الحق تأميناً لمصالحه ودرءاً للأخطار التي

تهدده وقد تناول برنامج المؤتمر المنعقد الآن في بروكسل هذا الموضوع فقسم الشعوب الشرقية إلى ثلاثة أقسام وهي :

(١) الشعوب التي هي جديرة بالاستقلال التام ويجب أن تتمتع به في الحال ، وبينها : الصين ومصر وسورية والعراق .

(٢) الشعوب التي تصير كفؤاً لإدارة شؤونها بنفسها بعد تمرن قصير ، وهذه الشعوب يجب أن تساعدها الدول على ذلك وفاقاً للقواعد التي سيقررها المؤتمر الاشتراكي بحيث تصبح بعد مدة قليلة أهلاً للتمتع باستقلالها التام .

(٣) الشعوب التي لا ينتظر أن تبلغ قريباً إلى درجة تؤهلها لإدارة شؤونها بنفسها كبعض الشعوب الأفريقية وسينظر المؤتمر في شأنها ويقرر التدابير التي يراها ضرورية لصيانتها من عبث الدول الاستعمارية ومن سوء استعمال سلطتها وقوتها .

وقد وافقت اللجنة التحضيرية للمؤتمر الاشتراكي الأممي التي عقدت في بروكسل في شهر يونيو الماضي على قبول مندوبي هذه الشعوب في المؤتمر ضيوفاً وخبراء للوقوف على آرائهم في شؤون بلادهم وسماع مطالبهم ونيل موافقتهم على القرارات التي تتخذ ويكون لها صلة بشعوبهم . وسيعهد في تنفيذ هذه القرارات إلى الأحزاب الاشتراكية في مختلف البلدان . فالبلاد التي يسيطر الاشتراكيون على حكومتها تدعى إلى تنفيذ مقررات المؤتمر في الحال . أما البلاد التي يكون فيها الاشتراكيون في جانب المعارضة فيجب استعمال جميع الطرق للتأثير في حكومتها وحملها على تنفيذ هذه القرارات في أقرب وقت ممكن بالتعاون مع جمعية الأمم ومع جميع الأحزاب الاشتراكية في العالم . وهكذا تقف الاشتراكية الدولية موقفاً صريحاً بإزاء الاستعمار أساسه المنطق والعدل فتكافحه في البلاد التي تعدّها جديرة بالاستقلال التام ، وتحاول تقييده في البلاد التي لم تبلغ درجة من الرشد السياسي تؤهلها إلى هذا الاستقلال ، وتحاول إصلاح وتخفيف أضراره في البلدان التي لا تزال متأخرة في مضمار الحضارة والعرفان . وهذه خطوة واسعة تخطوها الاشتراكية الدولية الآن في سبيل سلم البشر وراحتهم وطمأنينتهم . وقد راعت فيها المنطق كما راعت مصالح الشعوب الحاكمة والمحكومة فلم تلجأ إلى التطرف في مطالبها شأن بعض الأحزاب المتطرفة ، ولم تقل بقول الرجعيين والرأسماليين الذين يجدون باستعباد الشعوب لذة تنسيهم الأخطار التي تهددهم من جراء هذا الاستعباد ، بل تقدمت بمطالب معقولة يقرها جميع الأحرار وأنصار الحق والعدل من كل حزب وفي كل بلاد . فعسى أن تكون هذه الخطوة مقدمة لتسوية العلاقات بين الشرق والغرب على أساس ثابت وطيد الأركان وأن تتلوها خطوات أخرى من جانب الحكومات المختلفة تؤدي إلى تعزيز السلم وتكون فاتحة عصر جديد يسوده الأمن والرخاء في ظل العدل المنظم . اهـ .

هذا ما وصل إليه الاشتراكيون أثناء طبع هذا التفسير ، ولا يدري إلا الله ماذا يفعل الإنسان الذي سماه الله ﴿ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب : ٧٢] وقال في حقه : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس : ١٧] .

ومن عجب أن كلام الاشتراكيين المذكور هنا في الأمم المتوحشة قد اقترب بعض الاقتراب مما ذكرته في ذلك الكتاب ، فإني رأيت أن المتوحشين كما أشرت إليه في أول سورة « طه » يستحيل عليهم

رقيهم إلا بأقرب الأمم إليهم، فأهل مصر وأهل السودان المصري هم الذين يكونون سبباً في رقي أقرب البلاد إليهم من أهل أفريقيا وهكذا.

وقصارى الأمر وحماداه أن هذا العالم جميل تام ولكن أهل الأرض من العوالم المتأخرة فهم أقرب إلى النقص لا إلى الكمال، ولكني أرجو أن تكون الحركة الجديدة في العالم مبشرة بالاتحاد كما يشتمّ من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[الأنبياء: ٩٢].

زيادة إيضاح لهذا المقام

يقول الله: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٩٢]، ويقول في «آل عمران» على لسان عيسى ابن مريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾[الآية: ٥١] ويقول المفسرون هناك: إن هذه الجملة قد جمعت كل دين في الأرض، لأن الدين إنّما هو علم وعمل، والعلم يرجع إلى: ﴿ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ والعمل يرجع إلى العبادة في قوله: ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾، وهذا تقدم هناك ولكن هنا جاء بالجملة موجزة لا على لسان عيسى ولا على لسان غيره، بل أرسلها الله من تلقاء نفسه لأن المقام هناك في عيسى فجاء القول على لسانه، أما المقام هنا فهو في الأنبياء المذكورين هنا، فلذلك خاطب الله الأمم كلها بنفسه.

يخاطب الله الأمم كلها جيلاً بعد جيل. يخاطب الله أهل آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا والأوقيانوسية وسكان الجزائر في البحار بقول موجز. بخطابهم جميعاً بهذه الجملة الموجزة، والموجز دائماً كلام الملوك فما بالك بملك الملوك. بخلاف هذه الجملة نفسها على لسان عيسى فهي ليست في إيجاز هذه الجملة لأنها على لسان عبد من عباده وهو عيسى.

يقول الله هنا: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ ﴾[الأنبياء: ٩٢] أي: أنا المربي لكم والتربية ظاهرة في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢]، وليست تعرف هذه الجملة إلا بما عرف به القسم الأول من «الفاتحة» فاقرأه هناك. لعمري كيف يعقل الناس تربية الله للعالمين ورحمته لهم من غير دراسة العوالم العلوية السفلية وملاحظة التربية على وجه أخص في عوالم النبات والحيوان كما تقدم في سورة «الفاتحة» وفي سورة أخرى لا سيما ما تقدم قريباً في سورة «طه» عند قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[الآية: ٥٠]، فإنه تقدم هنا ما ظهر من الفرق بين جنين السمك وجنين المرأة وجنين الدجاجة وجنين دود القز وجنين حشرة أبي دقيق، وكيف رأينا من هذه الأجنة غزّالاً نساجاً ومغتذياً بالدم أو بمادة زلالية أو غير زلالية حفظت له كما في الحيوانات اللبونية والدجاج والسمك ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[يوسف: ١٠٠]. هكذا لا بد من معرفة عوالم السماوات وكيف ربيت في عصور قديمة، وما تراه في سور كثيرة كـ«يونس» و«الأنعام».

وهكذا ترى بعض الحيوانات والحشرات في سورة «النحل» وفي «هود» وفي «مريم» وغيرها. كل هذا لا بد منه لمعرفة قوله تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ ﴾[الأنبياء: ٩٢]، وقوله: ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٩٢]، راجع للقسم الثاني من «الفاتحة» من أننا نعبده ونستعين به ونطلب منه الهداية للصراط المستقيم صراط المنعم عليهم. فإذا كان الله بهذه الصفات من التربية والرحمة فعلى هذا النوع الإنساني أن يعاون بعضه بعضاً في تربية المجموع. وهذا النوع الإنساني لم يظهر منه الإخلاص العام والصدق في المنفعة العمومية لسائر الناس.

نعى الله على الناس تقاطعهم. يقول: أنا ربيتكم ورحمتكم، أضأت شمسي وقمري لأنير عليكم، وخلقت بحاراً وأنهاراً وجبالاً ومزارع ودواب. كل ذلك لتربيتكم ولكنكم أنتم أيها الناس تجهلون قدري ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾[الأنعام: ٩١]، ولو كنتم تعلمون قدري لكان بعضكم لبعض في الشرق والغرب ظهيراً. لذلك كان علي أن أقول: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[البقرة: ١٩٠].

إن هذا النوع الإنساني لن يكون قائماً بأمري إلا إذا تعاون جميع الناس في الأرض شرقاً وغرباً وعلى المسلمين حاملي هذا الكتاب أن يكون أول الأمم قوة وبأساً ثم هم الذين يقومون ببث فكرة التعاون العام بين الأمم. فإن لم تقم الناس ببحث الربوبية حقت عليهم كلمتنا وهي ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾[الأنبياء: ٩٣]، وهؤلاء يرجعون إلينا غير كامل أكثرهم بل هم جاهلون غافلون. انتهى يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩٢٨م.

خاتمة الأمم. قيام الساعة

ولما كانت أمة الإسلام وغيرها خاتمتها قيام الساعة وخراب الأرض أردفه بقوله ﴿ وَحَرَٰمٌ ﴾ وواجب ﴿ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ صفة لـ« قرية » ﴿ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي: واجب على كل أمة أهلكناها عدم رجوعهم إلى الحياة، أو ممنوع على قرية أهلكناها أنهم يرجعون بزيادة « لا ». وكلا المعنيين مقبول لأن حراماً جاء بمعنى الواجب، واستعمال الشيء في ضده مجاز مقبول في كلام العرب. قالت الخنساء:

وإن حراماً لا أرى الدهر باكياً على شجوة إلا بكيت على عمرو

فحرام بمعنى واجب في البيت وزيادة لا كثيرة في القرآن وغيره، وكلاهما يفيد أن من هلكوا لا يجرعون إلى الدنيا قطعاً.

ثم بين نهاية الوقت الذي فيه يمتنع الرجوع للحياة فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ أي: يستمر الامتناع من الرجوع أو وجوب عدم الرجوع إلى ظهور أمارات الساعة وقيامها، وحتى هذه هي التي تحكى بعدها الجمل، وقوله: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ ﴾ نشر من الأرض أو « جدث » في قراءة أخرى، أي: قبر ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ يسرعون النزول من الآكام والتلال. يقول الله: لا تزال حياة الناس الذين ماتوا وهلكوا ممتنعة فلا يرجعون حتى تقوم الساعة وتظهر أماراتها والناس من كل حدب ينسلون. ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ وهو القيامة ﴿ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ و« الفاء » و« إذا » التي للمفاجأة تظاهرتا على ربط الجواب بالشرط، والجواب قوله: ﴿ هِيَ شَٰخِصَةٌ ﴾ الخ وهي ضمير القصة. المعنى أن الناس لا يرجعون للحياة حتى تزلزل الأرض زلزالها وتختلط الأمم ويختلّ نظام الأرض فتموج الأمم بعضها في بعض بتفرق أجزائها، لا فرق بين يأجوج ومأجوج وغيرهما.

فإذن ذكر يأجوج ومأجوج رمز لاختلال الأرض وخرابها كأنه قيل إذا اختلطت الناس وماجت لخراب الأرض. ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ هناك تشخص أبصار الذين كفروا إذ يقومون من قبورهم، أي: ترتفع أجفانها فلا تكاد تطرف من هول ما هم فيه يقولون: ﴿ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾

لم نعلم أنه حق ﴿ بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ لأنفسنا بالإخلال بالنظر وعدم الاعتداد بالنذر. فالقصد من فتح يأجوج الرمز لخراب الأرض، وقد قدمنا في سورة «الكهف» من هم يأجوج ومأجوج وأين مساكنهم. وعليه يكون القصد هنا اختلال حال الأرض وخرابها كما كان يختل بهم نظام الأمم حين يخرجون عليها كما تقدم في سورة «الكهف»، وهناك مقال واسع مستوفى فلا نعيده هنا.

خطاب الله للكفار وتذكيرهم بما يكون يوم القيامة

قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ من الأصنام وإبليس وأعوانه الذين أطاعوهم ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ حطبها، وقرئ «حطب» ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ داخلون فيها. فقال ابن الزبعرى: أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك، فنزل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾[الأنبياء: ١٠١] الآية. ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ لأن الذي يعذب لا يكون إلهاً ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا خلاص لهم ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ أنين وتنفس شديد ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ من الهول وشدة العذاب أو لا يسمعون ما يسرهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ الخصلة الحسنى وهي السعادة والتوفيق والبشرى بالجنة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ لأنهم يرفعون إلى أعلى عليين والذين سبقت لهم الحسنة أعم من المسيح وعزير وغيرهما من المؤمنين ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ صوتها وحركة لهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة ﴿ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ ﴾ من النعيم الكرامة ﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ مقيمون ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ النفخة الأخيرة ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ تستقبلهم على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون: ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا. يقول الله: وتتلقاهم الملائكة ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ ﴾ طياً ﴿ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ ﴾ أي: الطومار وهي ما يكتب فيه الكاتب ﴿ لِلْكُتُبِ ﴾ أي: للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه. يقول الله: يوم نطوي السماء فنجعلها ممحوّة الرسوم ذاهبة الأثر مكوّرة النجوم بحيث نرتق فتقها. فكما فتقنا الأرض منها نرتقهما ونجعل العالم المشاهد محولاً مغيراً، ثم ندخل تلك الآثار في حال جديدة فنخلق أرضاً جديدة وكواكب أخرى بعد حين وهكذا نخلقكم كذلك للحشر كي تحاسبوا فنحن نرجع الناس للحياة ونغير طراز هذه الدنيا فنجعلها عالماً جديداً غير هذا، كما نحشركم في حال أخرى غير هذه الحال، وهذا قوله: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ فكما خلقناه أولاً نعيده، فنعيد الناس ونعيد هذه العوالم في حال أخرى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾[إبراهيم: ٤٨] راجع للثاني ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[إبراهيم: ٤٨] راجع للأول. فتعجب كيف تطابق القرآن في الموضعين وكانت تلك الآية تفسيراً لهذه ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَآ ﴾ مصدر مؤكد لما قبله ﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ ذلك لا محالة. هذه هي قصة الإنسان في حشره وقصة عالمنا يوم حشرنا.

لطيفة

من العجائب أن الله في أواخر هذه السورة يذكر لنا أن السماوات والأرض يعيدها كما بدأها وفي أول السورة أرانا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقهما. ومن أبدع ما يراه العلم الحديث أن علماء العصر الحاضر يقولون: الدليل على أن الأرض كانت كرة واحدة مع الشمس وأن الأرض

وجميع السيارات قد فصلت من الشمس، إنهم يرون بالآلات الفلكية والمناظير المقربة أن هناك ستين ألف كوكب تتكون وهي في حالها الفطري الأولى بصورة نارية، فبعضها لا يزال في أول التكوين وبعضها قارب أن يتم نظامه. انظره في كتاب «قراءة الدنيا الواسعة» في علم الجغرافيا باللغة الإنجليزية في أوائل الكتاب. وأيضاً لزحل حلقات حوله مضيئات متأهبات للانفصال منه كما انفصل القمر عن الأرض. وقد تقدم رسمه في سورة «الأنعام».

هذه هي العجائب التي كشفها العلم الحديث فلنفسر بها القرآن ولنقل هذه معجزة أخرى. قد ذكر الله في أوائل السورة أن الشمس كانت مع الأرض فميزهما، وهاهو ذا هنا يقول: سأعيد العالم لحاله الأولى، فيعيد الشمس والكواكب بعد رجوعها للحال الأولى فيجعلها كما هي الآن أيضاً ويجعلنا في حياة جديدة في عالم الآخرة في جنة أو نار، وهذه معجزات عجيبة للقرآن. فانظر كيف ذكر العالم الحيواني والنباتي وغيرهما في سورة «الحجر» كما قدمنا مراراً، وفي سورة «النحل» مرتين إلى أن وصل إلى سورة «الأنبياء»، فذكر منشأ العالم، ثم هاهو ذا يفهمنا كيف يرجعه. إن هذا هو منطوق العلوم التي عرفها الناس. فلتتعجب معي ولتقرأ كل علم وكل صناعة، ومعناه أن الأمة تجدّ في جميع العلوم والصناعات وكل طائفة تقوم بأحدها، والله هو الولي الحميد.

زيادة إيضاح لقوله تعالى: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ أيضاً

ليت شعري لم اختير التعبير بهذا التشبيه. نعم اختير ذلك لما فيه من الإيجاز العجيب المشتمل على معنى كبير. ألم تر إلى ما ذكرته لك من أن السماوات والأرض ترجع إلى حال أخرى لطيفة جداً تدق عن الأبصار وتدخل في معمل الطبيعة حتى تكون مغمورة فيها تائهة بين أجزائها في وسط العالم اللطيف الذي يسمى الأثير وهو مادة ألطف من النور، وجميع العوالم مغمورة في بحرها اللجيّ. فإذا رجعت هذه العوالم لذلك العالم طويت صورها وخفيت رسومها ولم يظهر ما نرى من جمال وكمال وعمل وصور وعجائب، بل يكون كامناً فيها كمون النار في الأحجار والكهرباء في المواد المحسوسة.

فانظر كيف تحمل عناصر الأرض والشمس والكواكب صوراً كامنة فيها. وكيف يكون استعدادها منطوياً على صورة متتالية أدواراً وأدواراً وأجيالاً وأجيالاً ودهوراً ودهوراً. كل ذلك قد اختفى وانطوى في تلك المادة المنحلة من عالمنا المغمورة في الأثير المعدة للظهور كرة أخرى. أتدري أين تلك المعاني كلها، كلها قد جمعت وطويت تحت قوله: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ أو للكتاب على القراءتين، أي: كما ينطوي الطومار أو القرطاس على المعاني فتعجب. أليست الطبيعة كتاباً؟ أليست الصور فيها مكتوباً يكتب للناس فيقرؤونه. أوليس طيها بعد نشرها إخفاء لتلك المعاني التي كانت مجسمة فصارت خفية. أليست تلك الصور البديعة المخبوءة في عوالمنا بعد فنائها أشبه بما يكتب في الكتب فيكون حروفاً صغيرة يستخرج منه أعمال وآراء كثيرة. فجلّ العلم وجل الدين وجلّ مبدع الكون.

بمثل هذا تعرف بلاغة القرآن. بمثل هذا فليفهم المسلمون الكتاب الحكيم. ليقرأ المسلمون صحائف السماوات وصحائف الله في الأرض. فالله يقول: إنها ككتاب يطوى في يمينه يوم القيامة. ومقتضى هذا أنه كتاب منشور الآن لأن ما يطويه غداً هو ما ينشره الآن.

إن العوالم التي نسكنها اليوم جميلة، إنها كتاب يدرس. إن الله بهذه الآية يقول لنا ادرسوها واعقلوها.

إن القرآن يقول هنا: كتابكم الآن منشور وغداً يطوى. يقول الله: إن الأرض والسماوات صحائف منشورة هي كتابي فاقرؤوه وافهموه واعرفوا نظامي تعرفوا مقامي. هكذا يقول الله هنا: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾[الصافات: ٦١]، وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون، ولهذا فليقرأ المسلمون. ليقرأ المسلمون كتاب ربهم الذي كتبه بيده ثم يطويه بيمينه. فليقرؤوه وليفهموا ما سيأتي بعد وهو ـ أي الأمم أحق بالملك في الأرض اليوم وبالجنة في الآخرة ـ ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ لقد كتب الله عنده وأثبت في علمه القديم الذي لا سهو معه ولا غفلة ولا نسيان أن جنس الأرض سواء أكانت أرض الدنيا أم أرض الجنة يرثها عباده الصالحون لها.

وإذا كتب الكاتب شيئاً وأثبته وهو ذاكر غير ناس ولا غافل كان ما كتبه لا بد أن يتمه وينفذه فعبر الله عن هذا بأنه كتبه بعد الذكر الذي بسببه لا ينسى المكتوب، أو كتب في الزبور أي: جنس الكتب السماوية المنزلة من بعد اللوح المحفوظ ما تقدم. ثم انظر أيضاً كيف قال الله: إن السماوات والأرض بعد فنائهما يكونان كتاباً مطوياً، أي: كما كانا مطويين يوم كانتا رتقاً وفيهما انطوى هذا العالم، وهاهو ذا يظهر الآن على مقتضى ما طوي في صحائف السماوات والأرض واستعدادهما، ولا يبرز شيء إلا على مقتضى الاستعداد، ومن ذلك أنه كتب في الزبور أن الأرض الخ.

تقسيم الصلاح وكيف يكون

اعلم أن الله عز وجل لا يضع شيئاً في غير موضعه لأنه وزن كل شيء وقدره تقديراً. انظر ألست تراه أسكن الطيور أشجارها والحيات أوكارها والهوامّ ترابها والحشرات أوطانها والحيوانات البرية أقطارها والسمك بحارها والطيارات التي صنعها الإنسان حلقت في جوها. وضع الله كل مخلوق في المكان الذي استعد له، هكذا هنا يقول جلّ جلاله: كتبت في كتابي الأول وأتبعته بكتابي الثاني، كتبت في لوحي المحفوظ وأتبعته بكتابي المنزل، وقلت لكم: لا أعطي القوس إلا باريها، ولا أسكن الدار إلا بانيها، ولا أعطى شناً إلا إلى طبقة، ولا أعشق كثيراً إلا في عزة، ولا أعطي إلا بمقدار ولا أهب إلا على استعداد. فأنا حكيم والحكمة هي التي بها قامت السماوات والأرض. فهل ترون في خلقي من تفاوت. وهل رأيتم في عملي عوجاً؟ انظروا يا عبادي. انظروا. فصلاح كل شيء بحسبه ولا أعطى الشي إلا لما يصلح له. فالصلاح للملك في الأرض بأربعة شروط وهي:

(١) أن يكون القادة في الأمة علماء حكماء مفكرين فهم يكونون أشبه بالعقل في الدماغ بالجسم الإنساني.

(٢) وأن يكون للأمة جيش منظم يقوده ضباطه على شريطة أن يخضع لأولئك العقلاء وهذا أشبه بالقوة الدموية في جسم الإنسان التي يقوم بتصريفها القلب في تجويفي الأذنين وتجويفي البطينين والحركات المنظمة بطريق الآلة الماصة الكابسة أي الجاذبة والدافعة.

(٣) أن يكون الفلاحون والعمال والصناع قائمين بأعمالهم مطيعين للفريقين.

(٤) أن تنظم هذه الطوائف الثلاثة بحيث تقسم جميع أعمال الدولة عليهم والصناعات التي يحتاج إليها العمران الإنساني، فلا يذرون علماً ولا صناعة إلا قسمها أولئك الرؤساء على الشعب. هذا هو الصلاح الذي ذكره الله هنا للملك في الأرض.

اعتراض على المؤلف وجوابه

قال لي قائل لما سمع هذا المعنى: أيها الأستاذ. هل الله قال ذلك؟ فوالله إنك لتقول المعاني من تلقاء نفسك والله ما في الكتاب شيء من هذا. فقلت له: لا تحلف وانظر معي. لم ذكر الله هذه الآية في السورة ثم لم أخرها إلى آخرها. ألم تر أنه ذكر الأنبياء، وقد قسم أعمال الدولة عليهم فمنهم صاحب الدولة، ومنهم صاحب العلم والحكمة، ومنهم من يهدم الأصول الضالة، ومنهم من استبانت عفته واضحة، وقد شرحنا هذا شرحاً وافياً، ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[الأنبياء: ٩٢] فلتجمع جميع هذه الخصال، ثم ذكر أن المسلمين سيقصرون ويأخذ كل فريق بطرف من الدين وذمهم على ذلك، ثم حذر وذكر أمور الآخرة وفناء العالم، ثم أتبعه بهذه الآية فهي ملخص ما تقدم كله، فإن ما تقدم نظام في الدنيا وحشر وبعث في الآخرة فكأنه قيل: أي الناس أحق بهذا الملك وبذاك المجد؟ فقال ما معناه ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١]، فأنا كما أسكنت السمك في البحر والطير في الجور والأنعام والوحوش في القفر أسكنت الأمم المنظمة القوية في أرضي وملكنها ناصية الأمم، فلتكن حافظة للأوضاع النظامية الثلاثة المتقدمة التي ذكرها أفلاطون في جمهوريته، فإني أملكها ناصية الأرض وتكون خليفة لي. وهكذا ليكن كل رب بيت فيها قائماً بنظام أسرته على الوجه الذي ينبغي، وكل فرد من أفراد الأمة حافظاً لأخلاقه وآدابه. والقوة العقلية في الفرد والقوة الغضبية والقوة الشهوية فيه كلها على نظام المجموع، فليذلل المرء القوة الغضبية والشهوية للقوة العاقلة، فإن ذلك هو الذي يجعله كاملاً، وليحفظ نظام الأسرة بضبطها وتنظيم معاشها. الأمة التي على هذه الشريطة هي التي تملك قياد خلقي، وأستخلفها في الأرض، فإذا اختل هذا الصلاح فأنا لست بغافل فلأسلطن عليهم من يتولى أمر أرضي، فإنه لا يرثها إلا الصالحون لعمارتها. هذا هو الكلام على ملك الدنيا.

الصلاح للجنة

أما صلاح الناس لأرض الجنة فذلك راجع إلى لطافة النفس وميلها إلى الأمور العلوية. فكلما كان المرء قانعاً ذاكراً ربه أو صارفاً قواه العقلية والجسدية في خدمة المجموع نظيفاً باطنه وظاهره محافظاً على الأخلاق الجميلة مساعداً لأهله ولمن يقدر على مساعدته في الأمة كان إلى الجنة أقرب. وكلما كان أقرب إلى التقصير في مواهبه فحبسها ولم ينفع بها على مقدار طاقته أو مؤذياً أو كارهاً للناس غير نافع للمجموع انحطت درجته بعد الموت فقلت قيمته فمات بعيداً عن السعادة، هذا نموذج من صلاح الناس للجنة ومن صلاحهم للدنيا.

ولما كان هذا الكلام قد جمع نظام الدارين وأصبحت هذه السورة عروس القرآن وقلبه ومناره وفيها الأنبياء الذين تجلت العلوم ونظام الدولة في قصصهم وازدانت بنظام الدولة وبنظام الأخلاق حتى يصل الناس إلى ربهم في جنته وبها عرف المسلم كيف احتلت أوروبا أكثر بلاد الإسلام. ولماذا

أزال ملك كثير منا، وإن اجتياح أهل أوروبا لأهل أمريكا الأصليين وكذلك أهل استراليا وغير ذلك. كل هذا لتقصير أهل البلاد فانحطت مداركهم فأرسل لهم لأمماً لأنهم لا يصلحون لإدارة بلادهم. وأمة الإسلام لا تصل إلى هذا الدرك، فإن هذا كتابها وقد بينا بعض مقاصده وسيقوم في كل قطر منادون بهذه الآراء وينشطون بعد الخمول ويعظمون بعد الضعة ويصلحون بعد الفساد ويعرفون بعد الجهل ويجتمعون بعد الافتراق. هكذا سيكون إن شاء الله فلا يتطرق إلى هذه الأمم الفناء والدمار واستباحة الدار، ولا بد من رجوع مجدهم كما قررناه مراراً في هذا التفسير. أقول: لما كان الأمر كذلك أعقب الله ما تقدم بقوله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء:١٠٦] أي: إن ما في هذه السورة من نظام الدول وقيام الدولة وحفظ الناس والتسلط على ألطف الأشياء كالهواء وعلى أصلها كالحديد وعلى الجمع بين حرب الأعداء والاستغراق في ذكر الله والشجاعة والإقدام وتسخير العمال في المباني العظيمة واستخراج ما في البحار من الحلي وغير ذلك. يقول الله: إن في ذلك المذكور لبلاغاً، أي: كفاية لقوم جامعين بين العلم والعمل فإن العلم شجر والعمل ثمر.

هذا معنى الآية وهو ترتيب عجيب لم يذكر الله هذه الآية إلا بعد ما أتم الأمر وبين نظام الدول والأعمال، ثم بين من هم الذين يصلحون لعمارة الأرض. ثم أتبعه بما يفيد أن علوم هذه السورة السياسية والنظامية كفاية لمن جمعوا بين العلم والعمل.

فتعجب أيها الذكي والله سائلك عن كتابه وعن أمتك وعن أهل بلدتك فاصدع بما تؤمر في هذا القرآن مع الحكمة وأعرض عن الجاهلين، ولتعلم أن الله سينصرك كما نصر الأنبياء المذكورين فلا تنم عن إبلاغ معاني هذا القرآن. لا تغفل والله يحاسبك على علمك كما يحاسبك على قدرتك الجسمية فإني موقن أن الأمة الإسلامية متى ذاعت هذه الآراء فيها وهي مقصود كتابها قامت كلها قومة رجل واحد إلى نظام أممها ثم قامت بتربية الأمم والأمم اليوم في ضلال. فليكن المسلمون بعد تدبر أمثال هذا والعمل به قادة العالم الإنساني. ولذلك أعقبه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧]، وهذا المقام يحتاج إلى بيان أمرين: الأول هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين فيما مضى مع أنه استل السيف وقتل به كثيراً من الناس؟ الثاني: هل هذا الدين سيكون رحمة في مستقبل الزمان وكيف ذلك؟ لقد كنت كتبت مقالة في هذا الموضوع عنوانها: «كيف كانت حال العالم لو لم يفتحه المسلمون» في مجلة «الموسوعات» صفحة ٢٤٥ وجعلت هذا المقام أربعة مباحث وخاتمة: المبحث الأول: في أشهر الدول التي كانت حين ظهر الإسلام. المبحث الثاني: في ثمرات انتشار الإسلام وفي الدين المسيحي ونحو ذلك. المبحث الثالث: في نتائج الحروب الصليبية. المبحث الرابع: في تقدير عدم وجود الأمة الإسلامية الخاتمة: في حكمة الله في ذلك وفوائده وفي تلخيص ما تقدم.

فأما المبحث الأول فملخصه أن الدولتين اللتين لم يشتهر غيرهما إذ ذاك هما دولة الفرس بآسيا ودولة الرومان بأوروبا. فدولة الفرس كانت آخذت في السقوط. ودولة الرومان كانت منقسمة إلى شرقية وغربية، فالغربية قد أحاط بها الأمم المتوحشة بأوروبا فدمروها تدميراً وكونوا أمماً صغيرة باقية إلى الآن. وأما الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية فكانت مبتدئة في الضعف وزالت بعد الهجرة

بتسع قرون، لأن زوال الأمم على مقدار ضخامتها واتساعها يكون بطوء. فأما المبحث الثاني فقد لخصته في أن الإسلام امتد إلى الجهات الأربع، وأن الخلفاء الراشدين وملوك بني أمية وطدوا الأمن في البلاد التي حكموها، وترجم العلماء في زمن العباسيين كتب الأمم السابقة. وأما الأمم النصرانية فكانت كلها متوحشة إلا دولة الرومان. ثم إن الأمم المجاورة للمسلمين في الأندلس وهم الأسبانيون والفرنسيون كان لهم نوع شعور بالحاجة إلى التعليم. وذكرت في المبحث الثالث أن قراءة العلوم أغذية للأمم وقراءة الدين أدوية، والأمم التي تأخذ بظواهر الدين وقد جهلت أنه يسوقها للعلوم تموت لأنها لا أغذية لها، والأمم التي تغتذي بالعلم ولا ترعى الدين تمرض مرضاً اجتماعياً، والمسلمون أخذوا بالأمرين والأوروبيون اقتصروا على الدين، وأول من تنبه للعلوم فرنسا حين دخل قواد المسلمين أسبانيا ووصلوا فرنسا حتى نهر « الوار » مسيرة ثلاثة أيام من باريس، ومن هذا التاريخ تنبهت فرنسا بين المتوحشين آباء الأوروبيين الحاليين، ولذلك لم يكن المسلمون يعرفون أوروبا إلا باسم الإفرنج أي فرنسا حتى كان « شرلكان » ملكها يود هارون الرشيد.

ولما كانت أوروبا متوحشة إذ ذاك كان القسيسون يعبثون بالأعراض والأموال ويسيطرون على الملوك، وما كانت العروس تجلى لزوجها إلا بعد أن تزف إلى القسيس أولاً، وكان الرؤساء يبيعون الأرض بمن فيها من الرجال والبهائم. ولما رأى القسيسون أن دين الإسلام قد هدد سيطرتهم ونفوذهم قاموا بحركة عظيمة لحرب المسلمين ليتخلصوا من هذا الدين، فكانت الحروب الصليبية هي التي انتهت بفشل رجال الدين وقيام سلطة الأمم والشعوب والحرية الحاضرة، فأصلت الحرب الناس ناراً حامية وقد احترق رؤساء المسيحية بنارها إذ فقدوا سلطتهم، ورجع القوم بنورها فحملوا الكتب من بلاد الشرق واستناروا وأخذوا يحاربون الترك جهة الشرق وأهل الأندلس جهة الغرب، فاقتطفوا بعض ثمار العلوم، فبعثت أوروبا من مرقدها من ذلك الحين حين هاجر إليها علماء الآستانة من الدولة الشرقية ونضجت هذه المدينة في أربعة قرون تقريباً.

الشرقيون

فأما الشرقيون فإن توالي الحروب الصليبية من الغرب وحروب التتر من الشرق أضعف القرائح وأمات العلماء وأضاع الكتب وخرجت أجيال تجهل ما مضى. ولكن انحطاط المسلمين الآن أقل من انحطاط أوروبا في قديم الزمان، فرجوع مجدنا أقرب من رجوع مجدهم. وقلت في المبحث الرابع: إن الأمة العربية كانت واسطة هي ومن معها من الأمم الإسلامية في نقل العلوم بجميع أنواعها ثم تهذيبها. وهناك في المقالة نقلت ما كتبه العالم الكبير « سديو » الفرنسي إذ شهد لهم بتوسيع العلوم واختراع كثير من أنواعها، وأنهم لم يكتفوا بما نقلوه عن اليونان، وأن أوروبا نقلت عنهم وذكرت ما قرأته في الكتاب المذكور المترجم من الفرنسية إلى العربية ترجمة المرحوم أستاذنا علي باشا مبارك صفحة ٢٤٠، ولا أطيل بنقل تلك العبارة وإنما أوجز لك ملخصاً منها وهاهو ذا:

(١) كذب المؤلف علماء الفرنجة وهو نفسه فرنسي كما عرفت في قولهم: إن العرب لا فلسفة لهم، وأثبت أن جميع مدارس أوروبا في القرون المتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفلسفية كترجمة « حنين الطبيب » ويحيى وغيرهما.

(٢) أثبت المؤلف أن العرب زادوا كثيراً على ما نقلوه عن اليونان وكانوا يعرفون كتب « أفلاطون » و« فيثاغورس » و« أوميروس » و« ايراقليط » و« ديموقريط ».

(٣) فضل المؤلف طب العرب واستعمالهم للعقاقير عن طب القدماء بما اخترعوه هم.

(٤) ذكر المؤلف أن المؤلف « يسيل » أنصف العرب وأنهم اشتغلوا بعلم الزلوجيا. وقال أيضاً المؤلف: إن العلامة « دساسي » نقل فصولاً من كتاب القزويني المشهور.

(٥) وقال أيضاً: إن بحث اليونان كان في الأجسام العضوية وهي الحيوان والنبات. ولكن العرب رقوه إلى البحث في القوة الطبيعية والجواهر الأولية.

(٦) وأثبت أيضاً أن ما ادعاه الفرنج من الكشف في القرن الخامس عشر والسادس عشر من الميلاد كان أكثره قد اخترعه العرب من قبلهم، وأثبت ذلك بأدلة كثيرة في صفحة ٢٣٣ وما بعدها.

(٧) ذكر المؤلف كيف دخلت العلوم أوروبا بالتدريج من طريق العرب وأنها لم تدخل العلوم الرياضية بلاد الإنجليز إلا بعد ما ساح سائح إنجليزي من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ في أسبانيا ومصر وترجم كتباً كثيرة.

وقلت في الخاتمة: إن المدنية لو لم يكن الإسلام لبقيت منحطة، فالرؤساء في أوروبا يستعبدون الشعب وأمم أوروبا المتمدينة كانت شديدة الوطأة، حتى إن ملك « رومه » أمر بإحراقها ليتمتع بمشاهدة احتراقها، ثم فتك بالنصارى فتكاً ذريعاً وكانوا ما بين مترفين منعمين وعبيد أذلاء.

ومن هذا نفهم كون نبي الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، إذ الخاتم ما يطبع به على الشيء القابل للطبع ويظهر أثره فيه. وبالنظر في التاريخ والتأمل بالعقل يرى أن هذه الأمة الإسلامية أثرت في الأمم الغربية كما يؤثر الخاتم في الورق، ولذلك ظهرت النتائج في أوروبا كما تقدم وجاء في القرآن أنه رحمة للعالمين ولم يقل للمؤمنين فقط.

واعلم أنه بهذه العلوم المنتشرة في الشرق والغرب الذي كان سببها الوحيد الأمة الإسلامية بتعليمها وحروبها المنبهة للأفكار صارت الكرة الأرضية كبيت واحد يظهر لكل واحد في أقطار الأرض وما عليها من العلوم والمعارف، حتى أصبح كل يأخذ ما تستعد له نفسه من صنعة ورفعة ودين، فتمت حجة الله على خلقه فلم يبق احتياج لرسل يأتون بعده، ولم نسمع في التاريخ أنه حصل مثل ذلك بعد نبي من الأنبياء فلذلك كان خاتم الأنبياء.

ثم اعلم أن شريعة عيسى عليه السلام جاءت بالعلم وموسى بالعمل، وهذه الشريعة جاءت بالأمرين معاً فكان خاتماً طبع به عليهما وبقيا في جدال مع أهل الدين الإسلامي ولقد علمت ما مضى في هذه السورة من علوم الأنبياء وصناعاتهم الخ.

الحاصل

أولاً: أن تقدم أوروبا في الأعصر الأخيرة لحصول اختلاط أهلها بالمسلمين بعد الحروب الصليبية واقتباس الأوروباويين منهم المعارف والفنون.

ثانياً: انحطاط المسلمين نشأ من طول العهد فقست القلوب وكثرت الحروب الصليبية والتتارية والحروب الداخلية، فانحلت قواهم العقلية وتمسكوا ببقية من الدين ليست هي الدين كله.

ثالثاً: لا نسبة بين الشرقيين في حال انحطاطهم والغربيين في إبان جهالتهم، إذ لا يخفى رفعة المسلمين لأن عندهم بقايا من الأصول المرعية.

رابعاً: ينتج من ذلك أنه لو لم يكن الإسلام لكانت الأمم الآن في خمود تام لعدم ما يحرك أفكار الأوروباويين، والحروب التي لأجل الملك وحده لا تكون عمومية فلا تكفي لترقية الأفكار العمومية.

خامساً: أن آثار المدنية الآن في أمريكا واليابان والأقيانوسية وبعض إفريقية وكثير من جهات آسيا أكثرها عن الأوروبيين الذين استمدوا من المسلمين إما مباشرة وإما بالنقل من الناقلين، فلو لم تكن أمة الإسلام لكانت هذه الأمم كلها الآن في خمود تام وجهالة عامة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

هذا ملخص تلك المقالة المذكورة. ويا عجباً كيف كنت أكتبها منذ عشرين سنة وأنا لم أعلم أني يوماً سأكتب في تفسير القرآن. فالحمد لله الذي وفقني لهذا وما كنت لأعلم منه شيئاً ولم يكن ليدور بخلدي أن هذه الآية سأكتب تفسيرها من قبل. واعلم أن الأنبياء السابقين لم تحصل بعد من أحد منهم حركات عمرانية مثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

انظر كيف امتد البريد والبرق وأخذ الناس يتكلمون معاً من بلاد بعيدة وأخذ العقل يفكر، ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو العزيز الحكيم.

واعلم أن مثل المصلحين في الأرض كمثل الماء، وكمثل الهواء، وكمثل الحرارة. فالماء مثلاً به حياة كل شيء ولكن نراه يغرق فيه جماعة في سفينة فيهم الأطفال الرضع والشيوخ الركع والنساء الضعيفات، وهذا محتمل في جانب منفعته. هكذا نبينا صلى الله عليه وسلم قتل في الحروب قوماً توجب الحكمة قتلهم، ومع ذلك بقي أعقابهم جميعاً في الإسلام وعم الخير أمم المسكونة إما مباشرة، وإما بواسطة، فهذا لا ينافي أنه رحمة للعالمين. انتهى الأمر الأول.

الأمر الثاني: هل هذا الدين سيكون رحمة في مستقبل الزمان وكيف ذلك: أقول: من عجب أني كنت كتبت مقالة في مجلة تسمى «نور الإسلام» كانت تصدر بالزقازيق منذ نحو ٢٥ سنة، ذكرت فيها حديث مسلم وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء».

تفسير الحديث فيما كتبته في الجريدة المذكورة ورؤيا منامية

اعلم أني كنت نائماً في ليلة ببندر الجيزة وأنا إذ ذاك مدرس اللغة العربية في المدرسة هناك. وبينما أنا نائم ليلاً إذا قائل يقول لي في المنام مكرراً ما يقوله كرة بعد كرة من العشاء إلى طلوع الفجر وكان قوله هكذا: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً» أتفهم معناه. اعلم أن «غريباً» صفة لمصدر محذوف، أي: بدأ بدءاً غريباً، أي: لا نظير له، وسيعود كما بدأ غريباً لا نظير له في نشأته وانتشاره ونفعه للناس. ثم يقول: هل فهمت؟ فأقول: نعم. ثم أعاد الكرة وصار يعرب ويقول: إن «غريباً» وصف لمصدر محذوف فهو مفعول مطلق الخ. ثم يقول: هل فهمت؟ فأقول: نعم. ولا زال طول الليل يقول لي: هل فهمت أن الإسلام سيعود غريباً كما بدأ، أن يكون غريب الأطوار عجيب

النشأة والانتشار والإسراع في إعلاء نظام الإنسان والعدل وما أشبه ذلك، وما زال كذلك حتى طلع الفجر. فلما استيقظت صرت أعجب من نفسي وأقول: لعل هذا أضغاث أحلام لأنه كان يقوم بتفهيم في الإعراب كما أفهم التلاميذ المفعول المطلق في النحو، وهذا أشبه بمثال من تلك الأمثلة. ثم إني مع كثرة ترددي في الأحلام لا سيما أنك تعلم ما تقدم في سورة «يوسف» من أن الأحلام يكاد لا يصدق فيها إلا النادر الذي هو كالكبريت الأحمر، ومع هذا كله رأيت في وجداني معاني تختلج وفكراً يختمر ولم أجد سبيلاً أحفظ به هذه الفكرة خيفة ضياعها؛ إلا أن أنشرها في مجلة «نور الإسلام» بصفة أن هذا المعنى من عندي فلا رؤيا ولا أحلام.

ولما نشرت رد عليها بعض الناس وانتهى الأمر. ثم إن أحد الفضلاء كتب في جريدة الأهرام هذا المعنى وذلك أثناء طبع هذه السورة، وقال: لعلي قرأته من قول فلان أو فلان، وعد نحو خمسة في عصرنا، فحمدت الله عز وجل إذ أصبحت هذه الفكرة معلومة، ثم نشرت بين الناس ليعرفوها، فلما جاء تفسير الآية وأنا سائر في التفسير تبدى لي أن أكتبها معلناً ذلك لأن الله ألهم بعض الناس فنشرها في الجرائد فلم أجد بداً من ذكرها هنا وتبيان مصدرها ومن أين أقبلت إلى نفسي حتى نشرتها في مجلة «نور الإسلام» منذ أمد بعيد.

واعلم أن أمة الإسلام أيام تلك الرؤيا والنشر - أعني منذ نحو ٢٦ سنة - لم تكن فيها أمة مستقلة إلا الترك، وكانت قد أشرفت على الموت. أما الآن فإن الأفغان استقلت، والترك خلقت من جديد، والفرس كذلك، وهكذا مصر تجاهد للاستقلال، ومثلها مراكش، وهكذا أهل الهند يجدّون للخلاص من ذل الاستعمار.

هذا هو الذي تم في العالم الإسلامي منذ الرؤيا إلى الآن. ولتعلم أيها الذكي أن هذا المقام ليس مقام الرؤى بل هو مقام الحكمة والعلم والعقل. واعلم أن الله قد حكم أن يجعل الرفع بعد الخفض والحياة بعد الموت وكل ضد بعده ضده، والمسلمون كانوا في ارتفاع ثم ناموا ثم هم الآن قد وصلوا إلى أدنى درجات الانحطاط فماذا بعد المرض إلا الصحة. وهل بعد الموت إلا الحياة. وهل بعد الضعف إلا القوة. إن الله يجعل الضد بعد ضده، وإذا صحت هذه القاعدة طبعاً فلنطبقها على المسلمين ولنقل إن هذا الزمان هو زمان ارتقائهم.

إني والله بشرت بأكثر من هذا في المنام ولكن لا سبيل لذكره الآن فلست أعول إلا على العمل والفكر، وهذه الرؤى لما كان يداخل الإنسان الشك في صحتها وأنها ربما كانت حديث نفس. كنت لا أعول إلا على الوجدان، ولعل الوجدان انبعث منها أو هي من الوجدان أو هما متلازمان.

أقول: فأنا الآن أعمل على هذا الأمل، وهذا الأمل ألفيته ملازماً لي منذ الصبا، ولا فرق في اعتقادي ووجداني بنجاح الأمة الإسلامية بين زمن الشباب وزمن الشيخوخة، بل إني أجد الوجدان الآن في قلبي أشد منه في كل وقت، فأنا أكتب وأنا واثق أن الأمم الإسلامية سيظهر فيها مفكرون وعلماء محققون وقضاة أرقى ممن سبقهم بعد العصر الأول، ودول وممالك أهم وأعم، وأنهم يكونون شهوداً على الأمم يقضون بينهم بالحق ويعدلون بالصدق ويكونون خلفاء الله في الأرض، وإذن يكونون رحمة للعالمين.

إن المسلمين لن يكونوا رحمة للعالمين رحمة تامة إلا إذا قرؤوا كل علم وكل صناعة وأتقنوا فروع النظم العامة في الكون، فإذن يصبحون قادة الشعوب قيادة رحمة ممزوجة بالحزم ويكونون هم أنفسهم جمعية الأمم القاضية بالعدل، فالناس كلهم عيال الله وأفضلهم من قام بشأن هذه العيال.

امتياز أمة الإسلام

ثم إن أمة الإسلام تمتاز بأن العلوم والصناعات إذا قرأتها وعملت بها يكون كل ذلك باعتبار أنه أوامر دينية. فمتى دخل المسلمون في هذا الطور وأن كل علم وكل صناعة وكل زراعة وكل تجارة وكل معدن وكل حكومة وهكذا كل ذلك من أعمال الدين. وأن سكة الحديد والتلغراف والكهرباء وعمل الآلات الحربية كل ذلك وغيره عبادات دينية، والقائم بها قائم بعبادة شرعية، وأن ذلك وإن لم يكن كالصلاة في فضلها فإن له فضلاً آخر أشبه بفضل الجهاد. فإذا عرف المسلم ذلك ولقنه في صغره وأن القائم في كهربائيته والمجري لقطاره والصانع في صنعته والزارع في مزرعته والتاجر في تجارته، هؤلاء متى كانوا مجدين صالحين يكونون في عبادة ورضاء الله، ولكن أفضلهم أعمهم نفعاً. إذا عرف ذلك المسلم فإن الأمة تكون في طور لم تحلم به من قبل ولم تحلم به أمة في الأرض، ذلك لأن أرباب الأديان الأخرى غالباً لا يعملون هذه الأعمال باعتبار أن الدين يأمر بها، كلا بل يقولون إنها أعمال دنيوية. أما في الإسلام على مقتضى هذا النمط القرآني فإن العلوم كلها عبادات، وهكذا الصناعات. وأن العلوم الطبيعية هي العلوم التي يوصل الفكر فيها لله ويقرب العبد من ربه. ذلك هو المثل الأعلى في الإسلام. وإني أرى أن نشر هذا التفسير وأمثاله من كتب الفضلاء من الأمم الإسلامية سيجعل في الإسلام أمة لم يحلم الدهر بها. ألا ترى كيف جمعت هذه السورة من قصص الأنبياء ما جمع كل فضائل الدين والعبادة. ألم تر كيف رأيت داود وسليمان إذ يحكمان في الحرث أن القضاء اتبع فيه ما هو أصلح للمتقاضيين وإن كان الحكمان اعتبر فيهما المماثلة ولكن الرفق بهما كان في الثاني أكثر وهو حكم سليمان عليه السلام. فالقضاء أشبه بالطب فقوم يداوون بالماء الحار والاستحمام به. وقوم يداوون بالحرارة الشمسية. وقوم بالهواء وقوم بتعاطي الدواء. وقوم بالحمية، ويكون ذلك كله لمرض واحد. ولكن الطبيب الحاذق من يراعي حالة المريض، وأيّ هذه أوفق له بحيث لا يعود الدوار على المريض بالضرر. هكذا القضاء فيجب أن يكون القاضي مجتهداً أي عالماً بالمذاهب الإسلامية والخلاف فيها، ثم يحكم بأقربها لحل المتخاصمين ولزمانهم، ولا يجمد على قول واحد أو مذهب واحد كما لم يجمد داود على الرأي الأول وهو نبي، فكيف بمن ليس بنبي؟.

لعمري إن الله ما أنزل هذا إلا لتعليمنا كيف نسير في القضاء، ولا أنزل ما بعده إلا ليعلمنا كيف نقوم بعمارة المدن ونفهم العلوم ونصبر ونشكر ونعف عن الحرام إلى آخر ما ذكرناه فيما تقدم والله هو الولي الحميد.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «فطوبى للغرباء» معناه أن هؤلاء الغرباء الذين بدأ بهم الإسلام غريباً غرابة لم يعهد لها نظير سواء أكان في بدئه الأول أو في نشأته الأخرى في هذه الأيام طوبى لهم، فلهم في الدنيا الرفعة والسؤدد، ولهم في الآخرة النعيم، لأنهم رحمة للعالمين. قاموا مقام نبيهم صلى الله عليه وسلم ورحموا العالم الإنساني، لأن الراحمين يرحمهم الرحمن وسيزفون إلى

نفوسهم ثم إلى العالم كله أبكار العلوم والمعارف، ويصيحون صيحة أخرى أوسع من الصيحة الأولى يدوي صداها في الخافقين. هذا آخر المقال في تفسير قوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ أعرضوا عن التوحيد ﴿ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ ﴾ أعلمتكم ما أمرت به ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ ﴾ مستوين أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به ﴿ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ ﴾ أي: وما أدري ﴿ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ من غلبة المسلمين عليكم والحشر ومع ذلك فهما كائنان لا محالة ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ ومنه ما تجهرون به من الطعن في الإسلام ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴾ ومنه إحنكم وضغائنكم على المسلمين فيجازيكم عليها ﴿ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ ﴾ أي: وما أدري لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة في افتتانكم وامتحانكم لينظر كيف تعملون ﴿ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ أي: تتمتعون إلى انقضاء آجالكم ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ ﴾ وفي قراءة «قل رب»، والأولى على حكاية قول الرسول صلى الله عليه وسلم، أي: رب اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل أي بما يظهر العدل للجميع، وذلك لا يكون إلا بنصري عليهم وهذا استعجال للعذاب فعذبوا يوم بدر ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ من الشرك والكفر والكذب والأباطيل والسخرية. إن الله أمره أن يدعو الله بأن يحكم بما يظهر الحق للجميع، وأمره أن يتوعد الكفار بقوله: ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ ﴾ الخ، أي: نستعين به الخ. تم تفسير سورة «الأنبياء» اللفظي ليلة السبت ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٤ و٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣.

وقد سنحت هذه السانحة عند الطبع وهي:

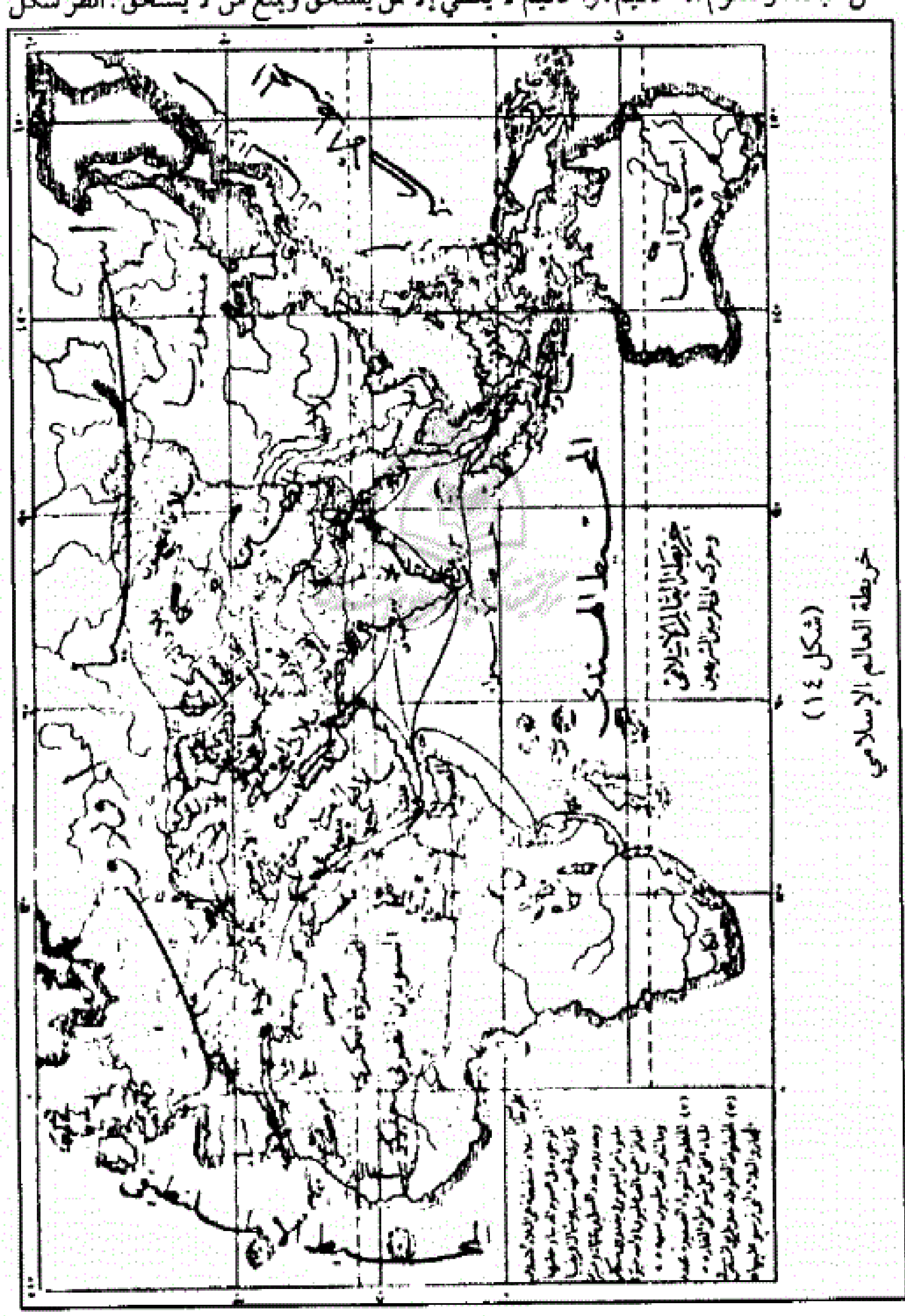
جوهرة في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

أكتب هذا هذه الليلة السبت ١٢ من شهر مايو سنة ١٩٢٧ قبيل الفجر، وأمامي هذه الخريطة التي رسمها صديقي لبيب بك البتنوني في كتابه «الرحلة الحجازية» مبيناً فيها بلاد الإسلام في وقتنا الحاضر، تلك البلاد المترامية الأطراف، فقلت في نفسي: هذه بلاد الإسلام.

فيا ليت شعري أين مكان هذه الأمة من هذه الآيات؟. يقول الله: إن الأرض يرثها الصالحون من عباده، وهذه الأرض هي التي كان فيها الأنبياء المذكورون في القرآن في هذه السورة وفي غيرها، فهمّ إبراهيم الذي كان في بابل وهاجر إلى الشام وسافر يوماً ما إلى مكة، وداود بالشام أيضاً ومثله سليمان، وأما يوسف فقد كان بمصر وموسى وهارون كذلك بمصر وبالشام، وهكذا زكريا بالشام، ومثله يحيى وعيسى والياس وإسماعيل بالحجاز، وأما يونس فكان في نينوى، ولوط بالشام، ونوح بناحية الجزيرة، وإدريس نبي المصريين القدماء، فهؤلاء هم الأنبياء وهذه هي بلادهم، وما هي إلا بعض هذه الخريطة التي يملكها المسلمون. إذن المسلمون ورثوا الأرض التي كان فيها الأنبياء المذكورون في هذه السورة وفي غيرها، أي أن الله ذكر كثيراً من الأنبياء في هذه السورة، ثم أعقبها بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾[الأنبياء: ٩٢]، ثم قال أخيراً: إنه لا يرث أرضي إلا عبادي

الصالحون . ثم نظرنا فلم نجد أحد ورث أرض هؤلاء الأنبياء إلا المسلمين الذين تراهم في هذه الخريطة . هذا هو الذي أراه الآن أمامي وتراه أنت أيها الذكي . ولكن ننظر نظرة أخرى هل المسلمون الحاليون قاموا بإصلاح هذه الأرض وهل هم يستحقون هذا الميراث حتى يدوموا في هذه الديار التي ورثوها . يقول الله : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[آل عمران : ١٨٠] ، ويقول في آية أخرى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الأعراف : ١٢٨] فالميراث لله ، وهو يعطيه لمن يشاء من عباده . ومعلوم أنه حكيم ، والحكيم لا يعطي إلا لمن يستحق ويمنع من لا يستحق . انظر شكل ١٤ .



(شكل ١٤)
خريطة العالم الإسلامي

فلننظر في هذه الخريطة ونعرضها على هذه الآيات، نرى الله يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، وأعقبه بذكر أنه إله واحد. فالنبي صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة وأرسل للتوحيد، فأمته أمة موحدة، والتوحيد يكون تمامه وكماله الاتحاد في الأعمال وفي النظام العام وقد تم هذا فعلاً، فقد كانت هذه البلاد التي أمامك في الخريطة في بعض العصور الأولى تحت نظام واحد، فقد كانت تمتد من مراكش بل من الأندلس وتنتهي إلى بلاد الهند وذلك نحو ثمانين درجة في الطول فتأمله. حقيقة هذه هي الرحمة. أمم مختلفة اللغات والأحوال تجتمع تحت قيادة واحدة وتصلي لقبلة واحدة. هذا هو التوحيد وهذا هو النظام.

ولكن انظر ماذا جرى، قام أهل الدين بعضهم على بعض فغلب العباسيون الأمويين على الملك فتمزق الشمل وأخذت الأطراف تنفصل من الأصل وهكذا، واستمر ذلك إلى اليوم، ثم نسي المسلمون أنهم أمة واحدة وتمزقوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض. فماذا جرى؟ جاءت الحرب الصليبية أيام صلاح الدين الأيوبي فما كان للمسلمين إذ ذاك جامعة قوية، بل كان ملوك المغرب الأقصى غير مبالين بما جرى لإخوانهم في الشام ومصر مع أن اللغة واحدة والدين واحد والقبائل أكثرها عربية، ثم ننظر في أمر هذه الأمم في أيامنا هذه، هاأنا ذا في مصر وجدت فيها ونظرت في أمر أمم الإسلام. فماذا وجدت؟ ألفيت أبناء مراكش وأبناء الجزائر وأبناء تونس وأبناء طرابلس وأبناء مصر وأبناء الشام وأبناء اليمن وأبناء نجد وأبناء الحجاز وأبناء البحرين وأبناء العراق وأهل السودان المصري، وجدت كل هؤلاء لهم دين واحد ولغة واحدة وبلاد متصلة، ولكن وجدتهم لا يعرف بعضهم بعضاً. تقوم الحرب في مراكش أو في مصر أو في الجزائر فلا يهتم مسلم عربي بما حل بأخيه المسلم العربي من شؤم وذل مع اتحادهم لغة ودينا وأصلاً وتجاورهم دياراً، فهم متحدون في أربع خصال ولكنهم يجهلون ما به تواصلهم وهم متخاذلون. وإذا كان هذا في أبناء العرب وحدهم فكيف يكون الأمر فيهم مع غيرهم من أمم الفرس والترك وأهل جاوة وسومطرة تلك الأمم الإسلامية البعيدة الأقطار. ثم إني نظرت في الأمم كلها فرأيت أمم الصين واليابان والأسبان والفرنسيين وهكذا متحدين، أي أن الناطقين بلسان واحد وهم من أصل واحد قد جعلوا لهم مملكة واحدة، فعجبت كل العجب لأمم الإسلام عموماً ولأمم العرب خصوصاً.

وقد جاءت الأخبار يوم الجمعة ١١ مايو سنة ١٩٢٨ بما حصل في بلاد الصين. تلك البلاد المترامية الأطراف البعيدة الأكناف التي انقسم أهلها فريقين فريق أهل الشمال وفريق أهل الجنوب، وقد تخاصم الحزبان واقتتل الطرفان لإصلاح البلاد. ولما أراد أهل اليابان التدخل في أمرهم وحاربوا أهل الجنوب وقالوا: إننا نحتل أرضاً بين الفريقين ليبطلوا الحرب بينهم، لما قالوا ذلك ما وسع قائد الشمال إلا أن أعلن أنه أبطل الحرب، لأنه إنّما يحارب لحفظ البلاد، وإنّ تدخل اليابان أوجب عليّ أن أصطلح مع أبناء بلادي. ومعنى هذا أن ذلك القائد يريد فعلاً أن ينضم إلى خصمه لأنه لا يريد أن يدخل العدو أرضهم، وهذه مكرمة عظيمة وشرف نفس وهمة عالية، وممّ استفاد هذا سواء أتم ما يقوله أم لم يتم فنحن لا نعلم الغيب. أقول: إن القوم استفادوا هذا من العلم، إن العلم هو الذي يجعل الأمم متحدة.

أعد نظرك في الخريطة مرة أخرى وانظر بلاد الصين التي أرادت أن تتحد اليوم. ألست ترى أن بلادها تمتد نحو ثلاثين درجة أمامك في الخريطة من درجات العرض، أي: من نحو درجة ٢٠ في العرض الشمالي إلى درجة ٥٠. ثم انظر إلى بلاد الإسلام كرة أخرى كيف اتحدت في العصر الأول وفي بعض الثاني، وهي تمتد في درجات الطول نحو سبعين درجة.

يا عجباً كل العجب إن الاتحاد وعموم الرحمة المحمدية ظهر بكماله في القرون الأولى، كيف تكون أمة واحدة تشغل سبعين درجة من الأرض. إذن الإسلام جمع أمماً في أرض أوسع من أرض الصين أكثر من مرتين، أما الآن فماذا جرى؟ تخاذل المسلمون، ذلك والله للجهل، ذلك الجهل الذي خيم على أقطار الإسلام. وأذكرك بما تقدم في هذا التفسير أن أبناء العرب لما طردهم الأسبانيون من الأندلس ورجعوا إلى شمال إفريقيا نبذهم أبناء البربر هناك نبذ النواة وحقروهم أجمعين ولم يقبلوهم إلا بعد أن أخذوا أموالهم، وتقدم أن «سديو» الفرنسي قال: مع أنهم أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد وكانوا أمة واحدة. أقول: وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ظهر الحق أيها المسلمون. أنتم قوم لم تتعلموا والذي أضرّ بنا أننا قوم جاهلون نائمون. ظن كثير من أسلافنا أن المقصود من الخلافة أو الإمارة إنما هو أن يعيش الأمير أو الخليفة عيشة الترف والنعيم والثمرات تجبى إليه، ولم يعلموا أن نفس الترف هو الداعي إلى سقوط الأمم والأسرات في الذل والهوان.

اللهم إني أبرأ إليك من الكتمان. اللهم إني بينت في هذا التفسير داء المسلمين ودواءهم في أكثر سور كتابك. اللهم إنك أنت الملهم المعلم. ولقد بعثت في نفسي شوقاً قلبياً وغراماً وولوعاً بالنظر العام في أمم الإسلام، فهاأنا ذا أدعوهم إلى العلم والحكمة. اللهم إني أخاطب بهذا كل ذكي مطلع فاهم ما أقول. اللهم إني أنذرت وحذرت وأنا تارك هذه الأرض وذاهب إليك. وقد تركت هذه الآراء لأذكياء المسلمين، فأصبح كل من اطلع على هذا القول وفهم ما أقول وأيقن به مسؤولاً عن نشره بين المسلمين عموماً بلسانه وبقلمه وبماله وبأصحابه وبأهل وطنه.

أيها المسلمون. ما فرقكم إلا الجهل وهذه البلاد التي ملكتموها شرقاً وغرباً إذا بقيتم على ما أنتم عليه من الجهل، أو قال كل امرئ منكم: يا رب نفسي نفسي، وترك حبل الأمة على غاربها فاعلموا علماً ليس بالظن أن الله يسترد منكم ميراثه الذي ورثكم إياه. ألم تعلموا أنه هو الذي أدخل فرنسا وأسبانيا في مراكش وفرنسا في الجزائر وتونس وإيطاليا في طرابلس، والإنجليز في مصر، والفرنسيين في الشام، وإنّما أدخلهم في هذه البلاد الإسلامية ليوقظكم أيها المسلمون إلى قراءة التاريخ والعلوم. هنالك تعرفون أن لغتكم ودينكم وأوطانكم وأصلكم واحد، ولكنكم لم تتعلموا. ومن تعلم منكم لم يفكر فكراً عاماً في هذه الأمم، ولم يخجل أبناء العرب أن يروا الصين المترامية الأطراف قد مالت للاتحاد وذلك بالعلم.

اللهم إن كل من قرأ هذا التفسير وهو موقن به مسؤول عن نشر الفكرة فليعلن للمسلمين في أقطار المعمورة أن يعم التعليم الرجال والنساء وأن يكون شاملاً لخلاصة التاريخ والجغرافيا وسائر

العلوم الرياضية والطبيعية والسياسة العامة. وليعلم أهل السنة والشيعة والزيدية والوهابية وغيرهم أن هذا التنابذ والتباعد بين الأمم الإسلامية سببه الحقيقي هو الجهل، الجهل هو الذي أحاط بالمسلمين. وإلا فكيف نسمع ما يخجل في أمم الإسلام إذ يشاع من وقت لآخر أن يقال: إن أصحاب مذهب من المذاهب الإسلامية يكفرون أصحاب المذهب الآخر ويستحلون قتلهم وأخذ مالهم، وهذا حصل فعلاً في أوقات مختلفة جهالة وغروراً، بل إن بعض أبناء العرب أنفسهم يكفر بعضاً آخر لأجل المخالفة في بعض أمور دينية.

واعلم أن اختلاف الأمم العربية في القرون المتأخرة لا يختلف عن اختلافهم أيام جاهليتهم وقد أوضحت هذا في سورة «آل عمران» إيضاحاً تاماً، فالجاهلية من العرب كانوا مختلفين، وهكذا جاهلية المسلمين اليوم فهم مختلفون إما لمذهب اتبعوه أو لرأي أحبوه أو هوى لزموه.

أيها المسلمون، أليس فيكم رجل رشيد؟ أليس فيكم أولو بقية ينهون عن الفساد في هذه الأرض التي ملكتموها؟ اسمعوا يا أبناء العرب خصوصاً ويا أيها المسلمون عموماً. هاهم أولاء الفرنجة يحيطون بكم من كل جانب. وقد ملكوا كثيراً من بلاد أبناء العرب ومن بلاد غيرهم، أنذركم صاعقة العذاب الهون عذاب الخزي في الدنيا، وأنذر كل ذكي عالم موقن بما أقول، إنهم إن لم يجمعوا شملهم ويلموا شعثهم ويعلنوا على رؤوس الأشهاد التعليم العام الذي ذكرته في هذا التفسير كما تعلمت جميع الأمم، فإن الله يغضب غضبة لا تقوم للمسلمين الحاليين قائمة بعدها، ويملك أرضكم ودينكم لمن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. وليس هذا الدين خاصاً بكم فقد أخذ ينشره الله الآن في بلاد أمريكا واليابان والصين، فإذا أنتم لم تسمعوا ما ذكرته لكم وهو الإرشاد للتعليم العام فالعذاب واقع ما له من دافع، أي: عذاب الخزي في الحياة الدنيا بالاختلال ثم الاحتلال، وأشد العذاب يكون واقعاً على أولي العلم والجاه الذين يعقلون هذا ولا ينشرونه بين المسلمين.

هذا، وأختم هذا المقال بأنه لولا أنني قد بشرت من الله بما يفيد قبول دعوتي للمسلمين؛ ولولا أنه هو بعد هذه البشارة وفقني لكتابة هذا؛ ولولا أنه هو الذي وفق أناساً لطبعه ونشره؛ ولولا أنه هو الذي حبب كثيراً من المسلمين في قراءته؛ أقول: لولا أن الله هو الذي فعل ذلك كله ما قدرت على شيء من ذلك. أفلست على حق إذا بشرت دعاة الإصلاح من قراء هذا التفسير بالنجاح والفلاح؟ بلى إنني أبشرهم بالسعادة وبالنجاح والإصلاح والقبول، والحمد لله رب العالمين.

تذكرتان: الأولى: في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾ [الأنبياء: ٩٦] الخ، أذكرك أيها الذكي بما تقدم في سورة «الكهف» فهو هناك مستوفى.

الثانية: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، وبيان أن هذه العبادة هي الواردة في قول المصلي: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهذه الجملة جاءت بعد بيان أن الحمد يختص بالله رب العالمين، وهذا الحمد لا يتم إلا بقراءة علوم هذه الدنيا، ولا يكلف الله نفسنا في هذه العلوم إلا وسعها. اهـ.

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء العاشر من كتاب «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم، ويليه الجزء الحادي عشر، وأوله: تفسير سورة «الحج».



فهرست الجزء العاشر
من تفسير الجواهر